القوى البحرية والتجارية

في حوض البحر المتوسط

تأليف

أرشيبالد . ر . لويس

ترجمة

أحمد محمد عيسى

مراجعة وتقديم

محمد شفيق غربال







القوى البحرية والتجارية

في حوض البحر المتوسط

(٥٠٠ - ١١٠٠م)

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مــــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

القوى البحرية والتجارية

في حوض البحر المتوسط

(٥٠٠ - ١١٠٠م)

تأليف

أرشيبالد. ر. لويس

ترجمة

أحمد محمد عيسى

مراجعة وتقديم

محمد شفيق غربال

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لصاحبها حسن محمد
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

الإهداء

تهدي مؤسسة فرانكلين هذا الكتاب

إلى

أبطال الأسطول العربي الصاعد

في البحر المتوسط

قصة أمجاد ورثناها عن الأجداد

ننشرها، ونكشفها، هاديًا، وحافزًا،

للأبناء والأحفاد.

حسن جلال العروسي

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين



محتويات الكتاب

صفحة



المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

أرشيبالد ر . لويس : ولد بولاية نيويورك عام ١٩١٤ ، وتلقى تعليمه فى جامعات هارڤارد وبرنستون ، وحصل على درجات الليسانس والماجستير والدكتوراه من جامعة برنستون .

عمل فى تدريس التاريخ بجامعة ساوث كارولينا من عـام ١٩٤٠ الى عام ١٩٥١ ، ثم حصل على منحة دراسية على نفقة مؤسسة فولبرايت بجامعة غنت ببلجيكا عامى ١٩٥١/١٩٥٢ . ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل أستاذا للتاريخ بجامعة تكساس فيما عدا سنة واحدة قضاها موفدا من مؤسسة فورد الى الجامعات الأوروبية .

وقد زار لويس كثيرا من الدول الأوروبية وأجرى فيها بحوثا ودرس مواقع كثيرة واطلع على المجموعات التى أشار اليها فى كتابه .

المترجم :

الأستاذ أحمد محمد عيسى : أمين المكتبة العامة لجامعة القاهرة . حصل على ليسانس الآداب « قسم التاريخ » من كلية الآداب بجامعة القـاهرة عام ١٩٤٠ وعلى دبلوم الآثار الاسلامية من معهد الآثار بجامعة القاهرة عام ١٩٤٣ . أوفد من قبل الجامعة لدراسة شئون المكتبات الجامعية بانجلترا عام ١٩٤٩ . قام بأعمال علمية لمتحف الحضارة ولمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، كما اشترك فى الأعمـال العلمية التى قامت بها جامعـة

الاسكندرية بالاشتراك مع المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان فى دير سانت كاترين . ترجم كتب : « الفنون الاسلامية » و « رصيد البنك الكبير » و « التنقيب عن آثار الماضى » وقد نشرتها هذه المؤسسة . يتولى سكرتيرية مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية كما أنه عضو بمجلس ادارتها .

المراجع :

الأستاذ محمد شفيق غربال : من أشهر علماء التاريخ الحديث بين أبناء العروبة . تلقى دراسته بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ثم سافر الى انجلترا فتخصص فى التاريخ الحديث ، وعين بجامعة القاهرة أستاذا لهذه المادة فى كلية الآداب ثم صار عميدا لهذه الكلية ونقل الى مناصب وزارة التربية والتعليم فكان مستشارا فنيا ثم وكيلا للوزارة الى أن اعتزل الخدمة . وهو الآن أستاذ بمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ويقوم بادارته أيضا ، وهو عضو فى عدة هيئات علمية محلية ودولية وله مؤلفات وبحوث نشرت باللغة العربية وباللغة الانجليزية فى مختلف بحوث التاريخ .

وقد كتب سيادته مقدمة قيمة للكتاب .

مصمم الغلاف :

مهندس الديكور محيى أبو ذكرى — خريج كلية الفنون التطبيقية — حاصل على دبلوم المعهد العالى للتربية — مدرس بالمدارس الثانوية .

تقديم

بقلم محمد شفيق غربال

ـ ١ ـ

« القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط فيما بين ٥٠٠ و ١١٠٠ الميلاديتين » موضوع الكتاب الذى وضعه أرشيبالد — ر — لويس ونقله الى العربية أحمد محمد عيسى .

وللكتاب خصائص لم يسبق اليها ولا يشاركه فيها حتى الآن كتاب آخر .

أولى تلك الخصائص : الجمع فى دراسة واحدة بين القوى البحرية والتجارة — وهذا الجمع أكده مؤرخو الأزمنة « الحديثة » ، بل واتخذوا لمعناه شعارا حينما قالوا : « التجارة تتبع العلم » . ولكن الارتباط بين القوة البحرية والتجارة فى الأزمنة القديمة والمتوسطة لم ينبسط القول فيه على النحو الذى فعل لويس فى الكتاب الذى بين أيدى القراء اليوم . وبفعله هذا نبهنا الى ما يجب أن ننتبه اليه : نبهنا الى أن الفروق ، بين ما هو شرعى وما هو غير شرعى فى الحرب البحرية ، لم تكن واضحة الوضوح كله — (وبعد ، فهل وضحت تماما فيما هو أقرب الينا من الأيام) ، كما نبهنا الى أن عنصر السطو ، أو ان فضلت عنصر الغنيمة ، كان عنصرا أساسيا فى تكوين رأس المال ، أو عاملا فعالا فى التنمية الاقتصادية .

ويجمع كتاب لويس بين الحرب والتجارة فى دراسة واحدة ، اختلف كتابه عن الكتب المتداولة فى تاريخ التجـارة كالكتاب المشهور للمؤرخ هيد (Heyd) مثلا .

والخاصية الثانية لكتاب لويس هى ما أصاب من توفيق فى تحديد نقطتى البدء والنهاية لكتابه — ففى ٥٠٠ م كان قد تكون مجتمعان من المجتمعات الثلاثة التى ستتكون من علاقاتها السلمية أو الحربية مادة الكتاب — كان قد تكون فى ٥٠٠ م المجتمع المسيحى الأرثوذكسى بدولته الرومية المتنصرة وبشعوبه اليونانية والصقلبية والشرقية من عربية وغير عربية ، كما كان قد تكون أيضا المجتمع المسيحى الغربى بشعوبه اللاتينية والتيوتونية وبأنظمته الموروثة عن رومية أو عن جماعات المتبربرين الذين وضعوا أيديهم على الولايات الرومانية فى الغرب وبالرياسة الدينية لكرسى رومية التى سيكون لها من الأمر ما سيكون .

ويبدأ لويس فى ٥٠٠ بهذين المجتمعين ويطلعنا على ما كان بينهما قبل أن يشاركهما الحياة فى البحر المتوسط مجتمع ثالث ، هو المجتمع الاسلامى بحيويته العجيبة التى بعثها فى شعوب قديمة وبالنجاح المنقطع النظير الذى أصاب فى بناء الحضارة من عناصر متباينة الأصول متباعدة المواطن .

وقد أخذ هذا المجتمع الجديد سبيل التكون منـذ منتصف القرن السابع ؛ وباشتراكه فى أحداث البحر المتوسط تم للمؤلف لويس جمع أشخاص قصة القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط — هذا ان كان لنا أن نستعير من لغة المسرح .

وتتبع المؤلف ما كان بينها الى أوائل القرن الثانى عشر — عندما تبدلت الأوضاع تبدلا تاما ، وعندما تغيرت « الأدوار » تغيرا تاما — ان كان لنا أن نستمر فيما استعرناه من اصطلاح المسرح .

ومن المؤرخين من يعبر عن هذا التغير بحدوث اختلال فى نسب القوى بين المجتمعات الثلاثة ؛ فالمسيحى الأرثوذكسى يبدو متخذا سبيل الاختفاء التام عن المسرح ، والاسلامى يبدو فاقدا القوة على الابتكار ، والغربى يبدو المهيمن المتصرف كما يشاء .

وقد وقف المؤلف لويس بدراسته عند بدء هذا التحول وستكون لى عودة اليه عند ختام هذا التقديم .

والخاصية الثالثة لكتاب لويس ترجع لطريقة المقارنة التى عالج بها التقابل فى البحر المتوسط بين هذه المجتمعات الثلاثة — وطريقة المقارنة أنجع الطرائق فى توضيح طبيعة المجتمع الواحد . بل وذهب فى المقارنة الى حد استعمالها داخل المجتمع الواحد بين عناصره المختلفة ، من ذلك أثر المدن ، أو الأثر الايطالى أو الأثر الاقطاعى فى المجتمع الغربى . ومن ذلك الفروق بين العناصر المغربية والأندلسية والمصرية السورية فى المجتمع الاسلامى . ومن ذلك العناصر الروسية والبلقانية فى المجتمع الأرثوذكسى ، وهكذا .

وستكون لى عودة أيضا لهذه الخاصية وما يتصل بها عند ختام هذا التقديم .

والخاصية الرابعة لكتاب لويس ترجع الى زمن تحضيره ونشره ؛ ولا أعنى بذلك أن المؤلف كان لديه جميع ما يحتاج اليه (وأنا ممن يرى أن المؤرخ لن يكون لديه أبدا جميع ما يحتاج اليه) وانما أعنى أن المؤرخين الاقتصاديين للعصور الوسطى رسموا من الخطط والمناهج ما أكسب عملهم صبغة البحث العلمى الصحيح ، ونفى عنهم تهمة استعمال صيغة من الصيغ لتفسير الظواهر التاريخية — كالحرب بين الطبقات وما اليها ؛ هذا الى محاولة الرجوع الى الوثائق الأصلية كلما استطاعوا

الى ذلك سبيلا . وقد عرف لويس كيف ينتفع من هـذه الحركة ، التى سأتحدث عنها وعما يتصل بها عند ختام هذا التعليق .

فكتاب لويس فى القوى البحرية والتجارية اذن ، اضافة قيمة للدراسات التاريخية ، تهم كل دارس ، وتهم بالذات قارئنا العربى ونحن فى مستهل الاهتمام بدراسة مجتمعنا . ومن المصلحة ونحن فى مستهل هذا الاهتمام أن نضع أمام القارىء نموذجا للعمل العلمى الحق .

أما وقد تبينا ذلك فمن حق مترجم الكتاب للعربية أحمد محمد عيسى أن ننوه بما بذل من تحقيق وصبر وجهد نزيه لتؤدى الصورة العربية ما فى الأصل الأفرنجى على وجه واضح صحيح .

— ب —

قد يكون مما يعين القـارىء على تتبع مادة المؤلف أن نأتى اليـه بخلاصة لتلك المادة تطلع القارىء على ترتيبها وأقسامها وحججها ونتائجها . هذا على أننا سوف نعدل تلك الخلاصة لتزداد وضوحا واستقامة .

يصل المؤلف بين دراسته هذه وبين الاهتمام الذى بعثـه بالدراسات التاريخية البحرية المؤرخ الأمريكى للحرب البحرية — ما هان (Mahan) .

والبحر فى تاريخ الحضارات أداة وصل . ألا ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية أشبه بأوربا الغربية من أوربا الشرقية بأوربا الغربية — على ما بين غربى أوربا وشرقيها من اتصال برى .

ومعنى قولنا أداة وصل لا يفيد حتما ما يؤدي الى صداقة ، فالوصل ضرورى للحرب ضرورته للسلم . والالتقاء فى البحر لابد منه للحـرب وللتجارة وللعداوة وللصداقة ولايقاع الضرر ولتبادل المنافع .

عالم البحر المتوسط فى عام ٥٠٠ م

ولنبدأ دراستنا بعالم البحر المتوسط حوالى عام ٥٠٠ ميلادية .

يتقلد الولاية الشرعية امبراطور واحد هو الجالس على العرش فى القسطنطينية . أما قسيمه الذى كان يجلس فى رومية فكان قد انتهى أمره فى سنة ٤٧٦ م والولايات الرومانية فى الغرب كانت فى أيدى الجماعات المتبربرة التيوتونية وكان هم الملوك والأمراء المتبربرين أن يحافظوا أو أن يحيوا ما أمكنهم الرسوم الرومانية . على أن المجتمع كان قد تغـيرت بنيته تماما — فهو اقطاعى ضعفت مدنه على ضعفها القديم ، ولم يعد أكثرها فى العهد الرومانى الأصيل أن يكون مراكز ادارية وحربية . وتضاءل شأن صناعته وشأن تجارته وان كان لبعض الباحثين نظريات فى أمر تضـاؤل التجارة سنعرض له بعد قليل .

أما فى الشرق الذى كان يدور فى فلك القسطنطينية — مقر دولة الروم الشرقية أو الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما عرف العرب — فعلى العكس من الغرب تماما .

الروم هؤلاء يواجههم الفرس الساسانيون . والحـرب بين الروم والفرس سجال . على أن كل فريق منهما كان يرى للفريق الآخر ضرورة وجوده وترتب على ذلك قدر من العمل المشترك — ان صح التعبير — تقتضيه المصلحة المشتركة . ولابد للقارىء من أن يتبين هذه الفكرة تبينا تاماً ، لأنه اذا لم يعقلها فانه لا يستطيع فهم العلاقات بين مختلف الدول والطوائف فى العصور الوسطى . الأصل الحرب الدائمة . ولكنها حرب محدودة ، تبقى وتذر ، ويصاحب الحرب الدائمة علاقات سلمية دائمة فى أعمال مشتركة . وينسب لأحد الأكاسرة قوله : ان هناك عينين اثنتين وكلت اليهما القدرة الالهية أن تبصرا العالم ، هما قيصر الروم وامبراطور الفرس .

فعلى يد هاتين الامبراطوريتين العظيمتين يكبح جماح الشعوب المتبربرة المحبة للحرب ويتسنى للبشرية حكم أفضل وأشد أمنا فى كل مكان .

واستمدت دولة الروم قوتها عند التاريخ الذى حددناه لهذه الدراسة من قدرتها الاقتصادية ، فكانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة فى ولاياتها الكبرى : آسيا الصغرى وسورية ومصر ، ولكل منها قاعدة عالمية الشهرة : القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية .

وترجع رفاهية هذه المناطق لعدة عوامل : ترجع لانتعاش زراعتها وترجع لتقدم صناعتها . والواقع أن المدن فى تلك الولايات لم يعش أهلها عالة على أهل الريف كما انها لم تكن مجرد مستقر للطبقة الأرستقراطية ممن يحصلون على معاشـــهم مما يبتزونه بموجب ما يتقلدون من الوظائف الحكومية أو من استغلال الفلاحين . وانما كانت المدن مراكز صـــناعية لعالم البحر المتوسط كله . تصدر ما تنتج من المنسوجات والبردى والزجاج والأوانى المعدنية ، وتصدر أيضا ما يرد اليها برا وبحرا من بلاد الصين وجزائر الهند الشرقية . فان مصر كانت نهاية طريق البحر الأحمر ، وسورية نهاية طريق الخليج الفارسى (العربى) والطريق البرية المخترقة لبلاد فارس ، والقسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود .

والتجار المنتسبون لتلك الأقطار من سوريين ويونان ويهود هم الذين كانوا يتولون التبادل التجارى بين بلادهم وأقطار أوربا الغربية وكانت منهم جاليات استوطنت فى تلك الأقطار الأوربية . ولهم أثر فى نشر الديانة المسيحية فى الغرب .

وكان الغرب اذ ذاك أقرب ما يكون الى مجال استعمارى للولايات الشرقية ، وكان عليه أن يصدر المسكوكات الذهبية ليتمكن من استيراد ما هو اليه بحاجة من البضائع الشرقية .

ولدولة الروم سياسة اقتصادية ، من أهم مبادئها احتكار سك النقود الذهبية .

ويرجع هذا لأسباب تتعلق بالصيت والجاه والسمعة ، فحرصت الدولة على أن تمنع ، بالقوة أحيانا وبالمفاوضة أحيانا ، غيرها من سك العملة الذهبية . وقبلت الدولة الفارسية ألا تسك الا العملة الفضية (وسنرى ماذا يكون من هذه السياسة فيما بعد عندما سك عبد الملك بن مروان الدينار الذهبى العربى) . ومن مبادئها أيضا تخصيص مدن معينة للتبادل التجارى الخارجى لمنع التهريب والجاسوسية وغير ذلك مما يقتضيه الأمن . وأدى ذلك الى تنظيم شئون الجوازات والتأشيرات والاقامة وما الى ذلك .

وأما عن تنظيم القوة البحرية فى البحر المتوسط فالظاهر أنه لم يكن له وجود حوالى عام ٥٠٠ م .

ثم اهتمت الدولة بتنظيم بحرية قاعدتها فى القرن الذهبى المشهور .

يوستنيانوس والعودة للوحدة الرومانية ٥١٨ ـ ٦٤١

فى عام ٥٢٧ م جلس على عرش القسطنطينية القيصر يوستنيانوس وسيطر على الدولة ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

والقرن السادس الميلادى فى حوض البحر المتوسط هو فى الحقيقة عصر يوستنيانوس ، الذى وجه كل همته لاسترداد الأقاليم الرومانية الغربية.

والسر فى انتصاراته هو تفوق قواته البحرية على قوات الامارات المتبربرة . واعتماد الروم على القوات البحرية هو الذى شكل نظام دولتهم منذ أيام يوستنيانوس الى أيام هرقل ، فاتجه همهم الى احتلال الثغور البحرية والسواحل وتجنب التوغل فى الأراضى الداخلية . وأكثروا من

تشييد الحصون للمحافظة على حدودهم البرية ، فقلت حاجتهم للجيوش البرية الكبيرة العدد .

وقد عقد المؤلف موازنة طريفة بين الخطط البيزنطية والخطط البريطانية ، وسر الاتفاق بين الدولتين يرجع الى أنهما — لفترات طويلة من تاريخها — لم يكن لأحدهما منافس فى البحر . كما أنه يرجع الى الاهتمام بخطوط الملاحة التجارية . فكان لبيزنطة سبتة والساحل الاسبانى الجنوبى والساحل الافريقى الشمالى وصقلية وسردانيه وقورشيقه وكريت وقبرص وجنـوه ونابولى ورافنا والقرم والدردنيل والاسكندرية . وكان لبريطانيا جبـل طارق ومالطة وقبرص والسويس وعدن وسنغافورة وهونج كونج وسيلان ومدينة الرأس ونيوفوندلاند وجزائر الهند الغربية ، وهذا على سبيل المثال .

وذكر القواعد البيزنطية فى البحر المتوسط قد يوهم القارىء خطأ بأن مصالحها التجارية أو الحربية لم تجاوز ذلك البحر الى غيره من البحار أو الأقطار . ولكن على العكس ، نجدها تهتم اهتماما كبيرا بما يجاوزه .

وهذا الاهتمام هو سر المنافسة الشديدة بين الروم والفرس .

تحكمت فارس بحكم الموقع الجغرافى فى خطوط المواصلات البرية بين غربى آسيا وشرقيها . وتحكمت أيضا بحكم الموقع ، فى المواصـلات البحرية البرية بين أقاليم المحيط الهندى وأقاليم البحرين المتوسط والأسود .

فأدى هذا التحكم الى محاولة بيزنطة تجنبه ، فعملت على أن توجه التجارة الصينية (وفى مقدمتها الحرير) نحو الشمال . واقتضى هذا احتلال شبه جزيرة القرم وتحسين ثغورها ، كما اقتضى أيضا اخضاع أرمينية والدخول فى مفاوضات مع دولة الخزر التركية القائمة فى حوض الفولجا والمتصلة بالصين مباشرة عن طريق التركستان .

وأدى التحكم الفارسى أيضا الى عمل بيزنطة على استعمال البحـر

الأحمر والاستعانة بالأحباش لبناء نفوذ بيزنطى حبشى (مسيحى) فى البحار العربية وفى السواحل العربية .

وأدى التحكم الفارسى أيضا الى اتخاذ خطة أخرى هى بناء صناعة الحرير فى الأقاليم البيزنطية (وخصوصا سورية وقبرص) بجلب دودة القز سرا من الصين . وقد قيل ان رهبانا مسيحيين (نسطوريين) نجحوا فى تهريب دودة القز من الصين باخفائها فى عكاكيزهم !

والحكومة فى بيزنطة تسيطر على المرافق سيطرة تامة ، فوضعت نظما مفصلة لشارات الملك من سكة وخاتم وطراز وكل ما يتعلق بالمراسم والاحتكارات الصناعية وخصوصا الحرير وورق البردى وما يلزم الأسطول من سلاح وحديد وخشب وما يتعلق بها من تنظيم الصناع وأهل الحرف وقد أشرنا من قبل الى التفصيل الدقيق الذى وضع للتبادل التجارى وللقائمين به من الأغراب .

على أنه لا ينبغى أن نفهم أن ثراء الحكومة صاحبه فقر الهيئات أو الأفراد ، وقد ذكروا أن أحد بطاركة الاسكندرية هو يوحنا المحسن وجد بالقصر البطريركى حينما رقى اليه ثمانية آلاف رطل من الذهب . وان البطريركية أيامه كانت تملك أسطولا من ثلاث عشرة سفينة كبيرة تعمل فى نقل ما تصدر وما تستورد وانه استطاع أن يرسل لبيت المقدس بعد أن خربه الفرس ألف قطعة ذهبية وألف زكيبة من القمح وألف كيل من البقول الجافة ، كما أرسل سمكا مقددا ونبيذا وحديدا وألف صانع مصرى لعمارة المدينة . ويدلك ارساله الحديد — ولم يكن من منتجات مصر — على اتساع نطاق المعاملات التجارية للبطريركية . وأضافت الكنيسة فى الاسكندرية وفى القسطنطينية الى هذا النشاط التجارى ممارسة متسعة النطاق للأعمال المصرفية .

وحتى الغرب المتخلف لم يعدم رخاء . ولا يفوتنا أن العــرب تحدثوا عن الكنوز التى وجدوها بالأندلس بعد فتحه ، حديثا أقرب الى أرقام الأســاطير .

على أن بيزنطة شقيت بالخلافات الدينية شقاء كبيرا .

وللانشقاق الدينى أثره فى عجز الدولة عن الدفاع عن أقاليمها المصرية السورية الأفريقية عند ما غزتها الجيوش الاسلامية .

حدث ذلك أيام هرقل وبعد أن نجح نجاحا باهرا فى رد الفرس الى بلادهم .

ويقول المؤلف : « وتقض انتصار العرب على الروم انتصار الاسكندر على دارا وانتصار روما على هانيبال وأورليانوس على زنوبيا . ونبذ الشرق الحضارة الغربية التى فرضت عليه قسرا وأشاح بوجهــه عنها وبدأ عصر الاسلام فى دنيا البحر المتوسط » .

وفى القول تبسيط كبير .

الغزو العربى ٦٤١ ـ ٧٥٢

وبدأ بالغزو العربى طور جديد فى تاريخ البحر المتوسط وفى تاريخ الانسانية .

والغزاة العرب الأول كانوا أصحاب الحرب فى البر . اتخذوا من المدن الداخلية فى الفسطاط وفى دمشق قواعد الحكم . ولكنهم سرعان ما أدركوا أن البحر لا يمكن اغفاله . وكان أول من فطن لذلك معاوية . على أن أكثر القواد الآخرين لم يفطنوا لأهمية الجمع بين العمليات الحربية فى البر والعمليات الحربية فى البحر . وكان هذا سر نكبة عقبة فى تقدمه نحو الغرب دون أن يستند الى حماية بحرية .

وخلفاء معاوية من بنى أمية ساروا حقا على نهج البيزنطيين . ضرب عبد الملك الدينار الذهبى ونقش عليه نصا عربيا ، فكأنه نازع القياصرة ما ادعوه من أن لهم وحدهم سك الذهب . وأمر بانشاء قاعدة بحرية فى قرطاجنة ، وأرسل لذلك ألف صانع مصرى من بناة السفن بأسرهم ، واستولى المسلمون على قوصرة القريبة من الشاطىء الافريقى فى موقع مهم . على أن موسى بن نصير اختار لبناء القاعدة موقعا على بحيرة بعيدا عن الشاطىء بعض الشىء ثم وصل القاعدة بقناة . وهكذا أقيمت فى تونس قاعدة أمينة للأسطول العربى — قاعدة جديدة أضيفت للقواعد القديمة فى مصر وسورية .

وفهم موسى سر حماية خطوط مواصلاته البرية بعمليات بحرية ، فقدر له النجاح حيث أخفق عقبة .

وعبر المسلمون الى الأندلس ومنه الى جنوبى فرنسا .

ودخل بذلك ما يقرب من ثلثى سواحل البحر المتوسط فى حكم الدولة الاسلامية .

على أن الأمويين لم يستطيعوا — على الرغم من كل ما بذلوا — أن يتوجوا فتوحهم بفتح القسطنطينية .

بل انتصر البيزنطيون فى النهاية انتصارا بحريا تاما فى سنة ٧٤٧ م بالقرب من جزيرة قبرص ، وسيكون لهذا الانتصار نتائج خطيرة فى أحوال البحر سنتولاها بالشرح بعد قليل .

وقبل أن نفعل ذلك ، علينا أن نعرض للأسباب التى مكنت بيزنطة من عدم الانهيار بعد أن فقدت مصر وسورية وافريقية .

من هذه الأسباب أن القسطنطينية لم تكن فى موقع مكشوف بل كان يحميها بحر الأرخبيل وجزائره وخلجانه ، هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى

حماها بحر مرمرة ومن بعده البحر الأسود . هذا فى حين كانت مراكز القوة العربية البحرية فى مصر وسورية وافريقية مكشوفة .

ومن الأسباب ابتكار البيزنطيين لسلاح سرى هو النار الاغريقية . ومنها أيضا أنهم كانوا يملكون ما يلزم الأساطيل من أخشاب وحديد وغير ذلك ، على حين أنهم استطاعوا أن يحولوا دون حصول الأمويين على ما يلزمهم منهـــا .

وبين النظامين البحريين البيزنطى والعربى شبه ؛ فكلاهما يقوم على وجود قوات بحرية فى أماكن متفرقة . ولكل قوة ما يلزمها من السفن والملاحين ودور الصناعة . وكان للبيزنطيين أربعة أساطيل اقليمية من هذا النوع وأسطول مركزى امبراطورى ، وللأمويين — بقدر ما نستطيع أن نحكم — ثلاثة أساطيل اقليمية : مصرى وسورى ومغربى ، ويلحق بأسطول مصر وحدة بحرية فى البحر الأحمر . ولم يكن لهم أسطول مركزى .

هذا وعلى الرغم من أن الفتوح العربية لم تحدث أول الأمر فيما يظهر سوى تغييرات طفيفة وعلى الرغـــم من أن كل شىء بقى على حاله ، فان آثار الانقلاب الخطير ما لبثت أن بدت جلية . فالدولة العربية لها قبلتها ووجهتها فى غير البحر المتوسط — دولة تجمع بين الأقاليم البيزنطية على سواحل البحر المتوسط والأقاليم الساسانية فى العراق وفارس وما يليها . وما البحـــر المتوســـط وسياسته وخططه الا عنصر من عناصر السياسة والخطط . وستواجه الدولة الأموية مصاعب وأزمات فى أقطارها الساسانية الأصل ستنتهى آخر الأمر بسقوطها وانتقال الأمر للعباسيين وحلول بغداد محل دمشق . على أن الأمويين كانوا قد أتموا قبل سقوطهم مظاهر استقلال دولتهم : سكوا العملة العربية وعربوا الدواوين وحاولوا أيضا بناء نظام اقتصادى مستقل .

ولم ينفعهم كل هذا ، بل رأينا انتقال مركز السلطان من عالم البحر المتوسط الى العراق . ويماثله سقوط بنىميروفنج وحلول بيت الكارولنجيين محله واتخاذ هؤلاء اكس لا شابل أو آخن فى داخل القارة قاعدة لملكهم .

الواضح اذن ، أن شيئا جديدا طرأ على عالم البحر المتوسط حوالى منتصف القرن الثامن — حوالى ٧٥٠ م . ترى هل كانت الحرب الاقتصادية بين بيزنطة والأمويين سببه ؟

فى عام ٦٩٢ ضرب عبد الملك أول دينار ذهبى عربى وحـرم تصدير البردى الى بيزنطة والى البلاد الغربية بعد أن أزال عنه الشعار المسيحى وأحل محله نصا عربيا ، واستمر الوليد فى نفس الخطط — خطط التعريب — وفرض نظاما دقيقا للسفر فلم يسمح لمصرى مثلا بأن يغادر موطنه دع مغادرته البلاد ووضع نظاما للرقابة والتفتيش على جميع السفن النيلية وأمر بشنق من يقبض عليه من الروم . وما كان البريد فى الواقع الا مخابرات سـرية .

وأجاب البيزنطيون على ذلك بمثله ، فلم يكونوا حديثى العهـد ، كما رأينا ، بأنظمة الرقابة والاشراف .

ويذهب المؤلف الى أن الحرب الاقتصادية أدت الى فقدان سـورية أهميتها ، وذلك بالاضافة الى انكسار الأمويين البحرى الذى أشرنا اليه والذى كان من عوامل سقوط خلافتهم وهبوط دمشق الى مستوى المراكز الاقليمية . وذهب الى أن مصر ساءت أحوالها أيضا . بل ويذهب الى أن ثورات الأقباط وثورات البربر فى المغرب ترجع الى تدهور الأحوال المعاشية . ويقال مثل ذلك عن الأندلس .

وامتد الركود الى فرنسا .

وقد رأى المؤرخ البلجيكى الكبير بيرين Pirenne ما أصاب البحر

المتوسط من خراب ، ولكنه أخطأ التحرى عن المسئول عن ذلك ، فالبيزنطيون — لا العرب كما زعم — هم المسئولون عن تدمير الوحدة التى ربطت بين أجزاء البحر المتوسط وذلك عندما استعملت كل ما تملك من أدوات الحرب البحرية والاقتصادية ، فمحت بذلك الأوضاع الاقتصادية القديمة لعالم البحر المتوسط وهيأته لأوضاع جديدة .

ترى ما نصيب هذا من الصحة ؟

تترك البحث فى نظرية بيرين ، وفى رأى لويس فيها للقسم الثالث من أقسام التقديم ، ونستمر فى سياق التلخيص .

السيادة البيزنطية ٧٥٢ ـ ٨٢٧

ولنلخص أحداث الحقبة الجديدة :

تضعف قبضة الدول العامة ؛ فالعباسية سيخرج عن طاعتها الأندلس الأموى ومغرب الأدارسة والأغالبة ثم مصر وسورية الطولونيين والأخشيديين . والدولة العامة الجديدة — دولة شارلمان — تحاول أن تعيد بناء الامبراطورية الرومانية الغربية فى ايطاليا والأندلس ومياه البحر المتوسط ، وفى الوقت نفسه امتدت الى أقاليم فى الشمال ونحو الشرق لم تخفق عليها يوما البنود الرومانية . ومن المؤرخين من يرى أن محاولة شارلمان كانت سابقة لأوانها ، أو أنها عدمت الأساس المادى والأساس المعنوى لبناء دولة عامة من الطراز الذى به حلم . على أن ذلك الوصل الذى قام به شارلمان بين الأقاليم الرومانية القديمة والأقاليم الشمالية رسم لأول مرة الغرب الأوربى على نحو من الوضوح ستكون له فيما بعد آثاره فى شئون البحر المتوسط بالذات . واستمرت بيزنطة تباشر خطط الرقابة التجارية على ما فهمتها ، ولكن حدثت بوادر تدل على ما سيكون ، وهذه

تؤيد ما ذهبنا اليه من أن المستقبل فى البحر لن يكون للدول العامة ، بل لطوائف ولهيئات ولجماعات ، وأحيانا لأفراد يعملون لحسابهم الخاص ان صح القول .

هناك — مثلا — قصة الأندلسيين الربضيين ، وهم قوم ثاروا على الأمير الأموى : الحكم ، وأخفقوا فخرجوا بقضهم وقضيضهم ونزلوا أول الأمر الاسكندرية . وتلطف معهم صاحب الأمر فى مصر وأقنعهم بالبحث عن منزل آخر ، فخرجوا من جديد وانتزعوا جزيرة كريد من ملك البيزنطيين وأقاموا بها وكرا من أوكار الغزو البحرى فى صميم المياه النصرانية . وقيل ان مدينة Candia من تخطيطهم ، وان اسمها تحريف لاسمها العربى « الخندق » .

وسنرى ما سيكون من شأن الأغالبة فى البحر ، أو مجاهد صاحب دانية وغيره .

ولا يقل أهمية عن كل ما ذكرناه أن الحرب الاقتصادية البيزنطية أدت الى قيام وسطاء جدد يتولون التبادل التجارى بين الشرق والغرب . فمن ثغر خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى الأقاليم التى ستتكون منها روسيا فيما بعد . ومن طربيزون قام التجار العرب والأرمن بنقل البضائع الى بلادهم ، ومن صقلية تولى التجار المغاربة نقل بضائع القسطنطينية الى أقطار المغرب . على أن أكبر الوسطاء نصيبا كان التجار من مدينة البندقية ونابولى وأمالفى وجايتا — وهى مدن نشأت فى أحضان بيزنطة — واستطاعت عندما شبت عن الطوق أن تستقل عن الشرق والغرب وأن تكون عنصرا من أهم العناصر فى بناء عالم البحر المتوسط الجديد .

وعندما بدأت المدن الايطالية تجنى أرباح قيامها بتوزيع البضائع فى الغرب تطلعت الى كسب جديد فأخذت ترسل سفنها الى القسطنطينية

بالذات ، وسرعان ما صار لها الى جانب السيطرة على توزيع التجـارة السيطرة على نقلها أيضا . وبينما كانت القسطنطينية مركز التقاء جميع الطرق التجارية من الشمال والجنوب والشرق والغرب فانها لم تكن تتولى الا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير فانتقلت بذلك الأهمية التجارية الى مدن الأطراف ، الى البندقية وأخواتها .

ولهذا مثيل حدث فى الأزمنة القريبة :

فقرب نهاية القرن الحادى عشر احتكرت هولاندة توزيع التـوابل بسبب رفض البرتغال بيع التوابل الا فى لشبونة . وترتب على ذلك أن السفن الهولندية كانت تذهب الى لشبونة وتشترى التوابل جملة وتحصل على أرباح الوسيط من توزيعها فى غرب أوربا . ثم طمع الهولنديون فى أن يرسلوا سفنهم الى مصادر التوابل فى الممتلكات البرتغالية فى الشرق الأقصى ثم لم تلبث أن تركزت فى أيديهم عمليتا النقل من الشرق والتوزيع فى الغرب وهذا ما حدث للمدن الايطالية .

وانتهى النظام البيزنطى على هذا النحو الى انتقال النشاط الاقتصادى الى أيد غير أيديهم — وحدث مثل ذلك لسورية ومصر .

وقام المغاربة بدور الوسيط بالنسبة الى المغرب والأندلس . فكانوا يذهبون الى سورية ومصر وقد ترك أصحاب البلاد للغرباء القيام بضروب مختلفة من النشاط الاقتصادى .

ومما يلاحظ أيضا أن أكثر السلع الشرقية التى كانت تصل للقسطنطينية وصلتها عن الطرق الساسانية القديمة برا وبحرا ؛ فبرا عن طريق فارس ، وبحرا عن طريق الخليج للبصرة فبغداد فالبحر الأسود . وبذلك عظم شأن بغداد كما عظم شأن آرمينية بين المسلمين والبيزنطيين . ومن القسطنطينية كان التوزيع الى الغرب أو الى الأقاليم الروسية فالشمالية . وبذلك أيضا

ضعف فى القرن التاسع النقل عن طريق البحر الأحمر ضعفا بينا . وقد تعمدت بغداد أن تضعفه تفضيلا منهم للخليج والعراق . ولم يبق للبحر الأحمر من مستعمل الا طوائف من التجار اليهود كانت لهم باليمن علاقات .

وقد ترتب على نشاط المدن الايطالية تنشيط النقل منها لوسط أوربا عن طريق الممرات فى الألب .

التوسع الاسلامى ٨٢٧ — ٩٦٠

وكان أول انتصار بحرى اسلامى يعتد به وقوع صقلية فى قبضة المسلمين — على الرغم من كفاح البيزنطيين المرير للحيلولة دون ذلك .

وللقوة البحرية الاسلامية فى ذلك القرن ثلاث مناطق : أولا ، الأندلس ، وثانيا ، المغرب وصقلية ، وثالثا ، كريت وسورية ومصر . وتتكون الطلائع للقوة البحرية من قوات غزو بنيت فى دور صناعة منظمة وجهزت بالعتاد والرجال عن طريق الحكومة وقام بامرتها رجال ذوو دراية . وعرف المسلمون اذ ذاك استعمال النار الاغريقية أو ما يشبه النار الاغريقية .

ومما هو جدير بالملاحظة ضآلة أثر الحرب البرية فى القوى البحرية اذ ذاك . وبقيت ميادين القتال البرية بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق والغرب على درجة من الاستقرار النسبى . وهذا الاستقرار فى البر يزيد فى خطورة ما ترتب على استيلاء المسلمين على جزائر البحر الهامة من نتـــائج .

ترتب عليه أن حصر الاسلام البيزنطيين والغربيين فى البحار الضيقة ، وترتب عليه حماية سورية ومصر والمغرب والأندلس ، وترتب عليه أخيرا أن زادت موارد المسلمين من الأخشاب والحديد .

على أن المسلمين اذ ذاك لم تكن لهم وحدة سياسية فعلية ، بل لم تكن

لهم قوة بحرية موحدة . وانما كانت لهم ثلاث قوى ، الأولى فى الغرب ، والثانية فى الوسط ، والثالثة فى الشرق . وأقوى الثلاثة ، أساطيل الوسط التى ربطت صقلية بافريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩ ثم انتقلت الى الفاطميين .

وكان أهل الوسط هذا (صقلية وافريقية — بمعنى تونس) أكثر المسلمين انتفاعا من السيطرة البحرية الاسلامية — فازدهرت فى تونس الزراعة والصناعة والتجارة — وما المال الذى أنفقه الفاطميون فى فتح مصر الا ما حصلوا عليه بسبب رخاء افريقية . هذا وقد سبق الفتح الفاطمى تسلل عدد كبير من المغاربة لمصر لممارسة التجارة . ولهؤلاء المتسللين نصيب فى الاضطرابات التى مهدت للتدخل الفاطمى .

ووثق الفاطميون بقوتهم فبنوا المهدية عاصمتهم على الساحل .

وحدث فى تلك الحقبة أيضا ادخال زراعة بعض النباتات الشرقية كالقطن وقصب السكر والزعفران فى بلاد المغرب وفى صقلية . ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أيضا اقامة أبراج المراقبة على طول الساحل بحيث أمكنهم أن ينقلوا الخبر من الاسكندرية الى سبته فى أقصى المغرب فى يوم واحد .

وامتد النشاط المغربى الى الأقطار الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى لاستيراد الذهب والرقيق وصارت سجلماسة (ويرجع تأسيسها للرستميين عام ٧٥٠) المدخل الى بلاد السنغال . وكانت هناك أيضا طرق لنهر النيجر أو من طرابلس الى قلب السودان ، فلا عجب أن كانت السكة المغربية من أهم العملات المتداولة فى البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر .

وما يقال عن المغرب يقال عن رخاء مصر ولكن لدرجة أقل . وانتفعت مصر بذهب بلاد النوبة وبانتعاش طريق البحر الأحمر وارتقاء صناعاتها ارتقاء رائعا فى عهد الفاطميين (وسنشير الى هذا فى القسم الثالث من هذا التقديم)

على أن المعاملات التجارية الخارجية كانت فى أيدى الغرباء .

والرخاء أيضا عم سورية وعم الأندلس .

وانتشر التعامل بالذهب شرقا وغـربا فى أرجاء العـالم الاسـلامى فعدل الأندلس عن قاعدة الفضة ابتداء من القرن العاشر كما اختفى الدرهم الفضى من العراق وايران ومن أقطار المحيط الهندى .

ومن مظاهر الوحدة توحيد السياسات الاقتصادية الحكومية والطرائق الاقتصادية وأدوات التعامل .

ولم تحاول الدول الاسلامية عرقلة التبادل التجارى مع بيزنطة . فبقيت للقسطنطينية عظمتها ولعملائها مكاسبهم . ولم تزدهر المعاملات بين المغاربة والأندلسيين من جانب والغرب الأوربى من الجانب الآخر . وبقى أمر هذه المعاملات فى أيدى الايطاليين .

وبالجملة فهذا العصر من عصور الحيوية فى تاريخ البحر المتوسط .

مرحلة الانتقال ٩٦٠ ــ ١٠٤٣

ومن أعجب ما يلاحظ على احداث هذه الحقبة أن نتائجها كانت تتجه لأغراض غير ما قصد المحدثون — انتعشت الدولة البيزنطية فاستعادت كريت وقبرص وطرسوس وشمال سورية وأجزاء من الأناضول والبلقان — فاستفاد الفاطميون من ذلك لغزو مصر وامتلاك الشام — وأدى امتداد الدولة الفاطمية للشرق الى تفكك أقاليمهم المغربية فتدهورت بذلك القوة البحرية للمحور « صقلية — افريقية » وانهارت الخلافة الأموية فى الأندلس .

وأغرى ضعف المسلمين فى غربى البحر المتوسط مختلف الجمـاعات والمدائن الأوربية الغربية بالأخذ فى سبيل الغزو البحرى واحراز قصب السبق فيه .

وعجز الأباطرة الألمان عن نيل نصر دائم فى ايطاليا ولكنهم نجحوا فى اشاعة الفوضى فى جنوب ايطاليا مما سهل على العصابات النورماندية التغلب عليه — وفى الأندلس اهتم المنصور بن أبى عامر بشئون البر دون شئون البحر وحملته المصالح السياسية العاجلة على احلال المرتزقة والصقالبة محل القوات العربية المرابطة مما أدى فى النهاية الى زوال أمر الأرستقراطية العسكرية العربية والى تحول الجيش من الأرقاء والمرتزقة الى أداة نهب واذلال للرعية (وسنعود لهذا فى القسم الثالث من التقديم) .

وزالت السيطرة الاسلامية على شرق البحر المتوسط فى أواخر القرن العاشر ، ولكنها استمرت مدة أطول فى القسم الغربى منه — استمرت فى الواقع الى منتصف القرن الحادى عشر — أى طالما بقيت صقلية وجزائر البليار فى أيدى المسلمين . على ان نشاط أهل جنوه وبيزه والبيزنطيين فى مهاجمة صقلية يدل على انتقال المبادأة الى أصحاب السواحل الشمالية من البحر . وهذه السواحل — كما لاحظ المقدسى — هى التى كانت تملك الخلجان والمداخل المائية الواقية .

على أن الميزات الجغرافية وحدها لا تكفى لتعليل ما انتاب القوة البحرية الاسلامية . والظاهر أن الرخـاء الوفير الذى نعم به المسلمون دعاهم الى اهمال الغزو البحرى — كما أغرى خصومهم بهم . ويضاف الى هذا انبعاث العصبية الدينية فى الغرب مصاحبة أو متأثرة بحركة الاصلاح الدينى — المعروف بالاصلاح الكلونى — فقام بذلك هجوم عام شارك فيه الاقطاعيون من رجال الحرب والمغامرون النورمانديون الضاربون فى الأرض طلبا للرزق وشاركت فيه الكنيسة وشاركت فيه المدن ، وما اليها من جماعات التفكير الاقتصادى المنتظم .

انتصار الغرب ١٠٤٣ ـ ١١٠٠

وشهدت سنوات النصف الثانى من القرن الحادى عشر انتصار الأساطيل الايطالية على الأساطيل الاسلامية والبيزنطية — وعند أوائل القرن الثانى عشر كان الغربيون قد أصبحوا سادة الجزائر الكبرى وجنوب ايطاليا والساحل الفلسطينى السورى ، وهذا كله بالاضافة الى سيطرتهم على طرق التجارة بين الشرق والغرب .

وتقدم السلجوقيون واكتسحوا الأناضول وأضعفوا الفاطميين فى سورية واشتدت اضطرابات الجند فى مصر الفاطمية وعاثت الجماعات البدوية فسادا فى الأقاليم المغربية ، ولم ينقذ المسلمين بالأندلس الا غزو المرابطين ، فليس من الغريب اذن أن يرث الغرب ما كان لبيزنطة وللدول الاسلامية من قوة بحرية .

على أن الحرب الصليبية الأولى لم تكن هى التى أعطت الغرب السيادة البحرية ، وانما كانت تلك السيادة خاتمة مرحلة بدأت باتخاذ الغرب خطة المهاجم لمدة قرن من الزمان . وجاءت الدعوة للحرب بدوافع مختلفة من التعصب الدينى والجشع والتوسع . وكان للعنصر البحرى أثره فى نجاح الحملة الصليبية — فعملت البحريات الايطالية فى نقل ما يلزم من العتاد وفى اخضاع مدن الساحل — ولم يستطع الأسطول الفاطمى أن يفعل شيئا .

وأصبح الغرب اللاتينى حوالى عام ١١٠٠ يملك امرة البحر حربيا وتجاريا . وكان من آثار هذه الامرة ان فرنسا وبلجيكا وانجلترا ربطت ربطا محكما بالبحر المتوسط كما كانت الحال أيام الدولة الرومانية القديمة وأيام بنى ميروفنج مع فارق كبير ، هو أن الشرق البيزنطى والاسلامى قد منيا بخروج التبادل التجارى من أيدى أبنائهما وانتقاله للغربيين .

وامتدت السلبية هذه الى مسلمى الأندلس والمغرب . ووضعت اذ ذاك أسس التفوق الغربى فى الأزمنة الحديثة .

على أننا لا يصح أن تتصور أن انتصار الغرب فى ١١٠٠ كان كاملا ونهائيا ، فقد شهد القرن التالى ثلاث صحوات ، فأنشأ المسلمون دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، دولتـان أعادتا للأندلس والمغرب مجدهما القديم . وتمكن صلاح الدين من توحيد مصر وسورية وأنشأ جبهة اسلامية تمكنت فى النهاية من طرد الصليبيين من فلسطين وسورية . وكذلك بيزنطة . استطاعت فى أيام أسرة كومنين أن تسترد بعض سلطانها السياسى والاقتصادى والحـربى .

ودام ذلك الى القرن الثالث عشر حين تم للمسيحيين فتح الأندلس فيما عدا امارة غرناطة وحين حطمت الحملة الصليبية الرابعة بيزنطة . وتم بذلك ربط السواحل البحرية الغربية المطلة على المحيط بسواحل البحر المتوسط عن طريق جبل طارق ، وفتح البحر الأسود للأساطيل التجارية الايطالية . وفى الوقت نفسه تمكن سلاطين الدولة المصرية السورية من محو آثار اللاتين فيما عدا جزيرة قبرص . على أن الأمر بعد ذلك سيخرج من نطاق البحر المتوسط الى البحار العالمية الكبرى ، ولهذا حديث آخر .

ملحق العوامل الخفية

دراسة القوة البحرية والتجارية لا تكفى وحدها لتعليل قضايا تاريخية كثيرا ما تعرض للمؤرخين . ويرجع ذلك الى أن القوة البحرية هى فى ذاتها نتيجة علل وأسباب أكثر منها مسببة لنتائج : وهى فى الواقع نتيجة لتلك العوامل الخفية التى تبعث العزم والقوة أحيانا ، أو تبعث القنوط والفتور أحيانا أخرى .

فهل تكفى حقائق التاريخ الاقتصادى فى ذاتها لتعليل انهيار الوحدة الرومانية التى بذل يستنيانوس النفس والنفيس فى بنائها أو اخفاق آل كارولوس فى القرن التاسع وآل أوتو فى القرن العاشر فى بسط نفوذهم فى عالم البحر المتوسط ، فى حين نجحت أساطيل المدن الايطالية ، وعصابات المغامرين الاقطاعيين ، فى الحصول على التفوق فى ذلك البحر فى القرن الحادى عشر . واذا انتقلنا لدار الاسلام لنسأل لم نجح الأغالبة ، ولم أخفق بنو زيرى ، ولم تمكن بنو هلال وبنو سليم من أن يخربوا المغرب ، فهل لدى التاريخ الاقتصادى الاجابة الشافية عن هذه الأسئلة وأمثالها ؟

واذا انتقلنا للعالم البيزنطى ، وسألنا : لم استطاع الأيسوريون أن يصدوا الأمويين ، فى حين عجزت دول القرنين التاسع والعاشر عن صد هجوم المسلمين اذ ذاك ، وهو قطعا أضعف من الهجوم الأموى ؟ فهل تكفينا حقائق التاريخ الاقتصادى هنا ؟

وللمؤلف رأى فى تفسير ما أصاب الدول الاسلامية والدول البيزنطية ومجمل رأيه أن ما أصاب بيزنطة يرجع الى نزعتها نحو الاكتفاء الذاتى والجمود . وأن ما أصاب الدول الاسلامية يرجع الى تسليم المرافق للعبيد . والتراث الامبراطورى الرومانى كان الحمل الذى ناء به المجتمع البيزنطى ، وهذه الأميرة حنة كومنينا المشهورة ترى فيما حول الروم من شعوب « عبيدا يحسدون سادتهم ويتربصون بهم الدوائر » وهذا ابن خلدون يعنون فصلا فى مقدمته : « فصل فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأصل عصبيته بالموالى والمصطنعين » . ويصف ما كان من هذا الأمر فى تاريخ الدولتين الأموية والعباسية . ولكن لنا أن نسأل أيضا : ولم كان للعبء الامبراطورى فى بيزنطة كل هذا الوزن ؟ ولم كان صاحب الدولة فى الاسلام يستظهر على قومه بالموالى والمصطنعين ؟ موضوع عظيم لا يتسع

المقام الا الى اثارته . ولا نرمى باثارته الا الى تنبيه المشتغلين بالتـاريخ الاقتصادى على وجوب عدم اغفال ما سماه لويس « العوامل الخفية » وان كنت ممن يرى أن التنبيه لا يوجه الينا فاننا لم نفعل شيئا بعد فى موضوع التاريخ الاقتصادى كما سنبين فى هذا التقديم .

ولم ير لويس فى ملحقه هذا أيضا أن يثير مقارنات بين المواقف الكبرى التى وصفها فى كتابه ومواقف اختارها من التاريخ القديم على ما يقرؤه القارىء فى كتابه وختم مقارناته بالقول « ان هذا التماثل القوى لا يمكن أن نعتبره أمرا اعتباطيا . ومن الواضح ان الأوضاع الجغرافية السياسية والقوة البحرية وما تتخذه الشعوب والحضارات من مواقف تواجه بها كل منها وفق طريقته وأسلوبه ما يعرض لها من ظروف وأحوال لها جميعا من خصائص الثبوت قدر أكبر مما يسلم به كثرة المؤرخين » .

وفى ملحق آخر تكلم لويس عما كان للدولة الفاطمية من آثار فى تمزيق الوحدة الاسلامية واضعاف قوة الاسلام . والبحث لا يتصل اتصالا قويا بالموضوع ولكنه رأى للمؤلف ، ولغيره من العلماء آراء تخالف ما ذهب اليه . والذى نستطيع أن نقوله الآن اننا لم تتبين بعد مقدار تأثر الحيـاة فى أيامهم بعقائدهم . بل يبدو لى أن دولتهم شكلتها حقائق المجتمع أكثر مما شكلت هى هذا المجتمع . وعلى كل حال فاننا لا نزال عند نقطة البداية فى هذه الدراسات .

وتنتهى بهذا الخلاصة التى حاولنا فيها أن نرسم خط سير المؤلف فى كتابه لنجعل تتبعه أسهل ، ولنقيم ملاحظاتنا فى القسم الثالث من التقديم على أساس من مادة الكتاب .

— ج —

أولا : مشروع خطة للعمل فى مادة التاريخ الاقتصادى الغربى

ألاحظ على أكثر الذين كتبوا فى موضـــوعات التاريخ الاقتصادى فصولا ألحقوها بكتبهم فى التاريخ السياسى أو كونوا منها صورا للحضارة الاسلامية أو للمجتمع الاسلامى ما يأتى :

(أ) أن الحقائق التى جمعوها ترجع لأزمنة متباينة وتتصل بأمكنة متفرقة ، فيترتب على ذلك أن الصورة التى تبنى عليها لا تطبق على زمان معين أو مكان معين .

(ب) أن المصدر الذى يستقى منه أكثرهم كتب منشورة أو غير منشورة ويهملون بناء على ذلك مصادر أعدها أساسية لموضوع التاريخ الاقتصادى وأعنى بذلك الآثار . وهذه لم يعن بها للآن الا من وجهة نظر تاريخ الفن وحـــده .

(جـ) أن العمل فى الوثائق لا يزال فى مبدئه .

(د) الاتصال بحركة البحث فى المجتمعات المقــابلة لمجتمعنا يكاد يكون منعدما .

ولنزد هذه الملاحظات تفصيلا فنقول : انه من الواضح أننا لسنا فى موقف يسمح لنا الا برسم صور محدودة جدا لا تنطبق الا على فترات قصيرة أو قطاعات ضيقة — وبناء على ذلك يجب توجيه البحث نحو تعمق مسائل وقضايا محدودة جدا من حيث الزمان والمكان . وأعتقد أنه لا يمكن رسم الصور العامة الا بعد أن يفرغ جيل بأكمله من الباحثين لتعمق المسائل والقضايا المتعلقة بمصر بصفة أصلية — ولهذا فانى أرى اهمال كل ما لدينا من الفصول العامة ، فهى لا تصور شيئا فعلا بل هى غير قابلة لأن تكون نقطة بدء لبحث جدى .

والكتب — مطبوعة أو غير مطبوعة — مصدر لا يستغنى عنه ، وطالب حقائق التاريخ الاقتصادى يستقى مما يأتى :

١ — كتب التاريخ بالمعنى المألوف — وهذه ولا شك مصدر أساسى ، ولا يرجع ذلك الى غزارة المادة الاقتصـــادية فيها ؛ بل ، على العكس ، المادة الاقتصادية عموما فى أكثر التواريخ ضئيلة ، وأذكر على سبيل المثال أن الطبرى اختص حكم عبد الملك بن مروان بنحو مائتى صفحة (طبعة المطبعة الحسنية بالقاهرة) ولم يعط ضرب عبد الملك للدينار الذهبى العربى الا قليلا من الأسطر — وقد قرأ القارىء فى كتاب لويس تفصيلا عن سياسة عبد الملك وسياسة الوليد الاقتصادية وما ترتب على هذه السياسة من آثار — وعلى كل حال فان تقدير الطبرى لأهمية الأحداث والأعمال له دلالته ولا يمكننا أن نغفل تقديره . وقد نبهنا لويس الى عدم عزل حقائق التاريخ الاقتصادى عن حياة مجتمع من المجتمعات ، فلنقرأ اذن كل المصادر التاريخية .

٢ — والمادة الجغرافية فى المعاجم والرحلات وما اليها واضحة القيمة للتاريخ الاقتصادى وكذلك ما يمكن استخلاصه من التراجم والمخلفات الأدبيـــة .

٣ — وننتقل أخيرا لمادة الفقه بصفة عامة ولما يتصل بها — وهى مادة لها قيمتها للمؤرخ الاقتصادى دون شك — بيد أن الارتباط التاريخى بين تطور مادة الفقه والوقائع التى تهم طالب التاريخ ليس الكشف عنه بالأمر اليسير .

وقد يكون للفتاوى ولكتب الحسبة بصفة خاصة من ميزة الارتباط بالوقائع ما يفيد المؤرخ بالذات .

هذا وأما ما نسب لبعض المؤرخين من مؤلفات فى مواد تتصل بالتاريخ

الاقتصادى كرسالة المقريزى فى النقود ، أو رسالته المشهورة « اغاثة الأمة » فهذه أقرب للوثائق منها للتواريخ ، فنترك ما تقوله عنها لكلامنا الخاص بالوثائق .

والآثار فى رأيى ان أحسن استعمالها تقدم للمؤرخ الاقتصادى أدق المعلومات وأغزرها وأصحها . وخير ما يوضح مذهبى أن أختار كتابا فى الآثار أستخرج منه أمثلة لكيفية انتفاع المؤرخ الاقتصادى بالآثار . وأختار لهذا الغرض كتاب المرحوم الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين وقد نشر بالقاعدة ١٣٥٦ — ١٩٣٧ . تكلم فيه تفصيلا عن خزائنهم ومحتوياتها : الكتب ، الكسوات ، الجوهر والطيب ، والطرائف ، الفرش والأمتعة ، السلاح ، السروج ، الخيم ، البنود . وفى القسم الثانى من الكتاب دراسة مفصلة لما سماه الفنون الفرعية فى العصر الفاطمى : النحت والتصوير ، التجليد ، المنسوجات ، الخزف ، صناعة الزجاج ، الفسيفساء ، النقش فى الخشب ، العاج ، المعادن ، العنصر الزخرفى فى الفن الفاطمى ، وهى دراسة للمصنوعات ، ومنها ما تاريخ صنعه مثبت عليه ، ومنها ما عليه اسم الصانع ، ومنها ما مادته الخام محلية ، ومنها ما مادته الخام مستوردة ، فهل هناك مادة أعظم من هذه المادة لتاريخ الصناعة ولتاريخ التجارة ولمستوى الصانع .. الى آخره .

ولأقدم للقارىء مثلا يوضح طريقة مؤرخى الفن فى مباحثهم ويوضح أيضا ما يفيده المؤرخ الاقتصادى من بحوث الأثريين . وأنقل هذا المثل من كتاب الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين . قال فى ص ١٤٠ — ويذكر الدكتور لام ان الثعالبى كتب فى مؤلفه لطائف المعارف ان قد علم القوم أن القطن لخراسان وان الكتان لمصر ويرى الدكتور لام أن هذا يتفق وما أسفر عنه فحصه بالمنظار المكبر عددا كبيرا من قطع النسيج ذات

الكتابات التى يتراوح تاريخها بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر الميلاديين ، والتى كشف أغلبها فى حفائر دار الآثار العربية فى جهة البساتين شرقى القاهرة ، فان هذا الفحص جعله يذهب الى أن أغلب المنسوجات التى استوردت الى مصر فى المدة المذكورة كانت من مواد غير الكتان والقطع التى قام بفحصها كلها ظهر أنها من القطن ، وبعضها له لحمة من الحرير ، وبينها عدد قليل من الحرير غير المصبوغ .

وسنرى فى موضع آخر من هذا التقديم أن المؤرخين الاقتصاديين الغربيين استعملوا البرديات المحفوظة المؤرخة ليستدلوا على ما كان من حقيقة أمر استيراد البردى من مصر . وهذا حسما للجدل القائم عن أثر الفتوح الاسلامية فى قطع العلاقات التجارية بين الغرب والشرق .

والعمل فى الوثائق لا يزال فى مبدئه — وان كانت جهـود توفيق اسكندر وعبد اللطيف ابراهيم تبشر بمستقبل جيد — على أن العمل فى وثائق العصر الحديث قد تأثر باعتزال محمد محمد توفيق العمـل فى دار الوثائق .

والاتصال بحركة البحث فى المجتمعات المقابلة لمجتمعنا قد ضعف ضعفا بينا . ولعل ما نتوخاه من نشر ترجمة عربية لكتاب فى التاريخ الاقتصادى المقارن يتحقق باطلاع القارىء العربى على ثمرات الدراسة المقارنة .

وسأحاول فيما يلى أن أقدم للباحثين مشروع خطة للعمل فى مـادة التاريخ الاقتصادى العربى :

أولا : ستنشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجموعة مختارة من الوثائق التاريخية الاقتصادية على نمط المجموعة القيمة التى اختارها لوپز وريموند Lopez & Raymond بعنوان التجارة فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى وقد نشرت فى ١٩٥٥ .

ولا بأس بأن نشير الى أقسام هذه المجموعة : القسم الأول : أصول الانقلاب التجارى — القسم الثانى : الأسواق والتجار والبضائع وأدوات التبادل — القسم الثالث : العقود التجارية والاستثمار التجارى — القسم الرابع : النقل ومشاقه — القسم الخامس : الأدوات والأفكار . وسنعمل فى الوقت نفسه على نشر مجموعات كاملة مما لدينا ، وسنبدأ بوثائق العصر المملوكى المحفوظة بالمحكمة الشرعية .

ثانيا — ونرجو أن توفق الجمعية لأن تتبع الدراسة النموذجية التى قام بها المرحوم الدكتور زكى محمد حسن فى « كنوز الفاطميين » بدراسة من نوعها لعصر أو عصور أخرى عن تاريخ الآثار المصرية .

ثالثا — ترجمة دراسات أساسية لموضوعات التاريخ الاقتصادى مما نشره أعلام ذلك التاريخ فى المجلات العالمية الكبرى — ويعمل الآن توفيق اسكندر فى ترجمة عدد من الدراسات التى اعتمد عليها لويس فى كتابه — ونرجو أن نوفق فى القريب لترجمة بعض دراسات المستشرق الألمانى (بكر) فى التاريخ الاقتصادى المصرى وبعض دراسات المستشرق الفرنسى (ماسنيون) للتاريخ الاقتصادى العباسى .

* * *

ثانيا ـ نظرية المؤرخ البلجيكى بيرين Pirenne الواردة فى كتابه المشهور المعنون بالفرنسية محمد وشارلمان وما قاله لويز عنها وما يراه لويس فيها

لخص حسين مؤنس نظرية بيرين تلخيصا حسنا فى مقال نشره فى المجلة التاريخية المصرية (مايو ١٩٥١ المجلد الرابع ، العدد الأول) بعنوان المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط الى الحروب الصليبية — وتجد فيما سبق من كتاب لويس موجزا لما ذهب اليه بيرين . وقد أشرنا فى

الخلاصة التى نشرناها فى القسم الثانى من هذا التقديم ما ذهب اليه لويس من أن المسئول عن انقطاع الصلات فى حوض البحر المتوسط كان البيزنطيون لا العرب وفى رأى المؤرخة رينيه ديهار فى مقال نشرته فى العدد الثانى من المجلد الأول من مجلة التاريخ العالمى ان الذى حدث لم يكن انقطاعا للصلات بل تغييرا فى الطرق وفى الأوضاع .

ويقول المؤرخ لوپز فى بحث نشره بعنوان « اعادة النظر فى محمد وشارلمان » ما ملخصه :

يتحدث المؤرخون عن فقدان البحر المتوسط وحدته الاقتصادية ، ويستدلون على ذلك باختفاء ما كان يستورده أهل الغرب من البردى ومن المنسوجات الثمينة ومن التوابل ومن السكة الذهبية .

ولم تختف هذه الأشياء معا وفى وقت واحد ، ولا يعاصر اختفاؤها الفتوح العربية .

فالبردى — مثلا — كان يصنع فى مصر وحدها ، ومصر فتحها العرب فى سنة ٦٣٩ — ٦٤١ ولم يبطل استعمال البردى فى فرنسا تحت حكم بنى ميروفنج الا فى سنة ٦٩٢ ، على أن استعماله لم يبطل فى جهات أخرى من غربى أوربا ، ولم يكن البردى فى الواقع مما يصلح للاستعمال فى جو بلاد ذات جو بارد رطب كفرنسا . ولكن القوم مضوا فى استعماله احتراما للتقاليد الرومانية . على أنهم أخذوا يستعملون الرق ابتداء من ٦٧٠ أى فى وقت واحد مع البردى — ثم لما أبطل عبد الملك تصدير البردى اكتفوا فى فرنسا باستعمال الرق وهو أصلح لمناخهم .

وأعيد هنا ما ذكرته عما يفيده المؤرخ من استخدام الآثار .

ومن هذا القبيل ما يقال عن التخلى عن استعمال السكة الذهبية نهائيا بعد لويس التقى — وقد ثبت أن ذلك لا يرجع مباشرة الى الفتوح

العربية ، بل الى ضآلة شأن الحكومات المتبربرة . وآية ذلك آنه فى القرن الثالث عشر عندما تضاءلت قوة الروم والعرب عاد للسكة الذهبية فى الغرب شـأنها .

والتقلبات التى طرأت على استيراد المصنوعات الشرقية (بما فى ذلك المنسوجات الثمينة) ترجع الى تطور العلاقات البيزنطية العربية — والثابت أن الدولة العربية كانت أتم استعدادا لتصدير المنسوجات من صنع دور الطراز من الروم ؛ اذ كان لهؤلاء تدقيق فيمن لهم حق ارتداء تلك المنسوجات من الغرباء .

وعن التوابل لابد من أن نحسب حساب تغير الأذواق ، ولابد من أن نذكر أن التوابل تأتى من أقطار مختلفة فلا يكفى سبب واحد لتفسير ما انتاب التجارة فيها من تقلبات . وقد تتأثر التجارة مثلا بأحداث تحدث فى أقصى الشرق أو فى قلب القارة الافريقية .

ونضيف الى هذا أن ارتقاء مستوى المعيشة فى البلاد العربية أدى الى استيراد التوابل للاستهلاك المحلى العربى لا للتصدير لأوربا . والظاهر أن الاستيراد دائما كان لا يتناول الا كميات قليلة وان المعروض فى الغالب كان أقل من المطلوب .

هذا مثال للبحث العلمى فى حقائق التاريخ الاقتصادى .

ثالثا : امتدادات المجتمعات الثلاثة التى تقابلت فى حوض البحر المتوسط

— امتد المجتمع المسيحى الأرثوذكسى (دولة الروم المنتصرة) للروسيا وللبلقان . وعندما زالت دولته نهائيا على يد الترك العثمانيين فى منتصف القرن الخامس عشر بقى المجتمع ممثلا فى امتداداته (الروسيا والبلقان) — ومن الروسيا اتسع نطاق المجتمع عبر آسيا للمحيط الهادى فى أقصى الشرق .

— وامتد المجتمع الاسلامى عبر الصحراء الافريقية لما يليها جنوبا وعبر البحار الهندية لجزائر المحيط فى جنوب شرقى آسيا — كما امتد على الشاطىء الشرقى للقارة الافريقية . وامتد أيضا فى أواسط آسيا — والى الهند والى الصين .

— وامتد المجتمع الغربى الى شمالى أوربا ثم عبر المحيطات الى العالم الجديد والى الأقطار المختلفة التى استعمرها الأوربيون .

وفى وقت ما أدت هذه الامتدادات الى التقاء تيارات تجارية عالمية فى البحر المتوسط ثم بطل هذا الالتقاء وتحول البحر فى الأزمنة الحديثة الى حلقة من حلقات المواصلات العالمية .

ومن الطريف أن ننقل اقتباسا للمرحوم الدكتور زكى محمد حسن (كنوز الفاطميين ص ١٧٨) من كتاب جلستان لسعدى يطلعنا على امتداد العلاقات التجارية فى العصور الوسطى :

تحدث سعدى فى باب فضل القناعة عن تاجر ثرثار أخبره انه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة ؟ وأجاب التاجر : « أريد أن أحمل الكبريت من ايران الى الصين فقد سمعت أن له قيمة عظيمة بها . ومن هناك آخذ الخزف الصينى الى بلاد الروم ، ثم أحمل الديباج الرومى الى الهند ، والفولاذ الهندى الى حلب . وآخذ الزجاج الحلبى الى اليمن ، والأقمشة اليمنية الى ايران » .

* * *

رابعا : القوة البحرية الاسلامية عند ابن خلدون

(نص مختار من المقدمة : طبعة بولاق من ص ٢١٠ وعنوانه قيادة الأساطيل — نورده ملخصا) .

قيادة الأساطيل من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغـــرب وافريقية ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند منقولا عن الافرنجية (والعجيب أن الأصل الأفرنجى محرف عن العربية — فاستعمل أهل المغرب تحريفا لتحريف أفرنجى لكلمة عربية) وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لأنهما جميعا على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبته الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشام أيضا .. والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن ؛ فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله . ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية — مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب — أجازوا فى الأساطيل وملكوها .. والعرب ببداوتهم حينئذ لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته (لاحظ هذا الاستعمال لكلمة ثقافة) وركوبه . والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك بالعـــرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا الى الجهـــاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشـــواتى وشـــحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس .. فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه .. وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسةوسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطشوقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج .. حتى اذا أدرك الدولة العبيدية . (الفاطمية) والأموية (بالأندلس) الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وأقريطش ومالطة فملكوها ، ثم ألحوا على سواحل الشام فى تلك الفترة فملكوها .. ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهما الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين .. وضعف شأن الأسطول فى دولة مصر والشام (أى الدولة الأيوبية) الى أن اقتطع ولم يعتنوا بشىء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به فى الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف فى أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها .. ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين (المغرب والأندلس) أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد .. (محاولة صلاح الدين الاستعانة بالقوات البحرية الأندلسية المغربية لمنع المدد الصليبى من الوصول بحرا الى الشرق) .. ولما اختلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس وألجئوا المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى قويت ريحهم فى بسيط هذا البحر .. وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم .. ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد اليدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمرانة عليه .. وصار المسلمون فيه كالأجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار

والأعوان أو قوة من الدولة تستجيش معهم أعوانا ـ وبقيت الرتبة لهـذا العهد فى الدولة المغربية محفوظة والرسم فى معـاناة الأساطيل بالانشاء والركوب معهودا ـ فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لابد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون فى الأساطيل والله ولى المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد شفيق غربال

القاهرة يوليو سنة ١٩٦٠



تصدير المؤلف

منذ خمسين سنة قدم ماهان الى جمهور الدارسين ، نظريته فى أهمية القوة البحرية فى التاريخ . ومنذ ذلك الوقت وكثير من مهرة مؤرخى العصور القديمة والقرون الأخيرة من العصور الوسطى والعصور الحديثة ، يبحثون فيما كان للسيطرة على البحار من أثر فى ميادين دراساتهم التاريخية . ومع ذلك ، فان القوة البحرية ما بين عامى ٥٠٠ و ١١٠٠ ميلادية ، يكاد يكون قد أهمل بحثها تقريبا الا من شتات من البحوث المتواضعة . حقيقة أن پيرين فى كتابه « محمد وشرلمان » أوضح ما كان للسيطرة على البحر من أهمية فى تكوين وحدة أوربية غربية ترتبط فيما بينها بروابط اقطاعية ، وتحيا منفصلة عن العالمين البيزنطى والاسلامى المجاورين لها . وكان قد أكد قبل ذلك فى كتابه « مدن العصور الوسطى » ، الدور الحاسم الذى كان لاعادة فتح البحر المتوسط للتجارة الغربية فى القرن الحادى عشر . ورغم أنه نشأت اعتراضات كثيرة على بعض نظرياته ، الا أن أحدا لم ينكر أهميتها لفهم هذه الستة القرون المعقدة المضطربة من تاريخ البحر المتوسط فهما صحيحا . غير أن پيرين وقد أوضح أهمية القوة البحرية ، لم يهتم بدراستها فى الواقع ، الا بقدر ما تصور من تأثيرها على غرب أوربا ، ولا سيما على ذلك الجزء من جنوبى أوربا الممتد على سواحل ايطاليا الشمالية الغربية وجنوب فرنسا ، فلابد اذن من دراسة أكثر دقة ، لنتبين أولا : كيف كانت حالة القوة البحرية أوائل العصور الوسطى ؛ ولنتبين ثانيا : مدى تأثير تلك القوة على تجارة البحر المتوسط وتاريخه .

بيد أن العقبة الكبرى التى حالت دون تفهم هذا الموضوع ودراسته دراسة كاملة ، جاءت من مصدر آخر . فان غزوات العرب فى القرنين السابع والثامن ، وحرب الأيقونات التى تلت تلك الغزوات ، لم تقف عند حد تقسيم عالم البحر المتوسط الى ثلاثة مجالات حضارية متميزة هى : حضارة أوربا الغربية والحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية فحسب ، بل أدت ، منذ تلك الأيام ، الى تقسيم المؤرخين الى فرق ثلاث وفق المجالات الحضارية الثلاثة . ونتج عن ذلك أن صعب على الدارسين النظر الى البحر المتوسط كلا واحدا ؛ وهو فعلا هكذا اذا نظرنا اليه من وجهة نظر القوة البحرية ؛ فالبحار لا تَفصِل بل هى أداة وصل . وهى ليست حواجز وانما هى طرق صالحة لمن توجد لديهم وسائل الانتقال فيها . وهذه هى الحال خصوصا قبل ظهور السكك الحديدية والطرق الممهدة والطائرات السريعة . واليوم نرى أمريكا شبيهة بأوربا الغربية — على الرغم من آلاف الأميال البحرية التى تفصلهما — أكثر من شبه هذه الأخيرة بأوربا الشرقية القريبة منها . وهذا هو أثر الاتصال البحرى الذى أتاحته السيطرة على البحار .

ومع ذلك فان معظم المشتغلين بالعصور الوسطى ينظرون الى البحر المتوسط من زاويتهم الخاصة : من روما مثلا ، أو من أية جهة من ايطاليا ، أو من فرنسا ، أو ألمانيا ، أو حتى من انجلترا . كما أن الباحثين البيزنطيين قر قرارهم على القسطنطينية الكبرى ، فمنها ينظرون شمالا الى البحر الأسود ، أو جنوبا — عبر بحر ايجه المرصع بالجزر — الى البحر المتوسط . أما معظم المشتغلين بالدراسات العربية ، فيبدو من كتاباتهم أن قر قرارهم كذلك فى دمشق أو فى بغداد أو القاهرة أو القيروان أو فى پالرم أو قرطبة . وحتى المعنيين بالدراسات الصقلبية لا ينظرون الا فى البلقان أو سهوب جنوب روسيا . والقليل من الكتاب هم الذين اتسع أفقهم أمثال لوپيز

وقاسيليف . وتتج عن هذا — من وجهة نظر البحر المتوسط وأهميته البحرية — ضياع قيمة الكل وتلاشيها فى الجزء ، وتصدع واضح فى المنظور العام لذلك البحر .

والدراسة التى نقدمها هنا ، محاولة لتجنب تلك المزالق ؛ فهى تحاول أن تنظر الى البحر المتوسط فى جملته ، بل انها تضيف اليه البحر الأسود ، الذى لم يكن فى المدة بين ٥٠٠ — ١١٠٠ م ، جزءا أساسيا منه .

والتاريخ الأول من هذين التاريخين ، يحدد انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب ؛ أى انه يحدد نهاية مرحلة فى تاريخ البحر المتوسط امتدت حوالى ستمائة سنة ، خضعت فيها كل سواحل هذا البحر لارادة امبراطورية واحدة . أما التاريخ الثانى فانه يشهد بداية عهد جديد ؛ لأن البحر المتوسط وقع منذ ذلك الوقت فى قبضة ملاحى أوربا الغربية ، وظل كذلك حتى اليوم ، فيما عدا مرحلة قصيرة من القرن السادس عشر ، كانت السيطرة فيه للعثمانيين .

ومشاكل هذه الدراسة مضنية جدا ، لأنها تتعلق الى درجة كبيرة بمدى توافر المراجع . اذ الواقع أن مصادر المادة الملائمة لتلك الدراسة مبعثرة ، كما أنها نادرة جدا فيما يتعلق بفترات بذاتها . فمثلا من الصعب أن يثبت كثير من الحقائق عن المدة من أواخر القرن السادس حتى القرنين السابع والثامن ، وهى مدة على جانب كبير من الأهمية . هذا الى أنه لابد من اطلاع واسع النطاق على آثار مؤرخى الحوليات البيزنطية ، والجغرافيين والمؤرخين العرب وعلى آثار الموثقين المترهبين من السوريين والأقباط والأرمن والروس ، وكذلك على آثار مؤرخى حوادث أوربا الغربية قبل أن نضع الخطوط الرئيسية لأحداث بعض الحقب . ثم ان الأرقام غير الموثوق بها التى ذكرها المؤرخون والرواة العرب ، مشكلة أخرى ؛ اذ يضطر المؤرخ الى استخدامها

واستخراج الحقائق منها ، دون أن يكون ثمة لهدايته الا القليل . ولهذا كان مما لابد منه أن يستخدم المؤرخ المصادر المتأخرة لتلقى له ضوءا على الحوادث السابقة . وهو — لحسن حظه — يستطيع أن يعتمد اعتمادا كبيرا على البحوث العلمية العظيمة التى صدرت فى الثمانين السنة الأخيرة وشملت الميادين الثلاثة الكبيرة التى يقع فيها بحثه . ولولا الجهد العقلى الجاد ، والبحوث التى أصدرها بوك وبيورى وكارانس وديل وجرجوار ورانسيمان وشلمبرجر وفاسيلييف فى الميدان البيزنطى ؛ ولولا ما أصدره بلوش ودبش وجـاى وهالفن ولوپيز وپيرين فى تاريخ أوربا الغربية ؛ ولولا ما كتبه فيليب حتّى ومتز فى ميدان التاريخ العربى العام ، وما كتبه دوزى وليفى پروفنسال عن اسبانيا ، وما كتبه أمارى عن صقلية ، وچوتييه ومارسيه عن شمال أفريقيا ، ولين پول وڤيت عن مصر ؛ لما أمكن وضع هذا الكتاب . يضاف الى هذا ، الدراسات العميقة التى قام بها كل من هيد وشوبة عن التجارة ، فهى ذات قيمة كبيرة فى رسم منظور تام الوضوح لهذا الموضوع .

وهناك مشكلة أخـرى هى الخاصة بتأريخ حوادث معينة . فغالبا ما يختلف اختلافا كبيرا تأريخ المراجع العربية والبيزنطية والغربية لحادثة بعينها . ويرجع هذا الى اختلاف التقاويم الزمنية عند كل فريق .

ولما كان المقصود من هذا العمل أن يستخدمه القارىء العادى والمتخصص على السواء ؛ فقد استبحنا لأنفسنا حرية اثبات تاريخ اخترناه دون غيره من تواريخ هى أيضا ممكنة . وكل ما نرجوه أن يكون اختيارنا ، فى مثل هذه الحالات متفقا فى مجمـوعه مع ما يراه أولو العـلم فى هذه الشئون ؛ والا فعلى أن أتحمل وحدى مسئولية هذا التبسيط . وبنفس هذه الروح أحيل المراجع المدونة فى حواشى الكتاب على المصادر المترجمة . وهـذا

يرجع من ناحيــة الى أن معرفتى باللغــات القبطية والسريانية والعــربية ويونانية العصور الوسطى ، ليست معرفة وثيقة ؛ كما يرجع الى رغبتى فى أن أيسر على القارىء تتبع المراجع المذكورة بالحواشى . واتبعت سياسة مشابهة فى التقليد من مراجع الحواشى من باب التيسير على القارىء أيضا . وكل رجائى أن يعفو قارئى المتخصص عن هذه الجرأة .

ويجب أن أذكر — زيادة على ما سبق — أن المشكلات التى تعرضت لها هنا فى هذه الصفحات ، لم تحل جميعا حلا مقنعا . وربما كان بعضها مما لا يمكن حله بطريقة نهائية ؛ وربما كان البعض الآخر مما يمكن توضيحه بزيادة العمل فى المصادر البيزنطية المحلية ؛ وفى مجموعات أوراق البردى المصرية التى لم تنشر كلها ؛ وفى البحث الذى يجــرى حثيثا فى النواحى الاقتصادية والثقافية للحضارة الاسلامية . وما على المؤلف الا أن يأسف على علمه المحدود ، وعلى أنه لا يلم الالمام الكافى بما تجب معرفته . ومع ذلك فانه يأمل أن تعتبر اثارة الأسئلة ، التى أثارها هنا عن هذه الحقبة ، أهم بكثير من محاولة الحصول على الاجابة الصحيحة لها .

والجدير بالذكر أيضا أن هذا المجلد لا يحتوى على قسم للمراجع عامة وذلك لأن المراجع فى هذا الميدان الواسع تحتاج الى صفحات تعادل تقريبا عدد صفحات المتن نفسه . وثمة سبب آخر أهم من هذا هو أن هذه المراجع وردت بصورة جيدة وكاملة فى بحث د . س . لوپيز عن التجارة الداخلية والخارجية فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، المنشور ضمن الجزء الثانى من موسوعة كمبردج عن التاريخ الاقتصادى .

ويشـكر المؤلف هنا أصدقاءه وزملاءه العديدين الذين عاونوه ، وفى مقدمتهم جامعة كارولينا الجنوبية والمجلس الأمريكى للهيئات العلمية ، اذ تمكن بفضل مساعدتهما المالية من القيام بهذه البحوث واتمام هــذا

العمل . ويشكر الدكتور لوپيز من جامعة ييل ، لمساعدته التى لا تقدر فى المراحل الأولى للبحث عن المراجع ، وفى التوجيه العام والاقتراحات القيمة التى قدمها ؛ وكذلك الدكتور چ . ر . شترابر والمرحوم السيد چ . ر . واتكنز من جامعة برنستون ، وكذا السيد بوردت . ج . لويس الابن من ايست أورورا بنيويورك والسيد ارفنج فان زانت الابن وحرمه من برنستون للمساعدات والمقترحات التى أبدوها عند التأهب لنشر هذا الكتاب ، كما يشكر الدكتور جراى . س . بويس من الجامعة الشمالية الغربية لمساعدته على مراجعة الكتاب ومصادره .

كولومبيا **ارشيبالد ٠ر٠ لويس**

يناير سنة ١٩٥٠

الفصل الأول

عالم البحر المتوسط عام ٥٠٠م

حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية ، عاش عالم البحر المتوسط فى سلام لأول مرة، مدة قرن من الزمان تقريبا . فالجرمان الذين قضوا على الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، أخذوا يستقرون تدريجيا منذ عام ٣٧٨ م فى ممالك منظمة . وفى الشرق أمكن للامبراطورية الرومانية الشرقية أن تبقى متماسكة الأطراف فى البلقان وآسيا الصغرى وسورية ومصر وبرقة . وجلس على عرش القياصرة فيها الداهية العجوز انسطاسيوس ، الذى أفاض على رعيته من حكمته وبراعته الادارية ؛ والذى جمع من المال ما أفاد منه جستنيان لعشرات السنين فيما بعد . حكم ذلك الداهية دولة غنية عمها الرخاء والسلام ؛ وتقرب للحركة المونوفيزيتية ليأخذ مصر وسورية الى صفه .

أما فى الغرب ، فقد جاء بعد جزريك الوندالى الطاغية ، خلفاء ضعاف ، حكموا امبراطورية بحرية تكونت من شمال افريقية وسردينيا وجزر البليار ، وربما شملت كورسيكا أيضا . وكان من أثر الأموال الطائلة التى فاضت بها امبراطورية هذا الملك الغنية أن وهنت عزائم خلفائه فنسوا مهارتهم فى القرصنة ، تلك المهارة التى جعلتهم مرهوبى الجانب خلال خمسين سنة مضت ، فعجزوا عن حماية أملاكهم الافريقية من اعتداءات قبائل البربر

المقيمة بالجبال ؛ وتقلصت ممتلكاتهم الى عدد من المدن الساحلية ، الى جانب الاقليم الرومانى القديم بأفريقية .

وفى اسپانيا وفرنسا كانت مملكة القوط الغربيين تحت حكم ملك قادر هو ألاريك . وكانت بلاد القوط الغربيين غنية ، ولكن الشعب الذى أثاره نبلاؤهم المستقلون ، جعل من الصعب على الملوك أن يحكموا حكما قويا . أضف الى ذلك أن الفرنجة عمدوا الى طرد هؤلاء القوط من أملاكهم فى حوضى اللوار والجارون ، ووصلوا الى البحر المتوسط على حسابهم .

وفى ايطاليا كان يحكم ملك القوط الشرقيين ، تيودور العظيم ، أقدر ملوك الجرمان فى الغرب ، وأبرعهم فى حكم القوط والرومان على حد سواء . استخدم تيودوريك فى ادارة بلاده ، النابهين من الرؤساء اللاتين أمثال بوتيس وكاسيودورس ؛ ونجح فى زيادة رخاء ايطاليا عما كانت عليه منذ قرون . وامتلك الى جانب ايطاليا : صقلية الغنية بالحبوب ؛ وسيطر بيد قوية على ممرات الألب فى الشمال والشمال الشرقى عند رايشيا ونوريكم وپانونيا ودلماشيا . كما تحالف مع الوندال والقوط الغربيين والفرنجة والبرجنديين عن طريق التزاوج مع أسرهم المالكة . وقد عمل على أن ينشىء شيئا من توازن القوى ، وذلك بمساعدة ذوى قرابته ، القوط الغربيين الضعفاء ، ضد اعتداءات كلوفس الفرنجى المتعطش للنهب والسلب ؛ والذى تسلل الى البحر المتوسط بعد أن سيطر على اقليمى الرون والجارون ، الخاضعين للقوط الغربيين فى بلاد الغال . وفى عام ٥٠٨ م ، أوقع جيش تيودوريك الهزيمة بالفرنجة ، وضم اليه اقليم پروڤانس . وبقى اقليم لنجدوك تابعا للقوط الغربيين[1] . ومنذ ذلك الوقت ، تحول كلوڤس ، ملك الفرنجة الجشع ، عن البحر المتوسط ، رغم ما كسبه حينذاك من عطف المسيحيين الشرقيين بتحوله هو ورجاله الى اعتناق الأرثوذكسية ؛

ورغم دسائس الحاكم الأعلى فى القسطنطينية الذى جعله بطرقا . وانصرف كلوفس الى الفتك بأقاربه الفرنجة من سكان ضفاف الرين وضم أملاكهم اليه ؛ بل انه وسعها على حساب قبائل الألمانى بألمانيا . ولم تصبح للفرنجة قوة فى البحر المتوسط الا بعد نصف قرن تقريبا ، عندما زال حكم القوط الشرقيين من ايطاليا .

وتتشابه ممالك القوط الشرقيين والغربيين والوندال ، رغم اختلافها ، تشابها عاما من جهات كثيرة . فكلها ترجع الى الأصل الجرمانى وتمثل أقلية جرمانية حربية صغيرة تحكم شعوبا كبيرة تتكلم اللاتينية . وهى لهذا منفصلة عن رعاياها من الناحية الدينية . فالقوط الشرقيون والغربيون والوندال كانوا هراطقة أريوسيين ، على حين لم يكن كذلك رعاياهم من غير الجرمان . بل كان هؤلاء الكاثوليك الأرثوذكس تابعين لزعامة روما البابوية ومن فوقها لزعامة القسطنطينية . ومع ذلك فيبدو أن هذه الاختلافات الدينية لم تحدث صعوبات شديدة بين الحاكمين والمحكومين ، الا فى شمال افريقية ، حيث اضطهد الوندال الكنيسة الأرثوذكسية أواخر القرن الخامس . أما فى الجهات الأخرى فان الحكام والمحكومين عاشوا معا على سواء بصفة عامة ، فى علاقاتهم الدينية وغير الدينية .

ويرجع سبب ذلك الى أن الملوك الجرمان أبقوا على الحضارة الرومانية التى وجدوها حولهم كاملة ، وحاولوا المحافظة عليها . ويعتبر تيودوريك فى ايطاليا مثالا طيبا لهذه السياسة . فبعد قليل من الخلاف والتسويف جاءه الاعتراف من امبراطور القسطنطينية باعتباره نائبا عنه . وأبقى تيودوريك رجال الوظائف الرومانية فى وظائفهم ، وكذلك القناصل والألعاب العامة والبيروقراطية واللغة والقانون والعملة والعادات . وحافظ على عادة توزيع الحبوب بالمجان ؛ وقد عاشت الطبقات الفقيرة فى روما زمنا طويلا على ذلك .

ولم يتدخل كثيرا فى شئون الكنيسة ؛ كما لازمه حتى أواخر أيامه شعور بأهمية الموظفين الرومان الذين خدموه فوثق فيهم ثقته فى أتباعه (٢) المحاربين من القوط .

ويصدق هذا القول أيضا على القوط الغربيين فى اسپانيا . فلم تقف عند حد احترام التقاليد والنظم الرومانية فحسب ، بل صيغت مواد القانون الرومانى فى المختصر المشهور الذى أصدره ألاريك لصـالح (٣) الرعية الرومانية حوالى عام ٥٠٠ م . كذلك يصدق هذا القول بدرجة أقل على مملكة الوندال ، بل وعلى الفرنجة الأكثر همجية .

ولم يقطع قيام هذه الممالك الصلة التى كانت بين شعوب الغرب وبين ماضيها قطعا عنيفا . وكأن ما حدث لم يزد على احتـلال مؤقت للأرض الرومانية بوحدات من الفرق الجرمانية . ولما كانت غالبية الجيوش الرومانية ، منذ القرن الثالث تتكون من الجرمان ، فان ما جد لم يترتب عليه تغيير أساسى . وكل ما هنالك أن كانت امبراطورية فى الغرب بلا امبراطور قائم . وحتى هذا لم يكن له من الناحية النظرية على الأقل سوى نتائج قليلة الخطر ؛ اذ انتقلت دفعة واحدة ، جميع الحقوق التى كانت للامبراطور فى الغرب الى الامبراطور الذى بقى فى ملك القسطنطينية وارثا شرعيا لأسلافه الأباطرة . وهكذا بقيت الامبراطورية دولة واحدة ؛ وبادر الحكام الجرمان والأباطرة المستبدون فى القسطنطينية — كل من جهته — يعملون على بقائها كذلك فى نظر الناس . ومنح الأباطرة أمراء الجرمان من أمثال كلوڤس ملك الفرنجة ، وتيودور ملك القوط الشرقيين ، حقوقا شرعية على الأراضى التى وقعت تحت أيديهم . واستمر الحكام الجرمان يؤرخون وثائق دولهم بسنى حكم قياصرة الشرق ، وينقشون صورهم على السكة التى يصدرونها . بل انهم أخضعوا تعيين قناصلهم لموافقة القسطنطينية مثلما فعل تيودوريك .

كذلك اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الجامعة ، امبراطور بيزنطة رئيسا لها وأكدت ما له من حقوق على جميع الكنائس الأرثوذكسية فى الغرب [٤] .

وظهرت حالة اندماج بطيء بين الطبقات العليا من الرومان فى الغرب وبين الجرمان فى كل مكان تقريبا . وقوّى تلك الروابط بينهم ، تحمس رجال أمثال : ألاريك ملك القوط الغربيين — صديق أپولّيناريس سيدونياس [٥] — وتيودور ملك القوط الشرقيين ، لرعاية الأدب والثقافة اللاتينية والاعجاب بهما . واذن فالكنيسة الأرثوذكسية واللغة اللاتينية وثقافتها والنظم والقوانين الرومانية وبقاء طبقات المجتمع على حالها والاعتراف نظريا بسيادة امبراطور القسطنطينية ؛ كل أولئك مجتمعا ، ملأ الغرب شعورا بأنه لا يزال جزءا من عالم البحر المتوسط الرومانى الرحيب ، الذى تقع عاصمته الكبرى على البسفور .

أما القسم الشرقى من البحر المتوسط ، فقد سيطر عليه حكامه الرومان سيطرة تامة . ومرت سنة ٥٠٠ ميلادية ، على ذلك القسم ، دون أن يمسه سوء من جانب القوات التى أقلقت بال الغرب ؛ هذا فيما عدا بعض الأقاليم اليونانية التابعة له فى البلقان . على أن هذه الجهات كانت أقل الأقاليم أهمية من الناحية الاقتصادية بسبب ما أصابها من اضطراب نتيجة لغارات الجرمان . أما بقية بلاد الدولة فانها تمتعت بالسكينة والرخاء ؛ ويرجع هذا الى سيادة السلام — لمدة قرن من الزمان — على الحدود الشرقية بين القسطنطينية وايران . ولم يبق اذ ذاك من أحداث القرن الثالث المهولة ، سوى ذكريات ضئيلة . ونسى الناس ما كان من انتزاع الفاتح الساسانى — تؤيده سياسة تَدْمُر الانتهازية — للأراضى الغنية فى سورية وفلسطين ومصر ، واغتصابها من قبضة الرومان الضعيفة . واستطاع أورليان أن يخضع الزبّاء حاكمة تدمر المتغطرسة ؛ وأن يخوض خلفاء قسطنطين — أواخر القرن

الرابع — معارك أخرى ضد فارس ، ومنذ ذلك الوقت ، اهتمت بلاد فارس بالمحافظة على السلام مع خصمها الرومانى فى الغرب بسبب قيام الاضطرابات الداخلية بها . واستفادت كل من آسيا الصغرى وسورية ومصر من هذا الهدوء لاصلاح ما أفسدته حوادث القرن الثالث ، فعمها جميعا الرخاء عن ذى قبل (٦) .

ولم يكن ثمة خطر على الانتظام الذى ساد بيزنطة حينذاك ، سوى الجدل الدينى الذى أحدثه مجمع خلقدون بين أصحاب عقيدة المشيئة الواحدة أو اليعقوبيين ، فى مصر وسورية وأرمينية من جهة ، وبين الأرثوذكس فى القسطنطينية من جهة أخرى . ففى هذا المجال عمل كل من زينون وأنسطاسيوس على ايجاد توازن بين الفريقين بوقوفهما الى جانب الأساقفة اليعقوبيين ضد احتجاجات عاصمتهم الأرثوذكسية .

غير أنه بدا فى عهد أنسطاسيوس ، أن هذا السلام الطويل أخذ يؤذن بالانتهاء ؛ حين انتصر ملوك فارس الطموحون على أعدائهم فى الخارج وقضوا على الاضطرابات فى الداخل . وأصبح من الحكمة البدء فى تقوية مجموعات الحصون التى تحمى حدود سورية وأرمينية ؛ ولا سيما بعد أن كشف اختبار بسالة الجيوش الفارسية فى حرب قصيرة على الحدود الأرمينية السورية ، عما كان للخصم الساسانى من قوة مثيرة للعجب (٧) . وأمسى الخوف من تجدد الضغط الفارسى على الغرب يكون سحابة كثيفة تهدد السلام والرخاء اللذين سادا جو الدولة الرومانية الشرقية .

ومع ذلك فان الحرب لم تخف الأباطرة الشرقيين بالقدر الذى كان يصح لها أن تفعل ، رغم أن قواتهم الحربية كانت أقل جدارة بثقتهم . وكان الأباطرة الشرقيون يتجنبون ، منذ ذلك الحين ، استخدام مرتزقة الجرمان ، بعد أن ثبت خطر استخدامهم فى جيوش اخوانهم أباطرة الغرب . وتخلص

أنسطاسيوس فعلا من المحاربين الأيســوريين وقضى على قوتهم ؛ وهم الذين هددوا العاصمة على عهد زينون [٨] . واتخذ قواته وقواده من أبناء الامبراطورية ، فاختارهم اما من اللاتين سكان البلقان — وفعل مثله جستين الذى خلفه على العرش — واما من المخلصين من سكان الجبال بآســيا الصغرى .

وهكذا لم يوجد فى الشرق أجانب مثل ستيلـيكو أو أويتس ممن لا يستطيع عاهل الامبراطورية الرومانية فى الشرق الاستغناء عنهم . واستطاع الامبراطور بالحذر والحيلة ، أن يقضى على محاولات ڤيتاليان قبل أن يستبد به ويستعين بقوات من الصقالبة والهون كما فعل ستيليكو فى الغرب . ومات ڤيتاليان بعد فشل ذريع ، وراح ضحية الطموح الذى كثيرا ما أصاب نجاحا فى القرن السابق فى رافنا وفى أماكن أخرى من بلاد الغرب .

على أن القوة الحقيقية للامبراطورية فى الشرق كانت تقوم على قدراتها الاقتصادية لا على قدراتها الحربية . فقد ازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة وتركز الرخاء فى آسيا الصغرى وسورية ومصر . وتباهت كل وحدة من هذه الوحدات بعاصمة كبيرة عالمية ، فالقسطنطينية عاصمة لآسيا الصغرى وأنطاكية لسورية والاسكندرية لمصر . وشاركت عدة مدن أخرى فى سورية وآسيا الصغرى ، تلك العواصم الكبيرة فى مستوى ثرائها .

وترجع رفاهية هذه المناطق الى عدة عوامل ، بالاضافة الى فترة السلام الطويلة التى تمتعت بها مدة تزيد على قرن من الزمان . وأول هذه العوامل ، حيوية الزراعة وانتعاشها ؛ اذ الواقع أن الثروة الزراعية فى مصر ظلت مضرب الأمثال منذ القدم ؛ ويرجع الفضل فى ذلك الى الخصب الذى يجلبه الفيضان لحقولها سنويا . وبلغ الانتاج أشده فى أخريات حكم الرومان فكانت مصر تنتج كميات وفيرة من الحبوب ، وهذه كان يرسل جانب منها كضريبة

امبراطورية لاطعام السكان الذين تزدحم بهم مدينة القسطنطينية . وكانت الحكومة توزع الحبوب دون مقابل ، على الطبقات الفقيرة ، على نحو ما كان يحدث فى روما . وأصبحت المهمة الأولى للحاكم الرومانى فىمصر ، فى قاعدة الحكم بالاسكندرية ، هى أن يشرف على جمع الحبوب وتصديرها، وأقيمت هيئة خاصة من أمراء البحر ، عهد اليها مسئولية وصول الحبوب الى العاصمة (٩) . ولم نسمع عن وصول القمح المصرى الى روما بعد تأسيس دولة القوط الشرقيين بايطاليا . اذ يبدو أن تلك الدولة استمدت تموينها من صقلية وسردينيا وأفريقية . ويحتمل انقطاع قمح مصر عن روما فى تلك الفترة ، وأغلب الظن أن ذلك يرجع الى زمن انتقال قسطنطين الى عاصمته الجديدة على القرن الذهبى . وعلى أية حال فقد كانت هناك شحنات من الحبوب معدة للتصدير بغير الوسائل الحكومية ، الى جانب ما يرسل من حبوب الضريبة .

أنتجت مصر بالاضافة الى الحبوب ، حاصلات زراعية أخرى ذات قيمة تصديرية . وكانت سورية تصدر النبيذ والأخشاب ، ولعلها صدرت أيضا شيئا من زيت الزيتون . أما آسيا الصغرى فكانت تصدر الخيول والحديد والرخام وحاصلات أخرى متنوعة .

هذا الى أن المركز القانونى للزراع فى الشرق لم يقرب فيما يظهر من المركز القانونى للزراع فى الغرب ؛ مع أنه يبدو أن القوانين الامبراطورية التى أصدرها دقلديانوس وقسطنطين ربطت الفلاحين بالأرض فى الشرق كما كانت الحال فى الغرب — وهذه كانت حال الفلاحين المصريين من قبل البطالمة — الا أن عدد الضيعات الكبيرة كان أقل فى الشرق منه فى أفريقية واسبانيا وصقلية وغالية . وكان فى الشرق — بل وحتى فى مصر (١٠) — طبقة من متوسطى الحال من المزارعين وملاك الأرض . ولم يخل القرنان

الرابع والخامس من جماعات قوية مستقلة من الفلاحين من أمثال من وجدوا في الأناضول فى عهد القياصرة الأيسوريين [١١] . ولا نعرف سوى القليل عن سورية وفلسطين ، وان كان ما نعرفه عنهما ابان الحكم الاسلامى ، لا يحملنا على الاعتقاد أنهما اختلفتا كثيرا عن كل من آسيا الصغرى ومصر . واذن فان رخاء بلاد الريف كان أهم عنصر فى رخاء الأقاليم الشرقية .

أما العامل الثانى — فى رفاهية تلك المناطق — فنشأ عن تقدم الصناعة بها . الواقع أن مدن سورية وآسيا الصغرى ومصر ، فى القرنين الرابع والخامس ، لم تعش عالة على الريف بالمرة . ولم تكن مجرد أماكن لسكنى أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين يحصلون على ثرواتهم مما يبتزونه بموجب سلطات حكومية ، أو من استغلالهم للفلاحين ؛ وانما كانت المدن مراكز صناعية لعالم البحر المتوسط كله . وتأتى صناعة النسيج فى مقدمة الصناعات الهامة بها . اذ كانت تنتج كل من الاسكندرية والقسطنطينية وأفسوس وطرسوس وبلاد من سورية مثل بيروت وغزة وقيسارية وطرابلس وأنطاكية ودمشق أنواعا دقيقة من الصوف والحرير والكتان ، لا من أجل استهلاكها المحلى فحسب ولكن للتصدير الواسع النطاق الى الأسواق الخارجية [١٢] . وتخصصت تلك المدن أيضا فى انتاج ورق البردى والزجاج والأوانى المعدنية المصنوعة من الصلب أو البرونز أو النحاس . وكان معظم هذا الانتاج من المواد الكمالية وأهمها منسوجات مدينة صور الأرجوانية فى سورية وكتان مصر وستائرها المخملية ، والأقمشة الحريرية من صناعة سورية والقسطنطينية . ويدل ازدحام السكان بتلك المدن على مدى نشاطها الاقتصادى . على حين لم يكن فى الغرب سوى مدينة روما ، التى تجارى الاسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية من حيث ازدحامها بآلاف السكان .

العامل الثالث هو أن الشرق كان من مناطق التصدير الهامة . ويمثل

جانب من هذه الصادرات ، ما يقوم به السكان من اعادة تصدير الحرير والتوابل الآتية الى هذا الاقليم من بلاد الصين والهند وجزر الهند الشرقية ؛ هذا بالاضافة الى أنهم يصدرون منتجاتهم الصناعية والزراعية الخاصة ؛ الى جانب استغلالهم الحرير الخام وانتاج أقمشة منه .

اننا نعرف جيدا الطريق الذى اجتازته السلع الشرقية الى أسواقها فى الشرق الأدنى . وأحد هذه الطرق يقع فى الشمال ويبدأ من التركستان ويتجه عن طريق بحر الخزر والبحر الأسود الى شبه جزيرة القرم . وفى أواخر القرن الخامس م ، هزمت قبائل الهون البيض ، الفرس واستولت على بلاد الصغد وقامت بمهمة الوسيط فى نقل الحرير من الصين عبر هذا الطريق [١٣] الذى ظل مفتوحا للتجارة . والجدير بالملاحظة ما شعرت به الحكومة البيزنطية عام ٤٨٨ من أن واجبها أن تستعيد الاشراف على مدينة خرسون (سباستبول) بشبه جزيرة القرم ، وأن تعمرها[١٤] . وخرسون هذه مركز تجارى هام بالنسبة لتجارة الفراء مع روسيا[١٥] . على أن هذا الطريق الشمالى ظل بوجه عام فى حالة اضطراب خلال معظم القرنين الرابع والخامس بسبب تلك الجموع الضخمة من قبائل الرحل من هون وآفار تكتسح جنوب روسيا ، وكانت القسطنطينية طبعا نهاية هذا الطريق .

وهناك طريق آخر جنوبى اكتشفه البطالمة واستخدمه خلفاؤهم الرومان ؛ وهو طريق بحرى يبدأ عند سيلان وجنوب الهند ويصل الى مصر عن طريق البحر الأحمر . وكانت نهاية هذا الطريق فى البحر الأحمر عند مدينتى القلزم Clisma وجزيرة يوتاب وهى تيران الحالية Jotabe وهما لاتبعدان كثيرا عن مدينة السويس الحالية[١٦] ، كما استخدمت فى تلك الأيام مدينة برنيقة Bernice [١٧] . وتقع الى الجنوب على ساحل البحر الأحمر . ومن هذه الموانى نقلت المواد المستوردة الى الاسكندرية .

ومع ذلك فان معظم السلع الشرقية فيما قبل القرن السادس ، سلكت الطريق المتوسط عبر الأراضى الساسانية . على حين نقل البعض الآخر بحرا من سيلان والهند الى بحر العرب والخليج الفارسى ثم عن طريق بلاد ما بين النهرين الى الحدود السورية ، وجانب آخر سلك طريقا برية من التركستان وشمال ايران الى حدود أرمينية وسورية . ومرت التجارة فى هذا الطريق الأخير خلال عدد من المدن الواقعة على حدود الامبراطورية الرومانية مثل دارا وارتكساتا وكالينيكوم ، نصيبين (Nisibis)[18] . وتأخذ البضائع المستوردة طريقها من تلك المراكز الى موانى سورية أو القسطنطينية . وعلى ذلك فقد غدت كل منطقة من المناطق الاقتصادية الكبرى بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، نهاية لطريق هام من طرق تجارة الشرق الأقصى — فكانت مصر نهاية لطريق البحر الأحمر ، وسورية نهاية لطريق الخليج الفارسى والطريق البرى عبر فارس ؛ وكانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود . وشاركت كل منطقة على هذا النحو فى الرخاء الناتج عن اعادة تصدير البضائع المارة بها .

وأصبح اقليم البحر المتوسط كله مجالا لتصدير بضائع الشرق الأدنى سواء تلك التى يتم انتاجها محليا ، والتى تستجلب من الشرق الأقصى . والواقع أنه ابتداء من القرن الثانى ، صار لأهالى سورية ، واليونان ، ولليهود والمصريين — وهؤلاء الأخيرون اما من أصل يونانى أو يهودى — ما يمكن أن يسمى احتكارا لهذه التجارة العالمية الغنية القيمة . واجتذب الغرب لمزاولة هذه التجارة المربحة جاليات من المشارقة الى الاستقرار ببلاد غالية واسبانيا وايطاليا وشمال أفريقية بل وبريطانيا[19] وكان هذا قبل أواخر العهد الرومانى . ويعبرون عن هذا بالقول بأنّ نهر العاصى غمر التيبر . وقام هؤلاء الشرقيون ، فى تلك المراكز التجارية الوثيقة الصلة ببلادهم

الأصلية ، باستيراد بضائع الترف كالتوابل والأنبذة الفاخرة والأقمشة الحريرية والمنسوجات الثمينة التى تستخدمها الطبقات الراقية فى الغرب[٢٠]. ولا يبعد اشتمال تجارتهم على حاجيات أخرى مثل الخزف والبردى والحبوب والمنتجات المعدنية . ويرجع انتشار المسيحية الى حد كبير فى القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية حتى القرن الثالث الميلادى ، الى توافد الشرقيين على هذه البلاد ، ذلك أن معرفتهم لليونانية والعبرية جعلتهم على اتصال مباشر بالتعاليم المسيحية الأولى . ومن الطريف أن نلاحظ أن المراكز المسيحية الأولى فى الغرب ، هى بالضبط تلك المراكز الأكثر اشتغالا بالتجارة العالمية مع الشرق . وحمل السعى للحصول على الامتيازات التجارية السوريين وغيرهم على الايغال فى الداخل بعيدا عن المدن الساحلية . وقبل أن ينتهى القرن الرابع كانوا يوجدون فى معظم مدن الغرب الكبيرة . وقد أشار القديس چيروم المعاصر الى انتشارهم فى كل مكان وتحمسهم للكسب [٢١] .

ما الذى صدرته الأقاليم الغربية ثمنا لما كانت تستورده من الشرق ؟ هذا سؤال صعب والاجابة عنه موضع خلاف بين الثقات . ومن المؤكد أن المنتجات الزراعية والطبيعية مثل زيت زيتون شمال أفريقية والحديد وغير الحديد من معادن بلاد غالية والصادرات الكبيرة من الخشب اللازم لبلاد الشرق الجافة التى فقدت غاباتها ، كل أولئك ساعد كثيرا على تعادل مدفوعات الطرفين . ولكن الغرب فقد أهميته كمنطقة صناعية هامة ابتداء من القرن الرابع . وأصبح واضحا أن الخسائر الناجمة عن اضطرابات القرن الثالث العنيفة لن تعوض أبدا . ولم يعد لغالية وايطاليا الأهمية الصناعية مثل التى كانت لهما ابان القرن الأخير من تاريخ الجمهورية والقرنين الأول والثانى من تاريخ الامبراطورية . هذا لأن تلك الأقاليم الصناعية كانت تعتمد أصلا

والى حد كبير ، على رءوس أموال أساسها الأسلاب والجزية التى ابتزتها الجمهورية من الشرق فى القرن الأخير نتيجة استغلالها لبلاد البحر المتوسط. والآن وقد قضت أحداث القرن الثالث على موارد الاستثمار هذه فانه لم يعد لها ما يكفل انشاء رءوس أموال ، ومهما يكن فالظاهر أن الأقاليم الصناعية بالغرب ، عجزت عن منافسة الصناع الشرقيين وهم أكثر من حيث رأس المال والخبرة الفنية (٢٢) .

ويضاف الى ما سبق وجود عامل آخر أدى الى ضعف لا علاج له فى حياة المدن الغربية . وذلك أن المدن التى تكونت فى معظم جهات بلاد غالية وبريطانيا واسبانيا وشمال أفريقية مُصِّرت على غير أساس طبيعى ، وان كانت الحال فى ايطاليا تختلف عن ذلك الى حد ما . فلم تكن تلك المدن سوى مراكز ادارية أنشأتها الحكومة الرومانية لأغراض الحكم فلم تقطنها الجموع الغفيرة من المشتغلين بالصناعة والتجارة قدر ما استوطنتها الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأملاك التى عاشت على ما تحصله من فلاحى الأراضى (٢٣) التابعة لها . هذا فضلا عن أن المدن لم تكن ذات صفة انتاجية الا فى حدود المعنى المحلى الصرف . فلم تصنع من السلع ، بعد القرن الثالث ، سوى القليل مما تتوافر فيه الصفة الصناعية ويحتاج اليه تجار الشرق . ومن هنا تحرج مركز الغرب عند دفع ثمن وارداته وصارت الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا الحرج هى تصديره الذهب على نطاق واسع ، ليواجه العجز فى ميزان مدفوعاته ثمنا لما يحصل عليه من الشرق (٢٤) ، وهكذا ثأرت لنفسها فى أواخر عهد الامبراطورية ، كل من بيدنا Pydna وسينوسيفيلاى Cynocephyliae ومغنيسيا Magnesia ، ومجموعة مدن الشرق الأخرى التى نهبتها روما .

وقد أخفت التنظيمات التى فرضتها الحكومة الامبراطورية منذ زمن

دقلديانوس وقسطنطين ما فى هذه الحالة من خطورة ، فلم تمنع هــذه التنظيمات المدن الغربية من الاضمحلال التدريجى فى مساحتها وثروتها . وزادت الضيعات الكبيرة ازديادا مستمرا ، وهذه الضيعات كانت مصدرا من مصادر شقاء العالم الرومانى . على أنه ظل فى الامكان — طالما وجدت هناك حكومة واحدة للامبراطورية — خلق نوع من التوازن الضعيف على النحو التالى : وهو أن تفرض الحكومة الامبراطورية الضرائب على الشرق لتنفقها فى الغرب . ثم ان الحكومة شجعت التجارة والصناعة فى بعض الأقاليم مثل شمال فرنسا وبلچيكا وعلى طول حدودها على الدانوب ، نظرا لحاجتها الى امداد فرقها العسكرية على الحدود بما تحتاج اليه من المأكل والملبس والسلاح وسائر الحاجيات الأخرى . وتسبب عن هذا التشجيع ، رواج مفتعل فى الحياة المدنية والصناعية . وتعتبر مدينة تريف فى القرن الرابع مثلا طيبا لهذه الظاهرة (٢٥) .

ولم يلبث كل ذلك أن تغير بعــد نهاية القــرن الرابع . اذ أن انقسام الامبراطورية الى شرقية وغربية كان معناه أن ينهض الغرب بموارده المحلية دون ضرائب تأتى بها الحكومة من الشرق لتنفقها عليه لاحداث التوازن اللازم . وانتعش الشرق أيضا لتخلصه من ذلك الحمل الثقيل ؛ مع استمرار تدفق الذهب على بلاده . ولما عجزت حكومة الامبراطورية الرومانية الغربية عن أن تقيم أود نفسها ، انهارت آخر الأمر وانهالت عليها القبائل المتبربرة .

وليس معنى ما تقدم اختفاء حياة المدن فى الغرب خلال القرن الخامس ؛ اذ الواقع أنها لم تختف ، بل على العكس فان الكثير منها وعلى الأخص مدن ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا وشمال أفريقية ، والأخيرة ذات طبيعة محلية الى حد ما ، ظلت مراكز هامة للتجــارة والصناعة ، بل ان ثروات القوط الشرقيين بايطاليا ، والوندال بشمال أفريقية (٢٦) ، والقوط الغربيين

بأسبانيا [٢٧] ، والفرنجة ببلاد الغال [٢٨] . تدل على وجود رخاء حقيقى كما يبدو فى حياة البلاط عندهم وفى العملات الذهبية التى أصـــدروها . ويعتبر القوط الشرقيون زمن تيودوريك على وجه الخصوص مثلا طيبا على ما نقول [٢٩] . ولكن ليس لدينا سوى القليل من الأدلة على نمو تلك المدن أو تحولها عن الاتجاه الذى بدأته فى القرن الثالث .

ويحتمل أن تكون أمور أربعة هى التى أوقفت التدهور الاقتصادى المستمر وأنعشت الأحوال فى الغرب بعض الشيء أواخر القرن الخامس . وأول تلك الأمور ، استقرار السلام نسبيا عن ذى قبل ؛ اذ أن سـياسة تيودريك وما أحدثه من توازن فى القوى ، كان له دخل كبير فى هـذا الموضوع . الأمر الثانى : أن أسطول الوندال الذى كثيرا ما تعرض لتجارة البحـر المتوسـط زمن جزريك Gasseric المرعب قد توقف فى عهـد خلفائه عن الخروج من مرابضه بشمال أفريقية لتهديد طرق التجارة الرئيسية . والأمر الثالث : أن الأنظمة الادارية المبسطة التى اتبعها ملوك الجرمان وجيوشهم ، كانت أقل نفقة عما تكلفته الأنظمة الرومانية فى أخريات أيامها . وعلى هذا فقد تحسر سـكان ايطاليا وشمال أفريقية عـلى النعمة التى حرموها ، حينما أرسـل جستنيان اليهم فى القرن التالى [٣٠] قواده ومن ورائهم جباة الضرائب وجامعيها . وآخر تلك الأمور ما أدى اليه الاضطراب السائد حينذاك من ارتفاع أسعار احدى سلع الغرب ، وهى تجارة الرقيق . فابتداء من ذلك الوقت ، قامت تجارة رائجة فى موانى جنوب فرنسا وايطاليا قوامها تلك القطعان الآدمية المسيرة الى الشرق [٣١] . ومن المحتمل أن تكون هذه الأمور الأربعة قد قللت من تدفق الذهب نحـو الشرق ابتداء من عـام ٥٠٠ م .

على أن احتكار الأقاليم الشرقية للتجارة العالمية فى حـوض البحر

المتوسط لم يطرأ عليه عند ختام القرن الخامس ومطلع القرن السادس تغيير يعتد به ، واستمرت جاليات من التجار الشرقيين تقطن جميع المدن الغربية الهامة . وكانت هناك جموع غفيرة من اليونانيين والسوريين واليهود فى ناربون ومرسيليا وآرل ، أى عند نهاية طريق الرون التجارى الهام [٣٢] . وأشار سيدونيوس Sidonius الى وجود كثير من السوريين فى رافنا أواخر القرن الخامس[٣٣] . وازدحمت اسبانيا باليهود الذين سكنوا مدنها الكبرى مثل اشبيلية وقادس وطليطلة وقرطبة . وكانت لليهود فى نابولى طائفة مزدهرة الأحوال تعمل فى التجارة مع الشرق ويحميها تيودوريك[٣٤]. وظلت عملة القسطنطينية الذهبية ، بمستواها الذى بلغته زمن الامبراطور قسطنطين ، هى العملة الدولية المتداولة . ولذا حرص حكام البرابرة على سك عملتهم باسم ورسم امبراطور الشرق العظيم [٣٥] . وبقى الشرق والغرب مرتبطا أحدهما بالآخر اقتصاديا لصالح التجار الشرقيين الذين استمروا يمدون السفن التى تجوب البحر المتوسط بالملاحين ، ويجمعون أجور نقل البضائع التى يبيعونها هم أنفسهم فى الغرب . وفيما عدا بعض جهات من ايطاليا ، مثل سواحل البندقية التى يبدو أنها قامت بالتجارة مع الشرق [٣٦] على سفن تملكها ، فان بلاد الغرب وقفت موقفا سلبيا من الناحية الاقتصادية والصناعية . وبقيت مجالا استعماريا يستثمر لصالح سورية والاسكندرية والقسطنطينية كما حدث فى القرون السابقة .

أما العلاقات الاقتصادية التى قامت بين الامبراطورية الرومانية الشرقية وامبراطورية آل ساسان فى الشرق ، فانها اختلفت اختلافا واضحا ، ومن عدة وجوه ، عن علاقاتها مع دول غرب البحر المتوسط . وثمة أسباب عديدة لهذا : وفى مقدمة تلك الأسباب أن بلاد الفرس الساسانيين ، لم تكن جزءا من الامبراطورية الرومانية الشرقية ، على عكس ممالك المتبربرين فى الغرب

فهذه اعتبرتها الامبراطورية الرومانية الشرقية خاضعة لها دون شك . واذن فان التجارة مع فارس كانت تجارة أجنبية صرفا ، خارج حدود السّلم الرومانى `Pax Romana` ذلك الأمن الذى دام طويلا — نظريا كان أو عمليا — على شواطىء البحرين المتوسط والأسود . والسبب الثانى أن التجارة مع الشرق الأقصى لم تكن مربحة كالتجارة مع الغرب ؛ اذ تحتم على الامبراطورية الشرقية أن تدفع بالذهب (٣٧) ، أثمان التوابل والحرير المنقولين عبر طرق التجارة التى تتحكم فيها فارس . ورغم هذا ظهر أنه من غير الممكن الاستغناء عن هذه التجارة الشرقية وان لم تدر ذهبا على الامبراطورية كما كان ينتظر . وعلى أية حال استطاع الفرس كوسطاء ، التحكم فى المواد التى احتاجت اليها الامبراطورية الشرقية وطلبتها بالحاح ، على حين لم يكن للغرب مثل هذا الموقف .

هيمنت الحكومة الرومانية بعناية ، ولزمن طويل ، على التجارة الشرقية نظرا للاعتبارات السياسية والحربية التى بينها وبين فارس ، عدوتها بالقوة أو بالفعل ، ولطبيعة المعاملات الاقتصادية الهامة بينهما . ولذا لم تسمح بدخول تجارة الحرير والتوابل الآتية ، مجتازة الأراضى الفارسية ، الا من مدن نصيبين Nisibis وأرتكساتا Artaxata وكلينيكوم Callinicum ودارا Dara التى وضعت تحت اشراف دقيق من جانب الحكومة الامبراطورية . وفى أوائل القرن الخامس صدر قانون يحرم ابتعاد المواطنين الرومان عن هذه المدن أو استقبال التجار الأجانب بها دون علم قومس تجارة الشرق (٣٨) . ويعتقد لوبيز Lopez بوجود عواصم مشابهة على الحدود الشمالية ، خاضعة هى الأخرى لاشراف قومس على التجارة ، فى كل من مويسيا Moesia وسكيذيا Scythia والبحر الأسود وايليريا Illyricum وبنونيا Pannonia (٣٩) . ووضعت أنظمة (٤٠)

مماثلة لكل من القلزم وتيران بالنسبة لتجارة البحر الأحمر . فاذا ما وصل تاجر أجنبى الى واحد من تلك الثغور أو العواصم التجارية الهامة فحصت أوراقه جيدا ، فكان لابد من أن يكون لديه جواز مرور خاص وقوائم ببضائعه وأخرى بالمواد التى يريد شراءها من الامبراطورية[٤١] . وشرعت الدولة من القوانين ما حرم تصدير الذهب . وفى أوائل عام ٢٨٧ اعترفت بلاد فارس فى معاهدة بينها وبين بيزنطة بهذه العواصم التجارية التى أنشئت ووضعت تحت الاشراف الدقيق لتكون وحدها المنافذ التى تسلكها التجارة بين الامبراطوريتين[٤٢] . وهكذا قل خطر تصدير الذهب . وانخفض الى أقل حد ممكن ، تسرب الجواسيس والتجار الأجانب الىأراضىالامبراطورية الرومانية . ويحتمل أن هذا كان هو النظام الذى اتبع من قبل والذى عمل به على حدود الدولة كلها . وان صح هذا الزعم أمكن أن نعزو بعض أسباب نمو عدد من البلاد الغربية ابان الحكم الرومانى — مثل كولونيا وراتسبون وفينا — الى أنها كانت هى الأخرى عواصم تجارية تشرف الدولة منها على التبادل التجارى مع قبائل الجرمان فيما وراء حدود الامبراطورية .

وبالاضافة الى هذا الاشراف الدقيق على تجارة الشرق ، فان أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ، كانوا يحرصون منذ زمن طويل على ألا تقوم منافسة ما لعملاتهم الذهبية-وأكدت الاتفاقات المعقودة بينهم وبين ملوك الفرس التزام هؤلاء سك عملاتهم من الفضة على حين ظل سك العمـلات الذهبية وقفا على النقود التى تحمل صورة امبراطور القسطنطينية [٤٣] أو الفسيلفس . والواقع أنه منذ أيام تيودوسيوس حتى منتصف القرن السادس الميلادى ظلت الفضة أساس العملة الفارسية بينما استمر الذهب أساس التعامل [٤٤] التجارى فى عالم البحر المتوسط . واستمرت الحال الحال كذلك الى القرن التاسع ، أى بعد الغزو الاسلامى ذاته ، اذ اتخذ

الدرهم المضروب من الفضة ، على نسق العملة الفضية الساسانية حينذاك ، أساسا للتعامل فى بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس [٤٥] . ونذكر هنا أن كوزماس پليوستيس Cosmas Indopleustes وجـد أن العملة الذهبية كانت أساس التبادل التجارى الهندى فى القرن السادس [٤٦] . على أننا لا نستطيع أن نتأكد من مقدار قدم هذا القول وان كان هذا التطور لم يعد شيئا جديدا .

ويجرنا هذا الموضوع الى بحث موضوع طريف . ذلك أن أغلب المعنيين بالناحية الاقتصادية من المؤرخين يرون أن الميزان التجارى بين بلاد شرق البحر المتوسط وبين بلاد الشرق وهى ايران والهند والصين لم يكن متعادلا ، ويؤكدون استمرار تدفق الذهب نحو الشرق مقابل المستورد من التوابل والحرير وهى المواد الاستهلاكية اللازمة لبـلاد الشرق الأدنى وتجـارة البحر [٤٧] المتوسط . ويؤكدون ذلك بعبارة ترجع الى القرن الأول ، ذكرها پلينى Pliny ؛ يوضح فيها ما تكلفته الامبراطورية [٤٨] من الذهب مقابل ما استوردته من التوابل . ويستدلون على هذا أيضا بمقادير العملة الذهبية الرومانية الهائلة التى وجدت فى الهند وسيلان ؛ وكذا بالقيود التى فرضها أباطرة الرومان على خروج الذهب من أملاكهم . على أنه ان صح أن الذهب تدفق نحو الشرق خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، فان الدليل على حدوثه فى القرنين الرابع والخامس ضعيف . والواقع أن استخدام الفرس للفضة كقاعدة لعملاتهم دليل على أنه قد حدث شىء فى الميزان التجارى كان فى صالح الشرق الأدنى الرومانى ؛ على الرغم من سيطرة الفرس على تجارة التوابل والحرير الهامة . وأن رجحان كفة الرومان التجارى أدى الى نضوب موارد الفرس من الذهب واضطرارها الى اتخاذ الفضة أسـاسا لعملتها . وهذا هو ما وجدت أوربا نفسها مضطرة اليه بين القرنين الثامن ،

والثالث عشر . وهناك من الأسباب القوية ما يؤيد وجهة النظر هذه . ذلك اننا اذا استثنينا بلاد ما بين النهرين ، وجدنا أن الحياة المدنية فى فارس لم تكن على جانب كبير من التقدم مثلما كانت فى سورية ومصر وآسيا الصغرى . وان التفوق الصناعى الذى تمتع به الشرق الأدنى على بلاد الغرب ، تمتع به أيضا بالنسبة للفرس[٤٩] . حقيقة استفادت فارس من ميزة قيّمة هى نقل الحرير والتوابل عبر أرضها ، ولكن من المشكوك فيه أن قيمة هذه التجارة تعادلت وقيمة ما استوردته فارس من سورية ومصر وآسيا الصغرى من أدوات ومصنوعات . وسعت لتجعل غرّم الساسانيين أكبر بوساطة ما سنت من نظم لهذه التجارة . وفى ظل هذا تتضح ضخامة ثروة الامبراطورية الرومانية من الذهب ، كما تتضح التغيرات التى حدثت فى الامبراطورية الشرقية أواخر القرن الخامس .

وأول هذه التغيرات ما قرره الامبراطور أنسطاسيوس من الغاء ضريبة الذهب chrysargyron على جميع الحرف والممتلكات داخل الامبراطورية ؛ الأمر الذى قابله الشعب بحماسة بالغة[٥٠] ولبيان مقدار هذه الضريبة ، كمورد من موارد الدخل ، نقول ان الحكومة الامبراطورية رفعتها فى مدينة الرها الواقعة على الحدود الى مائة وعشرين رطلا من الذهب فى السنة [٥١] . ويدل هذا الاجراء دلالة واضحة ، وبطريق غير مباشر ، على أهمية التجارة الفارسية . ذلك أن الرها ، بحكم موقعها ، لابد أنها شاركت مشاركة فعالة فى تبادل السلع التجارية عبر الحدود . والتغيير الثانى هو ما عمد اليه كل من قسطنطين ودقلديانوس من الغاء الاجراءات التى تقضى بتضامن سكان المدن فى مسئولية دفع الضرائب لخزانة الامبراطورية . اذ أقاما موظفين جددا Vindices عهد اليهم تحصيل الايرادات [٥٢] ؛ مما يدل على وجود حالة رخاء ولا شك . وأخيرا فثمت حقيقة هامة هى أن أنسطاسيوس ترك

بخزانة الدولة عند وفاته قدرا هائلا من الذهب يبلغ ٠٠٠ر٣٢٠ رطل[٥٣] .

وعلى الجملة فاننا اذا نظرنا الى بلاد البحر المتوسط حول عام ٥٠٠ م استطعنا أن نرى رخاء عظيما فى الشرق الأدنى يسيطر فيه التجار السوريون والمصريون واليهود واليونانيون على التجارة الخارجية العالمية الهامة ويتحكمون فى أسواق الشرق والغرب على السواء . ونرى كذلك استمرار بقاء الامبراطورية — من الناحية النظرية على الأقل — مرتبطة كلها حتى مع الغرب المتبربر بعملة ذهبية واحدة وولاء لدين واحد واعتراف للقسطنطينية بالسيادة على البلاد التى كانت رومانية يوما ما سوى بريطانيا . ونرى كذلك استمرار الأنظمة الرومانية بتلك الامبراطورية — فى حياة المدن — بالشرق والغرب وان قلت نوعا ما ببلاد الغرب . كما نرى الدوافع الأولية التى جعلت تلك المدن اقتصادية الطابع ، والتفوق الذى أحرزته على الامبراطورية الساسانية صاحبة العملة الفضية والمفتقرة الى انتشار المدن . هذا بالاضافة الى تأثيرها الممتد بعيدا الى الهند وبلاد الصين وعلى فرض أن الامبراطورية سقطت فى الغرب ، الا أن بقاء البحر المتوسط رومانيا ، ظل حقيقة لا مراء فيها . وقدر لجستنيان أن يعبر عن تلك الحقيقة بأوضاع سياسية ظاهرة .

ولكن ما هو وضع القوة البحرية فى هذا البحر الذى سيطرت عليه الامبراطورية الشرقية اقتصاديا وتشريعيا ، بل والى حد بعيد سيطرت عليه سياسيا كذلك ؟ هنا نجد تناقضا بينا . ذلك أنه يبدو أن حكومة الامبراطورية الشرقية قبل عهد أنسطاسيوس لم تفهم كثيرا ولم تقدر بل ولم تهتم بتنظيم قوة بحرية . ونستطيع أن ندرك أسباب ذلك لو رجعنا ببصرنا الى ماضى تاريخ البحرية الرومانية .

فالرومان لم يهتموا باستخدام البحر كثيرا . وعلى عكس الاغريق ، كان

الرومان شعبا بريا دائما ، وليست لدينا أسماء الشجعان من ملاحيهم أو بحارتهم أو مكتشفيهم . وهم يمتازون فى الوقت ذاته ببناء الطرق والقلاع والمدن . وصورة الجندى الرومانى ، لا البحار الرومانى ، هى التى تحضر الذهن فى الحال كرمز أو اشارة لقوة الامبراطورية الرومانية .

على أن الرومان فهموا أهمية القوة البحرية (٥٤) ومارسوها منذ الحروب الفينيقية الى موقعة اكتيوم . وبعد اكتيوم توقف اهتمامهم بالبحرية لسبب وجيه ؛ ذلك أن البحر المتوسط غدا مقصورا عليهم ، ولم يعد لهم فيه منافس . ووزعت جهود الرومان الحربية على طول حدودهم عند الرين والدانوب وبلاد فارس والصحراء . ولم تكن بهم حاجة الى قوة بحرية دفاعية الا فى بريطانيا لبعدها عنهم ، حيث كان لهم قومس ساحل السكسون ليرد قراصنة السكسون عن أعمال النهب والسلب . ولم يكن من هدف لما أنشأوا من قوة بحرية سوى هدف الشرطة ؛ أى قهر القراصنة وحماية الواردات السنوية من الحبوب المنقولة على السفن من مصر وشمال أفريقية الى روما والقسطنطينية . ويفسر لنا هذا عجز الرومان حينما نزل القوط الى القرم وجنوب روسيا فى القرن الثالث واتخذوا طريقهم الى البحر الأسود وعبروا مضيقى البسفور والدردنيل وقاموا بأعمال التخريب فى بحر ايجه وما وراءه (٥٥) .

ويفسر لنا هذا أيضا ضعف المقاومة التى واجهها الوندال أواخر القرن الخامس عندما أفزعت أساطيلهم ، من مراكزها بشمال أفريقية ، منطقة غرب البحر المتوسط بأعمال القرصنة . وأقام الوندال زمن جيزريك Gaeseric مملكة بحرية ضمت جزر البليار وسردينية وكورسيكا ؛ ونهبوا روما ذاتها عام ٤٥٥ م . ولم يستطع الرومان أن يوجهوا ضدهم سوى حملتين بحريتين فقط . خرجت احداهما من الغرب تحت قيادة ماجوريان Majorian

وقدر لها الفشل الذريع [٥٦] ؛ وخرجت الثانية من القسطنطينية زمن ليو الأول وبقيادة مارسيلينوس Marcellinus ، فأصابت بعض النجـاح أول الأمر واستعادت سردينية عام ٤٦٨ ؛ ولكنها لم تجرؤ على مهاجمة قواعد الأسطول الوندالى فى شمال أفريقية . وانتهت هى الأخرى بالفشل ولم يلبث الوندال أن استرجعوا جزيرة سردينية [٥٧] .

من العسير أن نعرف الطريقة التى نظمت بها تلك الحملات فى القرن الخامس . ومن المحتمل أنها لم تكن الا سفنا تجارية استولوا عليها بقوادها الذين ألزموا بالخدمة فى تجريدة واحدة . وهذا يوضح عدم جدوى هذه الحملات . على أن الأسطول الوندالى لم يعد خطرا بعـد وفاة جيزريك عام ٤٧٧ م ؛ فلم نسمع بعدها بحملات قراصنتهم . ولعل تيودوريك قد احتفظ — على الطريقة الرومانية القديمة — بهيكل أسطول فى أستيا Ostia وراڤنا (كلاسيس Classis) . ومن المؤكد وجود بحارة ايطاليين مجبرين على الخدمة فى سفن مسخرة لأداء أغراض خاصة ؛ كما يستدل مما حدث أيام توتيلا فى القرن السادس . وعلى الجملة فان تنظيم القوة البحرية لم يكن له وجود فى الغرب حول عام ٥٠٠ م .

واتخذت الخطوة الأولى نحو تأسيس قوة بحرية دائمة فى البحـر المتوسط زمن الامبراطور أنسطاسيوس . ومن الصعب أن نتأكد من أنه كان المنشىء لدور الصناعة البحرية فى الاسكندرية وصور والقسطنطينية ؛ ولكنه هو الذى جهز عام ٥٠٨ م أول حملة بحرية مجهزة تجهيزا حسنا . وكانت عدتها مائة سفينة مسلحة بالاضافة الى عدد آخر من السفن الصغيرة عليها خمسة آلاف جندى وضعوا تحت امرة القائدين رومانس ، قائد فرقة الرفقاء Count of the Scholarii ورستيكوس ، قائد فرقة الحرس ، Count of the Domestics . ووجهت هذه الحملة ضد القوط الشرقيين بايطاليا الذين

أزعجت مطامعهم فى البلقان ، خاطر الامبراطور أنسطاسيوس . وعاثت هذه الحملة نهبا فى سواحل ايطاليا حتى طارنت(٥٨) . وفى هذه الأثناء وضحت الحاجة الملحة الى وجود قوة بحرية دائمة ، حين نشأت مشكلة اشتداد أمر ڤيتاليان ، وكانت تحت امرته مائتا سفينة مجهزة برجال من صقالبة الدانوب. وأخيرا اضطر أنسطاسيوس عام ٥١٥ — بسبب حاجته الى العودة — أن يخلى السبيل الى ڤيتاليان(٥٩) . وفى عام ٥١٦م أعد الامبراطور أسطولا آخر بقيادة مارينوس وزوده بمواد كيموية اخترعها پروكلس الآثينى (والظاهر أن هذه الكيمويات كانت تشبه الى حد كبير ما سمى فيما بعد بالنـــار الاغريقية) ، وبها أشعلت النار فى سفن العدو وأنقذت المدينة (٦٠) .

عندئذ تكونت قوة بحرية حقيقية ، قاعدتها ميـنـــاء القرن الذهبى ، وصارت نواة لما أصبح فيما بعد الأسطول البيزنطى العظيم ؛ وبدأ عهـــد جديد فى تاريخ البحرية البيزنطية فى حوض البحر المتوسط .

حواشي الفصل الأول

١ — منع هذا الفرنجة من أن يصبحوا قوة في البحر المتوسط لمدة نصف قرن . انظر :

Hodgkin, F. Theodoric the Goth (New York 1891), p. 197-206.
J. B. Burry, The Invasion of Europe by the Barbarians (London 1928), p. 205.

٢ — Hodgkin, op. cit., p. 134-74. Burry op. cit., p. 186-204.

٣ — Pirenne, H. Mohammed and Charlemagne (New York 1939), p. 1-62.

وهنا يبالغ بيرين في وصف المظهر الروماني لدولة الميروفنجيين ولكنه لا يبالغ في وصف ذلك المظهر بالنسبة لدول المتبربرين .

Cf. C. Dennett, Jr. "Pirenne and Mohammed in Speculum (1948) XXIII, 181-85.

٤ — مثال ذلك قصة خيانة بوتيس الشهيرة التي كانت في ظاهرها ولاء حارا للقسطنطينية .

Coster, C. H. "Procopius and Boethius" in Speculum (1949) XXIII, 284-85.

انظر أيضا Von Simon Sacred Fortress (Chicago 1948) وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الدينية بين القسطنطينية وايطاليا .

٥ — Sidonius Lettres trans. W.B. Anderson (London 1936), I., p. 335-45.

٦ — West, L. C., and Johnson A. C., Currency in Roman and Byzantine Egypt (Princeton 1945).

ومن وجهة نظر معارضه تماما انظر :

G. Michwitz "The Problem of Gold in Antiquity" in Annales d'Histoire Economique et Sociale (1934) VI, p. 246-47.

وعلى الخصوص انظر :

West, L. C. and Johnson, A.C. Byzantine Egypt, Economic Studies (Princeton 1949).

٧ – Procopius History of the Wars ed. Dewing (New York 1914-1940) 1, p. 49-83.

٨ – W. G. Holmes The Age of Justinian and Theodora (London1912) 1, p. 175-76.

٩ – Codex Just. XI, 6, 6.

١٠ – Johnson, A. C. Roman Egypt (Baltimore 1936), p. 27.
West & L. C., and Johnson, A.C. Byzantine Egypt (Princeton 1949).

هذه المؤلفات تضم قدرا كبيرا من المراجع والمعلومات عن هذا الموضوع .

١١ – Charanis, P. "The Social Structure of the Later Roman Empire" in Byzantine (1942) XVII, 41-47. Ostrogorsky, G. "Agrarian Conditions in Byzantine Empire in the Middle Ages" in Cambridge Economic History I.

١٢ – Lombard, M. "L'or Musulman du VIIe au XIe Siècle, in Annales (1947) II, 143. Procopius VI, 297.

١٣ – Agathias (ed. Bonn.), p. 266. Procopius 1, 13-31. Theo-phanes 1, 188-190.

١٤ – Vasiliev, A.A. The Goths in the Crimea (Cambridge, Mass. 1936), p. 43-47.

١٥ – Mierow, C.C. The Gothic History of Jordanes (Princeton 1915), p. 60. Vernadsky Ancient Russia (New Haven 1942), p. 146.

١٦ – Heyd Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1885) 1, 10-11. Codex Just. XI, 2, 40, 41, 63, 4. Digest 39, 4.

١٧ – المرجع السابق .

١٨ – Lopez, R.S. "The Silk Industry of Byzantium" in Speculum (1945) XX, 25-28.

١٩ – Charlesworth, P. Trade Routes and Commerce of the Roman Empire 2nd Ed. (Cambridge 1926), pp. 178, 202, 238.

٢٠ – Heyd op. cit., p. 20-21. Pirenne op. cit., p. 62.

٢١ – Hieronymus ed ad Demetriedei et Maurin IV, 2, p. 788.

٢٢ – D.C. Dennett, Jr. op. cit., p. 178-80. Grenier, A. "La Gaule Romaine" in An Economic Survey of Rome III, 567, 573, 599-603, 617-20 632.

٢٣ – Rostovtzell History of Rome (Oxford 1927), p. 249-51.

٢٤ - Lombard op. cit., p. 143-44.

٢٥ - Lot, F. The End of the Ancient World (London 1931)
يعطى هذا الكتاب تفسيرات مختلفة لهذا الموضوع ، ولا يذكر شيئا عن أى تجمع ببلاد غالة فى القرن الرابع .

٢٦ - Pirenne op. cit., p. 79-117. Dopsch, A. Economic and Social Foundations of European Civilization (New York 1937), p. 339-57.

٢٧ ـ المرجع السابق .

٢٨ ـ المرجع السابق .

٢٩ - Hodgkin op. cit., p. 139-43.

٣٠ - Procopius II, 278-79 ; IV, 159-61.

٣١ - Pirenne op. cit., p. 96-100.

٣٢ - Acta Concil. Narbon. a 589 con. 4 in Mansi Coll. Concil. IX, 1015. Gregory of Tours Hist. of the Franks VII, 31 ; VIII, 1 ; IX, 26.

٣٣ - Sidonius op. cit., p. 383.

٣٤ - Dopsch op. cit., p. 342.

٣٥ - Gasquet, A. L'Empire Byzantin et La Monarchie Franque (Paris 1888), p. 171-78.

٣٦ ـ الراجح أن تكون هذه تجارة محلية .
Diehl, C. Venise : Une République Patricienne (Paris 1928), p. 7

٣٧ - Lombard op. cit., p. 146-48.

٣٨ - Lopez op. cit., p. 26.

٣٩ ـ المرجع السابق

٤٠ - Heyd op. cit., p. 15-18.

٤١ - Lopez op. cit., p. 27.

٤٢ ـ المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٢٧ .

٤٣ - Fr. Lenormat, La Monnaie dans L'Antiquité II, 387.

٤٤ - Lombard op. cit., p. 146-47.

٤٥ ـ المرجع السابق

٤٦ - Diehl, C. : Justinien et la Civilization Byzantine du VIe Siècle (Paris 1901), p. 544-45.

٤٧ - Hudson, G.T. Europe and China (London 1931), p. 99-100.

٤٨ ـ المرجع السابق .
٤٩ ـ لمعرفة وجهات النظر الأخرى المعارضة انظر :
Lombard op. cit., p. 145-46.
على أن ما أبداه من أسباب ابقاء الساسانيين على التعامل بالفضة غير مقنع تماما . (المرجع السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧) . وانه لطريف جدا أن تنعكس الآية فيصبح الذهب أساس التعامل فى بلاد البحر المتوسط والفضة أساس التعامل فى بلاد فارس بعـــد أن كانت بلاد اليونان فى العصر الهلينى السابق على فتوحات الاسكندرية لبلاد الشرق تستخدم العملة الفضية على حين استخدمت امبراطورية فارس العملة الذهبية . ولمعرفة لون الحضارة القائمة على الزراعة فى بلاد فارس حينذاك انظر
Sykes, A History of Persia I, p. 180 pp.

٥٠ - Evagrius Historia Ecclesiastica (ed. Bidez-Parmentier) III, 39, p. 137.

٥١ - Chronicle of Joshua the Sylite trans. by W. Wright (Cambridge 1884), p. 22.

٥٢ - Vasiliev, A. A History of the Byzantine Empire (Madison Wis. 1925), I, 142-43.

٥٣ ـ المرجع السابق

٥٤ - Clark, F. W. The Influence of Sea Power on the History of Roman Republic (Menasha, Wis. 1915).
وفيما يتعلق باضمحلال الأسطول زمن الامبراطورية انظر
Starr, C. G. The Roman Imperial Navy (Cornell 1941), p. 167-98.

٥٥ - Zosimus Historia Nova ed Mandelssohn (Bonn 1881) p.31-42. Starr op. cit.P. 194-96

٥٦ - Procopius II, 65-69.

٥٧ ـ المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٦٣ .

٥٨ ـ بالغ بينز فى الدور الذى لعبته قوة الوندال البحرية ومدى تاثيرها . فلم يكن الوندال من القوة بحيث يمكنهم الاستيلاء على صقلية وهى الحلقة الحيوية للسيطرة على الملاحة فى البحر المتوسط .
N. Baynes: The Byzantine Empire (New York 1926), p. 144.

٥٩ - Theophanes, p. 161.

٦٠ - Malalas, p. 405. Constantine Porphyrogenitus. Excepta Historica ed. De Boor (Berlin 1906), p. 169.

الفصل الثانى

عود إلى الامبراطورية الرومانية

(٥١٨ - ٦٤١ م)

فى عام ٥١٨ م مات الامبراطور أنسطاسيوس ، وخلفه على عرش قياصرة القسطنطينية الامبراطور چستين ، مساعده فى الشئون العسكرية . ومع ان چستين كان رجلا صريحا ، وجنديا عتيقا ، فانه لم يكن الحاكم الحقيقى للامبراطورية ، بل حكمها ابن أخته چستنيان ، الرشيق ، المحب للدرس والاطلاع ، الذى مارس السلطان الفعلى فى حياة خاله . وفى عام ٥٢٧ م ، حكم ابن الأخت هذا كامبراطور ، وسيطر على الدولة قرابة نصف قرن من الزمان ، وأعانته زوجته تيودوره فى تلك المهمة ، وبقيت طوال حياتها معه شريكا ومساعدا لا غنى عنه . والى پروكوپيوس Procopius يرجع فضل ما نعلمه من أخبار وافية عن كفاية وأخلاق كل من چستنيان وتيودور ، وذلك مما نشره عنهما فى كتابه « التاريخ السرى » على الرغم من أنه صورهما لنا بصورة بعيدة عن الانصاف مليئة بالفضائح . ففى هذا الكتاب نفث پروكوپيوس كل حقده على الامبراطور وزوجه . ولكن لم يستطع حقده أن يحجب القدرة التى ساسا بها الامبراطورية الرومانية الشرقية ؛ ولا أن يحول دون فهمنا للنجاح الحقيقى الذى اكتسباه . ولا شك أن القرن السادس الميلادى فى حوض البحر المتوسط هو فى الحقيقة عصر چستنيان ، الذى خلدت أعماله وأعمال زوجته على مر الزمن فى « مدونة چستنيان »

وفى الجمال الرائع الذى نشاهده فى كنيسة أيا صوفيا ، وفى احياء وانعاش الامبراطورية الرومانية فى بلاد البحر المتوسط ، تلك الامبراطورية التى بقيت ثمانين عاما بعد موته .

ركز چستنيان وزوجته القديرة كل نشاطهما ، خلال فترة حكمهما ، فى غرض رئيسى واحد هو عودة بلاد البحر المتوسط الى الحكم الرومانى الموحد . ومعنى هذا استعادة الأقاليم الغربية التى احتلها القوط الشرقيون والوندال والقوط الغربيون ، والفرنجة ، واخضاع كل هؤلاء لحكم القسطنطينية المباشر . وفى سبيل تحقيق حلم اعادة الامبراطورية الرومانية ضحى چستنيان أحيانا ، وبدون تعقل فيما يبدو ، بمصالحه فى سورية ومصر وآسيا الصغرى . وفرض عليها الضرائب الباهظة من أجل تغطية نفقات حروبه فى الغرب ، الأمر الذى جعلها فريسة سهلة لعدوان الفرس . وضحى چستنيان للغرض ذاته ، بما كان هناك من توازن بين قوى الحزبين الدينيين وهما الحزب الأرثوذكسى والحزب المونوفيسيتى ؛ ذلك التوازن الذى حافظ عليه بحذر ، سلفاه الامبراطوران : زينو وأنسطاسيوس . اذ أدى اضطهاده الوحشى للحزب المونوفيسيتى فى نهاية حكمه — وعندما زال عنه تأثير زوجته تيودوره الكابح لجماحه — الى اتساع شقة الخلاف الدينى بين كل من سورية ومصر وبين سائر الامبراطورية . وخلق بذلك أسبابا للنجاح الذى أصابه الفرس ثم المسلمون فيما بعد . غير ان النجاح الذى حققه چستنيان كان أروع من الفشل الذى حاق به . وان الامبراطورية التى ظلت سليمة حتى عهد هرقل هى فى الواقع من خلقه وصنع يده [1] .

وعندما استولى چستنيان على مقاليد الحكم ، وجد الظروف مواتية لتحقيق حلم اعادة بناء الامبراطورية الرومانية . ذلك ان الامبراطور أنسطاسيوس خلّف الامبراطورية على حال طيبة من الرخاء ، وترك لمن بعده

خزائن مكدسة بالذهب ، ونواة لأسطول لا بأس به ، وقائدا اكتسب فى حروبه على الحدود الفارسية حنكة وخبرة ، هو بلزاريوس . أما الأحوال فى الغرب فكانت هى الأخرى مواتية بالنسبة له ، فسلطان الوندال والقوط الشرقيين آخذ بزوال ، ودولة القوط الشرقيين وقعت بعد موت تيودوريك فى أيدى حكام لا كفاية فيهم ولا مقدرة لديهم .

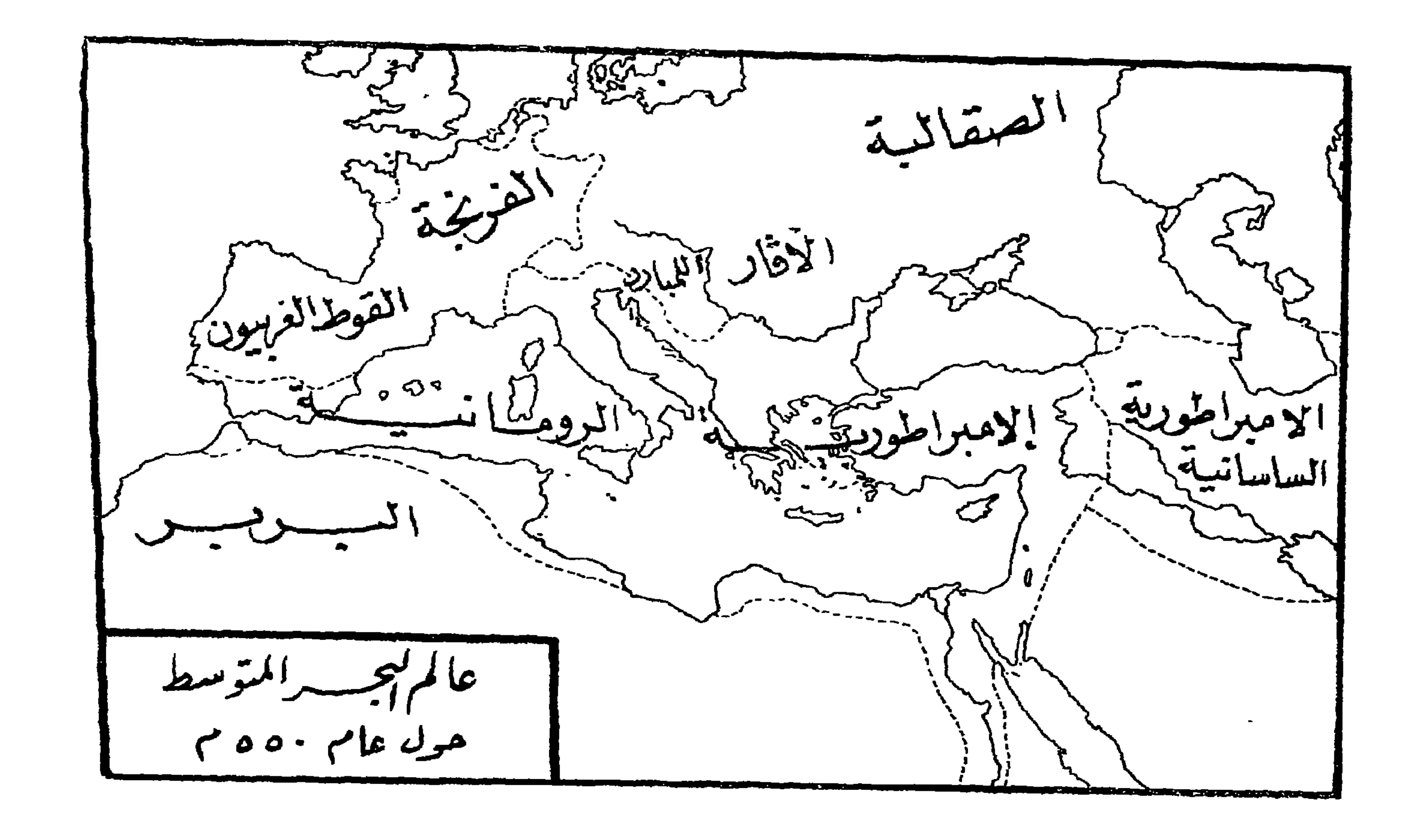
رتب چستنيان أموره بعناية بالغة ، فعقد « صلحا دائما » مع فارس ، وليؤكد دوام هذا الصلح ، دفع لعاهل الفرس [٢] من بنى ساسان ، جزية سنوية كبيرة من الذهب . ثم عمد الى اضعاف ضحاياه فى الغرب بعدة مناورات سياسية وعندئذ جهز حملة حربية كبيرة تكونت من ٥٠٠ ناقلة ، ٩٢ سفينة حربية . وكان عدد ملاحى الأسطول ٣٠٫٠٠٠ ملاح . وبلغت القوة البرية التى نقلتها السفن ١٥٫٠٠٠ رجل منهم عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف أو ستة آلاف من الفرسان . وقد حملت سفن الحراسة هذه ، وعددها ٩٢ سفينة ، ألفى رجل لأعمال التجديف[٣] . وأبحرت هذه الحملة من القسطنطينية سنة ٥٣٣ م ووجهتها شمال أفريقية حيث ملك الوندال .

ولانجاح هذه الحملة عمد چستنيان الى حيلة حربية فأشعل الثورة فى سردينية بأسطول صغير وببعض المال ، آملا أن يستدرج الأسطول الوندالى الى هناك ليبعده عن طريق أسطوله هو . ووقع ملك الوندال فى الشرك الذى نصب له . اذ أرسل أسطوله مع ٥٠٠٠ رجل الى كليارى Cagliari لاستعادة الجزيرة [٤] . وبلغ أسطول چستنيان الشاطىء الأفريقى دون مقاومة ونزل الجيش بقيادة بلزاريوس دون حادث يذكر . ودارت معركة سهلة وسريعة ، وتقرر مصير الحرب بعد اشتباكين انتصر فيهما بلزاريوس . وباستيلائه على قرطاجنة ، وقع شمال أفريقية كله فى قبضة

جستنيان ، كما وقعت فى أيدى قواته الأخرى جزيرة سردينية وجزر البليار وجزيرة كورسيكا ؛ اذ احتلتها القوات البحرية دون كبير عناء حينما بلغت تلك المراكز فى الأطراف أنباء نجاح الحملة البيزنطية على شمال أفريقية (٥) .

أما الهدف الثانى لبلزاريوس فكان ايطاليا . وكانت الأحوال بها عام ٥٣٥ م مواتية هى الأخرى فاستطاع بمساعدة الأسطول احتلال صقلية وبقوة تبلغ عشرة آلاف رجل ، فرض سلطانه على جنوب ايطاليا وعلى روما ذاتها . الا أن مقاومة القوط الشرقيين اشتدت منذ ذلك الوقت ، وان بدا أن مرجع هذا هو احتياج بلزاريوس الشديد الى مزيد من القوات المحاربة . وأحس جستنيان بالغيرة من قائده المنتصر فرفض توسلاته فى دعم قوته بمدد جديد . وقد يكون من دواعى عجزه عن امداد بلزاريوس بما يلزمه لحملة ايطاليا ، حاجة جستنيان نفسه الى تحويل قواته الحربية نحو الشرق ، حيث بدأت فارس تهدد بالاغارة على الرغم من الصلح الدائم المعقود معها . وعلى أية حال فان نجاح بلزاريوس وقف سريعا عند حد بل وجد نفسه فى موقف الدفاع (٦) .

وتشجع القوط الشرقيون ، وتحولوا من الدفاع الى الهجوم يقودهم فى ذلك زعيمهم توتيلا Totila القائد الموهوب . ولم يقفوا عند حد اعادة الاستيلاء على معظم شمال ووسط ايطاليا بل أخذوا يشنون حربا بحرية بسفن صغيرة بنوها فى شمال ايطاليا . وفى عام ٥٥١ م ، استطاع ذلك الأسطول الاستيلاء على كورسيكا وسردينية وتعرضت مواصلات الحملة البيزنطية مع الشرق للخطر (٧) . واستدعى بلزاريوس ترافقه الخيبة وعهد الى الخصى العجوز نارسيس اتمام مهمة بلزاريوس . وفى عام ٥٥٣ م سار نارسيس من دلماشيا الى وادى نهر البو على رأس أول جيش كبير جهزه جستنيان لايطاليا . وسحق توتيلا فى أول معركة . وفى ختام العام التالى دانت


الصقالبة
الفرنجة
الآفار
اللمبارد
القوط الغربيون
الإمبراطورية الرومانية
الإمبراطورية الساسانية
البربر
عالم البحر المتوسط
حول عام ٥٥٠م

ايطاليا لجستنيان بعـد صراع دام ثمانى عشرة سنة . وفى نفس العـام ، استعيدت كورسيكا وسردينية واختفى أسطول القوط الشرقيين من الوجود كما اختفى من قبل أسطول الوندال [٨] .

لم يبق أمام جستنيان سوى غزوة يقوم بها فى جنوب غرب اسبانيا ، وواتته فرصتها عام ٥٥٤ م حين انتهز ضعف القوط الغربيين فأرسل حملته التى هبطت اسبانيا واستولت على معظم اقليم الأندلس بما فى ذلك قادس وأشبيلية وقرطبة ومالقة ، وكذا سبتة على الساحل الأفريقى المقابل [٩] . ولم يبق لغير الرومان من سلطان لأحد بغرب البحر المتوسط سوى سلطان الفرنجة وذلك على ساحل اسپانيـا الشمالى الشرقى والساحل الجنوبى لفرنسا حيث انتشر سلطانهم من الرون الى ايطاليا . وهكذا عادت الامبراطورية الرومانية الى الحياة بفضل اصرار جستنيان وعبقريته .

وهناك شىء يستحق الذكر فى موضـوع تلك الحروب التى نشبت بالغرب وهو أن مصيرها لم يتوقف على حـرب البر ، بل على الحرب فى البحر ، اذ أن تحكم جستنيان فى البحر هو الذى حقق انتصاراته ، وان احساسه القوى الذى دفعه الى ادراك أن الوندال هم أول أعدائه وأنهم القوة البحرية الوحيدة التى يعمل لها حساب ، ليدلنا عـلى أن الحاكم البيزنطى العظيم قد وعى تماما أهمية هذا العامل البحرى . ولا شك أن زوال قوة الوندال البحرية هو الذى يمكنه دون أية عوائق من التقدم صوب ايطاليا واسپانيا .

وأدرك أهمية هذا الأمل ذاته القائد توتيلا ، الخصم الوحيد فى الغرب الذى كان كفاءً لجستنيان . فبنى هو الآخر أسطولا فى البحر وأمكنه بذلك أن يهيىء لجستنيان المقاومة الحقيقية الوحيدة التى واجهها . وكاد توتيلا أن يحطم الخطط البيزنطية حينما جعل المواصلات بين سـواحل ايطاليا

الغربية والشرق شيئا لا يمكن المحافظة عليه . لكن القضاء عليه أزال هذا الخطر البحرى ، ولم يكمل چستنيان غزو ايطاليا فحسب بل انه أضاف الى امبراطوريته المدن الاسبانية الغنية .

ويمكن الاستدلال على أهمية السيطرة البحرية من حقيقة أخرى هى قلة عدد الجنود الذين استخدمهم البيزنطيون فى هذه الحروب اذا ما قورنت بالجيوش الجرارة التى استخدمها الرومان فى العصور السابقة . من المؤكد أن حملات چستنيان كانت أصغر بكثير ، فكان فتح بلاد الوندال فى شمال أفريقية (١٠) ، على يد خمسة عشر ألف رجل . أما ايطاليا فغزاها جيش يتكون من عشرة آلاف أو أحد عشر ألف رجل فقط (١١) . ويبلغ تعداد الامدادات المختلفة التى أرسلت نحو خمسة عشر ألف رجل (١٢) . وهكذا يمكن القول أن دولة تيودوريك القوية التى مضى على تأسيسها قرابة خمسين سنة ، جاءت نهايتها على يد قوات تتراوح بين خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف رجل فقط . وليس فى متناول يدنا أن نعرف تعداد الحملة التى أرسلت الى اسبانيا والتى أعادت الأندلس الى حوزة الامبراطورية ؛ ولكن يبدو أنها لم تكن كبيرة .

ومن الواضح أن عوامل كثيرة غير حربية أعانت چستنيان على استعادة الأراضى الغربية . من ذلك أن الجاليات الشرقية الكبيرة المكونة من السوريين واليونانيين واليهود ، والمقيمة فى معظم المراكز التجارية فى الغرب ، كونت طابورا خامسا اعتمد عليه البيزنطيون (١٣) . أما العون الذى لقيه چستنيان من الكنيسة الغربية فلا يقدر بثمن اذا اعترفت به رئيسا لها ؛ كما أنه تودد اليها بتجنبه سياسة سلفه أنسطاسيوس الممالىء للمنوفيستيين وباتخاذه موقف الأرذوكس المتزمت . ولا شك فى أن رجال الكنيسة رحبوا بفرصة التخلص من عبوديتهم لهراطقة الجرمان الأريوسيين

وخاصة فى شمال أفريقية ، حيث كانت كنائسهم مراكز للدعاية لبيزنطة . وبالاضافة الى هذا ، فانه مما ساعد چستنيان أن عودة الحكم الرومانى اجتذبت اللاتين الغربيين ، اذ لم ينس ذلك الشعب القرون التى عاشتها الامبراطورية الرومانية قبل أن يتسلط عليها هؤلاء السادة الجرمان تسلطا لم تطل مدته .

ومع ذلك فهذه الأسباب لا تكفى لايضاح كل تلك الانتصارات على يد قوات صغيرة . والقوة البحرية هى وحدها التى تفسر هذا ، فاذا كان چستنيان قد استطاع بهذه الجهود أن يستولى على شمال أفريقية وايطاليا وجزء من اسبانيا وجزر غرب البحر المتوسط ، فذلك لأن أسطوله تحكم فى مياه تلك الأقاليم ، وأبقى طريق مواصلاته مفتوحا لمزيد من الأمداد الوفيرة من العتاد والرجال . وفى نفس الوقت حالت هذه القوة الحربية دون حصول أعداء بيزنطة على امتيازات مماثلة . على أن القوات البيزنطية البرية صادفت عدة صعوبات حيثما تعمقت فى الداخل بعيدا عن البحر ؛ وكانت الأراضى الداخلية فى شمال ايطاليا أشبه ببندقة صعبة الكسر ، واضطر البيزنطيون الى الاستعانة بالفرنجة قبل أن يحطموا مقاومة القوط الشرقيين هناك (١٤) . وهاك دليلا آخر ؛ فان مقاومة قبائل البربر المقيمين فى داخل شمال أفريقية بين الجبال والتلال كانت هى — لا مقاومة الوندال — العقبة الحقيقية التى قابلت قواد چستنيان هناك (١٥) . والواقع أن محاولة احراز النجاح فى الداخل كانت أمرا شاقا .

وهذا الاعتماد على القوة البحرية ، يفسر طبيعة نظام الامبراطورية البيزنطية منذ عهد چستنيان الى أيام هرقل . فهو لا يفسر نوع حروب چستنيان فى الغرب ومجالاتها والصعوبات التى واجهتها فحسب ، بل يشرح لنا أيضا كيف حافظ أباطرة القسطنطينية على أملاكهم ، وكيف دافعوا عنها

الى عام ٦٤١ م . فعلى ذلك أدى الاعتماد على القوة البحرية الى أن أفريقية البيزنطية نقصت مساحتها كثيرا عن مساحة أفريقية الرومانية ، وبقيت هكذا خلال القرنين السادس والسابع بيد أنها اشتملت على جميع الموانى الهامة والسهول الخصيبة [١٦] . كما أن الاعتماد على القوة البحرية يوضح الصورة التى كانت عليها سردينية البيزنطية ؛ فمن ذلك أن البيزنطيين سيطروا بيد قوية على الأراضى الساحلية الخصبة وعلى مناطق التعدين على حين تركوا داخل الجزيرة فى أيدى المتبربرين الهمج [١٧] . وهذه هى الحال تماما فى القرم ، اذ أقام چستنيان وخلفاؤه حكما قويا فى المدن والسهول الساحلية ؛ أما الداخل فانه بقى فى أيدى القوط وغيرهم [١٨] . ولو كنا نعلم الكثير عن اسبانيا البيزنطية لأمكننا أن نقول ، بصورة مؤكدة ، ان نفس الشىء حدث هناك أيضا ، واذا ما قارنا عهد چستنيان وخلفائه بالعهد الرومانى السابق ، اتضح لنا وجود امبراطورية بحرية فى البحر المتوسط ذات قوة وتماسك عن طريق تفوقها البحرى . وهذا يوضح قلة الجهود التى بذلت لربط أجزاء الامبراطورية بعضها ببعض بالطرق البرية . وبينما ربطت الفرق البرية الأقاليم المختلفة أيام أوغسطس وتراچان وقسطنطين بل وأيام ثيودوسيوس نفسه ، فان السفن أدت هذه الوظيفة أيام چستنيان وموريس وهرقل . ودعمت القوة البحرية حكم القسطنطينية فى البلاد التى حكمتها الامبراطورية على شواطىء البحرين المتوسط والأسود . وهذا يعنى أن عهد چستنيان قطع صلته بماضى الامبراطورية الرومانية وكان بدء عهد جديد .

غير أن ما تستطيع القوة البحرية أن تؤديه لأغراض الحرب محدود ؛ فهى تعجز عن تأمين الأقاليم الداخلية ضد غارات البرابرة أو غيرهم من أعداء الامبراطورية ، وهنا أيضا يمكننا أن نصف هذه الفترة من الزمان

بانقطاع صلتها بما سنته الدولة الرومانية من سنن ؛ ولو أن هذا الانقطاع لم يبلغ من الحدة ما بلغه الاعتماد البيزنطى على البحر والسيطرة عليه . وقد اعتمد حكام القسطنطينية مدة القرنين السادس والسابع — فى الدفاع البرى عن ممتلكاتهم — على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التى أقاموها على طول حدود الأملاك البيزنطية ، وفى داخل أراضيهم بعيدا عن الحدود . وهذه الطريقة تحاكى البنـود « أو التيمات » الرومانيـة التى نظمتها الدولة الرومانية فى القرنين الثانى والثالث . غير أن الحكام البيزنطيين وسعوا مجال هذه التحصينات وزادوا فى عددها بدرجة كبيرة خلال القرن السادس وأوائل السابع ؛ ولا سيما فى أفريقية البيزنطية وسردينية وايطاليا والقرم والبلقان ، حيث كان الموجود منها فى الماضى قليلا جدا . وقام البيزنطيون بهذا العمل ذاته على الحدود الفارسية ذات الأهمية الحيوية والتى لا تسكن فيها نذر الحرب أبدا . وزود الحكام البيزنطيون المهم من هذه الحصون بحاميات من الجيش النظامى ، ومع ذلك وضع معظمها تحت حراسة كتائب الجند المحلية ، أو المعاهدين الذين استوطنوا الريف المجاور . ويبدو أن بعض هذه الحصون أسس بادىء الأمر ليلجأ اليها سكان المنطقة التى بها الحصن زمن الغزو . وبذا كانت من الاتساع بحيث تسمح بايواء الناس وقطعانهم وماشيتهم ومتاعهم أيضا . وقد عرفنا من كتاب بروكوبيوس Procopius « العمائر » كم كانت هذه الحصون فسيحة وكم كانت ضخمة والمبالغ التى أنفقها عليها چستنيان وخلفاؤه [١٩] .

ويرى كثير من المؤرخين ، فى هذا البرنامج الضخم من التحصينات العسكرية دليلا على الضعف والفزع الذى أصاب الدولة البيزنطية وقتذاك . ويعتبرونه مضيعة للمال والجهد معا . وتقرير ذلك معناه الخطأ فى فهم المشاكل التى واجهت الامبراطورية وحكامها . والواقع أن چستنيان وخلفاءه لم تكن

بهم حاجة الى المال بقدر افتقارهم الى الرجال ؛ فالفرسان البيزنطيون المحترفون المدرعون Cataphracti وهم من تكونت منهم الفرق الممتازة فى جيوش بلزاريوس. ونارسيس ، وموريس ، وهرقل ؛ كانوا من طراز لا نظير له فى ميادين القتال ، ولكن — فيما عدا ذلك — كانت لهم عيوبهم اذ كانوا يتكلفون كثيرا من النفقة ، وغالبا ما كانوا يجنحون الى التمرد — وقد لقى الامبراطور موريس منهم ما أحزنه — ثم انهم عاشوا قساة ثقلاء على السكان المدنيين فى الجهات التى أقاموا بها . وبرهنت على صحة هذا القول ، المرة بعد المرة ، الحرب الطويلة مع القوط الشرقيين بايطاليا [٢٠] . كما أيدته أيضا اشتباكاتهم مع البربر بشمال أفريقية وعلى طول نهر الدانوب وفى حملاتهم ضد الدولة الساسانية فى الشرق . ومما زاد الطين بلة أنهم كانوا فى يد القواد المنتصرين ، خطرا حقيقيا على الامبراطور نفسه اذا ما داعب خاطر أحد القواد أمل التطلع لاعتلاء العرش .

وعلى هذا عمد جستنيان وخلفاؤه الى تحديد عدد قوات الجيش العامل لدرجة تقل كثيرا عما كان عليه أوائل عهد الدولة الرومانية ؛ رغبة منهم فى الاقتصاد من جهة وفى تأمين الأباطرة أنفسهم من جهة أخرى . وهنا تتضح أهمية الدفاع عن الحدود الطويلة الممتدة وضرورة الاحتفاظ بقوة بحرية مقتدرة . هذا الى أنه كان يمكن الاعتماد على كتائب الجند المحلى ؛ الحامية لتلك الحصون فى الدفاع عن أرواحها وممتلكاتها ضد أى عدوان اللهم الا فى بعض حالات الخطر البالغ . ويمكن لهذه القوات ، بمعاونة بعض فرق الجيش العامل أن تصمد بفضل هذه الحصون الى أن ترسل الحكومة الامبراطورية امدادها من الجيش العامل الى مواطن الخطر عن طريق البر والبحر . وهكذا تمكن القوة البحرية من تجميع الفرق بسرعة فى مواطن الحاجة اليها .

وهكذا كانت أنظمة الدفاع عن عالم البحر المتوسط زمن جستنيان وخلفائه الى عصر الفتوحات الاسلامية . وجملة القول أن تلك السياسة أدت المطلوب منها على وجه مقبول ، ولم يجانبها النجاح الا فى المناطق البعيدة عن البحر مثل شمال ايطاليا وعلى طول نهر الدانوب ، وفى بلاد الشرق حيث عجزت عن حماية الامبراطورية كما يجب ؛ ففى تلك الجهات ولا سيما فى الشرق حيث كانت مقاومة الفرس منظمة وقوية ؛ فشلت القوات الرومانية فى تحقيق أهدافها ، ثم انهارت فى النهـاية كلية تحت ضربات الاسلام . ومع ذلك فقد ظل هذا النظام يؤدى عمله بنجاح حتى القرن السابع الميلادى ، بفضل ما كان من السيطرة على البحر وبفضل التحصينات والجيش الصغير العدد القوى الضربات .

وأساليب الدفاع البيزنطية فى القرنين السادس والسابع تمثل تحولا لأساليب الدفاع التى اتخذها العـالم الرومانى من أيام أوغسطس حتى تيودوسيوس . وكان عالما يعتمد على مواصلاته البرية ، فلذا وضع كتائب عسكرية قوية للمرابطة على طول الرين والدانوب وتخوم الصحراء وحدود فارس . ونظام الدفاع البيزنطى يشبه — بدرجة ملحوظة — أساليب دفاع اتبعتها امبراطورية حديثة ناجحة ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهى الامبراطورية البريطانية . فالبيزنطيون ، كالبريطانيين ، لم يكن لهم منافس بحرى يعتد به البحارة التى سيطروا عليها . ولم يحتج البيزنطيون كما لم يحتج البريطانيون الى أن يكون لهم أكثر من قوة صغيرة من الجنود المحترفين يشدون بها أزر قوات الدفاع المحلية فى المناطق التى تتعرض للخطر . وتجنب البيزنطيون كما تجنب البريطانيون الاستيلاء على أراض داخلية مترامية تكلفهم الكثير من المال والرجال . وتركزوا فى النقط التى تستحق العناء . وسيطروا كالبريطانيين ، على مواقع تتيـح للسفن التى تتخذها

قواعد لها ، اشرافا قويا ، لا على البحار فحسب ؛ بل على طرق التجارة الرئيسية أيضا . وعملت بيزنطة على أن يظل سلطانها نافذا فى القرن السادس وأوائل السابع على سبتة وجنوب اسبانيا وشمال أفريقية وصقلية وسردينية والبلقان وكورسيكا وكريت وقبرص وجنوه ونابلى ورافنا والقرم والدردنيل والاسكندرية . وكذلك فعلت بريطانيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين سيطرت على البحار من مراكز مشابهة هى جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس وعدن وسنغافوره وهونج كونج وسيلان ومدينة الكاب ونيوفوندلند وجزائر فولكلاند وجزر الهند الغربية البريطانية . وتساهم الولايات المتحدة اليوم مع بريطانيا فى الاشراف على المحيطات . وفى كل من هذه الحالات برهنت الامبراطوريات البحرية على أنه من الأوفر اقتصاديا ومن الأيسر نسبيا امكان المحافظة عليها .

وفهم هذه الحقيقة يجعلنا ندرك أن ما فقدته الدولة البيزنطية من أراض الى زمن الفتوح الفارسية والاسلامية فى القرن السابع الميلادى ، لم يكن شيئا ذا أهمية . حقيقة ضاعت أجزاء من شمال ووسط ايطاليا من أيدى البيزنطيين أواخر القرن السادس وكذا فى القرن السابع حين تدفق اللومبارد على ايطاليا ؛ لكن طالما كانت الامبراطورية مسيطرة على شواطىء البندقية ورافنا وپنتاپوليس على الادرياتى ، وجنوه وروما وجنوب ايطاليا ، فإن قوة اللومبارد لم تكن ذات أثر نسبيا . وعلى أية حال فان غزوات اللومبارد بولغ فى تقديرها الى حد ما . ويشبه ذلك تماما تقدم قبائل الآفار السلافيين نحو جنوب الدانوب وفى البلقان وبلاد اليونان ؛ اذ بدا التخريب الذى حدث هنا على أيدى هؤلاء أكبر أثرا مما حدث فى ايطاليا . ونذكر على سبيل المثال ان كثيرين من سكان البلوپونيز هربوا فى أواخر القرن السادس الى صقلية وجنوب ايطاليا (٢١) ؛ مثلما حدث تماما مع الايطاليين حين هجروا لومبارديا

جريا وراء ملجأ فى البندقية أو چنوه أو بنتاپوليس [٢٢] . على أن الغزو اللومباردى والغزو الآقارى لم يمسا بلادا لها من الأهمية الاقتصادية بالنسبة للامبراطورية ما يبرر محاولة الاحتفاظ بها ، على أنه قد بذلت محاولات فعلا لتحقيق هذا العمل . والجدير بالاهتمام أن هذين الغزوين لم يهددا الامبراطورية البحرية التى أنشأتها بيزنطة فى حوض البحر المتوسط . وظل الأساس الذى وضعه چستنيان قائما لا يناله تهديد جدى حتى القرن السابع الميلادى ، حين استولى الفرس والعرب على سورية ومصر ، أكثر بلاد الامبراطورية ثروة وحيوية .

بقى لدينا سؤال واحد هــام هو كيف نظمت وأدارت الامبراطورية البيزنطية تلك القوة البحرية حينذاك ؟ هل احتفظت بأسطول امبراطورى عامل أم اعتمدت على الاستيلاء على السفن التى تستخدم أصلا فى الأغراض التجارية لتمد بها أسطولها وقت الحاجة ؟ من المؤسف أن الاجابة على مثل هذه الأسئلة لا يمكن الا أن تكون استنتاجية .

ولا شك أن الدولة البيزنطية احتفظت منذ عصر چستنيان ومن جاء بعده بأسطول دائم محترم . ونعرف من أخبار القرن السابع أنها احتفظت بقواعد بحرية ودور للصناعة فى قرطاجة [٢٣] ، وعكا [٢٤] ، والاسكندرية [٢٥] والقسطنطينية [٢٦] حيث تم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة الحركة (Dromons) . ووجــدت قواعد بحــرية أخــرى فى سرقوسة بصقلية [٢٧] وفى راڤنا [٢٨] ، حيث رابطت السفن التى جاست البحــرين التيرانى والادرياتى للحراسة . ويحتمل وجود قاعدة بحرية أخرى فى سبتة ومنطقة جزر البليار [٢٩] . والراجح أن كان للدولة فى القرن السادس أساطيل اقليمية تشبه أساطيل الامبراطورية فى أواخر عهدها . وعلى هــذا وجدنا چستنيان يجمع فى عام ٥٣٦ م كلا من سكيذيا وميوشيا وكاريا وجــزر

السكلاديز وقبرص تحت أمرة القـائد چستين (٣٠) ، الذى كان قائـدا للبحرية . ومن المحتمـل أيضا أن بلاد القرم كانت تؤدى بعض الخدمات البحرية كما يستفاد من آخر اتفاقات تيبريوس عام ٥٧٥ م ، فقد نصت هذه الاتفاقات على اعفاء جهات : لازى والبسفور وخرسون مما كان مفروضا عليها(٣١) من قبل من بناء السفن الحربية .

والى جانب هذه القوات الامبراطورية والاقليمية استطاعت الحكومة أن تضم ، وقت الحرب ، عددا من السفن التجارية الى أسطولها . ومهمة تلك السفن القيام بعمليات نقل الجنود والامدادات . لكن ليس ثمة دليـل واضح على كيفية اتمام هذه العمليات فى تلك الأيام .

وهناك شيء يؤكد ذلك هو أن البحرية البيزنطية لم تواجه ، حتى الغزو الاسلامى ، أى تحد يذكر . حقيقة ظهر اللومبارد والسلاف فى البحار فى القرن السادس ؛ وهناك ما يدل على أن أساطيل اللومبارد هاجمت ، من جنوب ايطاليا فى الغالب ، مدينة كليارى عام ٥٩٩ م (٣٢) ، الا أنها فشلت فى الاستيلاء عليها ، وحدث عام ٦٠٢ أنه عندما حطم الأسطول البيزنطى فى الدانوب نقالات الآقار ورد هجومهم المدبر على القسطنطينية ، أن لجأ ملك الآقار الى استقدام عدد من ذوى الخبرة فى بناء السفن من لمبارديا بايطاليا لمساعدته على بناء أسطول سلافى فى دلماشيا (٣٣) . ولكن كل هذه المحاولات لم تخرج عن كونها حركات محلية ، وفيما يلوح وقتية . وفى عام ٦٢٦ م لم يكن لدى الآقار فى هجومهم على العاصمة البيزنطية سوى مجموعة من السفن الخفيفة ، لم تلبث أن تشتتت فى سهولة أمام أسطول هرقل (٣٤) .

وشابهت الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الحين ، الامبراطورية البريطانية الحديثة فى أكثر من مجرد استخدام القوة البحرية . ذلك أنها شابهتها فى

اعتمادها على النقل والتجارة . بل يبدو فى الحقيقة أن الأصول الاقتصادية التى أقام عليها جستنيان الامبراطورية ، بدت أكثر أهمية من الدوافع الحربية والبحرية . وفى هـذا تكون الامبراطورية البيزنطية ابتعـدت عن نشأة الامبراطورية الرومانية الأولى التى قل اهتمامها بشئون النقل والتجارة ، واعتمدت أكثر ما يمكن فى تفكيرها واقتصادياتها على الزراعة .

ونظرة عابرة الى خريطة الامبراطورية حتى عام ٦٤١ ، تطلعنا عـلى الأساس الاقتصادى الذى قامت عليه تلك الامبراطورية . ذلك أن جميع المناطق الصناعية والتجارية الهامة فى البحرين الأبيض والأسود خضعت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لاشراف حكام القسطنطينية . وسيطرت الدولة فى الشرق على سورية ومصر وآسيا الصغرى وسواحل شبه جزيرة القرم ، كما سيطرت فى الغرب على شمال افريقية وجنوب اسبانيا وموانى ايطاليا ودلماشيا .ولم يفلت من نفوذها الا حوض نهر الرون بجنوب فرنسا ، اذ خضع لسلطان الفرنجة . كذلك أشرفت بيزنطة اشرافا دقيقا غير مباشر على الفرنجة من المناطق القريبة التى تمتلكها مثل جـزر البليار وجزيرتى كورسيكا وسردينية ، وقد عرف الفرنجة مدى تأثير هذا الاشراف زمن الامبراطور موريس ، أواخر القـرن السادس الميـلادى . ولم تكن حمـلة جوناولد Gonawald على اقليم پروڤانس — وهى الحملة التى ساندتها بيزنطة — الا نذيرا للوسيلة التى يمكن أن يتم بها التدخل (٣٥) . وليس عجيبا أن رأى الفرنجة ، وهم أقوى دولة جرمانية فى الغرب حينذاك ، ان من الحكمة مسايرة سياسة امبراطور الدولة الرومانية الشرقية . وليس عجيبا كذلك أن يتبع القوط الغربيون هذه السياسة ذاتها فى اسبانيا (٣٦) .

وبالاضافة الى اشراف البيزنطيين على المناطق الاقتصادية الهامة فى البحر المتوسط فانهم تحكموا كذلك فى منافذه . ونظرا لوقوع القسطنطينية

ومصر وسبتة فى أيديهم فقد استحال دخول أية تجارة خارجية الى هـذا البحر دون موافقتهم . وربما كان المنفذ الغربى عند سبتة — أو جبل طارق فيما بعد — أكثر أهمية فى القرنين السادس والسابع ؛ وذلك لكثرة استخدام الطريق الموصلة بين بلاد البحر المتوسط وبين مجموعة الجزر الشمالية — مثل ايرلندة وبريطانية — استخداما أكثر مما يظن عادة (٣٧) .

وتتضح لنا مرة أخرى الأسس التى قام عليها اقتصاد بيزنطة فى بلاد الشرق وقتذاك ، من أن هذه المنطقة تضم طرقا تجارية تعتبر أكثر حيوية من تلك التى توجد فى الغرب بالنسبة لمصر وسورية وآسـيا الصغرى . ووردت من الشرق الأقصى ، عن هذه الطرق ، التوابل والأقمشة الحريرية النفيسة وهى الواردات القيمة بالنسبة لبلاد البحر المتوسط وما وراءها . ولم تتعد قوة بيزنطة البحرية ما وراء شواطىء البحر المتوسط . على حين تجاوزت أرباحها التجارية نطاق هذا البحر بكثير . وبذل جستنيان ، ومن أتى بعده ، غاية الجهد للسيطرة اقتصاديا على تجارة الشرق الأقصى ، من أجل صالح الامبراطورية . وتحقيقا لهذه السياسة واجه هؤلاء الحكام مقاومة كبيرة من جانب فارس الساسانية ، التى اغتنت كثـيرا من وراء وساطتها بين الهند والصين ، وجزر الهند الشرقية وبين منطقتى البحرين المتوسط والأسود . على أن محاولات أباطرة الدولة الرومانية الشرقية أخذت أشكالا عديدة لتحطيم اقتصاد الدولة الساسانية . وتوضح هذه المحاولات الكثير من مظاهر العداء بين المدائن والقسطنطينية حتى عام ٦٢٩ م .

وكان أول ما صنعه أباطرة بيزنطة ، محاولتهم ابعاد مرور التجارة عن بلاد فارس ، بتوجيهها نحو الشمال ؛ وفتح طريق تجارية شمالية لبضائع الصين وفى مقدمتها الحرير . ودفعت هذه المحاولة بيزنطة لاحتلال شبه جزيرة القرم وتحسين موانيها ، وبذل كل الجهود لاخضاع أرمينية وبلاد القوقاز

لنفوذ القسطنطينية[٣٨]. ثم بدأت المفاوضات السياسية والتجارية بين البيزنطيين وبين دولة الخزر التركية، القائمة فى منطقة جنوب روسيا عند حوض الفلجا؛ وهى منطقة ذات صلات مباشرة مع الصين عبر بلاد التركستان. ومن العسير أن نحدد مدى النجاح الذى أصابته هذه السياسة، لكننا نعرف أن سفراء من الترك زاروا بيزنطة فى عام ٥٦٣ م[٣٩]، ٥٦٨ م[٤٠]. وان سفيرا بيزنطيا واحدا على الأقل، أوفد الى عاصمة الترك فى ختام ذلك القرن، على أن البيزنطيين دعموا سلطانهم على ميناء خرسون لمواجهة ضغط الترك عام ٥٨١ م[٤١]. وفى عام ٥٩٠ م وضعت سياسة صداقة ثابتة مع دولة الخزر التركية[٤٢]. وظلت هذه الصداقة حجر الزاوية فى سياسة بيزنطة مدة القرون الثلاثة التالية. كما ظلت دولة الخزر شوكة فى جانب الفرس والعرب فيما بعد، حين حاولوا السيطرة على البلاد التى تتحكم فى الطريق البرى لتجارة الحرير الوارد من الشرق الأقصى. ومثل هذا تماما، محاولات أخرى فى القرن السادس استهدفت تجنب فارس والمرور جنوبا عن طريق البحر للوصول الى سيلان وجزر الهند الشرقية والصين. وهنا تقوم مملكة الحبشة المسيحية الواقعة جنوب البحر الأحمر بدور الوسيط. فعضد جستنيان وخلفاؤه بالطرق السياسية استخدام سفن الحبشة فى المحيط الهندى أملا فى أن ينمى الأحباش التجارة ما بين سيلان والبحر الأحمر للاضرار بالساسانيين ولفائدة البيزنطيين[٤٣]. كما أن البيزنطيين أنفسهم كانوا، لحد كبير، سبب اتخاذ الحبشة فى ذلك الحين، خطة الفتح فى الساحل العربى للبحر الأحمر[٤٤]. بيد أنه لا هذه السياسة ولا الأخرى نجحت نجاحا كبيرا. فلم تحل سنة ٥٣٢ الا ويطلعنا كوزماس أندوبليوستيس على أن محاولة الحبشة تحطيم احتكار الفرس للتجارة البحرية مع سيلان وجنوب الهند قد باءت بالفشل[٤٥]. وفى عام ٥٧٠ م أفسد التدخل الفارسى فى

الحجاز ؟ خطط مملكة الحبشة فى بلاد العرب . وكان هذا فى اللحظة التى أخذ يتحرك فيها جيش حبشى بالاشتراك مع اليمن المغلوبة ، للاستيلاء على مكة[٤٦] ، كعبة الحجاج فى بلاد العرب . لكن سرعان ما أرغمت القوات الحبشية على الارتداد عبر البحر الأحمر الى بلادها . وهكذا لم يكن البحر الأحمر مفتوحا تماما كطريق تجارى الا بقدر يسير على أن التجارة التى كانت تصل مصر عن ذلك الطريق لم تكن حتى القرن السابع مما يستهان به .

ولما لم تظفر بيزنطة بنجاح كبير فى محاولتها ايجاد طرق تجارية جديدة فى الشمال والجنوب ، لجأت الى وسيلة أخرى لتواجه بها الفرس اقتصاديا ، ولتقطع عنهم الأرباح التى كانوا يحصلون عليها من تجارة التوابل والحرير . وتتلخص هذه الوسيلة فى استجلاب دود القز الى أرض الامبراطورية ذاتها . وحدث عام ٥٥٢ م ، أن تمكن بعض الرهبان النسطوريين من تهريب دود القز عبر آسيا [٤٧] ، ولم تمض غير سنوات قليلة حتى انتشر دود الحرير فى بلاد سورية [٤٨] . ويحتمل أن يكون انتشر فى قبرص كذلك ، وعرض جستين الثانى الانتاج المحلى من الحرير الخام على سفراء الترك الوافدين لاستطلاع هذا الموضوع عام ٥٦٨ م [٤٩] . ويحتمل أن يكون ذلك قلل من اعتماد بيزنطة على المستورد من هذه المادة . غير أنه من المشكوك فيه أن تبلغ الامبراطورية درجة كفاية نفسها بنفسها نهائيا من هذا الحرير . وعمد جستنيان الى محاولة أخرى للضغط على منافسيه الساسانيين باحتكار الحكومة للحرير الفارسى الوارد عند الحدود ، فحدد السعر الذى كان مستعدا لدفعه فى ذلك الصنف . والظاهر أن الفرس رفضوا البيع بالأسعار التى حددها جستنيان ، ولذا لم يلبث هذا النظام أن أهمل [٥٠] .

واستمرت سياسة الحماية التجارية هذه تغلب على معاملات الامبراطورية التجارية مع بلاد الشرق . كما استمر اتباع نظام قيام المدن على الحدود

للتحكم فى الوارد والصادر . وهذه المدن التى ظلت قوية طوال ذلك العصر هى دارا ، أرتكساتا ، ونصيبين وكاللينيكم . واعترف بهذا النظام[٥١] فى المعاهدة التجارية التى عقدت مع الفرس عام ٥٦٢ م . ويبدو أن التحكم الاقتصادى فى شئون النقل والتجارة الخارجية ، شغل الأباطرة البيزنطيين منذ عهد چستنيان ومن خلفه ، أكثر مما شغل أسلافهم الرومان .

ويدخل فى هذه السياسة اهتمام الأباطرة بأمور العملة الذهبية فى داخل البلاد وخارجها . فمنذ ظهور بيزنطة ، امتنع نهائيا تصدير الذهب خارج حدود الامبراطورية . كما ظلت شئون تلك العملة حقا هاما من حقــوق الامبراطور ؛ ولذا حملت جميع المسكوكات المتداولة فى جميع أنحاء الدولة رسم امبراطور القسطنطينية . وعملت الحكومة الامبراطورية على نشر هذا النظام فيما وراء حدودها لأسباب اقتصادية من جهة ؛ ولأنه كان مظهرا من مظاهر النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وحرص الفرنجة والقوط الغربيون البعيدون عن النفوذ السياسى للدولة البيزنطية ، على عدم المساس بهذه الالتزامات . بل ان جميع النقود الذهبية التى سكوها حتى عام ٦٤١ م كانت تحمل صورة امبراطور القسطنطينية ، باستثناء الفترة التى كان فيها تيودوبرت (Theodobert) ملك الفرنجــة ، فى حــرب مع چستنيان [٥٢] . وحرصوا كذلك على أن تظل النقود الذهبية التى تسك فى بلادهم فى نفس مستوى السكة الامبراطورية ، من حيث الوزن ومقدار المعدن النفيس الذى يحتويه . ولم يكن حرص ملوك الفرس على هذا النظام بأقل من حرص هؤلاء الفرنجة والقوط ، اذ التزم الفرس أيضا عدم التعرض لنظام احتكار الذهب البيزنطى ، فقصروا العملة التى أصدروها ، وعليها صورهم ، على الفضة دون الذهب [٥٣] . وفى عام ٥٦٢ م اعترف الفرس فى معاهدة بين الدولتين ببقاء سك نقد الذهب وقفا على بيزنطة [٥٤] . ويخبرنا كوزماس

اندوپليوستيس ، أن هذه السكة الذهبية كانت وسيلة التعامل التجارى الدولى فى المحيط الهندى فى منتصف القرن السادس (٥٥) . فكان النقد البيزنطى — كالدولار فى العهد الحديث — نقدا دوليا دون منازع ، ونقدا يحميه ويصرفه فى الداخل وفى الخارج ، على هواهم ، الحكام الذين سكوه .

وأولت الحكومة البيزنطية شئون التجارة والاقتصاد الداخلية اهتماما وحماية لا يقلان عن اهتمامها وحمايتها للشئون التجارية والصناعية الخارجية فمن ذلك كان من الحقوق الملكية الهامة التى احتفظ بها الأباطرة لأنفسهم أواخر عهد الدولة البيزنطية ، حق انتاج بعض الأنواع الفاخرة من نسيج الحرير الأرجوانى الصبغة والمشغول بخيوط الذهب . وظل احتكار الحكومة لبعض الأصناف مستمرا منذ أواخر القرن الرابع حتى ذلك العصر . ونسجت هذه الأقمشة فى مصانع النسيج الحكومية وبأيدى نساجين وصباغين يتبعون لنقابات حكومية . ولهؤلاء الصناع وحدهم الحق فى عمل الأقمشة الامبراطورية ، كما للأباطرة وحدهم الحق فى تقرير الكيفية التى يكون بها التصرف فى منتجات هذه المصانع (٥٦) . ويبدو أن هذه الصناعة صادفت الكثير من الرخاء والنشاط زمن الامبراطور چستنيان بسبب ازدياد عدد الراغبين فى اللحاق بنقابات نساجى الحرير الامبراطورية عن الأماكن الخالية بها (٥٧) . وفى أيام الامبراطور هرقل وجدوا من الضرورى قصر حق الانضمام لهذه النقابات على من اكتسبوه بالوراثة .

ولم يكتف چستنيان باحتكار الحكومة للمنتجات الصناعية الفاخرة ، بل ذهب لأبعد من ذلك فاحتكر تجارة الحرير جميعها . وقد يصح أنه رمى بذلك الى محاولة تخفيض أسعار الحرير الخام ، التى تبيع بها بلاد فارس فى مراكز التجارة الامبراطورية على الحدود . ولكن الأرجح أنه كان يرمى فى الحقيقة الى محاولة الحصول على دخل للخزانة . ولم يسمح بشراء الحرير

الخام الا للمراكز التجارية الامبراطورية . وهذه المراكز تبيعه بدورها الى المصانع الامبراطورية دون غيرها . وأدت هذه السياسة العنيفة الى خراب الكثير من مصانع نسج الحرير غير الحكومية وعلى الأخص فى سورية . هذا فضلا عن أن الفرس رفضوا البيع بالأسعار التى قررها چستنيان [٥٩] . بل انه يبدو أن بعض المصانع هجرت بلاد الامبراطورية الى بلاد فارسية ، آخذة معها خبرتها فى صناعة المنسوجات الحريرية [٦٠] . وعلى أية حال خفت حدة احتكار چستنيان للحرير أواخر القرن السادس ؛ وان ظلت مراكز التجارة على الحدود تشترى الحرير من الفرس بسعر يبدو أنه كان مرتفعا بعض الشيء ؛ وذلك رغبة فى تشجيع التبادل التجارى . وخصصت الحكومة جانبا من مشترياتها لتجار وصناع الحرير من الأهالى [٦١] . ورغم هذا فان انتاج الأنواع الخاصة الفاخرة من الأقمشة والمنسوجات الحريرية ، ظل خاضعا لاشراف الحكومة ورقابتها .

وثمة حق ملكى آخر احتفظت به الحكومة حينذاك ، وهو عناية الدولة فى عهد چستنيان بصناعة ورق البردى وبيعه فى مصر . ويحتمل أن يكون ضمن تلك الحقوق انتاج الأسلحة واستخراج وبيع الحديد والخشب اللازم للشئون البحرية ، وخضعت هذه المواد لاشراف حكومى دقيق [٦٢] . وكانت سياسة الرعاية الأبوية التى أولاها أباطرة الدولة الرومانية الشرقية لشئون الصناعة والتجارة الخارجية والداخلية ، وذهبوا فى تطبيقها الى حد يبعد كثيرا مما فعل أسلافهم أباطرة الدولة الرومانية ، سياسة بررتها نتائجها تبريرا كبيرا ، وذلك أن التجارة والصناعة درتا المال الوفير الذى كانت حاجتهم اليه ، للحصول على السيطرة على امبراطوريتهم فى البحر المتوسط ، تفوق حاجة أسلافهم ، ويجب أن نفهم هذا لكى ندرك سبب اهتمام چستنيان وخلفائه حتى هرقل بالشئون المالية والاقتصادية .

احتاجت الدولة البيزنطية للمال لتنفق منه لا على شئون الحكم العادية فحسب ، مثل دفع مرتبات الجيش العامل ورجال البحرية والموظفين ، ولكنها احتاجت اليه لأغراض دبلوماسية أخرى . ولا تقل الدبلوماسية أهمية فى ذلك الوقت عن الجيش والبحرية من حيث الحاجة اليها فى ربط وحماية الأراضى المنتشرة حول البحرين المتوسط والأسود وهى التى يحكمها امبراطور القسطنطينية .

تدفقت من القسطنطينية نحو فارس وفى أيام السلم اتاوات ضخمة تراوحت بين عشرين ألف وثلاثين ألف قطعة من الذهب سنويا [٦٣] . ويحتمل أن يكون هذا دون سواه هو سبب زهد حكام الفرس فى مهاجمة القسطنطينية . ودفعت اتاوات مماثلة ، على فترات منتظمة ، الى الآفار والقبائل المنتشرة على طول حدود الدولة فى الشمال وفى أفريقية وسورية . وصحب هذا الذهب : ألقاب الشرف البيزنطية والمنح الخاصة من الملابس الفاخرة المصنوعة من الحرير الأرجوانى الامبراطورى . واستخدام الذهب والهدايا على هذا النحو فيه حماية كبيرة للامبراطورية دون شك . هذا الى أنه استخدم فى تأليب بعض العناصر واحداث الشغب ضد بعضهم الآخر ممن يخشى منهم على الدولة . وأحالت هذه المنح ، المقيمين على أطراف الدولة الى تابعين ، هدفهم التطلع الى عون حكام القصر الذهبى بالقسطنطينية كما رفعت فى الحقيقة من نفوذ أباطرة الدولة . وأغدقت هذه المنح ، بين الحين والحين ، على أمراء الغساسنة فى سورية وملوك الحبشة والآفار والصقالبة فى شرق أوربا والفرنجة واللومبارد والقوط الغربيين فى الغرب ، والبربر فى شمال أفريقية . ولا يبعد أن كانت هذه الوسيلة فى السيطرة أكثر فائدة وأقل نفقة من وسيلة الالتجاء الى الحرب ، وهى وسيلة مارستها الدولة الرومانية أول عهدها مع المقيمين على طول حدودها . ولم يكن جستنيان

وحده مبتكر هذه السياسة الا أنه هو الذى وسع مجال استخدامها الى حد كبير[٦٤] . واستمرت هذه الأساليب عنصرا أساسيا فى السياسة الخارجية لبيزنطة حتى آخر عهدها .

تعرضت سياسة المنح هذه الى نقد كثير من المؤرخين منذ أيام بروكوبيوس[٦٥] . فنظروا اليها على أنها بديل سيىء لقيام قوة حربية حقيقية يمكن استخدامها عند الحاجة . ونظروا اليها كذلك على أنها حملت موارد الذهب فى بلاد البحر المتوسط عبئا شديدا . وقد يصح أن جستنيان اعتمد على هذه السياسة دون غيرها فى أواخر أيامه ، ولكن النقد الشديد الذى وجه اليها ، بالغ فى بيان عيوبها مبالغة شديدة .

على أنه يلاحظ أن جانبا كبيرا من الذهب الذى وزع على الدول التابعة على الحدود عاد ثانية الى الامبراطورية فى عمليات التعامل التجارى . واذن فهذه المنح لم تبذل لتأمين الامبراطورية وحفظ هيبتها فحسب ، بل استخدمت كذلك فى افساح تنمية مصالحها التجارية ، وعلى الأخص فى القسم الغربى من حوض البحر المتوسط . ولا شك أن هذا الذهب المبذول ساعد على انعاش التجارة الدولية ؛ ويرجح أن يكون ساعد على تحسين الميزان التجارى الذى لم يكن فى صالح الأقاليم الغربية ، التى تقوم اقتصادياتها على الزراعة. والذى يحتمل أنه لم يكن فى صالح علاقاتها مع البلاد المتقدمة عليها صناعيا وتجاريا مثل سورية ومصر وآسيا الصغرى . والسياسة التى أملت هذه المنح تشبه على نحو يثير الدهشة ما مارسته الامبراطورية البريطانية مع حلفائها وتابعيها فى أنحاء العالم مدة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كما تشبه كذلك القروض ونظام الاعارة والتأجير ومشروع مارشال التى أجرتها الولايات المتحدة فى هذه الأيام . ولابد أن نجاح تلك السياسة كان كبيرا لأن جميع حكام بيزنطة مارسوه باعتباره مكملا للقوة الحربية والبحرية .

حقيقة لم تستطع هذه المنح أن تحل محل القوة الحربية ولكنها ساعدت على حماية مصالح الامبراطورية وحدودها .

وهذا الذهب المتدفق ، وبقاء الامبراطورية البيزنطية ذاتها ، توقفا على الاحتفاظ بمستوى عال من الرخاء داخل الامبراطورية . وتدل الاتجاهات الاقتصادية للحكومة البيزنطية على ادراك الأباطرة حينذاك لهذه الحقيقة . والمسألة هي أن نتبين مدى نجاحهم ، أو بعبارة أخرى ، الى أى حد أدى رخاء مناطق البحر المتوسط التى كانوا يحكمونها الى تدفق ذلك الذهب فى خزائنهم .

ولا نشك فى رخاء دولة الأباطرة الشرقيين زمن الامبراطور انستاسيوس أوائل القرن السادس . وان الغاء ضريبة أصحاب الحرف (Chrysargyron) وانتهاء الأعباء المالية المفروضة على موظفى المدن المحليين فى جمع الضرائب ، وتكدس خزائن الامبراطورية بالذهب الذى بلغ وزنه ٣٢٠٫٠٠٠ رطل ، كل ذلك يدل على انتعاش الشرق . أما الغرب فان ايطاليا على عهد القوط الشرقيين نعمت — كما لاحظنا — برخاء حقيقى وقتذاك ، وكذا الوندال بشمال أفريقية والقوط الغربيون باسبانيا . ولكن ماذا كانت حالة العالم بعد أن قام جستنيان وخلفاؤه باعادة بناء العالم الرومانى وتوسيع رقعة الامبراطورية الرومانية ؟

الحق أن كثيرا من المؤرخين تبعوا پروكوپيوس وانتقاداته دون تدقيق كاف . وپروكوپيوس ، كما نعرف ، ينقد جستنيان فى كل كبيرة وصغيرة ، ولكن ليس هناك أقسى من تعليقه على سياسته المالية والضرائبية . وقد أعطانا صورة مظلمة لبلاد البحر المتوسط عند وفاة الامبراطور : خزانة خاوية بددتها حروب عديمة الجدوى ومنح واعانات حمقاء ، للفرس ولغيرهم من أعداء الدولة[٦٦] . وأخبرنا عن ثقل عبء الضرائب المفروضة على الشعب

بسبب فساد جامعيها المرتشين من أمثال حنا الكبادوشي فى الشرق [٦٧] ، وذئاب أخرى مماثلة من جامعى الضرائب تبعت حملة بلزاريوس الى شمال افريقية[٦٨] ، وحملة نارسيس الى ايطاليا[٦٩] . وصـــور لنا پروكوپيوس الجند حين لم تدفع لهم مرتباتهم ، والحصون القائمة على الحدود بدون من يحميها ، والحكومة المرهقة الخائرة الوشيكة الانهيار [٧٠] . ولكن هل من الممكن حقيقة أن تكون هذه الصورة دقيقة ؟ لابد من أن تمضى شـــهادة التاريخ — حتى زمن فوكاس وغزو الفرس لسورية ومصر — قبل أن نصل الى رأى قاطع فى الموضوع .

على أنه يمكن التسليم بأن الكثير من انتقادات پروكوپيوس عادل ومقبول . فثابت أن چستنيان أنفق جانبا عظيما من المال ، وأنه استخدم فى جمعه طبقة من الموظفين المرتشين ؛ وأنه فرض ضرائب باهظـــة على بلاد الامبراطورية . وثابت أن خلفاءه القريبين منه ساروا سيرته هذه . وهنـــاك أدلة كافية من مصادر أخرى غير پروكوپيوس تبرهن على التعسف الذى لجأت اليه بيزنطة فى جمع المال . وأن رسائل جريجورى الأكبر فى نهاية القرن السادس ، التى تنكر على عمال الحكومة البيزنطية فى كورسيكا وسردينيا وأماكن أخرى جشعهم وفساد ذممهم تؤيد ما ذهب اليـــه پروكوپيوس . ونجد تأييدا مماثلا فى الوثائق المصرية القبطية المستقلة ، بل نجده فى المراسيم التى أصدرها چستنيان نفسه ، وهى المراسيم التى حاول بها أن تمحو احدى يديه ما أفسدته سياسته الضرائبية بيده الأخرى[٧٣] ، وهذا فضـــلا عن وجود أدلة أخرى كثيرة تثبت تدخل الحكومة البيزنطية المستمر فى الشئون الاقتصادية لرعاياها .

لكن مالا دليل عليه ، هو أن هذه الضرائب وهذا التدخل الحكومى فى الحياة الاقتصادية بلغا حدا أدى الى انهاك وخراب بلاد البحر المتوسط

الواقعة تحت الحكم البيزنطى . فليس من المحتم أن الضرائب الباهظة تؤدى الى الكساد الاقتصادى ، فها هى ذى الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر تعطينا مثلا واضحا على ذلك . كما أنه ليس من الضرورى أن تؤدى الضرائب الخفيفة الى الرخاء كما رأينا بنفس الوضوح فى تاريخ فرنسا فى القرنين الثامن والعاشر . وليس من الضرورى كذلك أن يكون نظام جمع الضرائب المنطوى على النهب والرشوة معناه حتما افلاس الدولة . واذا كان من المحقق أن يثير سخط ضحاياه فربما اقترن برخاء حقيقى . وتاريخ كل من مصر فى العصر الفاطمى ، وفرنسا فى القرن الرابع عشر وفى القرن الثامن عشر ، والصين خلال تاريخها كله تقريبا ، يلفت نظرنا الى الحذر من تعميم مثل هذه الأحكام . وليس من الضرورى أن يكون اتساع القطاع الاقتصادى الذى توجهه الدولة معناه القضاء عليها اقتصاديا . ففى تاريخ البندقية ، وتاريخ انجلترا زمن أسرة تيودور ، وفى القرن الثامن عشر ، وتاريخ الانكا فى پيرو ، وتاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر ، ما ينقض مثل هذه القضية . والمهم هو أن تظل المقدرة الصناعية والتجارية ، والانتاجية لأى اقليم تستغل استغلالا كاملا . فلنطبق هذا القياس على أحوال بلاد البحر المتوسط التابعة لبيزنطة فى القرن السادس الميلادى لنرى مدى انطباقه عليها .

نرى ، أول ما نرى ، أن الدخل الحكومى لم يقل بدرجة كبيرة زمن چستنيان ومن أتى بعـــده حتى أيام هرقـــل . فالأدلة تؤيد كما اعترف پروكوپيوس ، انه بعد وفاة چستنيان كانت خزائن الدولة لا تزال مكتظة بقدر كبير من الذهب المخزون منذ أيام انستاسيوس [٧٤] . وجرى خلفاء چستنيان على نفس السياسة المالية التى استنها ، واستمرت سائدة حتى بداية القرن السابع الميلادى . ولم يظهر ثمة دليل على وجود مشاكل مالية حتى أيام هرقل . وحتى فى هذه الآونة يمكن أن نرجع سبب المشاكل التى

وجدت الى ظروف خاصة . ثم ان غزوات السلاف للبلقان ودخول اللومبارد ايطاليا ، لم تصب فى الحقيقة الا البلاد التى لا أهمية لها من الناحية المالية بالنسبة لخزانة الدولة ؛ والتى لا يوجد بها من الخيرات ما يعتبر أساسيا بالنسبة للحياة الاقتصادية فى البحر المتوسط . وفيما عدا هذين الاقليمين عم السلام نسبيا . والجدير بالذكر أن جستين الثانى وتيبريوس وموريس نهجوا نهج حكومة جستنيان فى اتباع السياسة القائمة على المنح الوفيرة من نقد الذهب ؛ اذ استخدموا نظام التحصينات الباهظة التكاليف ؛ الى جانب اغداقهم الاعانات والمنح على الحكومات الموالية لهم شرقا وغربا . واستخدموا كذلك جيشا وأسطولا عاملين ، الى جانب نظامهم الوظائفى المعروف . فاذا كانت الدولة مرهقة ماليا ، كما يقال ، فاننا لا نجد الدليل الكافى على ذلك هنا .

ونأخذ من التعديلات التى أدخلت فى نظام الدولة فى ذلك الوقت ، الدليل على رخائها المالى أكثر مما نأخذه دليلا على فقرها . ففى هذه الآونة انصرف الأباطرة عن احتكار تجارة الحرير ، وساد التخفيف فى التعليمات الخاصة بشحن غلال الضرائب الى القسطنطينية ، ورفع جستنيان أجر أصحاب السفن التى تنقل تلك الغلال من مصر الى بيزنطة الى عشرة أمثاله (٧٥) . وذهب موريس الى أبعد من هذا ؛ اذ قلل من المسئولية القانونية الملقاة على عاتق القباطنة المكلفين بنقل الغلال بأن جعل الدولة ملزمة دونهم بدفع تعويض ما يفقد بسبب حوادث ارتطام السفن (٧٦) .

وهناك أدلة أخرى على الثراء نلمحها فى التحصينات المقامة على الحدود والتى أنشأها وحافظ عليها جستنيان وخلفاؤه . ولا تزال هذه التحصينات قائمة حتى اليوم فى أفريقية وايطاليا والقرم والبلقان وبلاد الشرق . وهى التزام واضح يؤيد قدرة الدولة التى تعهدتها من الناحية الاقتصادية . ويؤيد

تلك المقدرة المالية أيضا ما قام به جستنيان من اعادة بناء معظم مدينة أنطاكية بعد أن دمرتها الزلازل[٧٧] ؛ واعادته بناء كثير من المدن ، واصلاح نظم الرى فى شمال أفريقية . ونسوق هنا دليلا آخر هاما يسترعى الانتباه ، هو بناء كنيسة القديسة صوفيا الضخمة ، وبازيليكا القديس ڤيتالى وكنيسة القديس أپولينارى — ان — كلاس — فى راڤنا ، وعدد آخر من الكنائس والأديرة الغنية الفاخرة فى مصر فى القرن السادس الميلادى .

ويستدل من سمو وانتشار الحياة الفنية والعقلية فى بلاد البحر المتوسط فى القرن السادس ، على قوة الدولة ورخائها ؛ اذ بلغت فنون العمارة وفن الفسيفساء البيزنطية غاية التطور والنضوج فى مدينة القسطنطينية زمن الامبراطور جستنيان . ولا يقل عن تلك الفنون روعة وأسلوبا ، ما صنع وقتذاك من أدوات عاجية ثمينة وأقمشة حريرية وتحف دقيقة[٧٨] . وشاهدت مصر ، فى تلك المدة ذاتها ، أعلى ما بلغته صناعة النسيج والمبتكرات الفنية الأخرى[٧٩] . ولو نظرنا الى اقليم صغير مثل قبرص لألفيناه قادرا فى هذا القرن بذاته ، على اخراج انتاج فنى بالمعنى الصحيح .

يضاف الى هذا أن الحياة العقلية بلغت مبلغا عظيما . فلم تخرج لنا القسطنطينية پروكوپيوس فحسب بل أخرجت لنا عددا كبيرا غيره من الكتاب المعدودين أمثال أجاتياس ، وميناندر ، وحنا ملالاس . ونستدل من الجهود العقلية التى أنتجت « مدونة جستنيان » على دقة هذه العقول القانونية ، التى يمثلها تريبونيان وغيره . ولم يقتصر النشاط العقلى على عاصمة الامبراطورية[٨٠] ، وانما نراه فى كثير من مدن سورية وفى بيروت ، وفى الاسكندرية التى أحيت العناية بالفلسفة والعلوم اليونانية وأضافت اليها الكثير . وانا لندرك الآن تماما ما تدين به الحياة العقلية الاسلامية ، فيما بعد ، لحركة النهضة العلمية التى ظهرت بالاسكندرية فى القرن

السادس[٨١] . وشاهد الغرب أيضا فى تلك المدة أعلاما من أعلام المعرفة مثل جريجورى العظيم وايزادور الاشبيلى ؛ ولا يمكن أن يقال عن دولة بها مثل هذه الحركات انها عاشت منهوكة متدهورة .

والدراسة الدقيقة للحياة الاقتصادية لأقاليم البحر المتوسط المختلفة ، تجعل ذلك الموضوع أكثر وضوحا . وقد استمرت مدينة القسطنطينية أعظم مدينة فى الشرق خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين . ذلك أنها جاوزت حدودها الرومانية المحصنة بامتداد الضواحى حولها . وقدر ديل Diehl السكان زمن جستنيان بما يقرب من مليون نسمة[٨٢] . أما تجارتها فشملت العالم كله اذ ذاك . وتوالت عليها الأمداد من المسالك التجارية المتعددة حول البحرين المتوسط والأسود . وازداد نشاطها الصناعى باعتبارها مقرا لانتاج الأقمشة الامبراطورية الفاخرة .

ونرى فى الشمال حيث مدن شبه جزيرة القرم مثل خرسون والبسفور ، مقدار عناية جستنيان وخلفائه بتحصينهما وتحصين مراكز أخرى عديدة قربهما من أجل المحافظة على تلك الجهات ضد هجمات الخزر [٨٣] . وكانت هذه المدن على جانب كبير من الأهمية والرخاء باعتبارها محطات نهائية لتجارة الفراء الروسى [٨٤] ، وباعتبارها نهايات لطرق تجارة الحرير الآتية من الشمال .

ولا نعرف عن آسيا الصغرى ومدنها الكثيرة سوى النزر اليسير ، غير أنها ظلت ذات أهميـــة كبرى من الناحية الاقتصـــادية بالنسبة لتجـــارة الامبراطورية ورخائها . وفيما وراء بحر ايجه لم تصادف معظم بلاد البلقان الرخاء المنشود فى ذلك العصر . فمن سوء حظ تلك البلاد أنها اهتزت هزات عنيفة بغزوات الآفار والسلاف أواخر القرن السادس . وانتشر السلاف فى أنحائها حتى بلغوا بلاد البلبيونيز وهاجرت أمامهم جموع غفيرة من اليونانيين ،

الذين دفعهم الفزع فتركوا أرضهم باحثين عن ديار أكثر أمنا فى صقلية وجنوب ايطاليا . ومن الواجب أن نؤكد هنا أن البلقان لم يكن حتى فى القرن الثانى الميلادى ، ذا أهميـــة اقتصادية كبرى بالنسبة للامبراطورية الرومانية . وعلى ذلك فاننا قد نبالغ فى تقدير فقر هذه البلاد المنكوبة ؛ والدليل على ذلك أن ما غنمه الآقار منها واستولى عليه فيما بعد شرلمان بلغت من الضخامة ما يدل على أن الثراء لم يكن مجهولا حتى فى البــلاد التى تقع فى جنوب الدانوب مباشرة [٨٥] .

وعظم رخاء سورية وآسيا الصغرى ، على الرغم من تأثير بعض أجزائها بالزلازل وغزوات الفرس . واستمر رخاؤهما ذاك ، حتى بداية القرن السابع واعترف پروكوپيوس نفسه بانتعاشهما[٨٦] . ولابد أن ادخال تربية دود القز ، أواخر القرن السادس ، أضاف الى رخائهما الزراعى رخاء آخر . وزاد فى هذا الرخاء امداد مراكز نسج الحرير الهامة فى صور وبيروت وغيرهما ، بجانب من انتاجهما الوفير من مادة الحرير الخام . وأثرت مدنهما الساحلية ثراء عظيما بسبب اشتغال السكان بالتجارة مع جميع بلاد البحر المتوسط

ولعل مصر هى أكثر بلاد الامبراطورية رخـــاء ، ولا ســيما مدينة الاســـكندرية العظيمة ، التى تلت فى المكانة مدينة القسطنطينية مباشرة حينذاك ، والتى كانت أعظم مدن البحر المتوسط على الاطلاق . وليس ببعيد أن تكون فاقت فى أهميتها ، كمركز تجارى ، أهمية القسطنطينية ذاتها . وصارت الاسكندرية محط رحال تجارة الشرق ، التى اشتملت على التوابل والحرير القادمين عبر طريق البحر الأحمر . وصدرت هذه البضائع منها الى عالم البحر المتوسط . واذن أصبحت لمصر تجارة واسعة فى ذلك البحر ، وذهب قمحها الى القسطنطينية وأقلعت منها السفن محملة بالحبوب وفاخر الصناعات ، الى ايطاليا لتبادل على ذلك بالخشب [٨٧] ، وأوفدت تجارها

الى اسبانيا ومرسيليا وغيرهما من مدن جنوب فرنسا [٨٨] ، كما اتجرت على نطاق واسع مع شمال أفريقية [٨٩] . ويحتمل كذلك أن تكون سفنها الكبيرة اجتازت أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) ، وقامت بتجارة واسعة النطاق فى مادة القصدير مع بريطانيا [٩٠] البعيدة المدى . واذا صح هذا فانه يفسر أصل وجود العناصر الشرقية والاغريقية فى الصور الايرلندية والكنائس الكلتية ، كما يفسر ما ندهش له من معرفة علماء الايرلنديين للغة اليونانية .

وهناك بعض قوائم تدل على ثراء الاسكندرية ، وجدت فى احـدى الكنائس ، من ذلك ان حنا المحسن ، بطريق الاسكندرية أواخر القـرن السادس ، وجد بالقصر البطريرقى حين اعتلائه[٩١] كرسى البطريرقية مبلغ ٨٠٠٠ رطل من الذهب وكان له أسطول مكون من ثلاث عشرة سفينة تجارية كبيرة تنقل التجارة بين بنتا پوليس وبين شواطىء البحر الادرياتى الايطالية [٩٢] . وشغل هذا البطريق ، بين عامى ٥٩٦ — ٦٠٣ م بسلسلة طويلة من المفاوضات مع جريجورى الأكبر ، للحصول على أخشاب من ايطاليا تصلح لبناء السفن [٩٣] . وبلغت ثروته حدا كبيرا جدا فى الوقت الذى طلبت العون منه ، مدينة بيت المقدس وقت اسـتيلاء الفرس عليها وتخريبها أوائل القرن السابع . ومكنته هذه الثروة من ارسال ألف قطعة ذهبية وألف جوال من القمح وألف كيل من البقول الجافة وألف رطل من الحديد وألف حبل من السمك المقدد وألف دن من النبيذ وألف صانع من المصريين ، معاونة منه على اعادة بناء المدينة [٩٤] . وبما أن النبيذ والحديد والسمك أيضا ، ليست من المنتجات المصرية الصميمة فان هذا يعطينا فكرة عن اتساع مجال التجارة الخارجية لمدينة الاسكندرية . والأدلة كثيرة على ارتباط الكنيسة ارتباطا وثيقا بتجارة مصر . فنحن نعلم أن البطريق أپولـّينارى أعطى لشاب أفلس أبوه التاجر ، خمسين رطلا من الذهب ليعينه على استعادة

تجارته [٩٥] . وأعطى حنا المحسن ثلاث سفن على التوالى الى أحد القباطنة وكانت تحطمت الاثنتان الأوليان من تلك السفن فى مياه خليج سرتيس المضللة (جنوب تونس) . أما الثالثة وهى الكبرى وحمولتها ٢٠٫٠٠٠ كيل من الغلال فان القبطان أدار دفتها بنجاح [٩٦] .

وشابهت الاسكندرية القسطنطينية تماما من حيث كونها موطنا لأصحاب المصارف والمرابين ، ومركزا ماليا ذا آهمية كبرى وقتـذاك . وأقرضت منها الأموال بفائدة بلغت ١٢٪ ، ونص على ذلك فى مدونة جستنيان [٩٧] . ويرجح أن يكون لأصحاب المصارف فى الاسكندرية فروع فى القسطنطينية ؛ بدليل أن أحد قساوسة الاسكندرية اقترض عام ٥٤١ م — وهو فى القسطنطينية — عشرين صلديا لمدة أربعة أشهر ثم دفعها فى الاسكندرية بفائدة مقدارها ٨٪ ، يضاف اليها ٤٪ رسوم اضافية فيكون المجموع ١٢٪ وهو السعر القانونى للفائدة . وأن الصراف Argentarius الذى استخدمه البابا جريجورى الأكبر فى نهاية ذلك القرن ، ليبدو رجلا من رجال المال الذين يعملون على نطاق دولى واسع [٩٩] ، ويدل عمله على وجود سياسة مالية دولية تربط الغرب بالشرق .

كذلك يدل بحث حال الأقاليم الغربية من الامبراطورية على وجود رخاء مماثل . ومن الراجح أن شمال افريقية عانى الكثير من الثورات والكثير من فساد جباة الضرائب من البيزنطيين المرتشين عقب أن فتحه بلزاريوس مباشرة . لكن سرعان ما عاد اليه الرخاء ، وأصبح اقليما زراعيا واسع النطاق ، يصدر من تربته الغنية الكثير من الحبوب وزيت الزيتون . وبعض هذه الحبوب صدر الى القسطنطينية [١٠٠] . ويحتمل أن تكون تكملة للضريبة التى تؤخذ من مصر . أما زيتها فأخذ من حقول واسعة أقامها القرطاجنيون ، ثم غدت مصدرا للثروة على جانب كبير من الأهمية . وعندما

هزم العرب الغزاة سنة ٦٤٧ جريجورى ، نائب الامبراطور بافريقية ، سألوه من أين جاءته كل تلك الثروة العظيمة وكل ذلك الذهب الذى وجدوه فى خزائنه ؟ فأجاب انه من الزيتون الذى يشترى الاغريق زيته بكميات عظيمة من الذهب [١٠١] . وغدت قرطاجنة وقتذاك مدينة تجارية دولية عظيمة .

كذلك كانت حال ايطاليا تماما . وربما سببت غزوات اللمبارد صعوبات اقتصادية فى الداخل ، الا أن مناطق شاسعة حول روما وراڤنا وجنوه ونابلى وصقلية ، ظلت تنعم بالرخاء . وترينا رسائل البابا جريجورى ان ثراء ايطاليا اذ ذاك أشبه ثراءها أيام تيودوريك [١٠٢] . ويكاد يكون من الثابت أن الخسائر الناجمة عن حروب القوط الشرقيين قد عُوِّضت سريعا . ونشطت التجارة مع الشرق بوجه خاص من مراكزها فى راڤنا وبنتاپوليس [١٠٣] وهما المدينتان السابق اشتغالهما بالتجارة قبل قيام تجارة البندقية الكبيرة الرابحة فى ذلك الاقليم ذاته .

ولا نعلم شيئا عن اسبانيا أكثر من أن التجار الاغريق والشرقيين عاشوا داخل البلاد فيما وراء خطوط الحدود البيزنطية [١٠٤] . ووجد الغزو العربى لاسبانيا عام ٧١١ م مدنا مزدهرة ، مزدحمة بجاليات كبيرة من اليهود . وبلغ ما فى خزائن ملوك القوط الغربيين الذين أسرهم طارق بن زياد وموسى بن نصير مبلغا كبيرا جدا ، حتى انه شغل جانبا من قصص الأدب العربى [١٠٥] . وجاء معظم هذه الثروة فيما يبدو من الزراعة والمنتجات الطبيعية .

اما معلوماتنا عن فرنسا حينذاك — أى أوائل عهد الميروڤنجيين — فانها أوفر قدرا بفضل ما خلفه لنا مؤرخ من مدينة تور يدعى جريجورى . ذلك أن فرنسا — رغم وقوعها مباشرة تحت النفوذ البيزنطى — ساهمت فى الرخاء العام لأقاليم الغرب . وكانت بمرسيليا ، مينائها الكبير على البحر المتوسط ، وببعض مدنها الصغيرة ، مثل فوس وآرل ، مخازن وزعت منها

التجارة الغنية على الداخل عن طريق حوض نهر الرون . وجرى التعامل بنقد الذهب [١٠٦] ، وعاش البلاط الميروفنجي عيشة ترف ناعم ، مشتهرا بأنبذته وتوابله المستوردة من الشرق[١٠٧] . واعتمدت فرنسا فى ذلك الوقت على الزراعة وعلى تجارة الرقيق الذى توافد على ميناء مرسيليا وموانى اقليم پروڤانس واعتبر أهم صادراتها [١٠٨] .

أما التجارة العالمية التى ربطت بين أقاليم الغرب الزراعية وبين بلاد الشرق فى ذلك الحين فانها تركزت منذ البداية فى أيدى العملاء الشرقيين من السوريين واليونانيين واليهود . ذلك أن السوريين المقيمين بفرنسا فى القرن السادس وأوائل القرن السابع ، استوردوا التوابل والأنبذة وورق البردى الى مرسيليا والى المدن الداخلية مثل باريس وتور [١٠٩] . واستقرت جاليات منهم فى كل مركز هام من مراكز التجارة [١١٠] . ويصدق هذا القول تماما ، على اليهود الذين نشطوا بوجه خاص فى تجارة الرقيق بمدن جنوب فرنسا [١١١] . أما نشاط اليونانيين التجارى فى ذلك الأقليم فأقل من نشاط السوريين واليهود حينذاك [١١٢] .

وكانت الجاليات الشرقية فى ايطاليا أهم الجاليات وأنشطها بوجه خاص اذ عاش فى راڤنا عدد كبير من اليونانيين[١١٣] ، ووجد بها حى خاص بالأرمن[١١٤] وأقام بروما كثير من اليونانيين[١١٥] ، ومن أهل الاسكندرية[١١٦] ومن السوريين[١١٧] ، وأكثر هؤلاء من التجار . ووجد اليهود فى راڤنا[١١٨] ونابلى [١١٩] وفى أماكن أخرى . ويبدو أن هؤلاء المشارقة ، وعلى الأخص اليونانيين ، توافدوا على ايطاليا فى مهام رسمية ، أو كموظفين فى خدمة الحكومة البيزنطية ، أو لشغل بعض الوظائف الكنسية . واستقر غير هؤلاء فى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة لأغراض التجارة . وصارت روما ، مثل راڤنا فى ذلك العصر مدينة نصف يونانية [١٢٠] .

واتسمت جهات شمال أفريقية وصقلية وسردينية بنفس تلك الصفات . ويذكر لنا الجغرافى العربى: اليعقوبى ، أواخر القرن التاسع الميلادى، أنه وجد كثيرا من الروم (اليونانيين) يستوطنون مدن شمال أفريقية [١٢١] . وهؤلاء الروم (اليونانيون) سلالة من توافدوا على هذا الاقليم فى العصر البيزنطى لأعمال التجارة أو وظائف الحكومة . ومن الأمور المدركة بوضوح ، نشاط تجار اليونانيين فى تجارة زيت الزيتون . ويشبه هذا النشاط نشاط السوريين والمصريين فى تجارتهم بين بلاد الشرق وبين هذا الاقليم الغنى [١٢٢] . ولا نعلم كثيرا عن اسبانيا فيما عدا بعض المعاملات المنتظمة مع تجار الاسكندرية . ويبدو أن تجارة اسبانيا الخارجية — كتجارة باقى الأقاليم الغربية — وقعت هى الأخرى فى قبضة التجار المشارقة .

ولا يمكن أن ننكر قيام الوطنيين من تجار بلاد الغرب ، بالتجارة ، ولابد أن يكون مثلهم فى ذلك مثل المشارقة تماما . فقد اتجر مع الشرق[١٢٣] ايطاليون من منطقة البحر الأدرياتى ؛ كما أرسل آخرون من شمال أفريقية منتجاتهم الى اسبانيا وجنوب فرنسا [١٢٤] . وبصرف النظر عن هذه التجارة المحلية ، وفيما عدا الاستثناءين السابقين ، فان الطابع العام للتجارة فى جميع أقاليم البحرين المتوسط والأسود كان متشابها ؛ ولم يختلف هذا الطابع فى جوهره عما ساد القرون السابقة . فاليونانيون والسوريون واليهود هم التجار العالميون الذين ربطوا بلاد الغرب ذات الرخاء الزراعى الملحوظ ، ببلاد الشرق ذات الرخاء الصناعى الواضح . ومن الراجح أن ظروف السلام الذى ساد اقليم البحر المتوسط قرابة قرن ، على يد الحكومة البيزنطية ، زادت فى مقدار التجارة وفى سيطرة المشارقة عليها . ومن الناحية الاقتصادية فان الاعتراف بالدولة البيزنطية كان معناه سياسيا الاعتراف بسلطان المشارقة ؛ بحيث غدت العملة الذهبية الامبراطورية ، والتجار

المشارقة من علائم سيادة الامبراطورية . ولا يقل هذان العاملان عما كان للأسطول البيزنطى من أهمية . بل ان الفرنجة والقوط الغربيين وآخرين غيرهم ممن لم يخضعوا مباشرة لسلطان الامبراطورية ، أولوا التجار المشارقة والعملة الامبراطورية من الاهتمام مالم يولوه الأسطول البيزنطى .

وهناك نقطة غامضة تحتاج الى مزيد من الايضاح وهى ما اذا كان التجار المشارقة استنزفوا حقيقة ذهب الأقاليم الغربية الزراعية ، أم لا ، أثناء تسلطهم على تجارة حوض البحر المتوسط . والذى يمكن أن يقال ، ان ثمة بعض الأدلة على استنزاف المشارقة لذهب تلك الأقاليم . والمعروف أن حياة المدن لم تنتشر كثيرا فى بلاد الغرب خلال القرن السادس وأوائل السابع ، على الرغم من عدم وجود الدليل على تدهورها (١٢٥) . ثم ان العملة الذهبية التى ضربها الفرنجة فى القرن السادس وأوائل السابع ظلت بيزنطية التصميم . وليس هناك ما يدل على انحطاط مستوى (١٢٦) نفاستها أو عيارها . وفى الوقت ذاته فان الدلائل العديدة على رخاء أقاليم الغرب ، وكذا دخول بعض التجار الوطنيين ، من ايطاليا وشمال أفريقية ، وجنوب فرنسا أيضا ، الى ميدان التجارة الدولية ، تشير بوضوح الى نتائج تخالف السابقة .

ازداد احتياج الشرق الى الحبوب من صقلية ، والقمح وزيت الزيتون من شمال أفريقية ، والخشب والملح من البحر الأدرياتى ، والحديد والمعادن الأخرى من اسبانيا وبلاد الغال . والى الفائض من الدقيق المستجلب من تلك البلاد عن حاجتها والى منتجاتها الطبيعية أيضا . ولم يقل تقدير الشرق لهذه الأشياء عن تقدير الغرب للتوابل وورق البردى والأنبذة والحرير والمنسوجات وسائر المنتجات الصناعية الفاخرة المصنوعة فى الاسكندرية وسورية والقسطنطينية . فاذا كان الشرق وهو أحد طرفى هذا التعامل يبيع بضائعه

بأسعار عالية ويقبض الأرباح من نقل التجارة وتوزيعها ، ويشترى مقابل ذلك منتجات طبيعية أرخص ثمنا ؛ أمكن القول ان الغرب لم يخسر الى حد كبير ، بل انه كسب من وراء هذا التبادل التجارى . وعلى هذا يتضح أن الصورة التى صورها پروكوپيوس لامبراطورية منهكة ضائعة ، بعيدة عن الواقع كثيرا .

وتعادل المشكلة السابقة فى تعقيدها مشكلة العلاقة الاقتصادية بين عالم البحر المتوسط وبين البلاد الشرقية وهى فارس والهند والصين . فهل ساد تجارتها رخاء مماثل فى ذلك الحين ؟ وهل كان الميزان التجارى مع تلك البلاد فى صالح سورية ومصر والقسطنطينية ، مثلما كان فى صالحها مع بلاد الغرب ؟ أم هل انساب ذهب الامبراطورية نحو بلاد الشرق ؟ هذه مشكلات عويصة تحتاج الى الاجابة . على أنه يتضح مما سبق أن جهود الحكومة البيزنطية لتحويل طرق التجارة الشمالية والجنوبية بعيدا عن ايران ، لم تظفر الا بنجاح جزئى . ولم تنجح كذلك محاولاتهم التخلص من الاعتماد على الحرير المستورد بانتاجه محليا ، ولا محاولاتهم ارغام المستوردين الفرس على قبول الأسعار التى حددوها لشراء الحرير . واستمر اعتماد بيزنطة على الفرس كوسيط تجارى ؛ ووصلت منتجات الشرق الأقصى الى بلاد البحر المتوسط عبر الطريق التى سيطرت عليها الدولة الساسانية . وأكثر من هذا استمرت بيزنطة لسنين عدة ، ترسل منحا مالية لملوك آل ساسان تتراوح بين ٢٠٫٠٠٠ — ٣٠٫٠٠٠ قطعة من الذهب . فهل يا ترى حول هذان الغرضان ذهب الامبراطورية الى بلاد الشرق ، أو أن الصناعات الناجحة فى سورية ومصر والقسطنطينية أوجدت نوعا من التعادل فى ميزان التجارة مع بلاد فارس ، على الرغم من شراء منتجات الشرق الأقصى وتقديم المنح المالية ؟ هناك حقيقتان تشيران الى صواب الرأى الأخير .

أولاهما أن العملة البيزنطية غدت فى منتصف القرن السادس ، عملة دولية دون منازع بمنطقة المحيط الهندى وهى المنطقة التى يسيطر عليها تجار الفرس . الثانية أن الساسانيين لم يضربوا عملة ذهبية قط ، مكتفين بالعملة الفضية . وكلتا الحقيقتين تشير الى سيادة الأباطرة البيزنطيين اقتصاديا . واذا لم تكن هـذه السيادة مباشرة فان تأثيرها على بلاد الشرق شـابه تأثيرها على بلاد الغرب تماما (١٢٨) .

كانت الامبراطورية البيزنطية من وجهتى النظر البحرية والاقتصادية دولة ذات قوة وحيوية حتى بداية القرن السابع الميلادى . ولكن انتابتها علتان جسيمتان ، كانت أولى العلتين فى الحياة الدينية ؛ ذلك أن سورية ومصر وهما على ما نعلم من الغنى والرخاء ، كرهتا المذهب الأرثوذكس الذى تمسكت به القسطنطينية وسائر أقاليم الامبراطورية ، ولما كان جستنيان يعمل على بسط سلطانه على الأقاليم الغربية أى فى اسبانيا وايطاليا وشمال أفريقية فانه نبذ سياسة زينو وانستاسيوس القائمة على محاباة المذهب المنوفيسيتى . ورضى الناس فى القسطنطينية وفى آسيا الصغرى وفى بلاد الغرب عن أرثوذكسية جستنيان هذه ، ولكن أهل الشرق كرهوها . هذا بينما كانت تيودورة ، وهى على قيد الحياة تحابى المونوفسيتية فترتب على سياسة الامبراطور وسياسة الامبراطورة نوع من التوازن بين المذهبين ، ولكن بعد وفاة تيودوره تحول جستنيان الى اضطهاد الكنائس القومية فى سورية ومصر اضطهادا بالغ العنف . وزاد الطين بلة أنه أظهر فى شيخوخته آراء هرطقية رفضها الأرثوذكسيون أنفسهم (١٣٠) .

نجم عن تصرفات جستنيان انشقاق شديد فى وحدة الامبراطورية وسار خلفاؤه على نهجه فى السياسة الدينية ، الأمر الذى زاد فى هوة الخلاف بين سورية ومصر من جهة وبين القسطنطينية وسائر أنحاء الامبراطورية من

الجهة الأخرى . ولم يكن هذا الانشقاق انشقاقا دينيا فحسب ، بل أكثر من ذلك . كان فى الحقيقة انشقاقا اجتماعيا ثقافيا أيضا بين العقلية والثقافة اليونانية الرومانية من ناحية ، وبين الثقافة السورية القبطية الخاضعة للعقلية الشرقية من الناحية الأخرى . ومن الجائز أن هذا الخلاف زاد حدة بسبب ما كان هناك من صراع اقتصادى بين الاسكندرية وبين القسطنطينية على أسواق البحر المتوسط . ويؤيد هذا الجواز ما كان من ارتباط وثيق بين الكنيسة والتجارة فى مصر ولم تخف حدة الخلاف مع الزمن بل على العكس زادت عنفا خلال القرن السادس وأوائل القرن السابع . ولم تكن سياسة فرض مطارنة من الأرثوذكسيين الملكانيين على كنيستى سورية ومصر ذات جدوى ، بل بالعكس فانها أثارت كراهية وكلائهم المنوفيستيين . كذلك لم تجد سياسة فرض ضرائب باهظة على تلك الجهات عن طريق الموظفين الأجانب من اليونانيين الجشعين . ونتيجة لهذا لم تلبث سورية ومصر رغم رخائهما أن أصبحتا تدريجيا ، قلقتين وراغبتين عن احتمال ظلم الحكام البيزنطيين .

وأما العلة الثانية فكانت عسكرية . فعلى الرغم من أن البحرية البيزنطية والتحصينات المنتشرة فى كل مكان ، وقوات الحرس الوطنى المحلية والجيش النظامى الصغير ، لم تكلف الدولة كثيرا الى جانب كونها كانت وسيلة صالحة لحماية معظم حدود الامبراطورية ؛ الا أنها لم تكن كافية للدفاع عن حدود داخلية ممتدة طويلا ضد خصم حسن التنظيم . وأثبت الآفار وحلفاؤهم من السلاف صحة ذلك القول فى البلقان ، كما أثبته اللومبارديون الى حد ما فى ايطاليا . ومع هذا فلم يكن كلا هذين الاقليمين من الأهمية بحيث يهمان كثيرا الامبراطورية . لكن الأمر يختلف فيما يتعلق بفارس ، فهذه تجاور حدودها حدود سورية ومصر ، أعظم أقاليم الامبراطورية ثروة وضياع هذين الاقليمين معناه مأساة بالغة للامبراطورية البيزنطية .

وحتى أواخر أيام الامبراطور موريس ، الذى اغتيل بيد جنوده عام ٦٠٢ م أثناء احدى حملاته الموفقة ضد الآقار على حدود الدانوب [١٣١] أفسد ذهب البيزنطيين وقوتهم الحربية جهود الفرس فى الهجوم على هذين الاقليمين . كان الجيش صغيرا حقا ولكنه كما يتضح من كتاب الامبراطور موريس فى فن الوقائع الحربية ، ما زال حسن العتاد والنظام ، والأجور ، والقيادة [١٣٢] . ولكن بعد موت موريس انهار نظام الجيش . وقبض فوكاس على أزمة الحكم ، وكان فظا عاجزا ، وسرعان ما توقف جهاز الدولة الادارى ولم يعد للبلاد زعماء يهدونها سواء السبيل ، وحلت بالدولة البيزنطية المصائب .

فى هذه الأثناء زحف الآقار عبر حدود الدانوب . كما أدرك أقدر الملوك الساسانيين أن فرصتهم قد حانت ، فأظهروا اهتمامهم بالكنائس المنوفيسيتية وانسابوا هم أيضا عبر حدود سورية ومصر [١٣٣] . ولم يكن الحرس الوطنى السورى المصرى العديم الولاء ، براغب فى الدفاع عن نفسه ولا قادر على ذلك ، فسقطت أنطاكية عام ٦١١ [١٣٤] . وتبعها بيت المقدس ٦١٤ [١٣٥] . ولم يأت عام ٦١٩ حتى وقعت مصر بما فى ذلك مدينة الاسكندرية الغنية ، فى قبضة كسرى الثانى ملك الفرس [١٣٦] . ودفعت القسطنطينية بذلك ثمن الاضطهادات الدينية العنيفة ، التى أذاقتها كلا من سورية ومصر . ثم حاصر الفرس فريستهم للاجهاز عليها فتحركت جيوشهم نحو آسيا الصغرى ، وظهرت عام ٦٢٦ عند خلقدونية تجاه القرن الذهبى ، على حين ظهرت قوات من الآقار ، متحالفة مع الساسانيين ، على الشاطىء الأوربى المقابل وعزلت هذه القوات العاصمة برا [١٣٧] ، فبدت نهاية الامبراطورية البيزنطية قريبة المنال .

وفى ساعة المحنة أنقذ الامبراطورية أمران : أولهما الزعامة التى تهيأت

لها حينذاك ، ثم قوتها البحرية . ففي عام ٦١٦ خلع الامبراطور العاجز فوكاس واستولى على السلطة بعده هرقل حاكم شمال أفريقية ، الذى أبحر بأسطوله من أفريقية وأنقذ الامبراطورية . وعند وصوله وجد الدولة فى حال محزنة : فالخزانة خاوية لحرمانها مما كان يرد اليها من سورية ومصر وسائر البلاد الثائرة المضطربة ، والجيش متمرد لتأخر رواتبه ، والعاصمة متروكة دون تحصين (١٣٨) .

وكان أول واجب لهرقل هو أن يعيد النظام فقام بتجريد الكنائس مما لديها من ذهب ، واستخدم ذلك كله فى دفع مرتبات الجنود واعداد الجيش والأسطول . وبعد أن أتم هذه الترتيبات قام بسلسلة من الحملات الحربية الرائعة بين عامى ٦٢٢ م ، ٦٢٨ م . وساعده على القيام بتلك العمليات تمكن الأسطول من السيطرة على البحر ، الأمر الذى أتاح له نقل قواته الحربية وما تحتاج اليه من امداد الى أرمينية الواقعة على حدود بلاد فارس. كما أتاح للقسطنطينية أن تقاوم هجوما آخر عنيفا ، ففى عام ٦٢٦ م استطاعت قوات البحرية البيزنطية أن تشتت ، فى يسر وحدات بحرية للآقار مكونة من مراكب صغيرة كانت تهددها بحرا (١٣٩) . وبالاحتفاظ بالمدخل المائى الى القرن الذهبى مفتوحا ، أمكن للأسطول البيزنطى أن ينقل الى العاصمة المحاصرة كل الامداد والتموين . وعندما أخفقت (١٤٠) قوات الآقار والفرس فى الاستيلاء على المدينة عنوة انسحب الآقار أولا ثم الفرس فى اعقابهم .

فى هذه الأثناء استطاع هرقل ، من قواعده فى أرمينية ، أن يهدد المواصلات بين الجزيرة وبين الجيوش الفارسية فى سورية ومصر وآسيا الصغرى . وحين عجز الفرس عن زحزحة هرقل ، بسبب انهزامهم فى المعارك عدة مرات أمام قواده ، أخذوا فى الانسحاب وهم على أبواب النصر . وتبعهم هرقل ، ونقل الحرب الى أرض أعدائه ، وواصل سيره حتى بلغ

المدائن عاصمة الفرس ، حيث أباد آخر جيش للأعداء كان يقف فى طريقه ، ووضع يده على العاصمة وعلى قدر عظيم من الغنائم . وانتهت الحرب عام ٦٢٩ م وفى تلك الأثناء قتل الفرس ملكهم ؛ وجاء خليفته فحاول عقد الصلح . وكان الثمن الذى تقاضاه هرقل هو تعهد فارس بالانسحاب من فتوحهم فى سورية ومصر ودفع غرامة حربية كبيرة . وهكذا ظفرت بيزنطة بنصر مطلق على عدوتها القديمة . وعاد هرقل منتصرا الى القسطنطينية حاملا صليب الصلبوت الذى أنقذه من أيدى الفرس فحياه الشعب الثمل بفرحة النصر واستقبله بتسبيحة الشكر . بهذا عادت الامبراطورية الرومانية من جديد ؛ وساد النظام جميع بقاعها [١٤١] الا اسبانيا فانها لم تعد للتبعية البيزنطية عودة كاملة . والذى حدث أن القوط الغربيين انتهزوا فرصة ما حل ببيزنطة من أزمات عامى ٦١٦ [١٤٢] ، ٦٢٥ [١٤٣] م ، واستعادوا معظم ما استولى عليه جستنيان منهم عام ٥٥٤ م . على أن من المحتمل أن بيزنطة بقى لها شىء من السيطرة على سبتة وعلى بعض الجهات القريبة منها . يدلنا على هذا أن الحكومة الامبراطورية كانت لا تزال تحتفظ ببعض المواقع فى اسبانيا حتى القرن السابع[١٤٤] .

ولم تقابل اعادة تأسيس الامبراطورية الرومانية فى سورية ومصر ، بما قوبلت به فى القسطنطينية من بهجة وتبريك . ويعتبر هرقل مسئولا الى حد كبير عن هذه النتيجة . اذ أنه ارتكب جميع الأخطاء التى وقع فيها أسلافه ، باعادته جميع الأنظمة المالية الغاشمة واستخدامه جامعى الضرائب من اليونانيين [١٤٥] . هذا فضلا عن اضطهاده المصريين والسوريين المنوفيسيتيين ، ومعاملتهم أسوأ معاملة وأقساها . ويحتمل أن يكون مرجع ذلك الى مساندتهم الفرس فى تلك السنوات الأخيرة [١٤٦] . وعندما فشل الاضطهاد فى خلق وحدة دينية أو القضاء على معارضة الأرثوذكسية فى هذه الأقاليم ؛ اتخذ هرقل خطوة أخرى ، هى محاولته ايجاد نوع من التوافق

الدينى خلاصته القول بالمشيئة الواحدة . ولم تزد هذه المحاولة عن كونها شرا هى الأخرى . واذا كان معظم المصريين والسوريين قد نفروا من المذهب الأرثوذكسى الذى فرضته القسطنطينية عليهم بالقوة . فان مذهب المشيئة الواحدة نفر كل انسان فى الواقع . فالغرب الأرثوذكسى(١٤٧) رفضه هو الآخر ، كما رفضه كذلك اليونانيون الأرثوذكس من سكان مصر والمدن الساحلية بسورية (١٤٨) . عندئذ سار هرقل فى اضطهاد الفريقين وحاول أن يفرض آراءه على مناهضيه فى الشرق والغرب . وعبثا حاول . وكل ما حدث أنه أضعف امبراطوريته المرهقة فعلا بالحروب مع فارس مدة عشرين عاما ، والتى لم تكن اندملت جراحها بعد أن أثارتها وضاعفتها العداوات الدينية .

وفى عام ٦٣٤ واجه عالم البحر المتوسط الضعيف المنقسم ، أول فوج من العرب الغزاة المؤمنين برسالة التوحيد التى بلغها نبى من أهل مكة لم يشتهر اسمه خارج بلاده بعد . اندفع هؤلاء الغزاة من الصحراء صوب أطراف البلاد السورية ، ولكنهم رُدوا على أعقابهم دون أن يلفت ذلك الحادث الأنظار كثيرا (١٤٩) . وكانت غلطة عدم الاكتراث للحادث غالية الثمن ، اذ لم يمض عامان حتى حدثت وقعة اليرموك وخضعت سورية للفاتحين العرب . وفى عام ٦٤٠ م ضاعت مصر ، وفى عام ٦٤١ م تبعتها الاسكندرية . وعاش هرقل « بطل اعادة الامبراطورية » ليرى جميع جهوده تذهب أدراج الرياح . ومات الامبراطور وسط هذا الفشل ، فى السنة التى سلمت فيها مدينة الاسكندرية . وتوقفت بموته كل جهوده ، وتحطمت وحدة الامبراطورية الرومانية فى البحر المتوسط . ولم يقتصر الضياع على أملاك الامبراطورية التى أحياها جستنيان فحسب ؛ بل تعدى ذلك بكثير . وانقلب انتصار الاسكندر على دارا ، وانتصار روما على هانيبال ، وانتصار أورليان على الزباء ؛ ونبذ الشرق الحضارة الغربية التى فرضت عليه قسرا وأشاح بوجهه عنها وبدأ عصر الاسلام فى دنيا البحر المتوسط .

حواشي الفصل الثاني

١ ـ أحسن ما جاء عن حكم چستنيان هو ما أورده :

Diehl, C. Justinien et la Civilization Byzantine du VIe Siècle (Paris 1901).

وهناك فصل رائع آخر وان تأثر كثيرا بأقاصيص پروكوپيوس فى كتاب

(Holmes, W. G. The Age of Justinian and Theodora 2 vols. London 1905-07).

٢ - Lombard op. cit., p. 145.

٣ - Procopius (ed. Dewing) II, 105-07. Diehl, C. L'Afrique Byzantine, p. 360.

٤ ـ تدلنا هـــذه القوة البحرية ، التى بلغت ١٢٠ سفينة حربية وهى كل أسطول الوندال ، على ما كان عليه هـــذا الأسطول من قوة فيما مضى وما انتهى اليه من ضعف أوائل القرن السادس .

Procopius II, 107-09

٥ - Procopius, II, 247-49. Carta-Raspi, R. La Sardegna nell'alto Mediaevo (Cagliari 1935), p. 38-46.

٦ - Procopius, III, 167.

٧ - Procopius, V, 283, 313-14.

٨ ـ المرجع السابق ص ٣٤٧ ـ ٤١٩ .

٩ - Vasiliev, Byzantine Empire, p. 170-71.

١٠ - Procopius, II, 103.

١١ ـ المرجع السابق ص ٤٣ .

١٢ - Procopius, III, 43 ; V, 329-35.

١٣ - هناك مثالان لاثنين من التجار الشرقيين ذكرهما :

Procopius, II, 171 in Africa and III, 75 in Italy.

١٤ - Procopius, III, 379-425, IV and V.

١٥ - Procopius, II, 285-459.

١٦ - Gautier, E. F. Les Siècles Obscurs du Magreb (Paris 1927) p. 185-218. Caropino, J. "Le Limes de Numidie et sa garde syrienne" in Syrie (1925).

ولم تتحقق أيضا آراء چيفورر التى تقول باهمال چستنيان للأسطول

Geforer, Byz. Geschichte II, 401-08.

١٧ - Procopius II, 327 ; VII, 391. Carta-Raspi op. cit., p.60-64.

١٨ - Vasiliev, Goths in the Crimea, p. 70-71.

١٩ - Procopius VII, 97-177 ; 187-219 ; 223-393.

٢٠ - Procopius IV, 157-59.

٢١ - Charanis, P. "The Hellenization of Sicily" in The American Historical Review (1946) L. VI, 80-81.

٢٢ - Paul the Deacon History of the Langobards trans. W. Foulke (Phila. 1907), p. 79. Diehl, C. Etudes sur l'Administration Byzantine dans l'Exarchat de Ravenne(568-71)(Paris 1888), p. 351.

٢٣ - Procopius II, 339.

٢٤ - Hitti, P.K. History of the Arabs (New York 1940), p. 193.

٢٥ - Butler, The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902), p. 112-15.

فى حملات چستنيان على الوندال بشمال افريقيـة كان قائد الأسـطول البيزنطى وعدد كبير من رجاله من المصريين .

Procopius II, 105.

٢٦ ـ فى أواخر القرن الثامن جهزت القسطنطينية أسطولا لجستنيان الثانى .

Procopius VII, 93-95.- Runciman, Byzantine Civilisation (London 1933), p. 153.

٢٧ - Liber Pontificalis ed. Duchesne, p. 137. Diehl Exarchat, p. 197.

٢٨ - Angelliqui et Andreas Lib. Pont. Eccl. Ravennatis in Script. Rer. Lang. et Ital. Saec. III. Diehl, Exarchat, p. 372.

٢٩ - Carta-Raspi op. cit., p. 88-98.

٣٠ - Hill: History of Cyprus (Cambridge 1940) I, 258.

٣١ - Zachariae von Lingenthal Jus Graeco-Romanum III, 23.

٣٢ - Carta-Raspi op. cit., p. 85-86.

٣٣ - Vernadsky Ancient Russia, p. 196.

٣٤ - Vasiliev, Byzantine Empire, p. 235-41.

٣٥ - Chronicle of Fredegarius (Historiens de France) V, II, 6.

Gregory of Tours op. cit. III, 53 ; VI 26 ; VII, 36. Paul the Deacon op. cit., p. 126.

٣٦ - Gregory of Tours op. cit., V, 39 ; VI, 40, 43. Gregory the Great Epistolae XIII, ep. XLVII. Paul the Deacon op. cit., p. 125-26.

٣٧ - Leonitus Vita S. Johannis Eleemosynarii ed. Gelzer (Leipsig 1883), X.

٣٨ - Vernadsky op. cit., pp. 155, 192-93. Vasiliev Goths in the Crimea, p. 10-71. Diehl Justinien, p. 378-86.

٣٩ - Theophanes (ed. Bonn), p. 239.

٤٠ - Menander Fragmenta (ed. Bonn), p. 47-56.

٤١ - Vernadsky op. cit., p. 41.

٤٢ - Menander op. cit., p. 404.

٤٣ - Diehl Justinien, pp. 392-400, 488.
Procopius I, 192.

٤٤ - Procopius I, 191-92. Hitti op. cit., p. 63-65.

٤٥ - Diehl op. cit., p. 544-45.

٤٦ - Hitti op. cit., p. 64-66.

٤٧ - Procopius V, 229-31. Excerpta e Theophanes Historia (ed. Bonn), p. 484.

٤٨ ـ المرجع السابق .

٤٩ ـ المرجع السابق

٥٠ - Lopez "Silk Industry", p. 12-13.

٥١ - Menander op. cit., p. 361.

٥٢ - Prou Catalogue des Monnaies Merovingiennes de la Bibliothèque Nationale (Paris 1892) Lopez, R.S."Mohammed and Charlemagne, A Revision' in Speculum (1943 XVIII, p. 16-21

٥٣ - Lombard op. cit., p. 146-47.

٥٤ - Lopez "Silk Industry", p. 23-25.

٥٥ - Cosmas Indicopleustes Top. Christ (Pat Graeca ed Migne LXXXVIII), pp. 115 and 447.

٥٦ - Lopez "Moh. and Charlemagne", p. 16-21.

٥٧ - Nov. Just.XXXVIII, 6.

٥٨ - Basil LIV, 16.

٥٩ - Procopius VI, 297-301.

٦٠ - المرجع السابق

٦١ - Lopez "Silk Industry", p. 12-13.

٦٢ - Lopez "Moh. and Charlemagne", p. 16-21.

٦٣ - Lombard op. cit., p. 144-46.

٦٤ - Diehl : Justinian, p. 367-77.

٦٥ - Ibid., p. 409-13. Vasiliev Byzantine Empire, p. 174.

٦٦ - Procopius : VI, 131-35, 227-33.

٦٧ - المرجع السابق ص ٢٣٣ - ٢٥٥ .

٦٨ - Procopius II, 277-79.

٦٩ - Procopius IV, 159-61 ; VI, 313.

٧٠ - Procopius, VI, 179-81, 279-91, 351-53.

٧١ - Gregory the Great Epistolae.

٧٢ - Butler: Arab Conquest of Egypt, p. 175-83.

٧٣ - Holmes: Age of Justinian and Theodora II, 440-55, 472-88.

٧٤ - Procopius VI, 229-31.

٧٥ - Charanis "Soc. Struct. of the Later Roman Empire", p. 49

٧٦ - John of Nikiu Chronicle trans. R. H. Charles (London 1916), p. 165.

٧٧ - Holmes op. cit., II, 539-43.

٧٨ - المرجع السابق ص ٥٢٩ - ٥٣٩ ، ٧٤٩ - ٧٥٣ .

٧٩ - Butler op. cit., p. 103.

٨٠ - Dawson, C. The Making of Europe (London 1932), p. 117-21.

٨١ - المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

٨٢ - Diehl Justinien, p. 540-50.

٨٣ - Procopius VII, 215-17.

٨٤ - Mierow: The Gothic History of Jordanes, p. 60

٨٥ - Russell: Charlemagne (New York 1930), p. 175-76.

٨٦ - Procopius VI, 297.

٨٧ - Diehl: L'Egypte Chrétienne et Byzantine (Paris 1937), p. 486.

٨٨ – Leonitus Vita S. Johannis Eleemosynarii XIII Registrum VI, 4.

٨٩ – Diehl op. cit., p. 486.

٩٠ – Diehl L'Afrique Byzantine, p. 406-07.

٩١ – Leonitus op. cit. XLV.

٩٢ – Ibid ; XXV, III. Diehl Egypte, p. 486.

٩٣ – Registrum VI, 58 ; VII, 37 ; VIII, 38, 29 ; IX, 175 ; XIII, 45.

٩٤ – Leonitus op. cit., XX.

٩٥ – Moscus Pratum Spirituale CXCIII.

٩٦ – Leonitus op. cit., X, XIII.

٩٧ – Codex Just. IV, 32.

٩٨ – Caire. P. Masp., 67, 126.

٩٩ – Gregory the Great Epist. XI, 16.

١٠٠ ـ فى عام ٦٠٨ احتجز هرقل ، حاكم افريقية ، السفن الراسية بشواطىء شمال افريقية والتى كانت تحمل القمح الى القسطنطينية .
Theophanes, p. 296.

١٠١ – Ibn Idhari Bayano'l Magreb trans. E. Fagnan (Algiers 1901) I, 7.

١٠٢ – See Gregory the Great Epistolae.

١٠٣ – Registrum VI, 58 ; VII, 37 ; IX, 175.

١٠٤ – Paul Diac. Emerit. De Vita Patr. Emerit in España Sagrada ed. Florez, XIII, 348.

١٠٥ – Marçais: La Berbérie Musulmane et L'Orient au Moyen Age (Paris 1947), p. 24. C. Sanchez-Albornoz y Menduina Ruina y extinction del municipio Romano en España (Buenos Aires 1943).
فى هذين المرجعين وردت آراء أقل تحمسا بالنسبة لانتعاش الحياة المدنية .

١٠٦ – Bloch, M. "Le Problème de l'Or au Moyen Age" in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. (1933) V, 8-11.

١٠٧ – Pirenne op. cit., p. 88-91.

١٠٨ ـ المرجع السابق ص ٩٦ ـ ١٠٠ .

١٠٩ ـ المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨١ .

١١٠ ـ المرجع السابق ص ٨٢ ـ ٨٥ .

١١١ـ المرجع السابق ص ٩٩٠

١١٢- Acta Concil. Narbon. in Mansi Coll. Concil., IX. Heyd op. cit., p. 22 Pirenne op. cit., p. 80-81.

١١٣- Diehl Exarchat, p. 279.

١١٤ـ المرجع السابق ٠

١١٥- Gregarovius Geschichte der Stat Rum in Mittélalter 3rd ed. (Stuttgart 1876) II, 382.

١١٦- Rossi Inscriptiones Christianae (Rome 1857) II, 454-55.

١١٧- Gregory the Great Epist. X, 39, Liber Pont. pp. 15, 125.

١١٨- Procopius III . 99

١١٩- Heydop cit. p. I25-28. Dopsch Foundations of western Civilization, p. 342.

١٢٠- Procopius III, 74.

١٢١- Marçais Berbérie, p. 70-73.

١٢٢- Diehl L'Afrique Byzantine, p. 406-07.

١٢٣- Angelliqui et Andreas Lib. Pont. Eccl. Rav., 30, p. 294. Deihl Exarchat, p. 279-80.

١٢٤- Pirenne op. cit., p. 86.

١٢٥ ـ وللاطلاع على بعض وجهات النظر المعارضة والتي تقول بأن تلك القرون شاهدت تدهورا منتظما زاحفا فى النواحى الاقتصادية انظر لمبارد (ص ١٤٣ ـ ١٤٤) على أن كلا من Pirenne, Dopsch نظرا الى هذا الموضوع نظرة أقل معارضة .

١٢٦ ـ يعارض لمبارد هذا الرأى (ص ١٤٤) وهو يتكلم هنا بصفة خاصة ، عن فترة أواخر القرن السابع والقرن الثامن .

١٢٧ ـ انظر التعليقات رقم ١٢٣ ـ ١٢٤ .

١٢٨ ـ يميل لمبارد ثانية الى اتخاذ وجهة نظر مغايرة (ص ١٤٦ ـ ١٤٧) . على أن تفسيراته تبدو غير مقنعة الى حد ما ولا سيما فيما يتعلق بتحول الذهب المزعوم تسربه شرقا على يد الحكام الساسانيين .

١٢٩- Holmes op. cit., II, 668-72.

١٣٠ ـ المرجع السابق ص ٧٠٢ ـ ٧٠٥ .

١٣١- Paul the Deacon op. cit., p. 168.

١٣٢- Maurice Strategicon ed. Scheffer. Runcima Byzanntine Civilization, p. 139-40.

١٣٣- Vasiliev Byzantine Empire, p. 237-38.

١٣٤- Conybeare, F. C. "Antiochus Strategos" "Account of the Sack of Jerusalem" in English Historical Review XXV (1910).

١٣٥- Vasiliev op. cit., p. 238.

١٣٦- المرجع السابق .

١٣٧- Butler, Arab Conquest of Egypt, p. 120. Runciman op. cit., p. 40.

١٣٨- Pernice, A. L'Imperatore Eraclio (Florence (1905).
ورد خير ما كتب عن هذ االحكم فى هذا الكتاب .

١٣٩- Vasiliev op. cit., p. 239-40.

١٤٠- المرجع السابق .

١٤١- انظر القصة كاملة فى كتاب Pernice, A. op. cit.,

١٤٢- Isadore of Seville Chronicle ed Mommsen, p. 479. Isadore Hist. Reg. Goth., pp. 291, 295.

١٤٣- Isadore of Seville chron., p. 48 and Hist. Reg. Goth, p.785

١٤٤- Diehl, L'Afrique Byzantine, p. 531.

١٤٥- Hitti, Hist. of the Arabs, p. 166.

١٤٦- Butler, Arab Conquest of Egypt, p. 183-93.

١٤٧- المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٧ .

١٤٨- المرجع السابق ص ١٨٠ .

١٤٩- Hitti op. cit., p. 147.



الفصل الثالث

الغـــزو العـــربى

(٦٤١ - ٧٥٢م)

بدأت ، بسقوط الاسكندرية فى قبضة الفاتحين العرب عام ٦٤١ م ، وموت البطل العجوز هرقل ، مرحلة جديدة فى تاريخ البحر المتوسط . وظهر الاسلام على سواحل ذلك البحر ، الا أن هذا الظهور لم يكن كذلك الحادث المؤقت الذى حدث منذ سنوات قليلة ، عند مجىء الساسانيين الى سوريا ومصر ، بل صار عنصرا دائما فى الموقف ، وبدّل تبديلا جوهريا فى ثقافة جمهور الأهلين فى سورية وفلسطين ومصر وشمال أفريقية ، وفى الوجهة التى ولوا وجوههم نحوها . ولا يزال أثر ذلك التغيير الحقيقة الأساسية فى هذا الجزء من العالم حتى اليوم .

ومن الظواهر التى تدعو الى الدهشة والعجب ، ذلك اليسر والسهولة اللذان رافقا الغزو العربى . وربما كان مرجع بعض هذا اليسر وهـذه السهولة الى الاجهاد الذى حاق بالامبراطورية البيزنطية أثناء كفاحها الطويل الذى استمر قرابة قرن من الزمان مع بلاد فارس ؛ وهو الكفاح الذى انتهى حينما بدأ هجوم العرب . وربما رجع أيضا الى عجز بيزنطة ، بعد أن صار كل اعتمادها على العنصر البحرى فى مواجهة غزو برى واسع النطاق . وربما رجع هذا اليسر — الى حد ما — الى الحماسة الدينية التى خلقها الاسلام فى قلوب الغزاة والمحاربين . على أنه مما لا شك فيه أن السبب الأساسى

لنجاح العرب يرجع الى غير هذه الأسباب : انه يرجع الى رفض معظم السوريين والمصريين القيام بأية مقاومة ، وهذا بسبب غضبهم الشديد من اضطهاد هرقل لعقيدتهم المنوفيسيتية ومن نظامه المالى المجحف . الأمر الذى دفعهم الى الترحيب بجيوش العرب . وعلى أية حال فقد تقرر مصير سورية فى معركة واحدة هى معركة اليرموك ، كما تقرر مصير مصر فى معركة حصن بابليون . حقيقة ان بعض المدن قاومت مقاومة أكثر من شكلية ، ولكن معظمها — ما عدا الساحلية منها — لم تستطع الصمود طويلا . هذا الى أن الشروط السخية التى منحها العرب لمن سلموا لهم ، ساعدت كثيرا ولا شك كما ساعد أيضا التسامح الدينى الذى عاملوا به المسيحيين واليهود فى سورية ومصر . وبهذا كله بدا الغزو الاسلامى فى نظر سكان تلك الأقاليم أقرب ما يكون الى حركة تحرير [1] .

وعندما بلغ العرب الفاتحون سواحل البحر فى مصر وسورية ، وجدوا الوضع مغايرا فى الداخل بعض الشيء . فمعظم السكان فى هذه المناطق أقرب الى اليونانيين الأرثوذكس ، وأقل معارضة للدولة البيزنطية . على أن الجدير بالنظر هو أن العرب كانوا أهل بر وأهل بداوة ، وأنهم كانوا ، فى أول أمرهم ، غير مستعدين ولا راغبين فى مواجهة البحر وقتها [2] . ويظهر خوفهم من البحر بأجلى صورة فى مراكز الحكم التى أقاموها لادارة شئون البلاد المفتوحة . فبينما ظلت مصر لعشرة قرون يحكمها اليونان والرومان من مدينة الاسكندرية ، وسورية من مدينة أنطاكية ، اذ نجد العرب يؤسسون مدينة الفسطاط عاصمة لهم فى مصر ، ودمشق فى سورية ، وكلا البلدين بعيد من البحر .

لكن اذا كانت غرائز العرب وعدم الخبرة أبعدتهم عن ركوب مياه البحر العميقة الزرقاء ، فان السياسة الحكيمة أشارت بارتيادها والمغامرة فيها ،

فالجغرافية جعلت من مصر ومن سورية الساحلية بلادا لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط . وان نظرة سريعة الى الخريطة ترينا كيف تبدوان أنهما أكثر اتجاها الى البحر منهما الى البر حيث الصحارى الداخلية . وأهم من هذا أن العرب سيطروا بامتلاكهم هذه الأقاليم ، على التجارة والأرباح التجارية الناتجة منها . ولما كان معظم ثروة مصر وسورية من تجارتهما الداخلية وعلاقاتهما التجارية الخارجية مع بلاد البحر المتوسط . فان العرب اذا ما انصرفوا عن البحر وأهملوا العلاقات الاقتصادية التى تقوم مع بلاد البحر المتوسط لنضب معين الذهب الذى جعل تلك الأقاليم جذابة فى نظر حكامها العرب . ولذا سرعان ما اندمج فاتحو مصر وسورية الجدد — طوعا أو كرها — فى حياة البحر .

ومن أهم ما دفع العرب الى التحول نحو البحر ، حاجتهم للدفاع عن الأملاك الجديدة التى كسبوها . حقيقة أنهم ملكوا البر ، ولكن البحر كان لا يزال فى قبضة البيزنطيين . وربما لم يشعر العرب شعورا كاملا حتى عام ٦٤٥ م بعظم الخطر الذى قد يتعرضون له من البحر . ففى ذلك العام استطاعت حملة بحرية بيزنطية أن تنزل جيشا الى أرض مصر وتستعيد الاسكندرية ؛ واستلزم الأمر قتالا عنيفا لاجلاء هذه القوة [٣] . وعندما تم اجلاء العدو عن الاسكندرية ، أمر عمرو بن العاص والى مصر الاسلامية بهدم حصون الاسكندرية حتى لا تجد حملة مستقبلة حصونا تمكنها من الصمود أمام هجوم قواته البرية [٤] ولم يكن هذا سوى حل مؤقت للمشكلة طبعا .

وشابهت الحال فى سورية ، الحال فى مصر تقريبا ؛ اذ سرعان ما أدرك معاوية ، والى سورية ، ضعف سلطانه على سواحلها أمام قوة أسطول بيزنطة القريب من شواطىء سورية ؛ وكيف أن سكان المدن الساحلية ، ومعظمهم

على مذهب اليونانيين الأرثوذكس ، ظلوا يتطلعون الى البحـر أملا فى الخلاص ، لولا أن معاوية أعد عدته ليقضى على هذه الآمال . واستطاعت مدينة مثل أرواد Aratus بفضل ما وصلها من مدد عن طريق البحر ، أن تصمد للمقاومة وألا تسلم لمعاوية الا بعد وقت طويل من خضوع بقية سورية (٥) . ولهذه الظروف كان معاوية أول من نظم أسطولا بحريا وأول من أرسل حملة عربية للغزو فى البحر المتوسط .

أخذت هذه الحملة شكل غزوة بحرية اتجهت عام ٦٤٨ م الى جزيرة قريبة هى قبرص ، الواقعة فى قبضة بيزنطة . وكانت الحملة — لحد ما — غارة بحرية ، كما كانت فى الوقت نفسه عملا دفاعيا ، جمع له معاوية عددا كبيرا من سفن مدن سورية الساحلية وفرقا محاربة من مصر . والراجح أن هذه القوة البحرية لم تكن فى مجموعها مكونة من العرب . وقد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية فى الاسكندرية وسورية سليمة ، أن تكون لديهم سفن حربية اما حاضرة واما سهلة الانشاء . كما كانت تحت يدهم السفن التجارية التى يملكها أهل سورية ومصر ، وهذه يمكن الاستيلاء عليها واستخدامها فى أغراض الحرب مع ما يكفيها من ملاحى تلك الثغور الخبيرين بشـئون الملاحة . ومن الممتع أن نلاحظ أن الروايات التاريخية العربية نقلت الينا معارضة الخليفة عمر لهذا المشروع البحرى . وعمر يمثل فى هذا تقاليد سكان مكة البدويين ، فقد خشى عواقب بدعة الغزو فى البحر (٦) ، ومع ذلك صادف معاوية التوفيق . ويذكر مؤرخو العرب أن الأسطول الذى هاجم قبرص بلغ ١٧٠٠ سفينة وأنه استولى على الجزيرة فى يسر ، كما استولى على غنائم كثيرة وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٢٠٠ قطعة من الذهب تدفع الى دمشق سنويا . ويضاف الى هذا أن يتعهد أهل قبرص بابلاغ العرب عن أية استعدادات يقوم بها البيزنطيون

ضدهم [٧] . ومن هذا الشرط الأخير نرى سر اهتمام معاوية بقوة بيزنطة البحرية . وبعد عام من الهجوم السابق سقطت مدينة ارواد فى يد قوة برية بحرية من العرب ، وكانت آخر وأقوى حصن للبيزنطيين على السواحل السورية .

وكان التوفيق الذى لازم حملة قبرص بداية مرحلة من النشاط البحرى للعرب . ففى السنوات السبع التالية ، قام المسلمون بسلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم فى مصر وسورية . وفى عام ٦٥٢ قامت حملة من سورية مؤلفة من ٢٠٠ سفينة وأغارت على جزيرة صقلية وعادت بغنائم عظيمة [٨] . وفى نفس السنة وجهت حملة أخرى ضد رودس[٩] حيث عاد المغيرون ومعهم الأنقاض النحاسية لتمثال اله الشمس (*) . ويظهر أنقبرص لم تلتزم شروط معاهدة عام ٦٤٨ ؛ بدليل العودة الى الاغارة عليها عام ٦٥٤ م . وفى تلك الغارة حطمت ميناء قسطنطينية Constantia واحتلت الجزيرة نهائيا ، ونزل بهـا ١٢٫٠٠٠ من جنـود المسلمين أقاموا فى ليبيتوس (Lepithos) على الساحل الشمالى للجزيرة . ولم تتغير الجزية المقررة عليها عما كانت قبـلا [١٠] .

ويظهر أن الغارات التى انتهت باحتلال الجزيرة ، أثارت حماسة الدولة البيزنطية نحو البحر ، ودفعتها للقيام بعمليات بحرية جديدة . وكانت هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها فى معركة الاسكندرية عام ٦٤٥ م . وفى عام ٦٥٥ أعد قنسطانز الثانى خليفة هرقل ، أسطولا كبيرا تراوح عدده من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ سفينة شراعية . والتقى هذا الأسطول فى السنة ذاتها بأسطول صغير مشترك من العرب والمصريين مكون من ٢٠٠ سفينة أقلعت من شواطىء سورية قرب موضع يقال له فونكس (Phoenix) بآسيا الصغرى . وتعرف هذه الواقعة بواقعة « ذات الصوارى » وانتهت بأول نصر عربى فى معركة

بحرية . ويبدو أن انتصارهم جاء نتيجة لخطط غير عادية ، اذ ربطوا سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم . واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيبون بها صوارى وشرع سفن الأعداء ، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للبيزنطيين . ونجا امبراطورهم قنسطانز من الموت بفضل سفينة من سفنه السريعة [١١] . ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه هذه المعركة ، وهو ساحل الأناضول ، يزدحم بغابات السرو الكثيفة ؛ وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن . ولعل البيزنطيين قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك ، وبين وقوعه فى قبضة العرب . واذا صح هذا الزعم فانه يقوم دليلا على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب وبيزنطة .

ويعد هذا الانتصار البحرى العظيم الذى أحرزه العرب ، آخر العمليات البحرية التى استمرت أكثر من عشر سنوات بين الطرفين . توقف المسلمون بعد هذا النجاح ، ولم يحاول البيزنطيون أيضا معاودة نشاطهم البحرى . ويرجع سبب ذلك الى وجود بعض مشاكل داخلية عند كل من الطرفين جعلت من مصلحة الفريقين المتنازعين أن يوقفا فعلا الحرب البحرية دون معاهدة . ففى الجانب الاسلامى شغل معاوية بنزاعه مع على بن أبى طالب حول موضوع الخلافة . واستغرق الأمر أكثر من عشر سنوات الى أن استقرت له الخلافة فى دمشق ؛ ثم أصبح معاوية فى حال تسمح له بتجديد نشاطه ضد أعدائه البيزنطيين [١٢] .

أما فى القسطنطينية فان الاضطرابات التى سادت البلقان وباقى الممتلكات فى الغرب ، جعلت قنسطانز يترك — ولو مؤقتا على الأقل — الصراع مع العرب . ففى هذه الأثناء كان تقدم السلاف فى البلقان نحو بحر الأرخبيل مصدر الاضطرابات . فانتشروا على طول ساحل ذلك البحر حتى

قرب سالونيكا ومصب نهر القردار . ولما بلغوا البحر هاجموا سالونيكا نفسها وقطعوا الاتصال بينها وبين القسطنطينية [١٣] . وبدا من الضرورى القيام بحملة بحرية (٦٥٨ م) لمحاصرتهم [١٤] . وأمسى الوضع فى الغرب أكثر حرجا ؛ اذ لم يكن ثمت شعور بوجود يد حازمة قوية منذ أيام هرقل . ولم يقتصر الأمر على ضياع معظم ما تملكه بيزنطة فى اسبانيا أوائل القرن السابع ، بل تعرضت أقاليم أخرى للضياع . وأدى انتزاع العرب مصر وسورية وانتصاراتهم البحرية الى فقدان البيزنطيين قدرا كبيرا من سمعتهم وصيتهم . يضاف الى هذا أن الخلاف الدينى بين القسطنطينية والأقاليم الغربية ؛ وهو أمر شائع فى تاريخ بيزنطة ، زاد الأمور تعقيدا . فالمعروف أن هرقل آمن بفكرة الطبيعة الواحدة التى بقيت المذهب الرسمى لبيزنطة والتى لم تصادف قبولا من البابوية والكنيسة الغربية .

وفى أفريقية ، ثار حاكمها البطريق جريجورى فى وجه القسطنطينية ، وأعلن نفسه امبراطورا . وفى تلك الأثناء ، عاجلته غارة عربية عام ٦٤٧ م ، أفسدت تدبيراته وأقصته وجيشه من مسرح الأحداث وأنهت أمره [١٥] . وفى عام ٦٥٤ م حدثت غارة عربية أخرى زادت حالة الفزع ، وان لم تحدث سوى تخريب يسير [١٦] . أما فى صقلية فان الأهالى خرجوا عن طاعتهم للدولة بسبب عداوتهم لمذهب الطبيعة الواحدة . وأكثر خطورة من هذا كله : الحال فى ايطاليا ، اذ تحرك اللمبارد بالثورة فى وجه بيزنطة الضعيفة واستولى ملكهم على جنوه ، ومعظم اقليم ليجوريا [١٧] البيزنطى عام ٦٤٢م . وفعل هذا الملك ما فعله عمرو بن العاص فى الاسكندرية اذ دك أسوار المدينة ليمنع وقوع ذلك الثغر ثانية فى أيدى البيزنطيين الأقوياء بحرا [١٨] . كذلك هاجم دوق بنفنتم اللمباردى الممتلكات الامبراطورية فى جنوب ايطاليا . وفى عام ٦٥٠ م خرجت حملة بحرية بيزنطية لتخريب ممتلكات

ذلك الدوق الساحلية واستطاعت انزال جنودها فى مونت جرجانو (Monte Gargano) ولكنها لم تفعل شيئا يذكر لرد عدوانه [١٩] .

هذا الوضع دعا قنسطانز الثانى لاتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل ، تلك هى نقل عاصمته وجانب كبير من أسطوله ، وعشرين ألفا من رجال جيشه من الأسيويين الى مدينة سرقوسة بصقلية [٢٠] . ولعله أدرك بغريزته الدور الذى يمكن أن تلعبه أملاكه فى شمال أفريقية وصقلية وايطاليا لصيانة امبراطوريته البحرية فى البحر المتوسط . ومن المؤكد أن غارات العرب البرية والبحرية على تلك المنطقة كشفت عن نواياهم العدائية المنتظرة ، وبرهنت على أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لاضاعته فى تنظيم المقر الغربى لحكام القسطنطينية .

شغل قنسطانز قرابة عشر سنوات فى اعادة تثبيت دعائم الحكم البيزنطى فى الغرب . على أنه عجز دائما عن حل الخلافات والمنازعات الدينية بين الأرثوذكس وبين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة . وان اعتبرت جهوده موفقة بصفة عامة . وسرعان ما عادت أفريقية الى الطاعة بفضل ولاء بطريقها نيقفور ، على حين فر جناديوس Gennadius خليفة الدعى جريجورى ، لاجئا الى العرب [٢١] . وساد صقلية سلام تام كما ساد سائر الجزر المملوكة للدولة البيزنطية فى الغرب وعلى الأخص جزيرة سردينية[٢٢] . وفى ايطاليا أوقفت بيزنطة اللمبارد ، وان لم تسترجع جميع الأراضى التى استولوا عليها . وخرجت الى جنوب ايطاليا ، عام ٦٦٣ م ، حملة حربية بحرية على نطاق واسع ؛ أظهرت حقيقة قوى بيزنطة للايطاليين مرة ثانية [٢٣] . ومات قنسطانز عام ٦٦٨ م فى صقلية مقتولا بيد أحد قواده ، وتاركا الممتلكات الغربية البيزنطية فى حال طيبة نسبيا . واستطاعت بيزنطة منذ ذلك التاريخ ولمدة ثلاثين عاما ، أن تصمد لضغط العرب واللمبارد معا .

ولم يهمل قنسطانز الثانى وهو منهمك فى الجانب الغربى من امبراطوريته أمر الجانب الشرقى منها . ويظهر أنه أحس عام ٦٦٦ بأمن كاف فى البر والبحر ، سمح له بمعاودة النزاع مع معاوية . ففى ذلك العام أرسل الى الأراضى الداخلية فى سورية رجالا وصلوا حتى فلسطين وعرفوا باسم المردة Mardaites ، وهم جماعات غريبة من سكان الجبال جندتهم بيزنطة وأطلقت عليهم اسم حائط آسيا الصغرى النحاسى (٢٤) . ولعل نزول هؤلاء المردة الى سورية كان من البحر أو لعل الأمداد جاءت اليهم عن طريقه . ويبدو أن أثرهم كان قويا لدرجة أن معاوية رغب فى السلام ، حتى ولو بدفع اتاوة للقسطنطينية (٢٥) . وحملة المردة هذه ، خير دليل على ضعف موقف البحرية الأموية أمام الشواطىء السورية فى السنوات العشر التى أعقبت انتصارها فى معركة « ذات الصوارى » .

وهناك علامات أخرى تشير الى ضعف البحرية العربية فى ذلك الحين . ففى عام ٦٦٣ نقل الخليفة الأموى فى دمشق أعدادا كبيرة من الفرس من ديارهم ، وأقامهم فى مدن سورية وفلسطين الساحلية مثل صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا وبعض المدن الأخرى . كما أقام التحصينات القوية حول المدن الساحلية (٢٦) . وفى عام ٦٦٩ م أضاف الخليفة الى هؤلاء الفرس ، أقواما من أهل العراق وأنزلهم انطاكية والمراكز الساحلية الأخرى (٢٧) . ويبدو أن أسوار مدينة الاسكندرية التى هدمها عمرو بن العاص ، أعيد بناؤها فى ذلك الوقت ، لأن زائرا للمدينة من البلاد الغربية عام ٦٧٠ ، ذكر أن الحصون كانت تحيطها احاطة تامة (٢٨) .

ويظهر أن موت قنسطانز وما أعقبه من ارتباك وفوضى أثناء عودة خليفته قسطنطين الرابع الى القسطنطينية ، دفع معاوية الى أن يفكر فى تعفية آثار هزيمة عام ٦٦٦ م ، فعاد الى الهجوم البحرى عام ٦٦٩ . وربما

كان ما كان من أمر المردة هو العامل الذى أقنع الخليفة الأمــوى بضرورة السيطرة على شواطىء المتوسط . فان الصفة البارزة لجهود البحرية العربية كانت فى اتخاذها خطة الهجوم . فبعد أن كانت الحملات الأولى التى قام بها العرب ذات طبيعة دفاعية — مثلما حدث فى قبرص — أو مجرد غارات بسيطة ، فانها استهدفت فى السنوات العشر التى تلت عام ٦٦٩ م ، السيطرة على شواطىء البحر المتوسط .

اتجه جانب من الغــزو العربى نحو الغرب ؛ فأغاروا عــلى صقلية عام ٦٦٩ م (٢٩) . وفى العام التالى انتشر جيش عربى كبير فى شمال أفريقية ، وأقام قاعدة حصينة دائمة فى القيروان فى جنوب شرقى تونس . ومن هذه القاعدة أخذوا فى القيام فيما بعد بأعمال حربية امتدت بعيدا فى داخل الاقليم (٣٠) .

على أنه يبدو أن غزوات العرب للغرب كانت أقرب مــا تكون الى الخدعة الحربية ، وان جهودهم الحقيقية اتجهت نحو القسطنطينية نفسهــا باعتبارها مركز السلطان البيزنطى . وفى عام ٦٦٩ قام العرب بغارة تجريبية على خلقدونية لاختبار قوة الدفاع فى المنطقة المحيطة بالعاصمة (٣١) . وفى عام ٦٧٢ م سلطت القوة العربية البحرية تسليطا عنيفا على منطقة بحر ايجه ؛ فهاجمت كريت ، واستولت على رودس فى نفس السنة . وقام البيزنطيون بغارة مضادة على دلتا النيل عام ٦٧٣ (٣٢) ، ولم تؤد تلك الغارة لنتيجة بعينها . ويرجع ذلك الى خروج عمارة ضخمة عليها فرق بحرية من المصريين والسوريين ، قاصدة مياه بحر مرمرة وذلك فى نفس السنة وقد استمرت هناك سبع سنوات تحاصر العاصمة البيزنطية . وتعرضت القسطنطينية بذلك لخطر جسيم ، وهذا على الرغم من بقاء اتصالها بالبحر الأسود وبقاء الطرق البرية المؤدية اليها مفتوحة . ولذا فانها كانت تحصل على كل ما تحتاج اليه من المؤن والامداد . وجاء خلاص المدينة نتيجة لاختراع له شأن . ألا وهو

استخدام النار الاغريقيــة (Greek Fire) ضد أسطول العــدو المحاصر للعاصمة . وكان التركيب الكيموى السرى مما يحتمل أن يكون قد استخدم منذ سنة ٥١٦ ؛ ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه التحسين رجل يدعى كاالينيكوس وهو سورى مقيم فى القسطنطينية . وهنــاك استخدم هذا التركيب فى صورته الجديدة لأول مرة أثناء الحصار . كانت النتيجة الدمار ؛ فاحترقت سفن العرب وتشتت شملها وأبحر الباقى فى ذعر واضطراب نحو بحر ايجه . وفى عام ٦٧٩ م قفلوا عائدين الى ديارهم حيث عاجلتهم عاصفة مدمرة عنيفة وهم فى الطريق نحو الجنوب ، ولم ينجح من تلك العمــارة البحرية العظيمة سوى قلة من السفن استطاعت العــودة الى قواعدها فى سورية ومصر [٣٣] .

استفادت بيزنطة من هذا الموقف وعاودت الظهور فى شرق البحر المتوسط فى أثر العرب المتقهقرين ، مستغلة ذلك السلاح المدمر وهو النار الاغريقية . عندئذ أسرع الخليفة الأموى الى عقد الصلح ولكن الثمن كان غاليا . اذ تجددت به الاتاوة التى كان معاوية يدفعها للقسطنطينية ، ولكنها زيدت الى ٣٠٠٠ رطل من الذهب وخمسين أسيرا وخمسين حصانا كل عام [٣٤] . وبولغ فى اذلال يزيد بن معاوية — وكان قد خلف أباه اذ ذاك — اذ أرغم على سحب الحامية العربية من قبرص ، بعد أن مضى عليها هناك ثلاثون عاما [٣٥] . وعاد البحر المتوسط لسلطان بيزنطة ثانية ، وكانت الجولة الثانية ، فى الصراع البحرى بين الدولتين ، فى صالح البيزنطيين .

وقد برهنت الأحداث التى جرت فى أفريقية وفى الشرق ، على أن هذا النصر البحرى كان خطيرا . ففى أثناء الهجوم الكبير على القسطنطينية بين عامى ٦٧٣ — ٦٧٩ م ، قام العرب المستقرون فى القيروان بعدة غزوات داخل شمال أفريقية ، فأخضعوا قبائل البربر ونشروا فيها الاسلام . ولكنهم لما كانوا لا يملكون قوة بحرية فانهم تركوا المدن والحصون التى فى أيدى

البيزنطيين على الساحل دون ازعاج كبير . غير أن ما أحرزوه من نجاح كان عظيما بحيث عقد قائدهم عقبة، العزم فى سنة ٦٨١ على الزحف بقواته غربا حتى طنجة وساحل الأطلنطى : ولم يثنه عن عزمه هذا انتعاش قوة البيزنطيين فى البحر . على أن اغفاله لما يمكن للقوة البحرية أن تحدثه ، قد أدى الى نكبته ؛ وذلك بسبب ظهور تجمعات معادية من قبائل البربر بزعامة شخص يدعى كسيلة . وانضم البيزنطيون المقيمون فى معاقل على الساحل الى ذلك الزعيم ، وقد ضمنوا وصول مدد وتأييد عن طريق البحر . وانقطعت بناء على هذا خطوط مواصلات عقبة الطويلة ، وأبيد جيشه فى مواقع حربية . وزحف البيزنطيون والبربر المتنصرون واستولوا على القيروان عام ٦٨٣ م [٣٦] . ولم ينج من العرب الا القليل وكان هذا بالتقهقر الى قاعدتهم الأصلية فى برقة على حدود مصر ، وبذا عاد شمال أفريقيا ثانية الى الشركة البيزنطية البربرية القديمة .

عمد قنسطنطين الرابع الى اجراء آخر يدعم به امبراطوريته ؛ فعقد مجمعا مسكونيا فى القسطنطينية أعلن فيه التخلى عن مذهب الارادة الواحدة [٣٧] . وبذلك يكون قد جبر الكسر الذى طالما عزل القسطنطينية عن البابوية والكنيسة الغربية . ولهذا العمل نتيجة أخرى أبعد أثرا ، اذ أنه أصلح به بين الملكانيين العديدين من سكان سورية ومصر وبين القسطنطينية . وبهذا قوى نفوذ بيزنطة على تلك الطائفة فى دولة الأمويين . ومات قسطنطين الرابع عام ٦٨٥ ، تاركا الامبراطورية — لخلفه جستنيان الثانى — على جانب من القوة وشدة الشكيمة .

وباعتلاء جستنيان العرش ، بدأت العداوات من جديد اذ قطع عبد الملك ابن مروان خليفة دمشق الجديد الاتاوة المتفق على اعطائها الى القسطنطينية [٣٨] كما أرسل زهير بن قيس على رأس جيش كبير من برقة الى شمال أفريقية

للانتقام من هزيمة عام ٦٨٣ م . وصادف هذا الجيش نجاحا أول الأمر فاستعاد القيروان وقتل كسيلة فى المعركة [٣٩] ؛ ولكن الجيش تقهقر بعد ذلك توا الى برقة ، وكان سبب تقهقره نشاط الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط . فان حملة بحرية بيزنطية استطاعت النزول فى برقة خلف خطوط زهير بن قيس ، الأمر الذى اضطره الى الانسحاب ؛ ومع ذلك فان القوات البيزنطية هزمته هزيمة منكرة [٤٠] . وفى نفس الوقت سلط « المردة » على سورية من جديد ، فاضطر عبد الملك بن مروان ، كما اضطر أسلافه من قبل ، الى عقد صلح غير مشرف . بعد أن وضح له أن قوة بيزنطة البحرية ، مما لا قبل له بها . وتحدد فى معاهدة سـنة ٦٨٩ المعقودة بين القسطنطينية ودمشق ، مقدار الاتاوة السنوية التى يدفعها الخليفة للحكومة البيزنطية وقدرها ٥٠٠٠ رطل من الذهب و ٣٦٥ أسيرا و ٣٦٥ حصانا . وفى نظير ذلك يتعهد جستنيان الثانى بسحب ١٢٫٠٠٠ من جنوده « المردة » من جبال لبنان للاقامة فى آسيا الصغرى . واتفق كذلك على أن يكون دخل قبرص مناصفة بينهما وأن تظل الجزيرة أرضا محايدة بين الدولتين المتحاربتين [٤١] .

ولم يقدر لهذا الصلح أن يستمر طويلا ، ففى عام ٦٩٣ عادت الحرب ثانية الى الاشتعال . ويرجع السبب الى أن عبد الملك ضرب الدينار الذهبى العربى لأول مرة ، ونقش عليه نصا بالعربية ولم ينقش عليه صورة القياصرة البيزنطيين . واشتملت الاتاوة المرسلة من دمشق الى بيزنطة على عدد من هذه الدنانير . وحين وصولها هناك أعلن جستنيان الثانى الحرب فورا [٤٢] . لكن يظهر أنه تسرع فى قراره لأنه لم يصادف نجاحا يذكر ، ولم يكن فى الوقت ذاته قادرا على الافادة من « مردته » المقيمين حينذاك فى آسـيا الصغرى ، فعجز عن القيام بضغط يذكر على دمشق ؛ وانتهى أمره بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى . ثم ان طرده لكثير من أهل قبرص من

جزيرتهم أثار شعورا من المرارة فى نفوس قواته البحرية من أهل الجنوب . وفى عام ٦٩٨ ثار البحارة الكريتيون ، ونادوا بأمير أسطولهم أسپيمار امبراطورا لبيزنطة ، ولقب طيباريوس الثالث . وأبحر الامبراطور الجديد الى القسطنطينية فلم تقاوم المدينة قواته [٤٣] . وفر الامبراطور المعزول (جستنيان الثانى) الى القرم ومنها الى مملكة الخزر (Kazaria) حيث تزوج من أخت حاكمها وظل فى منفاه طيلة عشر سنوات ، كما ظل أعداؤه يترصدونه حتى سنة ٧٠٥ م ، ولكنه عاد منتصرا الى القسطنطينية [٤٤] .

أخلت هذه الأحداث الجارية فى القسطنطينية بالتنظيمات الدفاعية البحرية والبرية على السواء ، وأعطت الفرصة للأمويين فى الظفر بنصر عظيم فى شمال أفريقية . ففى عام ٨٩٣ أرسل عبد الملك بن مروان حملة حربية ضخمة قوامها ٤٠٠٠٠ رجل تحت قيادة حسان بن النعمان . واهتم هذا القائد بالمعاقل الساحلية البيزنطية ، وتمكن بمساعدة بعض الوحدات البحرية الاسلامية من القضاء على تلك المعاقل الواحد بعد الآخر . وفى عام ٦٩٥ سقطت قرطاجنة عاصمة أفريقية البيزنطية فى يد العرب ، الذين أرغموا المدينة على التسليم باستيلائهم على المجرى الذى يحمل اليها الماء [٤٥] . لكن البيزنطيين والبربر عادوا الى الحرب ، اذ ثار البربر بزعامة امرأة غامضة يقال لها الكاهنة وهى من قبيلة جراوة [٤٦] . كما استطاع أسطول بيزنطى، بقيادة حنا ، بطريق صقلية ، استعادة قرطاجنة[٤٧] . غير ان هذه المحاولات البيزنطية ذهبت أدراج الرياح ، اذ عاود العرب هجومهم ، فاستردوا قرطاجنة عام ٦٩٨ م وماتت الكاهنة فى احدى المعارك سنة ٧٠٠ م ، وانتهى الحكم البيزنطى فى أفريقية نهائيا [٤٨] .

وتبع ذلك أن أظهر الخليفة عبد الملك اهتمامه الشديد بالقوة البحرية ، ويمكن ارجاع هذا الاهتمام الى ما قاساه أول عهده على يد بحرية أعدائه.

البيزنطيين . لذلك نجده يأمر موسى بن نصير والى أفريقية بانشاء قاعدة بحرية هنـــاك ويرســـل له ألف قبطى مصرى من بنـــاة السفن — مـــع عائلاتهم — لمعاونته على بناء أسطوله [٤٩] . يضاف الى هذا استيلاء العرب على جزيرة قوصرة التى تقـــع قرب الشاطىء الأفريقى ، وسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطىء وجزيرة صقلية [٥٠] . ولم يبن موسى بن نصير قاعدته البحرية ، أو دار صناعته فى قرطاجنة ؛ بل اختار موضعا بعيدا ، بعض الشيء عن الساحل ، يطل على بحيرة ، ثم حفر قناة تصل ذلك الموضع بالخليج القريب . وفى هذا المكان قامت مدينة تونس وهجرت قرطاجنة كلية [٥١] . ويدل هذا العمل على خشية العرب قوة البحرية البيزنطية . ثم غدت تونس — الميناء الداخلى — قاعدة أمينة للأسطول العربى ، وبعيدة عن أية مغامرة بيزنطية بحرية ، بينما لم تكن كذلك قرطاجنة . وفى ظل هذا الاستقرار المأمون الجانب ، بنى موسى بن نصير مائة سفينة حربية فى القاعدة البحرية الجديدة [٥٢] . وانضم هذا الأسطول عام ٧٠٤ م الى الأسطول الأموى الذى كان يعمل فعلا فى البحر المتوسط [٥٣] . وأصبح شمال أفريقية مركزا بحريا ثالثا ، أضيف الى المركزين العربيين القديمين فى سورية ومصر .

وسرعان ما أثبتت القاعدة البحرية الجديدة فى تونس فائدتها . ففى عام ٧٠٣ م ، أغار أسطول مصرى على صقلية وهبت عاصفة جائحة هددته بالفناء فلجأت سفنه الى القاعدة الأمينة فى تونس [٥٤] . أما الأعظم من كل هذا أهمية فهى السفن الجديدة التى أشرف على بنائها موسى بن نصير ؛ والتى أرســـلها للاغارة على صقلية وربما للاغـــارة على سردينية أيضـــا عام ٧٠٤ م [٥٥] . ثم قاد موسى الأسطول بنفسه عام ٧٠٨ نحو جزر البليار وأغار على جزيرة مايورقة وأسر حاكمها البيزنطى على الأرجح [٥٦] . وكانت جزيرة سردينية هى الغنيمة فى عام ٧١٠ م [٥٧] .

لم يكن هذا العمل مجرد غارات عرضية ، بل كان وفق خطة محكمة ، فان موسى — وقد كان يعمـل فى فتح المغرب الى المحيط الأطلنطى — استخدم أسطوله من قاعدته تونس ، ليشل تهديد الأسطول البيزنطى من قواعده فى صقلية وسردينية وجزر البليار . وقد رأينا كيف ان فشل عقبة بن نافع فى الحصول على أسطول مماثل ليحمى به ظهره وجناحه ، كلفه حياته وحياة جيشه منذ عشرين سنة مضت . أما ابن نصير فانه تجنب هذا الخطأ ، وكان تحركه من تونس الى سبتة سريعا ومكللا بالنصر .

وعندما بلغ مضيق جبل طارق بقواته الكبيرة العربية والبربرية رأى اسبانيا ولا شيء يفصلها عن أفريقية سوى مجاز ضيق من البحر . ولما كانت البلاد فى يد حكام ضعاف من القوط الغربيين ، فانها بدت له طعمة دسمة . غير أن موسى تردد فى الأمر ، فلم يكن — فيما يظهر — كل أسطوله معه ؛ وانما كان منشغلا بحماية خطوط مواصلاته الطويلة ومراقبة الأسـطول البيزنطى فى جزيرتى سردينية وصقلية ، وكل ما أمكن الحصول عليه ، أربع سفن أمده بها كونت جوليان حاكم سبتة ، الذى انضم الى العرب . وعلى هذه السفن الأربع عبر طارق بن زياد أحد قواد موسى بن نصير ، المضيق ، ونزل فى الجانب المقابل عند سفح جبل لا يزال يحمل اسمه حتى اليوم [٥٨] .

وهذا النجاح السريع الذى أحرزه طارق ، حمل ابن نصير على أن يمده بخمسة آلاف مقاتل . وكان عليه أن يبنى كذلك سفنا بالشاطىء الأفريقى لتحمل هؤلاء الرجال الى سواحل اسبانيا . وعلى هذه السفن ذاتها رحل ابن نصير بجيشه الرئيسى عندما بلغته أخبار انتصارات طارق [٥٩] . ومنذ تلك اللحظة تحول فتح اسبانيا الى عمليات برية من النوع الذى ألفه العرب فى عصر الفتوح الاسلامية الأولى فى سورية ومصر . ولم يكتف العرب باستيلائهم على اسبانيا بل انسابوا عبر جبال البرانس وضموا الى أملاكهم

اقليم ناربون ببلاد الغال وكان يتبع القوط الغربيين . واذا استثنينا ما كان للأسطول العربى من أثر غير مباشر فى حماية خطوط مواصلاتهم الطويلة فى شمال أفريقية ، المقابلة لجزيرة صقلية فان موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يستخدما القوات البحرية فى فتح اسبانيا ولكن كان لهذا الفتح نتائج عظيمة الخطر . ففيما بين عامى ٦٩٣ — ٧١٧ م ، التف العرب حول الجناح الأيمن لقوة البيزنطيين البحرية ، وذلك باختراقهم مراكز الدفاع البيزنطى فى شمال أفريقية ، ثم امتداد فتحهم فى اسبانيا وجنوب فرنسا . وبذا يكون الاسلام قد صار كالهلال على ما يقرب من ثلثى شواطىء البحر المتوسط بين نهر الرون وبلاد أرمينية .

واذا كان البيزنطيون فشلوا فى القيام بعمليات بحرية لمواجهة هذا النجاح المطرد ، الذى صادفه العرب فى غرب البحر المتوسط ، فان من اليسير ايضاح أسباب هذا الفشل ، وفى مقدمة هذه الأسباب ، الحروب الأهلية التى اجتاحت الامبراطورية . لقد عاد جستنيان الثانى من منفاه عام ٧٠٥ م ليصب غضبه وانتقامه على أعدائه فى العاصمة ، الأمر الذى زاد اضطراب الحكومة . يضاف الى هذا تجمع البلغار عبر الدانوب وانتشارهم فى ضواحى العاصمة ذاتها حول القرن الذهبى ، والأكثر من هذا سوءا قيام الأمويين باعداد أسطول ضخم للدخول فى معركة بحرية فاصلة . حقيقة ان الغارة البحرية البيزنطية على مصر عام ٧٠٩ ، وهى التى انتهت بأسر القائد الاسلامى ، ربما أخرت الخطط العربية بعض الوقت [٦٠] ، لكن بقاء الامبراطورية دون حاكم شرعى بعد موت جستنيان الثانى مكن العرب من اتمام استعداداتهم .

ويعتبر الهجوم الضخم الذى قام به الأمويون على القسطنطينية للمرة الثانية أقصى ما بلغه جهدهم . فان العمارة البحرية التى جمعوها بلغت

١٨٠٠ سفينة بما فى ذلك وحدات سورية ومصرية وأفريقية . وخرج جيش برى نحو آسيا الصغرى ليعضد حركات الأسطول . وابتدأ الأمر بالاستيلاء على جزر بحر ايجه وعلى الدردنيل . وفى عام ٧١٧ ظهر الجيش والأسطول معا أمام القرن الذهبى وواجهت المدينة فى هذا العام هلاكا محققا كالذى حدث فى عامى ٦٢٦ ، ٦٧٣ . ثم ظهر زعيم أنقذ الامبرطورية هو القـائد الأيسورى ليو Leo الذى اقتضت الأزمة أن يصبح امبراطورا للدولة . مد ليو سلسلة ضخمة عبر البسفور ، ليمنع بها دخول سفن الأعداء ، ونشر رجاله على أسوار المدينة ليحبطوا محاولات الجيش العربى لاقتحام تلك الأسوار ، واستمر الحصار أشهر الشتاء وعانى الجنود العرب فى ملابسهم الخفيفة قسوة البرد . وفى أثناء ذلك تفاوض ليو مع البلغار . وفى الربيع هاجم البلغـار العرب المحدقين بالعاصمة من الجـانب الأوربى وأبعدهم عنها ، ثم أعقب هذا الهجوم هجوم آخر قام به الأسطول البيزنطى بعد ما أعد — كما حدث فى الماضى — بالنار الاغريقية المروعة . وهذه النار ، وانحياز البحارة المسيحيين الذين كانوا يعملون فى الأسطول العربى الى الجانب البيزنطى قلبا الوضع تماما . فبعد ما أصيب الأسطول العربى اصابة بالغة وأحرقته النار الاغريقية أسرع عائدا صوب الجنوب . وفى الطريق لقيته عاصفة — كما حدث عام ٦٧٩ م — نالت هى الأخرى منه . ويمكن القول انه لم يرجع من ذلك الأسطول سليما الى قواعده ، أكثر من عشر مجموعه . أما الجيش فانه فر — بعد أن فقد عون الأسطول — نحو جبال طوروس عند الحدود . غير أن ليو تتبعه وقضى على معظم رجاله ، وعاد القليل منهم سالما الى سورية (٦١) .

وعادت وحدات الأسطول البيزنطى المنتصرة الى الخروج من بحر ايجه الى شرق البحر المتوسـط متعقبة الأعداء لتحاربهم فى عقر دارهم ، وأغار

الأسطول البيزنطى على دلتا النيل عام ٧٢٠ م [٦٢] ، وأغار عليها مرة أخرى عام ٧٢٥ م [٦٣] . واضطر الخليفة عمر بن عبد العزيز الى أن يخفض الجزية المقررة على جزيرة قبرص الى ما كانت عليه فى السنوات الأولى أيام معاوية [٦٤] . ولم ينشط العرب للحرب الا فى الغرب فقط ، حيث أغارت بعض أساطيلهم من شمال أفريقية على جزيرة صقلية عام ٧٢٠ م [٦٥] ، وشجعها على ذلك المشاكل التى واجهت بيزنطة هناك نتيجة لعصيان حاكم الجزيرة فى عام ٧١٨ م [٦٦] .

كان يتحتم على القسطنطينية المنتصرة حينذاك أن توقف حروبها البحرية فى الحال ، ولكنها ، بدلا من ذلك ، استمرت فى حروب استغرقت ثلاثين سنة تقريبا . وسبب فشل بيزنطة فى الاستفادة من انتصارها العظيم ، يرجع — كما هى العادة — الى ما ساد جو الحياة الدينية هناك ؛ اذ عمد الامبراطور المنتصر ليو الثالث ، الى ما عمد اليه سلفاه جستنيان وهرقل ، من اختيار لحظة الانتصار للزج بالامبراطورية فى خلافات دينية . وجاء الخلاف نتيجة تحيز ليو الثالث للحركة اللاأيقونية الجديدة ومحاولته فرضها بالقوة على الامبراطورية النافرة منها عام ٧٢٥ م [٦٧] . وأثارت هذه المحاولة الغضب فى عاصمة الامبراطورية وفى أقاليم بحر ايجه اليونانية حيث يعظم احترام الايقونات هناك بصفة خاصة . وفى عام ٧٢٧ م اختار رجال أسطول اقليمى هيلاس وسيكلاديز — وكانوا يقدسون الأيقونات — شخصا يدعى كوزماس للامبراطورية ، وأبحروا به الى القسطنطينية [٦٨] ؛ كما أبحر أسطول اقليم كيبر هايوت منذ ثلاثين عاما مضت بامبراطور مماثل أثناء حكم جستنيان الثانى تقريبا . غير أن الأسطول الامبراطورى بقى على ولائه للامبراطور ليو الثالث وصمد فى وجه المعتدين واستخدم النار الاغريقية فتفرق أسطول الثوار ولحقت به الهزيمة .

على أن الاضطراب الذى تسبب عن معارضة الأيقونيين للحركة اللاأيقونية فى الشرق ، زاد اتساعا بقيام معارضة أخرى مماثلة فى الغرب فى كل من صقلية وايطاليا . ورفضت البابوية والكنيسة الغربية — كما حدث منذ قرن مع مذهب الارادة الواحدة — أن تساير القرارات الدينية التى أصدرها حاكم القسطنطينية ؛ فاندلعت الثورات فى ايطاليا عندما حاول الموظفون البيزنطيون فرض الاصلاحات الدينية على الشعب قسرا (٦٩) . وأتاح هذا للمبارديين الفرصة التى كانوا يترقبونها فضم ملكهم ليوتپراند (Liutprand) الى ملكه لونى وربما كورسيكا أيضا واستولى على بعض السفن البحرية الموجودة فى المدن الساحلية (٧٠) ، ولم يستطع الامبراطور ليو الثالث ، بسبب اجهاد قواته البحرية فى الصراع الذى انتهى عام ٧٢٧ م أن يفعل أكثر من ارسال أسطول صغير ليحمل البابا جريجورى على اطاعة أوامره ، وليستعيد الأملاك الضائعة التى استولى عليها ليوتپراند . لكن هذه القوة الصغيرة حطمتها زوبعة فى الأدرياتى عام ٧٣٠ م فلم تفعل شيئا (٧١) .

وبدل أن يراجع ليو نفسه فى الأمر ، استمر فى اندفاعه ضد الغرب فعاقب البابا بمصادرة الأملاك البابوية فى جنوب ايطاليا وصقلية وأخرج أبرشيات تلك الأقاليم من نطاق السلطات البابوية فى روما الى نطاق سلطان بطريركية القسطنطينية ، وفرض ضرائب جديدة باهظة على سكان ايطاليا (٧٢) ودل هذا التصرف الأخير على طيش وقصر نظر ؛ اذ كان من نتائجه أن انحاز البابا الى جانب اللمبارد سنة ٧٣٥ ، وطرد الحاكم البيزنطى ورجاله (٧٣) من رافنا وپنتاپوليس (*) . وبدا أن الحكم البيزنطى لايطاليا وشيك الانتهاء . غير أن أمرين قلبا ذلك الوضع : أولهما بقاء البابا مخلصا للمبدأ الامبراطورى وعزوفه عن استبدال ولاء بيزنطى بعيد بولاء لمباردى قريب ؛ وهذا على

الرغم من معارضته للحركة اللاأيقونية . الثانى تدخل أسطول البندقية . ففى عام ٧٤٢ استطاعت البندقية والبابوية معا ، طرد اللمبارد من فتوحهم الجديدة ، واعادة الحاكم البيزنطى للسلطة فى راقنا ، وهكذا استعادت بيزنطة جانبا من أملاكها الضائعة فى ايطاليا (٧٤) .

تطلع الأمويون فوجدوا هذه المشاكل الداخلية — فى الشرق والغرب — قد شلت نشاط الأسطول البيزنطى ، فعاودوا حركاتهم الهجومية . وفى عام ٧٢٦ م أغار أسطول عربى على جزيرة قبرص وفرض عليها جزية عالية كالتى فرضت زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد (٧٥) . ولم يكن الوضع فى بيزنطة يسمح بمقابلة ذلك العدوان بمثله قبل مضى عشر سنوات على الأقل . ففى عام ٧٣٦ م أغارت بيزنطة على مصر واستولت على عدد كبير من السفن (٧٦) . ثم أعقبت هذه الغارة بغارة أخرى أكبر منها قوامها ٣٦٠ سفينة منتهزة فرصة ثورة للأقباط (٧٧) . وقابل العرب هذا العمل بغارة على قبرص عام ٧٤٣ ، وحملوا معهم عددا كبيرا من سكان الجزيرة واحتفظوا بهم أسرى فى سورية (٧٨) .

ويظهر أن الأعمال الحربية البحرية فى الشرق كانت عبارة عن القيام بغارة وأخرى مضادة لها على قبرص ومصر باعتبارهما الهدفين الرئيسيين اللذين تتكافأ فيهما قوى الفريقين . ولم تكن الحال كذلك فى الغرب . فان أساطيل الغرب فى شمال أفريقية قامت بالغارة تلو الغارة على صقلية وسردينية بصرف النظر عن أى انتقام من جانب البيزنطيين . وفى السنوات ٧٢٧ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣٣ ، ٧٤٠ ؛ ٧٥٢ ، تعرضت صقلية لغزوات الأسطول الاسلامى (٧٩) . وفى عام ٧٣٥ ، ٧٥٢ (٨٠) . وقعت سردينية ضحية لتلك الغارات . ولم تكن هذه الغارات كلها موفقة ؛ فان غارة عام ٧٣٣ ضد صقلية وعام ٧٣٥ ضد سردينية انتهتا بهزيمة العرب أمام القوات البيزنطية

المدافعة ، بفضل استخدام النار الاغريقية وهلاك كثير من قوات العرب [٨١] .

وختمت جولات هذا الصراع عام ٧٤٧ م ، حين نشبت معركة فاصلة حسمت النزاع بين كل من القوات البيزنطية والأموية فى البحر . وجرت المعركة على مقربة من قبرص حيث حاصر أسطول كريت البيزنطى أسطولا عربيا ضخما مكونا من ١٠٠٠ سفينة سريعة تمثل مدى ما بلغته القوة البحرية من ازدهار فى سورية ومصر . أما الأسطول البيزنطى فكان أقل من ذلك عددا . والراجح أنه تسلح بالنار الاغريقية ، لأنه لما نشبت المعركة انهزم الأسطول العربى شر هزيمة فلم تنج منه سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار[٨٢].

ولهذا النصر البحرى البيزنطى دلالته الكبرى ؛ اذ أنه أنهى الصراع البحرى الطويل الأمد ، بين الأمويين والبيزنطيين ، ولم يستطع العرب فى سورية ومصر أن يعوضوا ما فقدوه أبدا . واختفت قوة مصر البحرية من البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان . ولم تستعد سلطانها فعلا الا أيام الفاطميين أواخر القرن العاشر . كذلك لم يعد هناك ذكر لأخبار البحرية السورية لمدة ربع قرن ، ولم يستعد الأسطول العربى السورى حيويتـه ونشاطه الا زمن ليو الطرابلسى أواخر القرن التاسع الميلادى[٨٣] .

وأصاب الخمود أيضا القاعدة البحرية العربية فى شمال أفريقية ، وقلمت أظافرها هى الأخرى . والواقع أن انتصارات الأسطول البيزنطى فى الشرق أتاح الفرصة لارسال جانب من قواته الى الغرب . وتوقفت غارات أسطول شمال أفريقية العربى لمدة نصف قرن بعد غارة سنة ٧٥٢ [٨٤] . وهكذا استطاعت بيزنطة ، بعد قرن من الجهود البحرية ، أن تستعيد سيادتها على مياه البحر المتوسط ثانية .

ومجمل القول أن الأمويين تحدوا سيادة بيزنطة البحرية فى البحـر المتوسط ثلاث مرات : الأولى — وكانت بصفة أساسية دفاعية فى حقيقة

أمرها ، وقد بدأت عام ٦٤٨ م وانتهت انتهاء غير حاسم سنة ٦٥٥ م ، ولو أن العرب انتصروا انتصارا باهرا فى تلك السنة . والثانية — وهى غارات هجومية — وبدأت عام ٦٦٩ واشتملت على حصار عظيم للقسطنطينية دام سبع سنوات ، وانتهت بانتصار بيزنطى كامل عام ٦٨٥ . والثالثة — وهى أشد الموجات جدية — وبدأت عام ٦٩٣ واستمرت قرابة ستين عاما وانتهت عام ٧٥٢ . على أن هذه الموجة بدأت بانتصار العرب وعلى الأخص فى الجانب الغربى من حوض البحر المتوسط ، كما اشتملت على حصار ثان كبير للقسطنطينية . وبعد فشل هذه الجهود الأموية الضخمة انحط شأن الصراع بين الدولتين فتحــول الى مناوشات وغارات انتقامية أو غارات مضادة . وشاهدت سنة ٧٤٧ نصرا بيزنطيا كبيرا ؛ وفى عام ٧٥٢ اختفت قوة الأمويين البحرية نهائيا .

وقد يكون انتصار بيزنطة البحرى عام ٧٥٢ أقل أهمية فى حقيقته مما بدا . والواقع أنه رغم انتصارها فى البحر ، الا أن العرب قضوا — أثناء الموجة الثانية من هجومهم — على مراكز دفاع أعدائهم البرية والبحرية فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط ، ويكونون بذلك قد طوقوا أحد أجنحة القسطنطينية البحرية كما أضافوا شمال أفريقية واسبانيا الى أملاكهم . وخرجت من قواعدهم بشمال أفريقية فى القرن التالى ، وحدات بحرية للانتقام من هزيمة عام ٧٤٧ البحرية .

وثمة نتيجة أخرى خطيرة لذلك الصراع بالنسبة لبيزنطة تتلخص فى المصير الذى انتهت اليه فى ايطاليا . حقيقة بذل كثير من الحكام البيزنطيين جهودا كبيرة لفرض مذهب الارادة الواحدة ، ثم المذهب اللاأيقونى على الشعب الايطالى والبابوية المتمنعة — مما يعتبر سببا لما ضاع على بيزنطة هناك — ولكن السبب الأكبر يرجع الى اشتغال القسطنطينية بصراع بحرى وبرى مع الأمويين .

ولم يكن من بين أباطرة القسطنطينية — منذ هرقل حتى قسطنتين الخامس — من أولى المشاكل الايطالية العناية الجديرة بها الاقنسطانز الثانى ، وكانت نتيجة هذا الانصراف ضياع أملاك بيزنطة . وفى عام ٧٤٧ اقتصر نفــوذ بيزنطة على أجزاء قليلة فى الجنــوب وعلى روما وراڤنا والپنتاپوليس والبندقية فى شمال ووسط شبه جزيرة ايطاليا . فأما روما فقد كانت مدينة بابوية صرفا . وأما راڤنا والپنتاپوليس فان احتفاظ بيزنطة بهما كان بفضل النفوذ البابوى وحده ، على حين كانت البندقية مستقلة تماما . وفى عام ٧٥٤ خرجت البندقية وجنــوب ايطاليا من قبضة القسطنطينية وسلطانها الى الأبد .

يبقى بعد هــذا سؤال أساسى هو : لم استطاعت بيزنطة ، رغم كل ما فقدته من أملاك ، أن تسترد سيادتها على البحر ؛ ولم خسر الأمويون كفاحهم البحرى ؟ والجواب بسيط ولكنه يتصل بلب الموضوع .

أولا : ان الموقع الجغرافى لبيزنطة لعب دورا هاما فى انتصار القسطنطينية النهائى . يقابل هذا أن مراكز القوة البحرية العربية فى مصر وسورية وشمال أفريقية — بعد عام ٧٠٤ — كانت فى جهات مكشوفة ويسهل الوصول اليها بحرا . لذلك استلزم الأمر استخدام نهر النيل ، والقناة الداخلية بتونس لحماية الترسانات وأحواض بناء السفن ومراسى الأساطيل . هذا على حين تمتعت القسطنطينية بموقع مثالى ممتاز ، صالح لحماية سفنها ومنشآتها البحرية . فكان لها من بحر ايجه حتى مضيق الدردنيل بما فيه من جزر وخلجان ، نطاقا يقيها ، هجمات العدو ، كذلك كان لها من بحر مرمرة حاجزا مائيا منيعا آخر ، ثم يأتى فى النهاية البحر الأسود وهو منطقة خلفية ليست فى متناول تهديد العرب . فاذا ما أراد العرب أن يبلغوا المركز الرئيسى للقوة البيزنطية كان عليهم اختراق العقبات التى هيأتها كريت

وردوس وجزر بحر ايجه ، ثم اقتحام الدزدنيل عنوة الى بحر مرمرة ثم أخيرا اجتياز عقبة البسفور . وقد حاول العرب مرتين أن يتغلبوا على هذه العقبات ولكن أصابهم الاخفاق فى كل مرة . ويشبه وضع القسطنطينية هذا ، ولكن بصورة أصغر ، وضع راقنـا والبندقية من البحرين الأيونى والأدرياتى ، بازاء أسطول مهاجم لهما . ومثل هذا أيضا اقليم البحر التيرانى بجزره الواقية أمثال صقلية وسردينية وكورسيكا ، وان كان العرب فى ذلك العصر لم يحاولوا التوغل فى تلك الجهات .

ثانيا : كسبت القسطنطينية جولة الصراع البحرى ، لأنها ابتكرت واستخدمت سلاحا سريا هو النار الاغريقية . وهـذا السلاح الذى كمل صنعه أثناء حصار العرب الأول للعاصمة البيزنطية ، يعتبر الى حد كبير سبب النجاح التام الذى أحرزته قوات بيزنطة البحرية . وكان التركيب الكيموى لهـذا السـلاح أهم أسرار الامبراطور البيزنطى ، واحتفظ بسريته (٨٥) الى درجة كبيرة . وأغلب الظن أن الأسطول الامبراطورى المرابط فى مياه القسطنطينية هو وحده الذى جهز بالنار الاغريقية . وفى حالات الضرورة سمح للوحدات البحرية فى الأقاليم التابعة للامبراطورية باستخدام هذا السلاح (٨٦) . ولهذا لم يستطع الأسطول العربى ، على الرغم من دربة رجاله ، مقاومة النار الاغريقية فى ذلك العصر .

ثالثا : ان الامبراطورية البيزنطية كان لديها الوفـير من الأخشاب وحاجيات السفن والحديد وكل ما هو ضرورى لبناء الأساطيل البحرية ؛ أو كانت تستطيع الحصول عليها بسهولة . على حين أنها استطاعت أن تحول دون حصول أعدائها الأمويين على الكثير من هذه المواد . ولم يكن الحديد متوافرا فى سورية ومصر ؛ ولم يكن بوادى النيل الخشب اللازم للسفن وللصوارى . يضاف الى هذا أن محصول سورية من خشب الصوارى فى

لبنان وفى المناطق الشمالية ، كان ضئيلا جدا فى ذلك الوقت . حقيقة ان شمال أفريقية واسبانيا كان بهما الحـديد والخشب معا ، ولكن الدلائل تشير الى أن مناجم الحديد فى شمال أفريقية توقفت عن العمل فى القرن الثامن [٨٧] . وان اسبانيا لم تسهم بشىء فى مجال القوى البحرية وقتذاك . هذا والخشب بشمال أفريقية وكل ما يلزم لبناء السفن هناك يوجد فى المناطق الواقعة الى الغرب من تونس فقط . الأمر الذى جعل استخدام العرب لتلك المواد صعبا عليهم . ونرى مقابل ذلك ، سهولة حصول بيزنطة على كل المواد الرئيسية ، ففى الغرب نرى صقلية وقِلّورية وايستريا ودلماشيا وكذا ساحل ليجوريا الشمالى الغربى كلها تنتج الخشب وحاجيات السفن [٨٨] . كما أمدها أقليم التيرول بالحديد الوفير . وفى الشرق نرى آسـيا الصغرى والقوقاز والقرم تضم مصادر طيبة للخشب ؛ على حين وجد الحديد بكثرة فى آسيا الصغرى والبلقان . أما كيف حيل دون حصول الأمويين على هذه المواد فسنعود اليه فيما بعد ولكن يمكن أن نلاحظ منذ الآن أن افتقار الأمويين لها ، وخصوصا فى مصر كان مشكلة لم يجد العرب لها حـلا أبدا [٨٩] .

وأخيرا : ان البيزنطيين انتصروا بفضل تنظيمهم الرائع ؛ اذ تغيرت أنظمتهم المدنية والعسكرية تغييرا كبيرا بفضل ضغط غزو الفرس والعرب فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن . فتطور النظام الادارى للأقاليم بأن وضع على رأس كل اقليم قائد بحرى (Strategoi)* له السلطة الحربية والمدنية معا . وأتاح هذا النظام وسائل سهلة فعالة للدفاع ؛ كما يرجع اليه لحد صغير ، نجـاح بيزنطة فى البقـاء . وطبق هذا النظام فى الأسـطول والجيش معا وهو يرجع على الأرجح الى أيام قنسطانز الثانى وقنسطنين الرابع . وقد أدت نكبة ليسيا عام ٦٥٥ م الى جعل اصلاح حال البحرية أمرا لا مناص منه [٩٠] .

وكان نظام القوة البحرية البيزنطية فى صورته الأخيرة فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن مكونا على الوجه الآتى : أسطول حربى دائم قوامه أســطول مركزى امبراطورى وأربعة أساطيل اقليمية . وترابط ثلاثة من هذه الأســاطيل فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط ، واثنــان فى الطرف الغربى منه . وكان مركز القوة البحرية فى الشرق هو القسطنطينية ، حيث قاعدة الأســطول الامبراطورى . وانعقــد لواء هذا الأسطول ، فى القرن الســابع ، اما مباشرة للقــائد الأعلى للأميرالية البحرية (Strategos of the Karabisians) ، واما له عن غير الطريق المباشرة أى بوســاطة نائب أو مساعد له يسمى (Drungarios) أو مساعد للأميرال . والأســطولان الاقليميان فى الشرق همــا أســطول بحــر ايجــه وأسطول كيبرهايوت Kibyrrhaeots وكلاهما قائم على أساس اقليمى صرف . وتتكون منطقة الأسطول الثانى من السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى . أما منطقة أسطول بحر ايجه فتتكون من جزر السيكلاديز والدوديكانيز ، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أميرال يلى القائد الأعلى . وتوجد الى جانب هذين الأسطولين وحدات بحرية أخرى صغيرة فى بلاد الشرق ، اقتضت الضرورات البحرية وضعها تحت امرة أحد قواد الأساطيل الثلاثة الرئيسية . والراجح أن هذه الأساطيل الاقليمية لم تجهز بالنار الاغريقية الا فى أوقات الأزمات فقط[٩١] .

وفى الجانب الغربى من البحر المتوسط رابط الأسطولان الاقليميان الرئيسيان فى صقلية وفى رافنا [٩٢] . ويحتمل وجود أسطول ثالث فى أفريقية حتى نهاية القرن السابع [٩٣] . ويشمل اختصاص أسطول صقلية الطرف الجنوبى الغربى من ايطاليا والسواحل الغربية حتى روما أو أبعد منها . ويشتمل اختصاص أسطول أفريقية ، شواطىء أفريقية وكذا جزر البليار وسردينية وسبتة والمواقع الباقية لبيزنطة فى اسبانيا [٩٤] . واذا كان لنا أن

نبحث عن ادارة بحرية موحدة فى الغرب على نمط ما وجدناه فى الشرق يمكننا أن نقول : ان المنطق يقضى أن حاكم صقلية وهو نائب القائد الأعلى للبحرية على أسطول الجزيرة ، كان هو نفسه رئيسا عاما للقوات البحرية فى الغرب . كما كان القائد الشرقى الأعلى للأميرالية رئيسها العام فى الغرب ، ويصح لنا اذن أن نعتبر صقلية ، بعد عصر قنسطانز الثانى قيادة أو اقليما بحريا اداريا (٩٥) .

واحتفظ الأسطول الامبراطورى — كما احتفظ كل أسطول اقليمى — بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحاوة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى ؛ وهذا كله على نفقة الأقاليم التى ترابط فيها تلك الأساطيل . وربما فرضت الأساطيل الاقليمية فى أوقات الحروب على الثغور البحرية التى تقع فى مناطقها أن تقدم لها ما يلزمها من ملاحين وسفن (٩٦) . وبصفة خاصة ما يلزمها من سفن النقل والمئونة . ولعل الاجراء الذى اعتادوا اتيانه — وخصوصا من جانب الأساطيل الأقليمية — هو أن يكون لدى كل ثغر بحرى بيان مجهز بما هو مفروض عليه تقديمه (٩٧) .

وشاهد القرن الثامن تغييرا طفيفا فى هذا النظام البحرى ، اللهم الا فيما عدا تدعيم المناطق البحرية فى الشرق وجعلها أقاليم ادارية بحرية (Themes) وربما كان هذا التدعيم سبب رفع لقب مساعد أميرال أسطول اقليم كبيرهايوت من لقب مساعد القائد الأعلى للبحرية الى لقب قائد أعلى للبحرية (٩٨) . وفى نفس الوقت فان الغاء مركز القائد الأعلى للأميرالية البحرية فى بيزنطة يدل على نتيجة تختلف تماما عما ذهب اليه بيورى . فلا يفيد أكثر من أن نقل مركز رآسة الأساطيل الشرقية — زمن ليو الثالث — من القسطنطينية الى جهات أشد حاجة للحماية ، وهى سواحل آسيا الصغرى ؛ يرجع الى انتقال قوة الهجوم البحرى البيزنطى جنوبا نحو مياه

البحر المتوسط ذاته بعد رفع الحصار عن القسطنطينية عام ٧١٧ — ٧١٨ م. ويبدو أن القيادة العليا للأميرالية البحرية فى كيبرهايوت أوائل عصر الأسرة الأيسورية — أى زمن ليو الثالث وقنسطنطين الخامس — أشرفت على أسطول أضخم بكثير مما يلزم للأغراض الدفاعية. وهـذا الأسطول هو الذى ضيق الخناق على العمارة البحرية العربية وحطمها قرب قبرص عام ٧٤٧ [٩٩]. أما فى الغرب فان هذا القرن ذاته شاهد اختفاء قوة شمال أفريقية البحرية البيزنطية، وازدياد ضعف قوة رافنا البحرية، اذ لم يبق تحت امرة حاكمها سوى قلة عاجزة من السفن، وظلت صقلية وحدها مركز القـوة البحـرية البيزنطية فى الغرب واحتفظ أسطولها ببعض الأهمية [١٠٠].

وكان لهذا التنظيم البحرى البيزنطى مرونة وقابلية للتطبيق المنـوع للعمل، فقد استخدم كل ما لدى الامبراطورية من موارد بحرية وعرف كيف يجمعها معا حين الحاجة اليها، وكانت لهذا النظام ميزة أخرى، كما كانت لنظام الأقاليم المدنية الحربية فى البر الذى كان يماثله : هى أن عبء تكاليف الدفاع البحرى وضع على كاهل الأقاليم، وبذا أتاح النظام حماية قليلة التكاليف لسواحل الامبراطورية من الغزو العربى البحرى.

أما عن تنظيمات الأمويين البحرية فان ما لدينا عنها من معلومات أقل — مع الأسف — مما لدينا عن الأساطيل البيزنطية؛ ومع ذلك فاننا نتبين بوضوح التخطيط الرئيسى لتلك التنظيمات. ويمكن القول أنه كانت هناك ثلاثة أساطيل مستقلة استقلالا ذاتيا الى حد ما؛ ويرتكز كل واحد منها — كالأساطيل البيزنطية تماما — على اقليم بحرى مستقل. وهذه الأساطيل الثلاثة هى أسطول سورية وأسطول مصر ثم أسطول شمال أفريقية الذى تكوّن بعد عام ٧٠٤ م. ويضاف الى هذا وحدة بحرية صغيرة تعمل فى البحر الأحمر لحراسته، وهـذه يحتمل خضـوعها لقيادة الأسـطول

المصرى [١٠١] . ونذكر بصفة عامة أن هذه الأساطيل الثلاثة تقابل أوضاع الأساطيل البيزنطية ، فأسطول سورية يقابل أسطول كيبرهايوت فى آسيا الصغرى ، وأسطول شمال أفريقية يقابل أسطول صقلية ، وأسطول مصر يقابل الأسطول الامبراطورى فى القسطنطينية . وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر . وكان أسطول مصر ، من بين هذه الأساطيل الثلاثة ، أكثر أهمية وأضخم عددا . والراجح أنه فى الحملات المشتركة مثل الحصارين اللذين فرضا على القسطنطينية ، وفى الاشتباكات الكبيرة ، كتلك التى حدثت فى ليديا عام ٦٥٥ ، وعلى مقربة من قبرص عام ٧٤٧ م ؛ كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع [١٠٢] . وغالبا ما اشترك الأسطولان المصرى والسورى فى عمليات واحدة [١٠٣] ؛ على حين استقل أسطول شمال أفريقية بعملياته عنهما . وشاهد الحصار الثانى للقسطنطينية فقط ، الأساطيل العربية الثلاثة مجتمعة [١٠٤] . ونجد تشابها آخر بين التنظيمات البحرية للأسطولين العربى والبيزنطى ، وهو الاستقلال الذاتى للقوات البحرية العربية والبيزنطية فى الغرب على حد سواء . فقد تمتع أسطول صقلية باستقلال مشابه لما تمتع به أسطول شمال أفريقية .

وكانت مصر مركز بناء السفن فى العصر الأموى ؛ ففى الفسطاط والقلزم بنيت السفن العربية الأولى [١٠٥] . واستقدم معاوية بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الأسطول السورى فى عكا . وسرعان ما أصبحت هذه المدينة أهم قاعدة بحرية فى سورية [١٠٦] . وفعل عبد الملك بن مروان ما فعله معاوية اذ أوفد عمالا مصريين الى شمال أفريقية حيث بنوا — بعد عام ٧٠٠ م — أول أسطول بحرى اسلامى لموسى بن نصير [١٠٧] . وخلال أربعين عاما بعد الفتح ، بلغ ما أنفقه متولى بناء السفن فى مصر ٧٠٠٠ دينار سنويا [١٠٨] .

والمشكلة الرئيسية التى واجهها الموكلون ببناء السفن فى مصر هى ندرة الخشب ؛ فعلى الرغم من تعدد الوسائل التى لجئوا اليها ، بقيت هذه المشكلة دون أن تحل نهائيا .

أما كيف نظمت هذه الأساطيل ، وكيف مدت بالرجال والمعدات فأمر من العسير شرحه . والراجح أن معظم قوات الأسطول فى السنوات الأولى تكونت من الوطنيين السوريين والمصريين المقيمين فى الموانى الساحلية (١٠٩). ثم ساد نظام أدق فيما بعد ولا سيما زمن خلافتى عبد الملك وابنه الوليد . ولابد أنه كانت تستدعى فرق من المدن الساحلية لتلتحق بالقوة البحرية العاملة ، مثلما كان يحدث فى حالة الأساطيل الاقليمية البيزنطية . لكن لا نعرف على وجه التحديد كيف كان يحدث هذا . وعلى الجملة فان البحرية الأموية تبدو أقل تنظيما وأكثر بعدا عن الأساليب الصحيحة ، اذا قيست بالقوة البيزنطية المنافسة لها .

فالبحرية البيزنطية امتازت من ناحية وضعها الجغرافى ، وامتازت بامتلاكها النار الاغريقية ، والخشب والحديد ثم بالتنظيم الدقيق الذى يفسره لنا انتصارها الكامل عام ٧٥٢ م . لكن ما هو أثر العمليات البرية فى موقف كل من الدولتين فى صراعهما البحرى ؟ لا شك أن العرب كانوا أثناء عملياتهم البرية أثبت أقداما منهم أثناء عملياتهم البحرية ؛ و لهذا تفوقوا على أعدائهم البيزنطيين . ولكن اذا استثنينا حملات العرب على شمال أفريقية من ٦٩٣ — ٧٠٥ م ، فان الأعمال الحربية التى قاموا بها برا ، لم تؤثر تأثيرا يعتد به فى قواتهم البحرية . وفى الشرق ظلت الحدود بين بيزنطة ودمشق ثابتة بشكل ملحوظ ، فى المدة بين ٦٤١ ، ٧٥٢ م وتعتبر جبال طوروس على وجه التقريب ، خط الحدود الفاصل بين الدولتين . وأحيانا كانت القوات العربية تتوغل بعيدا داخل آسيا الصغرى مثلما حدث أثناء الحصار الثانى

للقسطنطينية . وأحيانا أخرى كانت تندفع قوات بيزنطة — مثل جماعات المردة — الى مسافات بعيدة داخل سورية . ولكن كانت الغارات المستمرة على الحدود هى الأكثر حدوثا . وكان العرب أكثر اقداما على هذه الاغارات من الآخرين الا أن نظام الثغور البيزنطية استطاع أن يحمى الأراضى الداخلية للامبراطورية على أحسن وجه (١١٠) .

أما فى الغرب فبعد انهيار دفاع البيزنطيين وشركائهم الأفريقيين كان لقوات العرب الحربية نصيب أكبر فى مجرى الحوادث . على أن العمليات التى قامت بها تلك القوات — فى فتح اسبانيا — خلت تماما من أى عنصر بحرى . وعندما عبر العرب جبال البرانس وتقدموا نحو جنوبى فرنسا لاقوا هناك أول مقاومة جدية من جانب الفرنجة . وظلت هذه المقاومة غير ذات أثر فعال حتى عام ٧٣٧ م ؛ كذلك لم تكن موقعة تور ، عام ٧٣٢ ، أكثر من صد لغارات العرب . أما الصراع الحقيقى فانه حدث فى اكويتين وپروفانس ولنجدوك . ففى هذه الجهات سار الفتح العربى بانتظام ؛ اذ تم الاستيلاء على ناربون عام ٧٢٠ (١١١) . وسقطت كركاسون عام ٧٢٥ واحتلت نيم والجهات المحيطة بها (١١٢) . وأخضعوا ايد (Eudes) ، دوق اكويتين ، الذى قاومهم مقاومة مضنية واكتسحت دوقيته (١١٣) . وفى عام ٧٣٥ فتحت آرل أبوابها للمسلمين فاندفعوا لنهب پروفانس (١١٤) . وأجاب على ذلك شارل مارتل ، حاجب القصر الفرنجى ، بحملة تأديبية ضد آرل ومرسيليا وليون ، ولكن لم تكن لهذا العمل أهمية تذكر ؛ ففى ٧٣٦ م دخلت افينيون الشاطىء الأيسر لنهر الرون فى حوزة العرب (١١٥) .

وفى النهاية أثارت هذه الأحداث شارل مارتل وحفزته على العمل فقاد حملة كبيرة اتجه بها صوب الجنوب واستعاد افينيون ، وحاصر ناربون وأحرق نيم وبزيير وآجد ومجلّون ، انتقاما لمساعدة سكانها للمسلمين (١١٦) .

غير أنه لم يكن لتلك الحملة سوى أثر ضئيل أيضا . ففى عام ٧٣٨ ، ثار اقليم پروفانس بزعامة حاكمه المحلى ، ضد الكارولنجيين فعبر العرب نهر الرون ثانية [١١٧] . ولم يمنع ضياع پروڤانس من يد شارل مارتل سوى مساعدة الأسطول اللمباردى له . وفى عام ٧٣٩ بدا من الضرورى تسيير حملة افرنجية أخرى نحو الجنوب [١١٨] . ويتضح فشل تلك الحملة من أنه لم يتم شىء حتى عام ٧٥٢ ، حين استعاد پيپن اقليم سبتمانيا من فاتحيها العرب واحتل نيم ومجلّون وآجد وبزيير [١١٩] . ثم سقطت ناربون أقوى المراكز الاسلامية عام ٧٥٩ [١٢٠] .

والذى يلفت النظر فى هذا الصراع ، ذلك الأثر القليل الذى كان للقوات البحرية . فلم يكن للفرنجة شىء منها ، والقوات التى استخدموها قدمها لهم اللمبارد عام ٧٣٩ م . ويبدو كذلك أن العرب لم يستخدموا هنا — كما لم يستخدموا فى اسبانيا — سوى القليل من قواتهم البحرية . على أنهم كانوا بلا شك أكثر استعدادا فى هذه الناحية من الفرنجة ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة فشل الفرنجة فى حصارهم ناربون عام ٧٣٩ م [١٢١] . وصارت العمليات الحربية البرية بعد ذلك ، هى العنصر الفعال فى فرنسا ؛ على حين كانت العمليات البحرية هى التى تقرر النتيجة فى غير فرنسا من أقاليم البحر المتوسط . وان ما يذكر من أن جنوب فرنسا سقط عام ٧٥٢ ، فى نفس الوقت الذى توقفت فيه غزوات العرب من شمال أفريقية على صقلية وسردينية انما هو مجرد صدفة ، ولم يزد الصراع بين الفرنجة والعرب على امتلاك جنوب فرنسا سوى فصل ثانوى من فصول الكفاح البحرى الجارى فى البحر المتوسط . وما جرى فى فرنسا لم يؤثر فى ذلك الكفاح ولم يتأثر به الا قليلا ، وكان فى الجملة على هامش الأحداث الرئيسية [١٢٢] .

واننا لم ندرس حتى الآن سوى الجانب البحرى من سلسلة الحروب

بين القسطنطينية ودمشق التى دامت قرنا من الزمان ، واجتذبت هذه الحروب بينهما فى الثلاثين السنة الأخيرة الفرنجة اليها .

والآن تتساءل : ما هو الجانب الاقتصادى فى الموضوع ؟ وما هى آثار الحروب على الحياة التجارية فى البحر المتوسط ، وهل كانت تلك الآثار كبيرة كما يدعى البعض ؟ أو أنها لم تكن ذات دلالة خاصة ؟ أو أن ذلك الكفاح هو الذى يعلل أكثر من أى عامل آخر ، الفروق بين عصر جستنيان وعصر شرلمان وايرين وهارون الرشيد ؟ أهو السبب فى أن عالم البحر المتوسط فى ٧٥٢ بدا منذ ذلك الوقت ذا طابع اقتصادى يختلف تماما عما كان عليه فى العصور السابقة ؟

يجب الاعتراف بأن الفتوح العربية لم تحدث أول أمرها سوى تغييرات طفيفة فى تجارة البحر المتوسط ، ولم تترتب عليها انقلابات اقتصادية حينذاك. فالعرب باعتبارهم غزاة من البادية ، لم يتوافر لديهم الاستعداد ولا الرغبة فى قطع علاقات مصر وسورية الاقتصادية التقليدية . ولم يكن العرب من التجار أو رواد البحار وانما كانوا غزاة فقط ، ولذا تركوا ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الاشراف عليها من قبل ، وهم المسيحيون من اليونانيين السوريين المقيمين بالاسكندرية وسائر الموانى السورية .

والجدير بالذكر أن العرب استمروا يطبقون الأنظمة الادارية الرومانية والبيزنطية حتى نهاية القرن السابع ، من ذلك : نظام الضرائب مع بعض التغيير ، والعملة الذهبية ، وكل ما يتصل بأنظمة الصناعة . وبقى غير المسلمين يديرون شئون المال والادارة والأعمال الكتابية فى دواوين الحكومة وكذلك بقيت اللغة اليونانية لغة الادارة الحكومية [١٢٣] . واذن فقد جرى العمل بالنظم القديمة فى ظل ادارة جديدة ببلاد الشرق الاسلامى . وهذا هو ما حدث تماما فى بلاد الغرب اللاتينية عندما استولى عليها الحكام الجرمان فى القرن الخامس .

وثمة أمثلة عديدة على ذلك ، ولا سيما فى مصر . فالمعروف أن العرب استولوا على دور سك النقود التابعة للحكومة البيزنطية ، وعلى المصانع ومصانع ورق البردى [١٢٤] . وظلت العلامات الخاصة التى تشير الى الثالوث المقدس باقية على انتاج البردى العربى فى القرن السابع وهى نفس العلامات التى وجدت على ما أنتجته بيزنطة منه منذ البداية [١٢٥] . وانتقل احتكار مصانع النسج الرقيق (دور الطراز) فى تنيس وتونة ودمياط والاسكندرية من الدولة البيزنطية الى الحكام العرب [١٢٦] . والأكثر من ذلك أهمية استمرار دور الضرب فى سك العملة الذهبية البيزنطية ذاتها . وكانت هذه العملة هى النقد المتداول فى مصر وسورية دون منازع حتى عام ٦٩٢ [١٢٧] . أما النقد الاسلامى الذى نقشت عليه كتابات عربية ، فانه ظل حتى ذلك الحين يصنع من الفضة [١٢٨] .

وما حدث فى مصر ، حدث مثله تماما فى سورية . والذى يلفت النظر كان استمرار الصلة بين القديم والحديث فى دمشق . فوجود الوزراء والموظفين المسيحيين فى بلاط معاوية ويزيد ، وبقاء اللغة اليونانية مستخدمة فى سجلات الدولة وانطباع الحكم الأموى فى بدايته بالطابع غير الدينى ، والتسامح الدينى الذى شمل غير المسلمين فى البلاط الأموى . كل ذلك يدل على استمرار الأساليب اليونانية الرومانية السابقة ، وهو نفسه يتناقض تماما مع ماحدث من تطورات فى نهاية حكم الأمويين ، وحكم العباسيين[١٢٩] . وأن بناء الجامع الأموى بدمشق وفق أساليب الكنائس البيزنطية لما يثبت ذلك الاتجاه [١٣٠] . وأنه ليبدو أن حكومة مصر وسورية أدارت دفة الحكم من دمشق ، وفق الأساليب البيزنطية ، وعن طريق الحكام العرب أنفسهم مدة الخمسين السنة الأولى من الفتح العربى .

ولا دليل على وجود تغيير كبير فى توزيع السكان فى هذه البلاد كنتيجة

للفتح العربى ، اللهم الا فى الأقاليم الساحلية السورية . وعندما استرد العرب مدينة الاسكندرية عام ٦٤٥ ، خرج بعض اليونانيين مع الحاميات والأساطيل البيزنطية المنسحبة ، ولكن معظمهم [١٣١] بقى فى البلاد لم يرحل عنها . وفى داخل سورية هاجر بعض اليونانيين من البلاد [١٣٢] . ولكن الغزو العربى كان سريعا ومسالما لدرجة لم تسمح الا لأعداد ضـئيلة منهم بالهجرة . أما فى شمال أفريقية فثمت دليل على ان بعض السكان غادروا البلاد عقب غارة ٦٤٧ ؛ ويحتمل أنهم قصدوا صقلية [١٣٣] . وكذلك حدثت هجرات من قرطاجنة عندما سقطت نهائيا فى يد الأمويين عام ٦٩٨ [١٣٤] . وهناك اشارة الى هؤلاء اللاجئين فى أخبار سقوط جزيرة قوصرة (پنتلاريا) نهائيا فى يد العرب عام ٧٠٠ [١٣٥] . وعلى الرغم من كل تلك الأمثلة ، فانه يبدو من المبالغة ، القول بحدوث انتقال جموع السكان من مكان لآخر ، فى القرن السابع بسبب الغزو العربى .

أما سواحل سورية وقبرص فلها حالة خاصة ؛ اذ وجدت هناك حركات واسعة النطاق بين السكان ، حدثت على الأرجح فى القرن السابع الميلادى . والظاهر أن سواحل سورية بالذات ، عانت الكثير من غزوات الفرس والعرب وما تلا ذلك من حوادث . وقد خرّب ملوك الفرس كثيرا من مدن سورية واضطهدوا بقسوة سكانها من اليونانيين الملكانيين . وزمن الغزو العربى ، فر كثير من سكان السواحل الى الجهات الأمينة فى آسيا الصغرى وجهات أخرى من بلاد البحر المتوسط [١٣٦] . واستمرت هذه التحركات أوائل الحكم الأموى وخاصة بين عامى ٦٦٦ م ، ٦٨٩ م ، حينما نشطت جماعات المردة فى توغلها فى اقليم لبنان . وان سحب جستنيان الثانى لاثنى عشر ألفا منهم عام ٦٨٩ م ، واستيطانهم آسيا الصغرى ليدل على حركة كبيرة من حركات نقل السكان . ويشبه هذا ما فعله معاوية — فى الوقت ذاته — من اسكان

جماعات من أهل فارس والعراق على طول سواحل سورية . وليس من الحكمة أن نبالغ فى تقدير أهمية هذه التطورات فغلبة المسيحية على لبنان فى الوقت الحاضر ، تدل على استمرار صلة سـورية بماضيها اليونانى الرومانى ، وهذا فيما يتعلق بأصل سكانها . ويقال مثل هذا تماما عن قبرص، منذ خرب أول خلفاء بنى أمية مدينة قسطنطية (Constantia) الهامة عقب الاستيلاء على الجزيرة عام ٦٥٤ م . وسمح لكل من أراد أن يغادر الجزيرة بمغادرتها (١٣٧) . والأدلة ضعيفة على ان أكثر السكان اغتنم هذه الفرصة للخروج . ومن الأسلم برغم هذا كله القول بأن معظم المهاجرين من سورية أو قبرص أو أى مكان آخر دخله الاسلام ، كان أكثرهم اما من رجال الحكومة البيزنطية أو من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الملكانية ، وأقلهم من التجار أو أهل الحرف الذين تعتبر هجرتهم خطرا جسيما من وجهة النظر الاقتصادية (١٣٨) .

ومن الأسلم كذلك ألا نبالغ — حتى عام ٦٩٣ م — فيما حدث من خسائر أثناء الحروب البرية والبحرية التى نشبت بين دمشق وبيزنطة . على أن اصابات بعض الأقاليم كانت عظيمة أثناء الهجمات البرية ؛ وهذه الأقاليم هى شمال أفريقية وسورية وعلى الأخص اقليم الحدود الأناضولية على جانبى جبال طوروس . واستمرت سورية مسرحا للحروب من ٦٦٦ — ٦٨٩ م حيث نشط المردة هناك بوجه خاص . أما شمال أفريقية فشملته غارات فى ٦٤٧ ، ٦٥٤ ، ٦٧٠ — ٦٨٥ ، ٦٨٨ — ٦٨٩ م وشهد اقليم جبال طوروس الكثير من حوادث ذلك الصراع . وبصرف النظر عما أصاب هذا الاقليم الأخير ، فان الأقاليم الأخرى لم تتأثر بدرجة متساوية بما نشب من حروب برية . ويبدو أن الأقاليم والمدن البيزنطية الساحلية بشمال أفريقية لم ينلها الا القليل من أذى العرب فى القيروان فى المدة بين عامى ٦٧٠ —

٦٨٥(١٣٩) م ، ولم تصب بخسائر واضحة الا بعد الغزو الأكبر الذى حدث عام ٦٩٣ م . ويقال مثل هذا تماما عن سورية حيث تعرضت بعض الأقاليم للتخريب من جماعات المردة .

ونستبين مثل هذه الصورة فى الأعمال البحرية . اذ أغير على قبرص عام ٦٤٨ م ، ٦٥٤ م ، وعلى صقلية عام ٦٥٢ ، ٦٦٩ م ، وعلى أقاليم بحر ايجه عام ٦٥٢ ، ٦٦٩ م ومن عام ٦٧٢ — ٦٧٩ م . وكانت آخر حملة بحرية أكثر من مجرد تخريب محلى ، لقيامها بحصار طويل لمدينة القسطنطينية . أما مصر فلم تعان سوى غارة صغيرة واحدة عام ٦٧٣م ؛ بينما هوجم الساحل السورى كثيرا نتيجة لحركات جماعات المردة وما أحدثوه من اضطرابات هناك عام ٦٦٦ ، ٦٨٨ — ٦٨٩ م . ووجدت ثمة فترات استجمام بين العمليات الحربية البحرية مثلما حدث فى العمليات البرية . وكان من السهل اصلاح أى تخريب أو تدمير ، اذ لم يكن لخسائر الحرب ولا لتحركات السكان أثر ما على البناء الاقتصادى فى حوض البحر المتوسط وهو البناء الذى وضعت روما أسسه ودعمه جستنيان .

والواقع أن الوحدة السياسية من الناحية النظرية والوحدة المالية لأقاليم البحر المتوسط ظلت كما هى . وان قيام خلفاء دمشق بدفع اتاوات سنوية لبيزنطة ، فيه اعتراف من الناحية النظرية على الأقل ، بأن حكام القسطنطينية ما زالت لهم بقية من سيادة على سورية ومصر . ويؤكد هذا القول استمرار استخدام العملة الذهبية البيزنطية ؛ التى كان مجالها كل بلاد البحر المتوسط والتى استمرت الأداة الدولية للتعامل التجارى .

على أنه يجب الاعتراف بما ترتب على الفتح العربى من آثار . وأعظم تلك الآثار هو توقف ارسال ضريبة القمح من مصر الى القسطنطينية . على حين ظل هذا القمح يجمع ، كما كان فى الماضى بأيدى الحكام العرب وتأخذ

الاسكندرية ما تحتاج منه دون مقابل . أما ما كان يرسل لتموين بيزنطة فأصبح يرسل لتموين مكة والمدينة . وتيسيرا لارسال هذا القمح ، عمد عمرو بن العاص عام ٦٤٣ م الى حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر (خليج أمير المؤمنين) وبهذا أنشىء طريق مواصلات مائى نحو الجنوب[١٤٠] . وكان لهذا التحول فى مصير القمح تأثيرات هامة على القسطنطينية ذاتها . اذ تخلى هرقل عن سياسة توزيع القمح دون مقابل فى العاصمة . ولما كان تموين عاصمة الدولة فى طليعة مسئوليات الحكومة الامبراطورية ، صار من الضرورى ايجاد مصادر جديدة للقمح[١٤١] . والراجح أن المناطق الزراعية القريبة فى البلقان وآسيا الصغرى وجنوب روسيا ، عوضت النقص الناجم عن ضياع قمح مصر . وبهذا جاء التحول فى صالح الفلاحين من سكان الامبراطورية اذ أنهم كسبوا سوقا مهمة جديدة لحاصلاتهم . وتفسر هذه الحقيقة استقلال ورخاء وحرية هؤلاء الفلاحين كما يتضح من تحليل نصوص « قانون الفلاحين » الخاص بهم .

ومن التغيرات التى أحدثها الفتح العربى ، التخلى عن كثير من قوانين وتعليمات جستنيان الخاصة بالاستيراد والتصدير فى القرن السابع . ذلك لأن العرب — نظرا لجمعهم فى حكمهم بين أراضى الدولة الساسانية وسورية ومصر — لم تكن لهم مصلحة فى بقاء مراكز المكوس القديمة التى كانت تقع بين المنطقتين . يضاف الى هذا أن القسطنطينية — كما يؤيد ذلك ما لدينا من شواهد — لم تتعنت فى تجارتها مع سورية ومصر فى ذلك الوقت الا فيما يتعلق بالخشب اللازم لبناء السفن . وذلك لأن التمييز الجمركى ضد سورية ومصر ، معناه اعتراف بضياع تلك الأقاليم بصفة قاطعة بدلا من اعتبارها واقعة تحت احتلال عربى مؤقت . وعلى هذا فبما أن البيزنطيين لم يسلموا ، حتى عام ٦٩٣ م ، باعتبار أن مصر وسورية بلاد أجنبية عنهم ، فانهم لم يطبقوا

عليهما أنظمة الاستيراد التى وضعها جستنيان ، وان تقاضوا فى الوقت ذاته الرسوم المقررة على البضائع الواردة منهما . يضاف الى هذا أنه على الرغم من احتفاظ الحكومة الامبراطورية باحتكار صناعة الحرير الأرجوانى — ومثلهـا فى هذا مثل احتكار الحكومة العربيـة فى مصر لدور الطراز فان حكومة القسطنطينية لم تتشدد فى تطبيق الاشراف الحكومى على صناعات أخرى . ومن أمثلة هذا التساهل احتمال اختفاء رقابتها على أصحاب سفن التجارة البحرية (Navicularii) وقتذاك ، مع أنها كانت مما اهتموا به كثيرا فىالأزمنة السابقة (١٤٣) . والواقع أنه بتوقف ارسال ضريبة الحبوب من مصر الى القسطنطينية ، لم تعد هناك حاجة لهؤلاء التجار ، وصارت حرية التجارة — فيما يبدو — هى قاعدة التعامل فى بلاد البحر المتوسط . ويتضح هذا بجلاء من قانون رودس البحرى الذى صدر حول هذا الوقت تقريبا ؛ وبمقتضاه صار ربابنة السفن ، أحرارا فى تصرفهم ، لهم أن يتجهوا للحصول على شحنات لسفنهم حيث شاءوا (١٤٤) . وليس هناك دليل عـلى اشراف الحكومة على البحرية التجارية بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع ؛ على عكس ما كان أواخر العصر الرومانى وأوائل الحكم البيزنطى . ومن الممكن القول اننا قد بالغنا فى تأكيد هذه الحقيقة ، الا أنه يمكن القول بصفة عامة أن القرن السابع كان عصر تجارة غير مقيدة فى البحر المتوسط .

وحرية التجارة هذه هى التى تفسر لنا مقدار ما بلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥ م ، وهذا رغم الحروب والغارات البحرية . ويقول الرحالة الأوربى ، آركولف ، الذى زار مصر عام ٦٧٠ ، أن الاسكندرية غدت ملتقى تجارة العالم كله ، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع (١٤٥) . وهذا الرخاء الذى عم وادى النيل حول عام ٧٠٠ م ، جعل واليها يبعث الى دمشق يبلغها أن خزائنه لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة

ويطلب من الخليفة أن يدله على ما يفعل ، فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد [١٤٦] . ولم تكن تجارة مصر مع بلاد البحر المتوسط هى وحدها ذات الأهمية ، بل ان تجارتها مع الجنوب والشرق اتسعت ونمت ، وكان ذلك لأن الساسانيين كانت سياستهم فى أواخر القرن السادس أن يحولوا دون توسع تجارة مصر فى البحر الأحمر وفى المحيط الهندى ؛ والآن وقد زالت تلك الدولة ، فقد عـاد لهـذه الطريق التجارية أهميتها ونشاطها ، وساعدت على ذلك قناة البحر الأحمر وهى المسماة بخليج أمير المؤمنين . ونظرا لأهمية التجارة فى البحر الأحمر ، احتفظ الأمويون بوحدات بحرية فى مياهه لحماية طريق التجارة الى مكة والمدينة ، وهى الطريق التى تنتهى عند عدن أيضا . وفى عام ٦٨٤ م ساعدت هذه الوحدات البحرية ، والى مصر فى ثورته ضد خليفة دمشق [١٤٧] . وفى عام ٦٩٢ نقلت هذه الوحدات البحرية قوات محاربة الى الحجاز [١٤٨] .

وعم المدن الداخلية بسورية رخاء مماثل وانتفعت العاصمة دمشق بما تدفق فيها من أموال الغنائم والخراج على خزائن الخلفاء من ولاياتهم فى الغرب وفى الشرق [١٤٩] . وساعد على نشاط التجارة وزيادة الرخاء ، زوال الحواجز الجمركية الرومانية القديمة التى فصلت بين سورية والعراق . أما سكان المدن الساحلية فانهم عانوا بعض الاضطراب بسبب هجراتهم وبسبب الغارات البحرية التى تعرضت لها هذه المدن . ولهذا لم تستطع المدن الساحلية أن تبلغ المستوى العالى الذى بلغته المدن الداخلية السورية فى ميدان الثروة التجارية والصناعية . على أننا بحاجة هنا الى فحص أوفى لمراجع تاريخ القرن السابع الميلادى ، قبل الوصول الى رأى قاطع فى شأنه . وعلى ذلك فان المناطق الساحلية من سورية ظلت قادرة — حتى أوائل حكم الأمويين — على امداد الأسطول العربى بقوات بحرية كبيرة . وان قبرص

القريبة والتى تشبه حالها حال شواطىء سورية من حيث التعرض الكثير للغارات البحرية ، كانت ترسل لدمشق جزية سنوية بلغت ٧٢٠٠ دينـار ، ومثلها لبيزنطة ، ويدل هذا ، ولا ريب ، على وجود رخاء اقتصادى فيها وفى السواحل السورية [١٥٠] .

أما فيما يتعلق بالقسطنطينية وأقاليم الامبراطورية التابعة لهـا ببلاد البلقان والأناضول ، فلا توجد لدينا البيانات الكافية لأن نبنى عليها رأيا . ولا شك أن الغارات على الحدود الشرقية للأناضول كانت مدمرة ؛ وكذا سنوات الهجوم الأول الكبير على القسطنطينية واقليم بحر ايجه . ولكن ليس ثمة دليل على وجود أزمات اقتصادية حادة يمكن القول بأنها أزعجت الدولة ؛ مثل تلك الأزمات التى وجهها هرقل . والواقع أن نظام حكومات الثغور أو الأجناد أثبت أنه نظام فعال زهيد التكاليف ؛ وكذلك احتفظت معه تجارة القسطنطينية بأهميتها المعهودة . كما لم تقل العملة الذهبية فى وزنها ولا فى عيارها ، شيئا فى ذلك العصر عن العصور السابقة [١٥١] .

يضاف الى ما تقدم ، توافر الأدلة على ازدهار ونمو تجارة البحـر الأسود ؛ وان تلك التجارة ساعدت كثيرا على انعاش عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وقد قامت هذه التجارة مع مدينة خرسون ومملكة الخزر فى المنطقة الشاملة لجنوب الروسيا وبحر قزوين . وفى عام ٦٢٦ م كان هؤلاء الخزر أحلافا مخلصين لهرقل فى كفاحه ضد الفرس [١٥٢] . وظلت العلاقة وطيدة بين الطرفين منذ ذلك الحين . وفى أواخر القرن ذاته تزوج جستنيان الثانى احدى أميرات الخزر ، ولجأ الى تلك المملكة عقب طرده من العاصمة عام ٦٩٥ [١٥٣] . ولكن هذا التحالف مع الخزر أتاح للبيزنطيين أن يجدوا طرقا أخرى غير الطرق الفارسية التى يتحكم فيها العرب للتجارة مع الصين . والعداوة القائمة بين الخزر — ودولتهم تقوم على التجارة بصفة خاصة —

وبين جيرانهم الأمويين تشهد بما كان للتجارة عبر بلادهم من أهمية .

والظاهر أن نصف القرن الأول من حكم العرب لسورية ومصر لم يحدث انقلابا كليا فى الأوضاع الاقتصادية فى شرق البحر المتوسط . ولا يوجد كذلك دليل على أن ذلك العصر شهد تدهورا فى رخاء اقتصاديات الأقاليم الغربية . حقيقة وجد ثمة أثر لهجرات السكان وتحركاتهم ، كما اضطربت التجارة العالمية بسبب الحروب التى نشبت بين دمشق والقسطنطينية فى البحار ؛ ولكن تأثير هذا كله كان — فيما يظهر — طفيفا جدا خلال القرن السابع الميلادى [١٥٤] .

ويعتبر شمال أفريقية خير مثل على ما تقدم ؛ فعلى الرغم من تعرضها لغارات العرب وهجماتهم منذ ٦٤٧ م ، فانه لا يوجد من الأدلة ما يثبت زوال رخائهـا أو ضعف قدرتها الأساسية على الانتـاج . بل ان المغيرين المسلمين فى ٦٤٧ م دهشوا من الثراء الذى شاهدوه هناك [١٥٥] . وظلت خيراتهـا من الذهب وزيت الزيتون والحبوب والخيول والجمال موضع اعجاب العرب الفاتحين فى المدة بين ٦٩٥ ، ٧٠٥ م واشتمل الخراج الكبير الذى أرسله موسى بن نصير الى دمشق ، على بعض منتجات البلاد الصناعية ولا سيما الطنافس الفاخرة [١٥٦] . ويمكن اعتبار هذه الثروات دليلا على رخاء الأقاليم الأفريقية الشمالية فى القرن السابع .

ونرى فى ايطاليا صورة مماثلة ، باستثناء جنوة وساحل ليجوريا اللذين سنتكلم عنهما على حدة . فلا يوجد دليل على تدهور رخاء ايطاليا فى القرن السابع . فتجارتها مع الشرق استمرت قوية نشيطة ولا سيما تجارتها مع راڤنا التى توثقت صـلاتها التجارية مع القسطنطينية [١٥٧] . وربما مع الاسكندرية أيضا . وأحال اليونانيون مدينة راڤنا ، التى كانوا يقيمون فيها الى مدينة يونانية فى واقع الأمر ، وكانت فى روما أيضا جالية يونانية . وعرفت

تلك المدينة التجار اليونان الذين يتاجرون فى المنسوجات الفاخرة (١٥٨) وأسهم المشارقة أيضا فى الحياة الدينية ، حتى انه فى عام ٦٧٨ وجد فى روما وحدها أربعة أديرة يونانية . وعرفت روما أيضا السوريين وبلغ من مكانتهم فيها أن كان منهم أربعة من بابوات أواخر القرن السابع وأوائل الثامن . كما وجد فى روما فى ذلك الوقت دير سورى . ولعل هذا يظهر أن العلاقة بين ايطاليا وسورية كانت أكثر توثقا مما يظن عادة . ويلاحظ شارل ديل ازدياد انتشار العادات والآثار الدينية اليونانية والشرقية فى ذلك العصر — وفى هذا دليل آخر على أن اتجاهات القرن السادس نحو الاقتباس من الشرق استمرت بعد ذلك القرن (١٥٩) .

وظلت الصلات الاقتصادية قائمة بين اسبانيا وفرنسا من جهة وبين شرق البحر المتوسط من جهة أخرى ، ولكنها كانت أقل شأنا مما مضى ؛ وكانت فرنسا الميدان الذى اختص به التجار السوريون أنفسهم . ومن الراجح أن عدم الاستقرار الذى أصاب بلادهم حينذاك ، أثر فى قدرتهم على امداد أسواق فرنسا بالبضائع الشرقية . ومع ذلك ظل جنوب فرنسا حتى عام ٧١٦ م يستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق . والدليل على ذلك شهادة منحها أحد ملوك الميروفنجيين فى تلك السنة لدير كوربى (Corbie) وتتضمن اعطاء هذا الدير امتيازات خاصة لاستيراد البضائع الشرقية مع اعفائه من الضرائب المقررة عليها فى ميناء فوس (Foss) ويؤكد مع اعفائه ن الضرائب المقررة عليها فى ميناء فوس السابق . ومن هذا يتضح أنها لم تكن شيئا خاصا جديدا ، بل ان الدير نفسه كان يستورد البضائع الشرقية خلال القرن السابع ، وربما قبل ذلك (١٦٠) . واحتفظت مرسيليا بمركزها كميناء هام وكان من بين الوارد اليها : زيت الزيتون — من شمال أفريقية غالبا — وكذا البضائع

الشرقية[١٦١] . ونشطت كذلك موانىء اسبانيا فى تجارتها مع شرق البحر المتوسط [١٦٢] ، أواخر أيام القوط الغربيين .

ومع ذلك فثمة دليل على وجود ضيق اقتصادى فى فرنسا واسبانيا فى نهاية القرن السابع وبداية الثامن . ويحتمل أن يكون مرجع ذلك الى وقوف البلدين موقفا سلبيا للغاية فى الناحية الاقتصادية ، مما جعلهما يعتمدان فى تجارتهما — أكثر من ايطاليا وشمال أفريقية — على المشارقة من أهل سورية ومصر . ويظهر أن كلا من ايطاليا وشمال أفريقية تاجرتا مع المدن اليونانية فى آسيا الصغرى بدرجة أكثر من البلاد الواقعة الى غربهما . وكان لكل منهما أسطول تجارى خاص على حين لم يتوافر ذلك للفرنجة والقوط الغربيين ، ولهذا قل اعتماد ايطاليا وشمال أفريقية على أسطول المشارقة التجارى . ولذا فقد كان لاضطراب حركة النقل البحرى فى سوريا — نتيجة لما ساد موانيها من ارتباك—أثره السريع الواضح فى موانى فرنسا واسبانيا . على حين كان هذا الأثر أقل فى موانى ايطاليا وشمال أفريقية . وعامل آخر تأثرت به فرنسا ذلك هو تضاءل شأن تجارة الرقيق . ويرجع هذا الى أن الجموع الغفيرة من الأسرى الذين غنمهم العرب من غزواتهم فى شمال أفريقية والأناضول ووسط آسيا ، غمرت الأسواق شرق البحر المتوسط ، حتى لم يعد هناك اقبال على شراء العبيد الواردين من جنوب فرنسا . ومن المحتمل أن فقدان هذه السوق الهامة التى كانوا يصدرون اليها العبيد ، أخل اخلالا عظيما بميزان العلاقات التجارية بين ثغور جنوبى فرنسا والشرق .

وأيا كانت أسباب ذلك الضيق الاقتصادى فى فرنسا ، فان انعكاساته تبدو واضحة على شئون النقد عند كل من القوط الغربيين والميروفنجيين والفرنجة فى القرن السابع . اذ قل شيئا فشيئا سك العملات الذهبية ، وزاد

بالتالى سك العملات الفضية ؛ وهى العملات اللازمة للتعامل المحلى بصفة خاصة . أما العملة الذهبية المضروبة — فى فرنسا — على شـــكل مثلث (Triens) والتى يعادل الواحد منها ثلث صلدى رومانى ، فغالبا ما جاءت ضئيلة فى وزنها وقيمتها . كما أنها كانت فى معظم الأحيان فضية وعليها طلاء بسيط من الذهب [١٦٣] . يضاف الى هذا وجود ما يدل على قيـــام بعض صعوبات اقتصادية فى اسبانيا فى القرن السابع . ومما يدل على ذلك اضطهاد اليهود ، وهو الاضـــطهاد الذى بدأ فى القـــرن السابع وزاد شدة بصفة مستمرة [١٦٤] . وعلى الرغم من أن أساس هذا الاضطهاد دينى محض ، فقد تكون له بعض الدوافع الاقتصادية . ويؤيد هذا القول المرسوم الذى أصدره الملك اجيكا (Egica) (٦٨٧ — ٧٠٢ م) وحرم به على اليهود ، الاشتغال بأية تجارة خارجية [١٦٥] . وعندما أخذ الرخاء فى النقصان ، مال الرأى العام الى الرغبة فى اعتبار اليهود — لأنهم الفئة العاملة فى التجارة الخارجية — مسئولين عما أصابها . على أن تطور الاقتصاد فى الغرب على هذا النحو لم يكن له قيمة تذكر قبل عـــام ٧١٦ م . فحتى ذلك الوقت استمرت حركة النقل والتجارة — على الرغم من القيود الوقتية — فى تدفقها ، عبر المتوسط بين الشرق والغرب ؛ وجاء الرخاء فى أعقابها الى معظم البلاد المطلة على شواطئه . واستمر التجار السوريون والمشارقة عموما يفدون ببضائعهم على اسبانيا وفرنسا وعلى ايطاليا وشمال أفريقية أيضا . بل انهم توغلوا أكثر من ذى قبل فى داخل البلاد خلال القرن السابع [١٦٦] .

واذا كان الاضطراب الذى أصاب النظام الاقتصادى السائد فى البحر المتوسط ، ابان السنوات الأولى من الغزو الاسلامى طفيفا ، فانه زاد وضوحا فى النصف الثانى من ذلك القرن . ويبدو الفارق بين عامى ٧٠٠ ، ٧٥٢ م ، واضحا . ففى عام ٧٠٠ كان عالم البحر المتوسط لا يزال ينعم بوحدته ورخائه

لكن كيف كانت حاله عام ٧٥٢ ؟ انه الاضطراب فى مصر ، والركود فى سورية ، والفوضى فى اسبانيا وشمال أفريقية ، والكساد فى فرنسا ، واختفاء التجار السوريين والمصريين من الأسواق الغربية ، وشيوع العملة الفضية فى اسبانيا وفرنسا ، انه عالم لم يفلت من تدهوره الاقتصادى سوى بيزنطة وايطاليا وبلاد الخزر . أما فى الناحية السياسية فقد حل العباسيون والكارولنجيون محل الأمويين والميروفنجيين ؛ واتخذ الأولون عاصمتهم الجديدة فى بغداد والآخرون فى اكس لاشابل وكلاهما بعيد جدا عن شواطىء البحر المتوسط . ومن الواضح اذن أن تغييرا مهما قد حدث ـ تغييرا يحتاج الى شرح . فما هى أسباب هذا الانقلاب الاقتصادى والسياسى العميق ؟ !

نذكر أولا أنه ليس هناك من دليل على وجود هجرات أو تحركات واسعة النطاق بين سكان اقليم البحر المتوسط فى هذه المرحلة الثانية . ولم تكن الحروب خلالها عنيفة التخريب بدرجة تؤثر على الرخاء السائد فى أى اقليم ، اذ اقتصرت العمليات الحربية البرية الهامة فى الخمسين السنة الأولى من الصراع الأموى البيزنطى ، على ثلاثة أقاليم : اقليم الحدود السورية الأناضولية ، واقليم شمال أفريقية ، واقليم جنوب فرنسا . وتحولت منطقة شمال أفريقية الى مسرح للقتال بين عامى ٦٩٣ ، ٧٠٥ م ، حين استولى عليها العرب نهائيا . وكانت الحرب الخاطفة هى الصفة الغالبة على الحرب هناك . وفيما عدا قرطاجنة ، التى تناوب الفريقان المتخاصمان الاستيلاء عليها — ومثلها فى ذلك مثل مدينة الاسكندرية قبل أن يستولى عليها العرب نهائيا — فانه يبدو أن جميع معاقل البيزنطيين سلمت كلها دون مقاومة . وبعد وفاة الكاهنة ، سارع البربر كافة الى الخضوع[١٦٧] . وأما القتال فى اسبانيا فكان اسميا للغاية ؛ ذلك أن معركة واحدة كانت كافية — كما حدث فى سورية ومصر — لتسليم البلاد الى فاتحيها المسلمين . غير أن

العمليات الحربية طالت بعض الشيء فى جنوب فرنسا ، وحدث هناك تخريب كبير بسبب الحرب التى استمرت من ٧١٧ حتى ٧٥٢ م . ومع ذلك فان هذا التخريب يرجع الى الكارولنجيين أكثر مما يرجع الى مناهضيهم المسلمين . ويبدو أنه يرجع للجهود الملحة التى قاموا بها للتغلب على مقاومة العناصر الوطنية لحكمهم [١٦٨] فى اكوتين ولانجدوك . كذلك استمرت الحدود العربية البيزنطية المشتركة فى آسيا الصغرى مسرحا لحروب مخربة منذ البداية .

وكذلك الأعمال البحرية تشابهت فى مرحلتها الأولى والثانية ، فلم يكن التخريب الناجم عن الغارات البحرية عنيفا ولا مستمرا فى اقليم بذاته ، هاجمت الأساطيل العربية اقليم بحر ايجه والقسطنطينية عام ٧١٧ — ٧١٨ م . واستطاعت انزال قواتها فى قبرص عام ٧٢٦ ، ٧٤٣ م وأغارت على صقلية وسردينية فى فترات منتظمة من ٧٠٤ — ٧٥٣ . ونرى من ناحية أخرى أن الغارات البيزنطية على مصر اقتصرت على أعوام ٧٠٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٩ م . فعلى هذا لا العمليات البحرية أو الغارات البرية أو هجرات السكان تشرح لنا شرحا مرضيا ، حقيقة ما حدث لعالم البحر المتوسط عام ٧٥٢ م . فأين اذن نجد الجواب .

ان ايضاح ما حدث من تغيرات سياسية واقتصادية ، نجده ، فى تغير طبيعة الصراع بين الأمويين والبيزنطيين فى الفترة من ٦٩٣ حتى ٧٥٢ م . ذلك أن الموجتين الأوليين من الغزو العربى ، استخدمت فيهما أدوات القتال فقط . أما الموجة الثالثة فقد تطرق اليها عنصر اقتصادى ، فأضيف الى الصراع الحربى والبحرى صراع اقتصادى .

وكان العرب البادئين باشعال هذه الحرب الاقتصادية زمن الخليفة عبد الملك ، ففى عام ٦٩٢ ، ضرب الخليفة أول دينار ذهبى عربى وأرسل

هذه العملة الجديدة ، ضمن الاتاوة المتفق عليها ، الى جستنيان الثانى فى القسطنطينية [١٦٩] . كما أوقف تصدير ورق البردى من مصر الى بيزنطة والبلاد الغربية [١٧٠] . يضاف الى ما تقدم أنه أزال من هذا الورق علامة الثالوث المسيحية البيزنطية وأحل محلها نصا عربيا [١٧١] . وهدف الخليفة من عمله هذا واضح : انه أراد أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادى مستقل ، وأن ينزل بأعدائه نوعا من الضغط الاقتصادى . فكان هذا بمثابة اعلان لاستقلاله الاقتصادى عن بيزنطة ؛ وهو عمل لم يجرؤ أحد من أسلافه على القيام به .

أجاب جستنيان الثانى — عندما تسلم الاتاوة المقررة من العملة العربية الجديدة — باعلان الحرب عام ٦٩٣ ، وكانت حربا خاسرة جدا بالنسبة له[١٧٢] . ويحتمل أنه فعل أكثر من اعلان الحرب ، كأن يكون قطع التجارة مع أعدائه مثلا . وهذا هو التفسير الوحيد لجنايته على أهل قبرص ؛ فلما كان معاشهم يتوقف على تجارتهم مع سورية ، فان قطع جستنيان لها أدى الى اقفار الجزيرة من سكانها . واذا صح هذا التفسير فانه يفسر أيضا سبب ثورة أسطول كبيرهايوت . وذلك أن هذا الأسطول كان يرابط باقليم تربطه علاقات تجارية هامة مع مصر ، ولا سيما فى تجارة الخشب . ثار هذا الأسطول ضد الحكومة وتحرك نحو القسطنطينية ليعزل الامبراطور الذى خلف جستنيان . ويفسر أيضا الدور الذى قام به تجار راقنا لاسقاط الامبراطور ، اذ أن تجارها كانوا يصدرون الخشب الى مصر منذ زمان بعيد [١٧٣] . ومن الطريف أن نلاحظ أن من أوائل قوانين تيبريوس الثالث — عقب أن اعتلى عرش القسطنطينية بعد خليفة جستنيان الثانى — قانونا ينص على اعادة أهالى قبرص اليها عام ٦٩٨ . على أنه لم يقف عند اعادة القبارصة الى بلادهم من الجهات التى نزحوا اليها فى أرض امبراطوريته ؛

بل حاول ارجاع الفارين منهم الى أرض الاسلام فى سورية (١٧٤) . ويحتمل أنه حاول ايجاد نوع من السلام الاقتصادى بينه وبين الأمويين ؛ اذ لا دليل فيما يبدو ، على زيادة الضغط الاقتصادى من قبل دمشق خلال سنى حكمه .

وبعودة جستنيان الثانى الى عرش الامبراطورية ثانية عام ٧٠٥ ، بدأت الحرب الاقتصادية من جديد ، وابتدأت بغارة بيزنطية على مصر عام ٧٠٩ (١٧٥) . أو بعمل من أعمال العدوان الاقتصادى شنته القسطنطينية وأيا كانت البواعث فان الوليد بن عبد الملك تابع عام ٧٠٩ سياسة أبيه الاقتصادية . ويشير فيليب حتّى الى هذا التصرف بأنه « القومية العربية » وهو تعبير موفق . وتضمنت هذه الحركة استخدام اللغة العربية بدل اليونانية فى جميع الأعمال الادارية فى الدولة (١٧٦) . على أن مثل هذا التغيير فى لغة الادارة لم يكن ميسورا دفعة واحدة . ويظهر من أوراق البردى المصرية أن أقدم بردية عربية ترجع الى عام ٧٠٩ م ؛ وأن آخر بردية مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ترجع الى عام ٧١٩ م ؛ وأن آخر بردية باليونانية ترجع الى عام ٧٨٠ م (١٧٧) . والجدير بالذكر أن الوليد هو الذى بدأ هذا التطور الهام .

والوليد نفسه هو الذى سن فى تلك السنة أنظمة الرقابة على سكان مصر ، وربما على سكان أجزاء أخرى من امبراطوريته . من هذا ، فرضه نظاما دقيقا لجوازات السفر ؛ فلم يسمح لمصرى بمغادرة موطنه المحلى ، فضلا عن مغادرته البلاد (١٧٨) . ومما يدل على أن بيزنطة كانت هى المقصودة بالذات ، فرض نظام للرقابة والتفتيش على جميع السفن النيلية وشنق من يوجد عليها من اليونانيين (١٧٩) . ومنذ ذلك الحين أصبحت الكلمة العليا فى حكومة مصر للشرطة ولم يعد للأجانب أو المصريين فيها أن يقوموا بأية حركة دون اذن الحكومة وعلمها . وأخيرا آخذ نظام البريد أو — بعبارة

أخرى — نظام المخابرات السرية الذى أنشأه معاوية ، يتسع شيئا فشيئا . حتى استحق رجاله أن يلقبوا بشياطين الدولة(١٨٠) .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد الوليد ، وضع تعليمات تقضى على المسيحيين واليهود باتخاذ زى يميزهم عن المسلمين ، فكملت بهذا الرقابة المفروضة (١٨١) . ومنذ ذلك الحين صارت للأمويين دولة عربية اسلامية منظمة على أساس من الوعى الذاتى وتجرى على خطة معادية لجاراتها . وهكذا انتهت تلك الأيام ، أيام التجارة الحرة التى عرفها القرن السابع . وأقبل على الناس عهد جديد .

وأجاب حكام بيزنطة على ذلك بفرض اشراف وضغط اقتصادى مماثل من جانبهم . والظاهر أنهم ضيقوا الخناق على رعاياهم الراغبين فى الانتقال للبلاد العربية . وتؤيد ذلك قصة أحد الحجاج الغربيين فى قبرص عام ٧٢٢ م . فبينما كان هذا الحاج فى طريقه الى الأراضى المقدسة ، قبض عليه حاكم قبرص البيزنطى وأودعه السجن عدة شهور زاعما أنه جاسوس عربى . وبعد صعوبات ومحاولات استطاع الحاج أن يقنع المسئولين ببراءته وأن يكمل رحلته (١٨٢) .

على أن الأمر الذى كان أكثر طرافة وأهمية فى هذا كله كان وسائل الحرب الاقتصادية التى استخدمها جستنيان الثانى ومن أتى بعده . ومن العسير تجميع أجزاء قصة ذلك الصراع بعضها الى بعض ، ولكن خطوطها الرئيسية ظاهرة ظهورا واضحا فى العودة الى نظام الرقابة على التجارة ؛ وهو النظام الذى جرى عليه جستنيان وخلفاؤه تجاه الدولة الساسانية ؛ والذى وجهت فيه التجارة الخارجية وطرق نقلها نحو خدمة الدولة ومصالحها والدفاع عنها . يضاف الى هذا استخدام القوة البحرية أداة فى هذا التوجيه .

ومن الممكن أن هذا النظام المبكر لم يعدل عنه عدولا تاما فى القرن

السابع ؛ فان ثمة اشارات الى استمرار استخدام تلك الرقابة فى ايطاليا وفى أيام التبادل التجارى مع بلاد الخزر . فالمشاكل والمنازعات التى قامت بين الخزر والبيزنطيين حول خرسون والقرم عامى ٦٨٦ ، ٦٨٧ والتى انتهت بانشاء نوع من الحكم الثنائى لذلك الميناء الهام ، تدل على أن بيزنطة اتبعت سياسة تقضى بتوجيه التجارة كلها نحو ذلك الميناء الواقع وحده تحت اشرافها الدقيق . ولم يرحب حلفاء بيزنطة الشماليون بهذا الحل ، غير أنه كان الحل الذى صادف — فيما يبدو — القبول آخر الأمر [١٨٣] .

على أن نظام الاشراف التجارى يظهر أوضح ما يكون ظهورا فى كل من جنوه ولونى خلال القرن السابع . ذلك أن جنوه قبل عام ٦٤٢ ، كانت مركزا تجاريا هاما على ساحل ليجوريا . فهى بحكم موقعها وسط الاقليم ، ترتبط ارتباطا مباشرا بسهل لمبارديا الغنى بطريق من انشاء الرومان يعتبر ممرا من ممرات جبال ابنين ، كما ربطها بروما فى الجنوب طريق ساحلى ممهد وبمدينة نيس واقليم بروفانس فى الغرب طريق رومانى آخر يحاذى الساحل . وظلت جنوه حتى عام ٦٤٢ م ، مركز الادارة البيزنطية لاقليم ليجوريا [١٨٤] . وفى ذلك العام سقطت جنوه ومعظم الاقليم الساحلى حولها فى يد ملوك اللمبارد [١٨٥] . ولكن ما الذى حدث وقتذاك ؟ حدث أن فقدت جنوه وما حولها كل ما لها من أهمية تجارية ؛ وغدت مدينة زراعية صرفا ، وساءت حال الطرق المؤدية اليها . وحصنت الوديان التى تصلها بالداخل لتحول دون هجوم الأعداء من البحر [١٨٦] . هذا وفى الشرق من جنوه تقع مدينة لونى الساحلية . وهى ميناء أقل أهمية ، وليست لها طرق صالحة تربطها بالداخل ، الا أنها بقيت فى يد البيزنطيين أو أنهم استطاعوا استعادتها سريعا زمن قنسطانز الثانى على الأرجح [١٨٧] . ثم ماذا كان مصير تلك المدينة ؟ كان مصيرها الرخاء والنمو ؛ وزيدت العناية بطريق تصل بينها وبين الأراضى

الداخلية . وهى الطريق الواصلة بين روما ولمبارديا وهذه الطريق تتجنب الساحل الا عند نقطة واحدة تنعطف عندها نحو لونى . وظلت لمدينة لونى بعض الأهمية التجارية ، بعد استيلاء ليوتبراند ملك اللمبارد عليها حول عام ٧٢٥ م وفى زمن شرلمان أيضا (١٨٨) .

ومعنى هذا كله واضح ؛ معناه أن البيزنطيين بما لهم من سيادة بحرية استغلوا قوتهم البحرية فى توجيه التجارة على طول ذلك الساحل الى المدينة التى تخضع لاشرافهم ، على حين منعوا ذلك عن جنوه والمراكز الأخرى التى لا تخضع لرقابتهم . بذلك أحالت القسطنطينية أرض اللمبارديين المعادية ، أرضا عديمة القيمة ؛ وفى الوقت ذاته نفخت من روحها فى المدن التى بقيت على الولاء لها وتحت اشرافها . ولما كان فى يدهم سر الحياة أو الموت الاقتصادى فانهم جعلوا منه أداة تخدم مصالحهم السياسية .

وهناك من الأسباب الوجيهة ما يدعونا الى الأخذ بأن بيزنطة استخدمت الحرب الاقتصادية فى عام ٧١٥ أو ٧١٦ أو ما يقربهما — يشد أزرها الأسطول — ضد أقاليم الدولة الأموية ، وضد بعض جيرانها الآخرين . ومن الأسباب التى تؤيد تحديد التاريخ السالف الذكر ، أنه فى سنة ٧١٥ ذاتها ، دخلت ميناء كوماكيو التابعة لبيزنطة والواقعة عند مدخل نهر پو — والأقدم وجودا من البندقية — فى مفاوضات مع ملك اللمبارد لتنظيم التجارة الشرقية بينها وبين ممتلكات اللمبارديين (١٨٩) . وهناك ما يدفعنا الى الظن بأن كوماكيو وقعت تحت اشراف بيزنطى دقيق باعتبارها منفذا لتجارة وادى نهر پو ؛ مثلما حدث للبندقية أواخر ذلك القرن . وأهم من هذا مفاوضات عام ٧١٦ لوضع معاهدة مع حاكم البلغار ومع أن هذه المعاهدة لم توضع موضع التنفيذ الا فى سنة ٧١٨ م ؛ فانها نظمت التجارة بين الشعبين تنظيما دقيقا ؛ فقررت نظاما لجوازات

السفر ونصت على حق البلغار فى استجلاب بضائعهم اما الى القسطنطينية أو الى سالونيك حيث كان التبادل التجارى يتم تحت اشراف دقيق[١٩٠] .

ويحملنا على الاعتقاد بأن نظام الرقابة هذا طبق أيضا على البلاد العربية ، ما نعلمه من أن آخر تسجيل لسفن التجارة الشرقية فى جزيرة فوس (Fos) [١٩١] كان فى سنة ٧١٦ وانه فى السنة نفسها تخلت مملكة اللمبارد عن استخدام البردى [١٩٢] . والظاهر أن بيزنطة أغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى أصدرتها . وعلى هذا لا يبدو غريبا أن تقلع فى العام التالى الى القسطنطينية عمارة بحرية اسلامية كبيرة . وسبب ذلك أن الحصار الذى فرضته بيزنطة أصبح بمثابة حكم بالاعدام على حركة النقل البحرى والحياة الاقتصادية لكل من مصر وسورية. وكان معنى فشل تلك الحملة الاسلامية ، بلوغ النظام البيزنطى أربه .

غير أن بيزنطة لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط ، هى مواد ضرورية لسلامة الاقتصاد البيزنطى . وعلى هذا فلم تحاول بيزنطة فرض حصار شامل اطلاقا . وخصصت ميناء أو اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضت عليهما رقابتها . ويذكر لنا الجغرافيون العرب أن طربيزون كانت الميناء الوحيد لدخول جميع التجارة العربية الى بيزنطة فى القرن السابع[١٩٣] ومع هذا فان قيام ذلك النظام قبل عام ٧١٦ أو بعده لا يعدو أن يكون مجرد استنتاج . فان طربيزون التى كانت مركز التجارة العربية البيزنطية ، قامت بعدة وظائف أخرى لحكام القسطنطينية . أولها : أنها أعطتهم ميناء فى البحر الأسود آمنا بعيدا عن الهجمات البحرية ، الثانى : أن البيزنطيين باتخاذهم تلك المدينة نهاية للتجارة العربية ، فانهم حولوا بهذا تجارة الحرير والتوابل التى

يحتاجون كثيرا اليها ، الى طريق العراق الذى لا يتهددهم منه خطر بحرى ، وابتعدوا بها عن سورية ومصر ، وهما المركزان البحريان لأعدائهم الأمويين .

ويحتمل أيضا قيام القسطنطينية نفسها بمهمة الثغر الثانى لاستقبال وخروج التجارة العربية . ففى ختام القرن التاسع أمدنا « كتاب المحتسب » The Book of the Prefect بالتعليمات التى تسير بمقتضاها تجارة العاصمة . ويتضح من تلك التعليمات أن البيزنطيين شجعوا عرب بلاد الغرب على المجىء الى مدينة القرن الذهبى ومنحوهم حقوقا وامتيازات تجارية خاصة[١٩٤] ؛ ولا يبعد أن تكون هذه هى الحال عام ٧١٨ م . ويؤيد هذا الزعم القول بأن ليو الثالث بنى مسجدا للمسلمين بالقسطنطينية .

على أن انشاء نظام رقابة تجارية بيزنطية شىء ، وتنفيذه على أعدائها العرب ورعاياها على حد سواء شىء آخر . ولكن نلاحظ وجود عاملين جعلا الرقابة أسهل مما لو كانت بدونهما :

الأول هو انتشار قوة بيزنطة البحرية فى البحر المتوسط منذ انتصارها فى عام ٧١٨ . والثانى هو امتلاك بيزنطة لجزر ذلك البحر ؛ اذ كونت جزر البليار وسردينية وكورسيكا سلسلة من الحواجز تجاه شواطىء اسبانيا وشمال افريقية . يضاف الى هذا أن اشراف بيزنطة على مضيق مسينا وعلى جانبى مدخل البحر الادرياتى حال دون مرور أية سفينة — كانوا يريدون منعها — من السفر من الغرب أو اليه .

وبجانب العاملين السابقين عامل آخر هو أن الطريق الممتدة على سواحل البحر المتوسط الجنوبية ، بين مصر وشمال افريقية ، شديدة الخطورة على الملاحة ، على الرغم من امكان استخدامها . وتقع هذه الطريق على طول خليجى قابس وسدرة حيث تهب رياح شمالية لا تعترضها كتل أرضية تقى أو تحد من هبوبها [١٩٥] . والواقع أن الموانى الصالحة لرسو السفن

قليلة جــدا فيما بين برقة وطرابلس . ولــذا كانت الطــريق المألوفة بين الشرق والغرب هى الطريق المارة بكريت وقبرص وعلى طول ساحل آسيا الصغرى الجنوبى . هذا الى جانب اســتخدام الطريق المباشرة بين كريت والاسكندرية . وفى استطاعة القــوة البحرية البيزنطية ، على طول هــذه السواحل كلها ، أن تقف فى وجه التجارة الذاهبة الى الغرب أو الذاهبة الى مصر وسورية وشمال أفريقية . واذا أمكن لسفينة أن تفلت من هذا الحصار عند مكان ما فهنالك فى أماكن أخرى يمكن منعها من الافلات مرة أخرى . وهذا الوضع مكن بيزنطة من محاصرة البحر المتوسط ، ســواء أكان فى وسطه أم على طول سواحل شمال أفريقية من جهة الغرب أو على الطريق الدائرية للتجارة بين الشرق والغرب .

وأظهر رعايا بيزنطة أنهم ربما كانوا أقل خضوعا للنظم المفروضة من الأعداء أنفسهم ، ذلك لأن التجارة مع الأقاليم الاسلامية ، كانت عصب حياتهم الاقتصادية . ولابد أن الحصار الاقتصادى الذى فرضته بيزنطة أثار الاحتجاج ، وقد نجد فى هذا تفسيرا لثورة حاكم صقلية عام ٧١٨ م . وقد تكون ثورة أسطول السكلاديز وأساطيل الأجناد الهللينية عام ٧٢٧ م . عاملا آخر نضيفه الى السخط من جراء قيام الحركة اللأيقونية . وربما ساعد هذا الحصار ذاته على انشقاق لونى وكورسيكا وانضمامهما الى اللمبارديين عام ٧٢٥ م ، وكذا پنتاپوليس وراڤنا عام ٧٣٥ م . والراجح أن هذا الحصار لم يكن تاما حتى حدوث المعركة البحرية الكبيرة عام ٧٤٧ م ؛ وبعد هذا التاريخ أصبح ذا فعالية كاملة .

واذا كان ما ذهبنا اليه من تفسير لموضوع الحصار الاقتصادى يبدو ظنيا ، فان نظرة الى شواطىء البحر المتوسط ، فى تلك الفترة تدل على أن الحصار لم يحدث فحسب ولكنه كان أيضا بالغ الأثر لحد يثير الدهشة .

خذ أولا الشرق : وفيه وجهت منذ البداية التدابير البحرية والاقتصادية كافة توجيها مباشرا ضد سواحل سورية ومصر ففقدت سورية مركزها التجارى حول ٧٥٢ ؛ وفقدت مدنها الساحلية أهميتها كذلك ، ولم تعد قادرة على حشد الأساطيل لأكثر من عشرين عاما[١٩٦] . وسقطت خلافة الأمويين عقب انكسارهم البحرى والاقتصادى على أيدى البيزنطيين . ثم انتقلت الخلافة الى العباسيين فأقاموا سلطانها فى العراق حيث تمر التجارة الهامة الى طريبزون . وهبطت دمشق الى مستوى المراكز الاقليمية ذات الدرجة الثانية[١٩٧] .

وكانت حال مصر أشد سوءا . ذلك أن الحشود العسكرية الأموية ، والحرب البحرية الاقتصادية البيزنطية استوفت نتائجها تماما ؛ ففى عام ٧٠٥م كانت مصر فى غاية الرخاء حتى ان خزانتها ضاقت بالأموال المتدفقة عليها. وفى عام ٧٢٥ م قام الأقباط بأولى ثوراتهم الكبرى ، واستمرت الثورة أكثر من قرن ، أخمدت فى النهاية بصعوبة[١٩٨] . ومنحت القبائل العربية التى أحضروها من بلاد العرب أرضا فى اقليم النوبة . والغالب أنهم أنزلوهم هناك كحاميات للحيلولة دون قيام القبط بالثورات[١٩٩] . يضاف الى هذا اعادة الكنائس الى رجال الدين الملكانيين ووقف الاضطهاد الواقع عليهم[٢٠٠] . وربما حدث ذلك لا عقابا للقبط بل لأن ليو الثالث اللاأيقونى جعل الملكانيين أعداء للقسطنطينية فلم يعودوا خطرا يتهدد الحكام الأمويين . وفى عام ٧٣٩ قامت ثورة قبطية أكثر عنفا وحدث فى نفس الوقت — ربما عن تدبير — هجوم من أقباط النوبة وغارة بحرية بيزنطية كبيرة على الدلتا . وأخمدت تلك الثورة أيضا بصعوبة كبيرة [٢٠١] . وفى ٧٤٥ م حدثت ثورة أخرى قامت بها فى هذه المرة القبائل العربية المقيمة فى الدلتا احتجاجا على الضرائب الباهظة المفروضة عليها[٢٠٢] .

وكان الرأى السائد أن ثورات القبط هذه كانت فى جوهرها ذات طابع دينى. ولكن يبدو أنها تدل على خصائص أخرى(٢٠٣). ذلك أن القبط كانوا زراع مصر وكانوا أيضا تجارها ؛ وقد أضرت بهم تبعا لذلك ، الضرائب الباهظة وفقدان الرخاء. أليس من المنطق أن ننظر الى هذه الثورات على أنها حدثت نتيجة للحصار الاقتصادى البحرى الذى فرضته بيزنطة على مصر ؟ والا فلماذا ثار القبط على حكامهم العرب فجأة وقد كانوا مخلصين لهم منذ الأيام الأولى للفتح ؟

واذا تحولنا الى شمال أفريقيا رأينا تكرر هذه الأحداث هناك. ففى عام ٧٤٠ م بلغت الأحوال الاقتصادية غاية التدهور لدرجة بدت معها الضرائب الاسلامية نوعا من الاغتصاب. يضاف الى هذا ، استياء البربر ولا شك من الامتيازات الاجتماعية والسياسية الممنوحة لحكامهم العرب ، واصرار هؤلاء الحكام على عدم السماح للبربر بنوع من المساواة بهم. ونتج عن ذلك قيام ثورة الخوارج الكبرى فى شمال أفريقية التى ضعضعت الحكم العربى هناك من الأساس لمدة تزيد على ستين عاما(٢٠٤). ومن الطريف أن نلاحظ أن الثورة لم يقتصر قيامها على البربر بوصفهم كذلك وانما قامت بها الطبقات الفقيرة فى مدن شمال افريقية. وفى هذا اشارة هامة الى الجذور الاقتصادية لتلك الاضطرابات(٢٠٥). ونرى انعكاسات لهذه الظروف الاقتصادية السيئة فى اسبانيا حيث توالت ثورات البربر الواحدة اثر الأخرى خلال تلك الأعوام(٢٠٦).

واذا كانت تلك الأحوال هى التى سادت العالم الاسلامى شرقا وغربا ، أيكون غريبا اذن أن تعانى فرنسا كسادا اقتصاديا بعد عام ٧١٦ ، وهى البلد الذى وقف موقفا سلبيا فى الميدان التجارى ، واعتمد فى حياته الاقتصادية على تجار سورية ومصر ؟ لقد حدث منذ ذلك التاريخ أن لم يعد يفد

السوريون على موانيها الجنوبية ، وقلّ التجار النازحون اليها من الأماكن الأخرى ، وتخربت المدن الجنوبية بفعل الكارولنجيين عام ٧٣٩ ولم يجدد بناؤها[٢٠٧] . وفى منتصف ذلك القرن ضربت العملة الذهبية للمرة الأخيرة ولمدة خمسين عاما[٢٥٨] . وهجر البحر المتوسط الى حد كبير بعد أن كان مجاز التجارة الى مصب الرون ؛ وانتهى عهد قديم بالنسبة للغرب وبدأ عهد جديد . ونجت ايطاليا وحدها من هذه الضائقة لأن بعض أراضيها كان يخضع للسيطرة لبيزنطة ؛ فظلت منافذها البحرية متصلة بالقسطنطينية على الأقل . ومع ذلك فان ما جرى على ايطاليا كان استثناء من الحالة العمومية . وفى الجملة شهد منتصف القرن الثامن دولة بيزنطية تسود عالم البحر المتوسط المقوض الأركان .

رأى المؤرخ پيرين ما حل بالبحر المتوسط من خراب ، ولكنه أخطأ التحرى عن المسئول عن ذلك . كان البيزنطيون لا العرب كما زعم ، هم الذين دمروا الوحدة القديمة التى ربطت أجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض[٢٠٩] . ذلك أن بيزنطة استخدمت فى حرب الحياة أو الموت التى كانت بينها وبين الأمويين جميع ما لديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لاحراز النصر فى المدة بين ٧١٥—٧٥٢ م . وتكون بيزنطة قد دمرت بعملها هذا ، الوضع الاقتصادى القديم لعالم البحر المتوسط ؛ وهيأت المسرح لظهور حياة أخرى جديدة فيه .

حواشى الفصل الثالث

١ – Hitti op. cit., p. 153

٢ ـ الكلمات العربية المستخدمة فى الاصطلاحات البحرية والملاحية استعيرت من اليونانية وبعضها كلمات برية أعطيت معانى بحرية وملاحية جديدة .

٣ – Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages. New York (1901), p. 21.

٤ ـ المرجع السابق ،

Wiet, G. L'Egypte Arabe (Paris 1937), p. 23.

٥ – Hitti op. cit., p. 167.

٦ – Al Baladuri The Origins of the Islamic State trans. P.K. Hissi (New York 1919) I, 431-32.

٧ – Theophanes, p. 525 Paul the Deacon Hist. Mics (Pat. Lat. ed. Migne XCV), 1049.

٨ – Amari Storia dei Musulmani di Sicilia new ed. (Catania 1933) I, 195-96. Marçais Berbérie, p. 64.

٩ – Al-Baladuri, p. 236.

* تذكر بعض المراجع أنه تمثال من البرونز لاله الشمس « هيليوس » كان قائما عند ميناء رودس ويعتبر أحد العجائب السبع فى العالم القديم . بنى بين عامى ٢٩٢ ـ ٢٨٠ ق . م . وسقط بفعل زلزال عام ٢٢٤ ق . م . (المترجم)

١٠ ـ المرجع السابق ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ ،

Michael the Syrian Chronicle (ed. Chabot) II, 441 f.

١١ – Lane-Poole op. cit., p. 23. Theophanes, p. 528. Canard, M. "Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la légende" in Journal Asiatique new ser. (1925-26) CCVII, 63-67. Al-Kindi The Governers and Judges of Egypt ed. Guest, p. 13.

١٢ – Hitti op. cit., pp. 178-86, 199.

١٣ – Vernadsky Ancient Russia, p. 247.

١٤ – Theophanes, p. 532.

١٥ - En Nuwairi in Journ. Asiat. (1841), p. 105-09. Ibn Al Hakim (trans. by de Slane) in Hist. des Berbères. Appendix I, 362-63.

١٦ - ابن عبد الحكم Ibn Al Hakim , trans. Gateau, p. 53.

١٧ - Paul the Deacon op. cit. p. 199. Chron. of Fredegarius in MGH. II, 3.

١٨ - Diehl Exarchat, p. 45-46.

١٩ - Paul the Deacon op. cit., p. 199-200.

٢٠ - المرجع السابق ص ٢١٩ - ٢٢٥ .

٢١ - Marçais Berbérie, p. 31.

٢٢ - Carta-Raspi op. cit., p. 65-80.

٢٣ - Paul the Deacon op. cit., p. 217-26.

٢٤ - Al Baladuri, p. 159. Theophanes, p. 554.

٢٥ - Al Baladuri, p. 162.

٢٦ - المرجع السابق ص ١٤٨ .

٢٧ - المرجع السابق ص ١٦٢ .

٢٨ - Wiet op. cit., p. 28

٢٩ - Ibn Idhari ʿBayan I, 13. Amari Storia I, 215-22.

٣٠ - Amari Storia I, 237-9. Marçais Berbérie, p. 31.
ويلاحظ هنا أن موقع القيروان الداخلى معناه ألا تكون المدنية فى متناول البحرية البيزنطية .

٣١ - Theophanes, p. 532-33. Masudi Prairies d'Or, trans. Meynal, V, 62.

٣٢ - Al Kindi, p. 38. Wiet op. cit., p. 38.

٣٣ - Al Kindi, p. 39. Michael the Syrian Chron. II, 455.
وجاءت هذه القصة بتفصيل فى : Canard, M. op. cit., p. 77-80.
وعن النار الاغريقية انظر : Zenghlis, C. "Le Feu Greçois" in Byzantion (1932) VII, 265-88.

٣٤ - Hill Hist. of Cyprus I, 286.

٣٥ - Al Baladuri, p. 237.

٣٦ - Al Bakri Description de l'Afrique Septentrionale trans. de Slane (Algiers 1913), p. 151. Marçais op. cit., p. 29-33.
درج المؤرخون الاقدمون على تجاهل الدور الذى قام به الاسطول البيزنطى وأثر ذلك فى هزيمة عقبة وفشله ، فلقد كان عاملا حاسما فى الموقف أكثر من صمود ومقاومة البربر فى الجهات الداخلية .

Amari, Storia I, 240-41.
وكان كسيلة يقود جيشا مختلطا من البربر والروم أثناء معاركه الناجحة .
Nuwairi, p. 130-31.

Runciman Byzantine Civilization, pp. 42, 116. – ٣٧

Hill Cyprus I, 287. – ٣٨

Marçais, Berbérie, p. 34-35. – ٣٩

Ibn al Athir Annales du Magreb et de l'Espagne trans Fagnan (Algiers 1901), p. 27. – ٤٠

Paul the Deacon Hist. Misc. (Pat. Lat ed. Migne XCV). Tabari in Journ. of Hell. Studies XVII, 129. Al Baladuri, p. 203. Theophanes, p. 555. – ٤١

Theophanes, p. 558. Hitti op. cit., p. 117-19 – ٤٢

Constantine Porphyrogenitus De Administro Imperio c. 47 p. 215 Hill. Cyprus I, p. 89-90. – ٤٣

Vasiliev Goths in the Crimea, p. 81-84. – ٤٤

A Kairouani Hist. de l'Afrique trans. by Pelissier and Remusat in Explorations Scientifiques de l'Afrique (Paris 1845) VII, p. 53. – ٤٥

Ibn Al Hakim, trans. de Slane Hist. des Berbères, p. 73-74. Ibn Al Athir, p. 32. – ٤٦

Diehl L'Afrique Byzantine, p. 385-86. Theophanes, p. 566-567. – ٤٧

Nuwairi in de Slane. Hist. des Berbéres I, 344. – ٤٨

At Tigani in Journ. Asiat. ser. IV (1852) XX, 65-71. Al Kairouani, p. 120. – ٤٩

Al Bakri in Notices et extraits des MSS XII, 50. – ٥٠

Amari Storia I, 248. – ٥١

Pseudo Ibn Qutaybah in Gayangos The History of the Mohammedan Dynasties in Spain I, Appendix LXVII. At Tigani, p. 69. – ٥٢

Carta-Raspi op. cit., p. 114-115. – ٥٣

Psuedo Ibn Qutaybah in op. cit., p. lxvi. – ٥٤

Al Kairouani, p. 14-15 and 57. – ٥٥

Ibn Idhari, Bayan ed. Dozy II, 30. – ٥٦

Ibn Al Athir, p. 51. — ٥٧

Ibn Khaldun, Hist. des Berbères trans. de Slane I, 136.— ٥٨
Dozy : Recherches sur la Littérature d'Espagne au Moyen Age 3rd ed. (Leyden 1881) I, 42-57.

٥٩ ـ المرجع السابق .

Brooks, E.N. "The Relations between the Empire and Egypt— ٦٠
from a New Source" in Byz. Zeit. (1913) XXII, 381-2.

Vasiliev, Byzantine Empire, p. 288-89. — ٦١

ويوجد هذا الموضوع كاملا فى : Canard, M. op. cit., p. 80-102.

Al Kindi ; p. 70. — ٦٢

Wiet op. cit., p. 56 — ٦٣

Hill Cyprus I, 286. — ٦٤

Nuwairi II, 252 — ٦٥

Theophanes, p. 611 — ٦٦

Runciman : Byzantine Civilization, pp. 116-17,121-23 — ٦٧

Halphen, L. : Les Barbares (Paris 1930), p. 184-85. — ٦٨

Pirenne, op. cit., p. 218-21. — ٦٩

"Lunigiana" in Encyclopedia Italiana (1934) XXI, 663. — ٧٠

Theophanes, p. 631. — ٧١

Diehl, Exarchat, p. 410. — ٧٢

Hazlitt, W.C. The Venetian Republic (London 1900) I 23-24.— ٧٣
Cessi, R. Storia della Republica di Venezia (Milan 1944) I, 13-14.

* ـ وكلمة Pentapolis معناها المدن الخمس . وتقع الايطالية منها على البحر الأدرياتى (ق ٥ ـ ١١ م) وتشمل : ريمينى ـ انكونا ـ فانو ـ بيزارو ـ سينجاليا ، وتعتبر مراكز للحضارة البيزنطية فى ايطاليا فى تلك المدة . (المترجم) .

٧٤ ـ المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٩ .

Theophanes, p. 623. — ٧٥

٧٦ ـ لكندى ص ٧٩ .

Brooks. E. N. op. cit., p. 381-82. — ٧٧

Theophanes, p. 639. Al Baladuri, pp. 238, 241. — ٧٨

٧٩ – Amari Storia I, 293-301

٨٠ – Carta-Raspi op. cit., p. 119-23

٨١ – Amari op. cit., p. 295-300

٨٢ – Theophanes, p. 631. Paul the Deacon Hist. Misc. (Pat Lat. ed. Migne. XCV), col. 1095.

٨٣ – Brooks, E.N. op. cit., p. 385-91

٨٤ – Hitti op. cit., p. 602

٨٥ – Zenghlis, C. "Le Feu Greçois" in Byzantion (1932) VII p. 265-75.

٨٦ – هذا مجرد زعم ولكنه منطقى للغاية اذا فهم فى ضوء الظروف . وفى عامى ٦٩٨ ، ٧٢٧ عندما أبحرت أساطيل التيمات – فى ثورتها ضد العاصمة – فانها لم تكن مجهزة بالنار الاغريقية على حين كان الاسطول الامبراطورى مجهزا بهذا السلاح . ويصدق الأمر كذلك فى ثورة توما الصقلبى أوائل القرن التاسع وعلى هذا يمكن القول أن الاسطول الامبراطورى كان وحده ، هو المجهز بهذا السلاح المخيف .

٨٧ – Gsell, S. "Vieilles exploitations minières dans L'Afrique du Nord" in Hesperides (1928).

٨٨ – انظر الفصل الأول عن المفاوضات بين بطريق الاسكندرية والبابا جريجورى الأكبر ، والتى حاول فيها بطريق الاسكندرية انقاذ ما يحتاج اليه من الخشب من تلك الجهات . وفيما يتعلق بمراكز الامداد بالخشب فى ايطاليا خلال القرن الخامس انظر : Sidonius op. cit., p. 99-100.

٨٩ – Wiet Egypte Arabe, p. 174-75.

٩٠ – ارجع الى الفصل البديع الذى كتبه E. Darko عن تكوين التيمات قبل عهد الايسوريين وعنوانه :

"La militarizzazione dell'Impero Bizantino" in Studi Byzantini e Neoellenini (1939) V.

٩١ – Bury, J.B. The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London 1909), p. 108-09.

٩٢ – Diehl Exarchat, p. 197.

٩٣ – يبدو أن هذا مجرد زعم أيضا .

٩٤ – كان هناك جيش خاص بافريقية وسردينية وجزر البليار أواخر القرن السابع وربما ألحق بهذا الجيش أسطول بحرى

Carta-Raspi op. cit., p. 88-98.

٩٥ – Amari Storia I, 175 Vasiliev, Byzantine Empire, p. 278

٩٦ ـ ومن الامثلة المتأخرة لهذا النظام ، امداد السفن التى طلبها جريجورى حاكم صقلية البيزنطى من موانى نابلى وأمالفى وجايتا عام ٨١٣ ، ليدفع بها هجمات المسلمين .

Codex Carolinos, ed. Cenni letter 3 of Pope Leo III.

٩٧ ـ انظر الملحوظة السابقة ، وكذا ما تقرر على البندقية من امداد عام ٨٠٦ ـ ٨٠٧ فى :

Bury "Byzantine Naval Policy in Western Waters" in Centenario della nascita di Michele Amari (Palermo 1910) II.

٩٨ – Bury Administrative System, p. 108.

٩٩ – Theophanes, p. 631.

١٠٠– Bury "Byzantine Naval Policy" in op. cit.,

١٠١– Wiet op. cit., p. 39.

١٠٢ ـ المرجع السابق ص ٣٨ .

١٠٣ ـ كتلك التى حدثت ضد قبرص عام ٦٤٨ ، وفى مناسبات أخرى غيرها .

١٠٤– Canard, M. op. cit., p. 80-102

١٠٥– Wiet op. cit., p. 175.

١٠٦ ـ المرجع السابق ص ١٧٦ .

١٠٧– At Tigani, p. 65-71. Al Kairouani, p. 120.

١٠٨– Wiet op. cit., p. 175.

١٠٩– Becker, C. H. in Cam. Med. Hist. (Cambridge 1913) II, 352.

١١٠ ـ تشير حوليات الطبرى الى انتقام واستمرار هجمات قوات الحدود العربية على الحدود البيزنطية . أنظر :

Hitti : op. cit., p. 199-200.

١١١– Molinier and Zotenburg in Hist. Gén. de Languedoc new ed. IX, 551-52.

١١٢ ـ المرجع السابق ص ٥٥٣ ـ ٥٥٦ .

١١٣– Isadore Pacensis Chron. in Recueil Hist. de France II, 721

١١٤– Codera Narbono, Gerona y Barcelona bajo la Dominacion Musulmana(Institut d'Estudi Catalani Annual), 1909-10, p. 195-96.

١١٥ ـ المرجع السابق .

١١٦- Lot. F. Pfister, C., and Ganshof, F. Les Destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888 (Paris 1928), p. 398-99.

١١٧ ـ المرجع السابق .

١١٨- Paul the Deacon Hist. of the Langobards, p. 183.

١١٩- Molinier and Zotenburg op. cit., p. 554.

١٢٠- Codera op. cit. p. 197-8.

١٢١- Lot, Pfister, and Ganshof op. cit., p. 413-15.

١٢٢- Pirennc op. cit., p. 156-57.

بيرين وغيره ينظرون مغايرة الى تلك الحوادث . ان معركة بواتيه لم تكن حاسمة اطلاقا ، وان الصراع بين العرب والفرنجة على جنوب فرنسا لم يكن حاسما كذلك ، وان المعركة البحرية التى حدثت عند قبرص عام ٧٤٧ ، هى المعركة التى تستحق اهتماما أكثر . على أنها لم تلق اهتماما مناسبا من المؤرخين .

١٢٣- Hitti op. cit., p. 217.

١٢٤- Lopez "Mohammed and Charlemagne A Revision" in Speculum (1943), XVIII, 21.

١٢٥- Grohman, A. Allgemeine Einfuhrung in der Arabischen Papyri (Vienna 1924), p. 77-92. The Kurrah Papyri from Aphrodite in the Oriental Institute (Chicago 1936), p. 70-92.

١٢٦- Grohman "Tiraz" in the Encyclopedia of the Islam.

١٢٧- Hitti op. cit., p. 117.

١٢٨- Al Baladuri, p. 263.

١٢٩- Hitti op. cit., p. 240-78.

١٣٠- المرجع السابق ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

١٣١- Al Baladuri, p. 348. History of the Patriarchs of the Coptic Church at Alexandria ed. Evarts (Paris (Paris 1907), p. 494-97.

١٣٢- Al Baladuri, pp. 180, 189, 194, 195, 227, 232.

١٣٣- At Tigani in Jour. Asiat. 4th. ser. (1853), p. 125-126.

١٣٤- Dichl Afrique Byzantine, p. 59.

١٣٥- Al Bakri, p. 97.

١٣٦- Charanis "The Hellenization of Sicily" in The Amer. Hist. Rev. (1946) LII, 80-1.

١٣٧- Al Baladuri, pp. 148, 162, 203, 253.

١٣٨ – يبدو أن Lynn White, Charanis قد بالغا كثيرا فى تقدير مجال هجرات اليونانيين من تلك الجهات خلال القرن السابع ٠ انظر :

Charanis op. cit., and White Lynn "The Byzantinization of Sicily" in Amer. Hist. Rev. (1936) XXXXII.

١٣٩– Marçais Berbérie, p. 29-31.

١٤٠– Weil Geschichte der Chalifen (Manheim 1846) I, 119-29 Lane-Poole, Egypt, p. 20.

١٤١– Chron. Paschale ed. Dindorf (Bonn 1832) I, 711.

١٤٢– Vernadsky, G. "Sur l'origine de la loi Agraire" in Byzantion (1925) IV, 169-80. Ostrogrovsky, G. "Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages" in Cam. Econ. Hist., I.

١٤٣– Charanis, P. "The Social Structure of the Later Roman Empire" in Byzantion (1944-5) XVII, 50-51.

١٤٤– Ashburner, A. The Rhodian Sea Law , (Oxford 1909)

١٤٥– Wiet op. cit., p. 28.

١٤٦– Lane-Poole, Egypt, p. 24-26.

١٤٧– Wiet op. cit., p. 39

١٤٨– المرجع السابق ص ٤٤ ٠

١٤٩– Hitti op. cit., p. 229-31.

١٥٠– Hill Cyprus I, 286-87.

١٥١– Lombard "L'or Musulman du VIIe au XIe siècle" in Annales (1947) II, 144-46.

١٥٢– Vernadsky Ancient Russia, p. 220-22.

١٥٣– Pernice, A. L'Imperatore Eraclio, p. 152-55.

١٥٤– Lopez "Mohammed and Charlemagne — A Revision" in Speculum (1943) XVIII.

أورد لوبيز أحسن الآراء عن استمرار التجارة المستقرة نسبيا فى حوض المتوسط خلال القرن السابع ، وذلك فى مقاله السابق ذكره ٠

١٥٥– Diehl : L'Afrique Byzantine, p. 558-60. Ibn Idhari Bayan I, p. 5.

١٥٦– Marçais : Berbérie, p. 23-25.

١٥٧– Diehl : Exarchat, p. 279-80

١٥٨– المرجع السابق ص ٢٧٨ – ٢٧٩ ٠

١٥٩ ـ المرجع السابق ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

١٦٠- Pirenne op. cit., p. 89. Heyd op. cit., p. 89-92

١٦١- Pirenne op. cit., p. 93-94.

١٦٢ ـ المرجع السابق ص ٨٧ ، ٩٤ ـ ٩٥ .

١٦٣- Lombard op. cit., p. 143-44.

١٦٤- Pirenne op. cit., p. 84-85.

١٦٥ ـ المرجع السابق ص ٨٥ .

١٦٦- Heyd op. cit., p. 21-22

١٦٧- Nuwairi in de Slane Hist. des Berbères I, 344.

١٦٨- Cont. de Fred. in MGH Script. Rer. Merov. II, 168-93.

١٦٩- Hitti op. cit., p. 117

١٧٠- Lopez op. cit., p. 21-28

١٧١- Theophanes, p. 558

١٧٢- Zonaras (ed. Bonn) XIV, 229-31. Cedrenus (ed. Bonn) I, 772.

١٧٣- Diehl Exarchat, p. 279-80.

١٧٤- Const. Porph. De Admin. Imp., c. 47, p. 215.

١٧٥- Maqrizi : Kitat, ed. Bourniant in Mem. de la Mss. Franc au Caire (1900), p. 633-35.

١٧٦- Hitti op. cit., p. 217

١٧٧- Wiet op. cit., p. 47-49

١٧٨ ـ المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٦ .

١٧٩ ـ المرجع السابق

١٨٠ ـ المرجع السابق ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

Hitti op. cit., pp. 195, 322-25.

١٨١- Hitti op. cit., p. 234.

١٨٢- Pilgrimage of St. Willibald in Tabler et Molinier I 256.

١٨٣- Vasiliev Goths in the Crimea, p. 81-84.

١٨٤- Lopez, R.S. "Aux Origines du Capitalisme Génois" in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. VI, 430-31.

١٨٥- Paul the Deacon, Hist. of the Langobards, p. 199.

لم تكن لوني ، على قول پول ، ضمن فتوحات عام ٦٤٢ م .

١٨٦- Lopez op. cit, p. 431-2.

١٨٧- "Lunigiana" in Encycl. Ital. (1934) XXI, 663.

١٨٨- المرجع السابق .

١٨٩- Pirenne op. cit., p. 176.

١٩٠- Theophanes, p. 775.

١٩١- Heyd op. cit., p. 89-92

١٩٢- وهذا هو ما فعلته ألمانيا حول ذلك التاريخ تقريبا .
Lopez : Mohammed and Charlemagne. p. 26-28.

١٩٣- Lopez : Silk Indusry in the Byzantine Empire. in Speculum (1945) XX, 26-7. Al Istakhri, trans. Defremery in Jour. Asiatique (1849) XIV, 462. Masudi : Prairies d'Or, trans. Meynal (Paris 1861) II, 3.

* ترجم هــذا الكتاب الى اللغة العربية الدكتور الباز العرينى ونشره فى مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٩ عدد مايو سنة ١٩٥٧ . (المترجم)

١٩٤- Book of the Prefect V, 1-2, 4-5 IX, 6; X, 2. Al Istakhri op. cit., p. 462.

١٩٥ ـ أشار لخطورة هذا الساحل . Procopius VII, 371-3.

١٩٦- Hill Cyprus I, 291.

١٩٧- Kremer Culturgeschichte des Orients I, 183

١٩٨- Wiet op. cit., p. 56-58.

١٩٩ ـ المرجع السابق ص ٦١ ـ ٦٣ .

٢٠٠ ـ المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٥٩ .

٢٠١ ـ المرجع السابق .

٢٠٢ ـ المرجع السابق .

٢٠٣ ـ لم يعر كل من حتى وفييت ولين پول اهتماما للجانب الأقتصادى لهذه الثورات . ويفضلون ارجاعها لسياسة التمييز الدينى التى ســار عليها عمر بن عبد العزيز . انظر : Hitti, op. cit., p. 234.

٢٠٤- Ibn Khaldun Hist. des Berbères I, 216-17, 237 Nuwairi in de Slane Hist. des Berbères I, 319.

٢٠٥ ـ يؤكد جوتييــــه الدوافع الاقتصادية لهذه الاضطرابات ويوضح الدور الذى لعبته المدن فى تلك الاضطرابات .
Gautier, E.F. Les Siècles Obscurs du Margreb (Paris 1927) p. 103.

٢٠٦- Lévi — Provençal Histoire de l'Espagne Musulmane (Cairo 1944), p. 24-38.

٢٠٧- Buckler, F. W. Harunu'l Raschid and Charles the Great (Cambridge, Mass. 1927), p. 7.

٢٠٨- Prou, M. Catalogue des Monnaies Carolingiennes de la Bibliothèque Nationale (Paris 1896).

٢٠٩ ـ بينما يشرح بيرين ما سماه حصار المسلمين الاقتصادى لأوربا فانا نجده يبين بجلاء ، فى كتابه « محمد وشرلمان » ان كل ما كان يشغل بال شرلمان ويستحوذ على اهتمامه ، كان علاقاته مع بيزنطة . وان أقوى الاساطيل أثرا فى البحر المتوسط فى تلك المدة ، هو الاسطول البيزنطى (ص ١٦٢ ـ ١٦٣) ولست أدرى لماذا لم يوصله هذا الكلام الى استخراج النتيجة المنطقية لهذا . وكان رانسيمان المؤرخ الوحيد الذى أدرك أن قوة بيزنطة البحرية وجهت التجارة فى تلك الفترة طبقا لما تريد ، ومع هـذا فانه لم يعط هذه الحقيقة حقها من التأكيد .

Runciman: Byzantine Civilization, p. 166-167.

الفصل الرابع

السيادة البيزنطية

(٧٥٢ - ٨٢٧ م)

كان عالم البحر المتوسط فى حال شديدة من الاعياء ، عندما شاهدت سنة ٧٥٢ م آخر انتصارات البيزنطيين على الأمويين . وبرهنت القسطنطينية فى صراعها البحرى الاقتصادى العنيد على جدارتها بالسيادة على مياه البحر المتوسط . وهكذا أخضعت منافستيها القديمتين على تلك السيادة وهما سورية ومصر . ولكن القسطنطينية بفعلتها هذه عملت هى والعرب على تحطيم وحدة العالم الرومانى ، فانتقلت الخلافة الاسلامية من اقليمى البحر المتوسط وهما سورية ومصر ، قاعدتى الدولة الأموية ، الى اقليم داخلى فى غربى آسيا ، اذ صارت بغداد العاصمة الجديدة للخلافة العباسية ؛ وهى بعد مدينة فارسية فى أفكارها وثقافتها وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى لا صوب البحر المتوسط . فحق « لأينهارت » أن يلقب هارون الرشيد بملك بلاد فارس ، كما حق لثيوفانس أن يصف العباسيين نفس الوصف .

وفى الغرب شعر الفرنجة الى حد ما ، بتصدع وحدة البحر المتوسط ، اذ استطاعوا التفوق على المسلمين فى اسبانيا فكسبوا لدولتهم الساحل من جبال البرانس حتى ايطاليا كسبا لا منازع لهم فيه . وانتصروا اذن كما انتصر أباطرة القسطنطينية ، ولكنه كان نصرا أجوف . فهذا الساحل

بمدنه المحرقة ، كان يطل على بحر نضب معين حياته الاقتصادية فلم يعد يمد مدنه بخير يذكر . ولم يعد يتوافد على شواطئه التجار السوريون الذين ربطوا فيما مضى بين مدنه وبين مدينتى الاسكندرية وانطاكية العظيمتين . وتحول مركز القوى فى دولة الفرنجة الى الداخل بعيدا عن البحر المتوسط ، كما حدث تماما فى العالم الاسلامى . وذهبت أملاك الدولة السالية الميروفنجية التى تركزت فى فرنسا ، الى الدولة الريبورية الكارولينجية الأكثر جرمانية فى نشأتها . واستقرت هذه الدولة الجديدة فى اكس — لا — شاپل لا فى باريس ، وولت وجهتها صوب الرين والموزيل وبحر الشـمال لا صوب الرون والسين واللوار[1] . وبدأت أوربا تظهر فى الوجـود على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى الغرب .

كانت لبيزنطة ، لمدة نصف قرن آخر تقريبا بعد عام ٧٥٢ م ، أكبر قوة بحرية فعالة فى مياه البحرين المتوسط والأسود . واحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧ م ؛ ولم يعد هناك منافس للأسطول الامبراطورى بالمعنى الصحيح فى القسطنطينية ، ولا لأساطيل الأجناد فى بحر ايجه وكبيرها يوتس وصقلية . وسيطرت بيزنطة ، الى حد كبير ، على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار وتحكمت فى المضايق ذات القيمة الحربية الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغـرب وصـار اشراف القسطنطينية البحرى دقيقا وكاملا بفضل قيام أسطولها بدورات تفتيشية على سواحل الأعداء ، وحيلولته دون استخدام العرب المنافسين لبيزنطة لمياه البحر المتوسط .

والأدلة على صحة هذا الرأى كثيرة جدا . فمصر وشمال أفريقية بقيتا عاجزتين بحريا خلال خمسين سنة تقريبا ، وتخلت مصر نهائيا عن قوتها البحرية[2] ، وضاعت على شمال أفريقية جزيرة قوصرة ، ولم تعد تقوم بأى

نشاط بحرى من قواعدها فى تونس[٣] . هذا الى جانب أن المسلمين هناك تحركوا جنوبا صوب السوس بعيدا عن انتقام قوات صقلية البحرية المغيرة[٤] . ويتعرض مؤرخ عربى هو ابن الأثير لهذه الفترة من تاريخ المغرب بالعبارة الآتية :

« ... وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها ، وربما طارقوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم[٥] » . وما انشاء الحصون فى طرابلس عام ٧٩٦ م وبناء الرباطات فى منستير وفى أماكن أخرى على الساحل الأفريقى ، الا دليل على مدى أثر تلك القوة البحرية حينذاك[٦] . أما بالنسبة لمصر والشرق فان ثمت ما يدل على تشابه الحال وذلك من عبارة ينسبها المسعودى لهارون الرشيد ، مؤداها أن هارون الرشيد حين فكر فى حفر قناة فى برزخ السويس عاد فرفض تلك الفكرة على أساس احتمال ابحار السفن البيزنطية عبر تلك القناة للاغارة على المدينتين المقدستين : مكة والمدينة[٧] .

وفى ذلك التاريخ كان البلغار والفرنجة الكارولنجيين على قدر واحد من العجز بازاء قوة القسطنطينية البحرية . ففى عام ٧٦٣ م سير قسطنطين الخامس جيشا بطريق البحر بلغ مصب الدانوب وهاجم أعداءه من الخلف وأوقع بهم الهزيمة[٨] . وفى عام ٧٧٣ م نال نصرا آخر بعد أن أعد عمارة بحرية مكونة من ٢٠٠ سفينة ليساعد بها جيوشه على النحو السابق[٩] . وفى عام ٧٨٧ رأى شرلمان — الذى خرج منتصرا من حروبه فى شمال ووسط ايطاليا — أن جهوده التى بذلها فى جنوب دوقية سپوليتو Spoleto ضاعت كلها بفعل قوة بيزنطة البحرية[١٠] .

والواقع أن أقليمين صغيرين وقت ذاك هما اللذان وجدت بهما قوة بحرية غير قوة بيزنطة . هذان الأقليمان هما الأندلس وسورية . ومع ذلك فان القوة البحرية فى كل منهما نظمت على أساس محلى . فيبدو مثلا أن قوة

اسبانيا البحرية تكونت من اقليم صغير بين طركونة وبين طرطوشة وهو جزء من امارة والى سرقسطة المكلف بحماية حدود الأندلس ضد هجمات الكارولنجيين . وظهر أن تلك القوة البحرية لم تستخدم حتى عام ٧٩٨ سوى ثلاث مرات فقط ؛ فقد أغارت على مارسيليا عام ٧٦٨[١١] ، وهددت ايطاليا عام ٧٧٨[١٢] ، وغزت ناربون عام ٧٩٣ م [١٣] . ومما تجدر ملاحظته أن الأمويين فى الأندلس وجهوا هجماتهم البحرية فى ذلك الوقت وما بعده ، ضد امبراطورية الفرنجة لا ضد الامبراطورية البيزنطية . اذ نشب فى تلك الأيام صراع عنيف بين هاتين القوتين حول السيطرة على ايطاليا ؛ وتلك حقيقة على جانب كبير من الأهمية[١٤] . فهى تدل على أن القوة البحرية الأندلسية عملت وقتذاك ضد الفرنجة — سواء عن طريق التحالف أم عن طريق التراضى — مع حكام القسطنطينية الذين سرهم طبعا أن يتحول عرب الأندلس لملاقاة أعدائهم الفرنجة .

أما الأسطول السورى الذى أخذ ينتعش بعض الشىء بعد الهزائم التى لحقت به عام ٧٤٧ م ، فان وضعه كان مثل وضع الأسطول الأندلسى ، اذ كان جزءا من قوات الحدود ذات الطبيعة المحلية . أما عن مهمته فان العباسيين وجهوه ضد بيزنطة والأراضى البيزنطية . على أنه بلغ من ضعف هذا الأسطول السورى انه لم يقم بأول عملية هجومية الا فى عام ٧٧٣ م عندما أغار على قبرص وأسر حاكمها البيزنطى[١٥] . ومع ذلك فلم يقم بهذه الغارة الا عندما شغلت عنه قوات القسطنطينية البحرية بالحرب ضد البلغار . ثم لم تقم سفن البحرية السورية بأعمال أخرى حتى عام ٧٩٠ م ؛ وذلك حين أغارت على كل من كريت وقبرص[١٦] . ويظهر أن هذه الغارات اضطرت بيزنطة الى اشراك عدد كبير من قواتها البحرية ، وتمت المعركة بين الخصمين فى مجال بحرى واسع عند خليج أضالية قرب جزيرة قبرص .

وفى تلك المعركة أسر أمير البحرية البيزنطية[١٧] . ولابد أن خسائر المسلمين فيها كانت كبيرة جدا لأننا لم نسمع لمدة ستة عشر عاما . بعدها عن حركات هجومية لأسطول الحدود السورية الطرسوسية .

بيد أن الموقف فى الأندلس وشمال أفريقية فى تلك الأيام أظهر بوضوح عجز خصوم بيزنطة المسلمين فى البحر . لقد حاول العباسيون ، بعد أن حلوا محل الأمويين فى الخلافة الاسلامية ، أن يثبّتوا سلطانهم كاملا على مصر وشمال افريقية والأندلس ؛ فأرسلوا جيوشا قوية للسيطرة على تلك البلاد ، لاجبارها على الخضوع لسلطانهم . وكان أكثر هذه الجيوش من الفرس ، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل فخرج الأندلس من سلطان العباسيين الى سلطان عبد الرحمن الأول الأموى فى ٧٥٦[١٨] . ولم تستطع حملات العباسيين أن تبلغ بسفنها الشواطىء الأندلسية[١٩] ؛ باستثناء حملة واحدة وصلت الى مدينة باجه فى الجنوب ، بعد رحلة قصيرة من شاطىء افريقية . وأخيرا هزمت الحملة هزيمة منكرة قبل أن تصلها أية امدادات بحرية . وفى عام ٧٨٨م ثارت مراكش واستقل بها الأدارسة دون معارضة من العباسيين[٢٠] . وفى عام ٨٠٠ تلقى الأغالبة من بغداد إعترافا فعليا باستقلالهم بشئون تونس[٢١] .

وظلت مصر وحدها خاضعة خضوعا مباشرا للعباسيين . على أن سلطانهم تعرض للخطر مرارا بسبب الثورات التى تناوب القيام بها العرب والأقباط معا . والواقع أن تلك الثورات كانت متأصلة لدرجة جعلت السيطرة على مصر أمرا مشكوكا فيه[٢٢] . وبعد ، فلماذا أفلتت كل هذه الأقاليم من قبضة الخلافة العباسية ؟؟ لم يكن ذلك لنقص جيوش الخلفاء ، فحروبهم الناجحة ضد الايسوريين تثبت مرارا وتكرارا أنه كان لديهم من الجند ما يكفيهم . ولكنه يرجع فى الغالب الى افتقارهم الى قوة بحرية فعالة ؛ اذ لم يكن فى

استطاعتهم بدونها مثلا أن يبلغوا بلاد الأندلس ولا أن يمونوا بطريقة مرضية ، الفرق الموالية لهم البعيدة عنهم فى شمال افريقية . لهذا كانوا يرون أملاكهم فى الغرب يفلت زمامها من أيديهم الى أيدى الحكام المحليين فيستقل بها هؤلاء استقلالا كاملا أو غير كامل وهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .

ولا شك أن القوة البحرية البيزنطية هى التى أملت على الدول الاسلامية مواضع عواصمها . وظلت تلك العواصم كما كانت الحال أوائل حكم العرب فى داخل البلاد ، فبقيت عاصمة مصر فى الفسطاط ، وعاصمة أغالبة تونس فى القيروان ، وعاصمة الأدارسة فى فاس ، واستمرت قرطبة مقر الحكومة المركزية فى الأندلس . واتفقت كل هذه العواصم فى صفة واحدة هى بعدها عن البحر لتكون فى مأمن من مفاجآته . وتأكدت فى ختام القرن الثامن ، وللمرة الثانية ، الصفة غير البحرية لعالم البحر المتوسط الاسلامى . كما تأكد فى الوقت ذاته كمال هيمنة القسطنطينية على البحار .

بدأ الموقف يتغير من عام ٨٠٠ م ، اذ أخذت بيزنطة تهمل شأن قوتها البحرية وربما رجع هذا الى أوائل عهد الملكة ايرين ، وان لم تظهر آثاره بصفة واضحة الا فى نهاية عهدها . ثم جاء خليفتها ، نقفور فوجد البحرية البيزنطية فى حال سيئة للغاية . وفى تلك الأثناء اهتمت أقاليم أربعة لا صلة لها ببيزنطة ، بزيادة أساطيلها وتدعيم قواتها البحرية وهذه الأقاليم هى الأندلس وسورية وشمال افريقية والامبراطورية الكارولنجية .

أما الأندلس وهى الأقوى شأنا ، فكانت مع ذلك أقل خطورة بسبب اتجاه أسطولها ضد الكارولنجيين وبسبب تحالفها مع بيزنطة . غير أن العمليات البحرية للأسطول الأندلسى اتسعت حتى شملت معظم غرب البحر المتوسط ، فأغار عام ٧٩٨ م على جزر البليار التى يبدو أنها تخلت عن

عالم البحر المتوسط
حول عام ٨٠٠ م

مملكة الخزر
امبراطورية شرلمان
المجر
الأفار
الممالك الأسبانية
خلافة الأندلس
البلغار
السلاف
الامبراطورية البيزنطية
الأدارسة
الأغالبة
الإسكندرية
العباسية
الخلافة

تحالفها القديم مع بيزنطة ، ولجأت الى حماية الكارولنجيين [٢٤] . وفى المدة بين ٨٠٦—٨١٥م ، قام ذلك الأسطول بهجمات بحرية منظمة على كورسيكا والشواطىء الكارولنجية بين مصبى نهر التيبر ونهر الرون . ففى عام ٨٠٦ مثلا طردت احدى فرق الفرنجة من الجزيرة عندما أغار عليها الأسطول الاسلامى الأندلسى[٢٥] . وفى السنة التالية انهزم المسلمون بدورهم فى مياه الجزيرة وفقدوا ثلاث عشرة سفينة[٢٦] . غير أن هذا لم يعق حركات الأسطول الاسلامى الأندلسى ؛ اذ قام بغارات جديدة فى سنوات ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ م [٢٧] . وفى عام ٨١٣ قامت حملة بحرية من موانى الأندلس فأغارت على نيس وشقيتا ڤكيا Cività Vecchia وكورسيكا ، لكنها واجهت وهى فى طريق عودتها ضربة قاسية قرب ميورقه على يد أسطول فرنجى مطارد بقيادة كونت أمپورياس الذى أنقذ خمسمائة كورسيقى كان قد أسرهم المسلمون[٢٨] . وأخيرا وفى عام ٨١٥ حدثت غزوة أخرى على جزر البليار الواقعة تحت حماية الفرنجة وقتذاك[٢٩] .

حدثت أعظم مغامرات الأسطول الأندلسى طرافة فى شرق البحر المتوسط عام ٨١٤ ، حين خرجت جماعة من اللاجئين المسلمين عدتها عشرة آلاف نسمة تبحث عن ديار جديدة لها بعد أن طردها الخليفة الأموى الحكم عقب ثورة فى قرطبة . ويظهر أن هؤلاء اللاجئين وصلوا بأسطولهم الى مصر دون أن يعترض طريقهم أحد من البيزنطيين أو العباسيين . وكانوا من القوة بحيث أمكنهم أن يسيطروا على مدينة الاسكندرية ويحكموها قرابة اثنتى عشرة سنة . وساعد هؤلاء على الوصول الى السلطة ، ما ساد مصر من فوضى واضطراب حينذاك[٣٠] . ثم طرد هؤلاء فى النهاية بعد معركة برية بينهم وبين الوالى العباسى الذى هزمهم[٣١] . ويظهر أن خلفاء بغداد لم تكن لديهم القوة البحرية اللازمة لمثل هذه الأعمال فى ذلك الجانب من البحر المتوسط .

وبينما لم تنزعج بيزنطة لحركات الأسطول الاسلامى الاسبانى الموجهة ضد الفرنجة وغرب البحر المتوسط ؛ فان ثمة حركات أخرى للأساطيل الاسلامية أثارت انزعاجها . ففى عام ٨٠٦ اتخذ الأسطول السورى موقفا هجوميا — بعد هدوء يقرب من عشرين عاما — ففى اللحظة التى عبرت فيها حملات هارون الرشيد البرية الأناضول الى هرقلة ؛ أغار الأسطول السورى على قبرص(٣٢) . وأعقبت تلك الحملة حملة أخرى فى العام التالى على رودس(٣٣) . ولم ينقذ السلام سوى قبول القسطنطينية دفع الجزية لبغداد .

ثم جاء خطر بحرى آخر بالاضافة الى خطر الأسطول السورى مبعثه ما أثاره ضعف بيزنطة عند أغالبة شمال افريقية اذا أغراهم على القيام بأعمال بحرية ، بعد نصف قرن تقريبا ، من الوهن والانحلال . ففى عام ٨٠٥ أغار أسطول الأغالبة على البلوبونيز وساعد السلافيين فى حصارهم لمدينة بتراس(٣٤) . ويحتمل أن تكون هذه الحملة جزءا من خطة عباسية عامة مؤداها الضغط على القسطنطينية برا وبحرا . اذ انتهى ذلك الغزو بعقد اتفاقية مدتها عشر سنوات بين بطريق صقلية والأمير الأغلبى(٣٥) . ومع أن تلك الاتفاقية جددت لعشر سنوات أخرى عام ٨١٣ ، الا أنه يبدو أنها كانت معدومة الأثر . ذلك أنها لم تمنع عرب شمال افريقية من القيام بغارات ولو فاشلة على سردينية عامى ٨١٢ ، ٨١٣(٣٦) . وفى الغارة الأخيرة خسر العرب مائة سفينة أغرقتها لهم العواصف قرب الجزيرة(٣٧) . وقد حفزهم هذا الى مهاجمة صقلية عام ٨٢٠ وغنموا منها غنائم عظيمة(٣٨) . وكانت جزيرة سردينية فريستهم فى العام التالى(٣٩) .

وبينما يعود المسلمون فى سورية وشمال افريقية واسبانيا الى عملياتهم البحرية على هذا النحو القوى المملوء بالتحدى لسلطان بيزنطة ، اذا شرلمان

لا يقف جامدا عن العمل . ويحتمل أن ما أصاب علاقات البيزنطيين ومسلمى الأندلس من تدهــور عقب عــزل ايرين عام ٨٠٢ وتولى نقفــور عرش القسطنطينية ، هو سبب اندفاع شرلمان للقيام بجهود بحرية . ويحتمل كذلك أن يكون ولداه — لويس فى آكوتين (Aquitaine) وپيپن فى ايطاليــا — أقنعاه بضرورة القيام ببعض الأعمال البحرية تخفيفا للضغط الذى يواجهانه — باعتبارهما نائبين عنه — من القوات البحرية التابعة لبيزنطة والأندلس الأموية . وعلى أية حال فان شرلمان قرر فى تلك الأثناء انشاء أسطول كبير ؛ فأمر ببناء ألف سفينة فى امبراطوريته(٤٠) . أما أين بنيت هذه السفن فأمر يدخل فى باب المشكلات . ومما تجدر ملاحظته أن السنوات الأولى من القرن التاسع شاهدت ازدهارا مفاجئا لقوة الكارولنجيين فى البحر .

ويبدو أن شرلمان أقام مركزين بحريين هامين فى غرب البحر المتوسط . أحدهما على طول ساحل ولاية الحدود الاسبانية حيث استولى على طرطوشة وبرشلونة عام ٨١٢م . أما الثانى فعلى طول الساحل الشمالى الغربى لايطاليا وحول عامى ٨٠٦ ، ٨٠٧ كانت هناك قوات بحرية ذات قيمــة على طول ساحل ليجوريا وتسكانيا ، تكفى قواد شرلمان للتصارع بها على السيطرة فى المياه الايطالية ضد منافسيهم مسلمى الأندلس . واستطاع أسطول شرلمان الاسبانى هذا ، أن يظفر بنصر كبير تحت قيادة كونت أمبورياس قرب جزيرة ميورقة عام ٨١٣ م . والقول بأن هذا الانتصار لم يكن هين الشأن ، يؤيده أن الأمويين لم يقوموا بعده بغارات على أراضى الفرنجة حتى عام ٨٣٨م(٤١) . ورابطت قوات بحرية كافية على سواحل ايطاليا الكارولنجية وأبحرت سفن من لونى وپيزا للاغارة على بونة فى شمال افريقية عام ٨٢٨(٤٢) ، ويحتمل أن يكون هذا قد حدث بالاشتراك مع بيزنطة .

ولم يكن نشاط شرلمان فى مياه البحر الأدرياتى بأقل من ذلك وان كان

أقل نجاحا من حيث نتائجه . أما هدفه الأول هناك فدوقية البندقية ، بما لها من سلطان بحرى وتجارى قويين ، وبسبب تحالفها مع بيزنطة . وفكر شرلمان كذلك فى ضم ولايتى الستريا ودلماشيا البحريتين الى أملاكه . ولعله أدرك أن استيلاءه على البندقية انما يعنى أنه ضمن فى قبضة يده أكبر قوة بحرية فى الأدرياتى ، بالاضافة الى اقترابه من أسواق الشرق أيضا . وبعد عام ٨٠٢ م بذل شرلمان وابنه پيبن كل ما يمكن للاستحواذ على المدينة فأصابا بعض النجاح فى البداية وفى عام ٨٠٥ م ، كسب شرلمان بعض الاشياع فى البندقية وقاد زعامة الحزب الكارولنجى بها ، فورتناتس بطريق ، جرادو [٤٣] .

وتدخلت بيزنطة تدخلا نشيطا عندما أيقظها تطور الحوادث هناك . فأرسلت أسطولا بقيادة نكتاس ، استطاع عام ٨٠٧م أن يعيد البندقية ودلماشيا الى حظيرة التحالف القديم[٤٤] . ولاذ فورتناتس بالفرار الى اكس — لا — شاپل وعاد النفوذ والسلطان للحزب الموالى لبيزنطة . ولما لم تكن لدى پيبن — فى الادرياتى — القوة البحرية الكافية ، فانه رضى من الغنيمة بمعاهدة مع المسئولين بالبندقية [٤٥] . ويبدو أن القسطنطينية لم تقتنع بما حدث ، لأنها أرسلت عام ٨٠٨ أسطولا آخر الى البندقية تحت قيادة پاولوس الحاكم الأميرال لسفالونيا ، وانضمت لهذا الأسطول قوات البندقية الحربية وهاجما معا مدينة كوماتشو ، المنفذ التجارى على مصب نهو اليو ، والظاهر أنهما فشلا فى أخذها من أيدى الكارولنجيين[٤٦] . وشجع هذا الهجوم الفاشل ، شرلمان على القيام بمغامرة أخيرة ؛ جمع فيها ابنه پيبن جيشا وأسطولا وأعد كل ما فى الامكان لغزو البندقية عام ٨٠٩[٤٧] . ونجح الغزو فى الاستيلاء على أملاك البندقية الرئيسية مثل مالاماكو Malamacco، الا أنه أخفق فى الوصول الى حيث انتقلت حكومة المدينة[٤٨] . فى جزيرة رياِلتو الواقعة وسط المياه الضحلة . وبهذا ظلت البندقية مع بيزنطة بعيدا عن نطاق الامبراطورية الكارولنجية .

وفى عام ٨١٢ م رجع شرلمان عن محاولاته وعقد الصلح مع بيزنطة وجاء فى شروط هذا الصلح أن يحصل شرلمان ، مقابل تحالفه معها ، على امتيازات تجارية واعتراف به كامبراطور ؛ وأن تظل البندقية وممتلكاتها — ايستريا ودلماشيا — أرضا بيزنطية[٤٩] . وظل الموقف على هذه الصورة حتى وفاة شرلمان عام ٨١٤ م ، فاستمر لويس التقى ولوثير على تحالفهما مع القسطنطينية ، التى أحفظها وملأها حقدا اعترافها بلقبيهما الملكيين ، ولذا لم تقم على نحو صحيح بتعهداتها الواردة فى صلح ٨١٢ م [٥٠] ؛ وظل السلطان البحرى فى الادرياتى معقودا لواؤه لبيزنطة أو لأكثر دول ذلك البحر استقلالا ، وهى البندقية .

ويمكن القول جملة انه حتى عام ٨٢١م ، وعلى الرغم من ازدياد القوة البحرية فى سورية وشمال افريقية والدولة الكارولنجية والأندلس الاسلامية ، فان بيزنطة تمكنت من الاحتفاظ بسيادتها البحرية . ولم تتمكن هجمات العباسيين البرية ولا تحركات البلغار من أن تزعزع — بصورة جدية — قوتها البحرية . الا أن عام ٨٢١ م حل على بيزنطة بالمصائب وصادفت فوق هذا ضغطا بحريا نجم عنه فى النهاية تدهور مركزها البحرى فى دنيا البحر المتوسط . أما تلك المصائب المشار اليها فانها لم تأتها من الخارج وانما نبتت من الداخل بسبب حرب أهلية أساسها ثورة توما الصقلبى بين عامى ٨٢١ و ٨٢٣ . وقد أصابت هذه الحرب قوة القسطنطينية فى البحار بالضعف البيّن .

وهذه الثورة كانت فى ذاتها عجيبة للغاية ، اذ اجتمعت فيها عدة طوائف ناقمة ، وقد مد الخليفة العباسى المأمون الثوار بالعون وبعث فى الوقت ذاته جيوشه وأساطيله الشامية للاغارة على جزر وشواطىء آسيا الصغرى تأييدا للجهود التى يقوم بها الثائر توماس . وادعى توماس هذا — وكان ايقونيا — أن هدفه الأول عزل الامبراطور اللاأيقونى واعادة تقديس الصور بعد أن

حظرها القانون منذ عهد ايرين . وأيدت توماس فى ثورته هذه ، أساطيل ولايات بحر ايجه فأبحرت هى الأخرى صوب القسطنطينية كما فعلت تماما عام ٦٩٨ م ضد جستنيان الثانى ، وكما فعلت أيضا عام ٧٢٧ م ضد ليو الثالث . وتركزت هذه القوة فى آسيا الصغرى وتحولت الى ثورة شعبية يسندها الفلاحون . وربما كان التباين القوى بين العاملين السابقين هو سبب خيبة تلك الثورة . لكن من المؤكد أن حجر العثرة الرئيسى فى طريقها كان الأسطول الامبراطورى الرابض فى القسطنطينية ، الذى ظـل على ولائه فاستطاع تشتيت شمل الأساطيل الاقليمية بالنار الاغريقية وطردها من بحر مرمرة مثلما حدث عام ٧٢٧ م . أما توماس فانه صادف الفشـل فى البر والبحر ، اذ هاجم البلغار قواته على الشاطىء الأوربى وأوقعوا بها هزيمة ساحقة وأضاعوا عليها فرصة الظفـر بهجوم برى على العاصـمة . وفى عام ٨٢٣ حلت به هزيمة أخرى وقتل أثناء المعركة فانتهت بذلك ثورته(٥١) .
ويمكن القول ، من وجهة النظر البحرية أن بيزنطة خرجت عرجاء تماما من هذه المأساة . فقد تشتت شمل أساطيل الولايات وأتت عليها الحرب الأهلية حين اشتدت الحاجة اليها لمؤازرة أسطول القسطنطينية فى الوقت الذى كانت فيه أساطيل سورية وشمال افريقية وسائر أساطيل الأعداء الآخرين تجمع قوتها .

وتجمع الأعداء عام ٨٢٧ وكان المسلمون الوافدون على الاسكندرية من الأندلس أول من كشف ضعف بيزنطة ، فبعـد أن طردهم العباسيون من المدينة ، عبروا البحر الى كريت ونزلوها دون مقاومة . وسرعان ما دانت لهم الجزيرة وأقاموا لهم فى مدينة الخندق أوقندية وكرا حصينا من أوكار القرصنة (٥٢) . وظلوا فى مركزهم ذاك مبعثـا للرعب والفزع لمنطقة بحر ايجه وللعرش البيزنطى مدة تبلغ قرنا ونصف قرن . ويبدو أن انعدام المقاومة

أمامهم جاء نتيجة مباشرة لأحد أمرين : أولهما ما أصاب الأساطيل الاقليمية من دمار أثنــاء ثورة توماس قبل هــذا الغزو بسنوات قلائل . الثــانى عدم رضا سكان الجزيرة الايجيين الميالين لعبادة الصور عن سادتهم فى القسطنطينية المخالفين لهم فى هذا الموضوع ، مما زعزع اخلاص أهل كريت لحكامهم وحولهم الى الترحيب بمسلمى اسبانيا المنفيين . ويحتمل أيضا أن يكون سبب انعدام المقاومة هو اجتماع الأمرين معا .

فى تلك الأثناء حدثت فى الغرب أحداث على جانب كبير من الأهمية اذ استطاع الأغالبة بشمال افريقية القيام بهجوم على صقلية ، أحد مفاتيح البحر المتوسط الهامة . ولم يكن عمل الأغالبة عملا يسيرا ولا مجرد غارة ؛ وانما كان حملة قوية هدفها الاستيلاء على الجزيرة بأسرها . ونجحت الحملة الى حــد كبير بسبب ضعف أســطول صــقلية البيزنطى ، ولأن قائده ايوفيميوس أسلمه للمسلمين بعد ثورة فاشلة(٥٣) . ومن الطريف أن نلاحظ أنه كان ثمة بعض التردد بين المسئولين فى شمال افريقية حول القيام بهذه الحملة . فلم يتخــذوا القرار بالســير فيها الا بعد عمل حساب لشــتى العوامل (٥٤) . وبلغ عدد سفن الحملة التى أبحرت من سوسه — بالاضافة الى سفن ايوفيميوس — من سبعين الى مائة سفينة ، جهزت بعدة آلاف من الرجال(٥٥) . وبهبوط الحملة أرض الجزيرة بدأت — كما حدث فى كريت — مرحلة جديدة فى تاريخها ؛ اذ انطوت صفحة السيادة البيزنطية ، وبدأت صفحة أخرى من النفوذ الأسلامى على البحار ؛ وبهذا حــدث الانتقام للمعركة التى تمت قرب قبرص عام ٧٤٧ . وأحس مسلمو شــمال افريقية وكريت — وهم حكام البحــر المتوسط الجدد — انهــم ورثوا السلطان الذى تمتعت به القسطنطينية مدة طويلة والذى ظل الأمويون يجرون وراءه دون جدوى .

واذا استعرضنا التغير التدريجى الذى أصاب القوة البحرية فى حوض البحر المتوسط خلال تلك السبعين السنة من سيادة بيزنطة البحرية ، اتضح لنا جانب من الصورة التى كان عليها البحر المتوسط وقتذاك . واذا كان عام ٧٥٢م ، رأى حكام مدينة القرن الذهبى سادة لاينازعون على مياه البحر الزرقاء ، ولمدة تقرب من ثلاثة أرباع قرن ، فقد رآهم كذلك أقل نجاحا فى البر . كما أن انتقال مركز القوة فى العالم الاسلامى من دمشق الى بغـداد — رغم أهميته — لم يؤد الى وضع حد للعـداوة بين خلفـاء المسلمين وأباطرة بيزنطة . واذا كانت البحرية الاسلامية كسيحة وقتذاك فان قوات المسلمين البرية لم تكن قطعا كذلك . وحين وطد العباسيون ملكهم بالعراق ، أخذوا يهاجمون الحدود الشرقية البيزنطية بعنف يفوق أسلافهم الأمويين .

وقد عجزت بيزنطة عن المحافظة على منزلتها فى الكفاح البرى فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع وهذا بسبب الضعف الذى انتابها من جراء الصراع الداخلى حول الحركة اللاأيقونية ، وصراعها مع أعدائها فى الخارج ؛ وقد اضطر حـكام القسطنطينية — حكامها جميعا بلا استثناء تقريبا — أن يؤدوا فى تلك المدة قدرا كبيرا من الذهب جزية لخلفاء بغداد . فمثلا نرى قنسطنطين الخامس أقـدر حكام البيت الايسورى مضـطرا عام ٧٧٢م الى دفع مبلغ ضخم تأمينا لحدوده الشرقية[٥٦] . وكان اشتغاله باضطهادات الحركة اللاأيقونية العـارمة ومشاكل البلغار ببلاد البلقـان والفرنجة بايطاليا ، حائلا دون التفرغ لتركيز قوته فى الشرق . ثم تجددت مثل هذه الجزيات زمن ايرين عام ٧٨١ ، فى اللحظة التى تحرك فيها الجيش الاسلامى عبر الأناضول قاصدا البسفور[٥٧] . وشاهد عام ٧٩٨م تدفق الذهب من جديد نحو بغداد بعد آن بلغت جيوش المسلمين مدينة افسس[٥٨] . كذلك أجبر نقفور خليفة ايرين على دفع الجزية بعد عام ٨٠٦ ، حين بلغت

جيوش هارون الرشيد الكبيرة العدد مدينة هرقلة الواقعة قبالة القسطنطينية[٥٩] .

واشتغال بيزنطة بالحملات ضد العرب والبلغار ، فى كل من آسيا الصغرى وبلاد البلقان يفسر أسباب ضعف النفوذ البيزنطى فى مكان آخر هو شبه جزيرة ايطاليا ، حيث وقع ذلك النفوذ تحت ضغط كبير من البر . يضاف الى هذا أن الفكرة اللاأيقونية التى اعتنقها حكام بيزنطة ، سوى ايرين ؛ والتى حاول ليو الثالث وقنسطنطين الخامس ارغام البابوية والكنيسة الغربية على قبولها ، زادت وهنا ، الرباط الضعيف بين روما وايطاليا وبين القسطنطينية . وحول منتصف ذلك القرن أصبح اشراف بيزنطة على مدن پنتاپوليس وراڤنا وروما ، اشرافا اسميا محضا . وعندما استولى ملك اللمبارد على راڤنا وتقدم نحو روما عام ٧٥٠ م ؛ لم يتجه البابا الى حكام القسطنطينية اللاأيقونيين يطلب العون منهم ؛ بل اتجه بأنظاره عبر جبال الألب حيث يوجد پيپن حاجب القصر وصاحب السلطان على الفرنجة . وتمت المساومة بين الطرفين على أساس اعتراف البابوية بزوال آخر أثر للملكية الميروڤنجية وتتويج پيپن ملكا على الفرنجة مقابل خروج پيپن على رأس جيشه عبر الألب ، الى ايطاليا للقضاء على ما وصل اليه اللمبارد أخيرا من فتح وكسب هناك[٦٠] . ولم تعد هذه الممتلكات الى أصحابها البيزنطيين على الرغم من السفارة التى أسفرها قسطنطين الخامس لملك الفرنجة المنتصر[٦١] . والذى حدث أن پيپن أعطى روما وراڤنا ومدن بنتا پوليس وقورسيقة الى البابوية وأطلق عليها جميعا اسم « منحة پيپن »[٦٢] .

على هذا النحو ، بدأ تدخل الفرنجة فى الشئون الايطالية ضد المصالح البيزنطية . وتحولت روما نهائيا صوب الكارولنجيين فى الغرب ، بدلا من اتجاهها نحو القسطنطينية ، وتبدأ بهذا التحول ذاته قصة صراع طويل حول

السيادة على ايطاليا بين البابوية والفرنجة من جانب ، وبين هؤلاء وبين بيزنطة من جانب آخر . ويستمر هذا الصراع بدرجات متفاوتة من التوتر خلال الحقبة التى ندرسها فى هذا الفصل .

استخدمت بيزنطة بسبب افتقارها الى قوات برية قوية ، قواتها البحرية وامكانياتها الاقتصادية وأساليبها السياسية للمحافظة على كيانها . ويمكن القول انها اتبعت سياسة ملحوظة الالتواء ، فنراها تؤيد فى البداية عدوها القديم ، ملك اللمبارد ، وتستمر فى تأييده حتى عبور شرلمان جبال الألب عام ٧٧٤ م وقضائه على سلطان اللمبارد فى شمال ايطاليا ووسطها ، وضمه كل تلك الأقاليم حتى روما ، الى امبراطوريته . وتبذل عونها لأمير بنفنتم اللمباردى المستقل وتقبل حاكم باڤيا المنفى لاجئا اليها [٦٣] .

وعندما جاءت ايرين الى العرش عام ٧٨١ . اتخذت فى سياستها خطتين جـديدتين : كانت ايرين من المنتصرين لتقديس الايقونات ، فحاولت أن تزيل بذلك الشقاق الدينى الذى ساد بين القسطنطينية وروما على أمل أن يؤدى هذا الزوال الى اجتذاب البابا من حماية الكارولنجيين . ونراها فى الوقت ذاته تعرض عقد مصاهرة مع شرلمان ، الأمر الذى أثار شكوك قداسة الحبر الأعظم فى ايطاليا . أما محاولتها الوحيدة للتدخـل المسلح فـكانت عام ٧٨٧م بجنوب ايطاليا ، ولكن المحاولة لم تصادف أى نجاح[٦٤]. ومع ذلك فحتى عام ٨٠٠ على الأقل استطاعت ايرين أن تحافظ على ماكانت تملك وفى تلك السنة تلقب شرلمان بلقب امبراطور بمباركة البابا فاتسع الخرق على الراقع. ثم جاء نقفور من بعـد ايرين عـام ٨٠٢ فرفض الاعتراف بلقب شرلمان الامبراطورى وبدأت الحرب السافرة بين الامبراطورين[٦٥] . ولم يصلا الى سلام الا عام ٨١٢ م ، عنـدما وافقت القسطنطينية على الاعتراف بحاكم اكس — لا — شاپل امبراطورا بسبب الضغط الواقع عليها من البلغـار

والعباسيين . وظل الموقف بعد عام ٨١٢ م متعرضا لأنواع متباينة من الضغط والتوتر بين الدولتين حتى انتقلت الامبراطورية من لويس التقى الى خلفائه المتنازعين ، وهنا أخذت فى الانحلال ، امبراطورية الكارولنجيين منذ أواسط القرن التاسع الميلادى (٦٦) .

ونؤكد هنا أنه رغم عجز بيزنطة عن استعادة حكم روما وراڤنا خلال تلك الخمسة والسبعين عاما ، الا أنها ظفرت ببعض السيادة على الأراضى الايطالية خاصة فى الجنوب ؛ حيث بقيت كل من ناپلى وأمالفى وجايتا فى كمپانيا وقلورية وجانبا كبيرا من أپوليا ، تحت السيادة البيزنطية . ودارت فى فلك النفوذ البيزنطى (٦٧) كل من بنڤنتم والبندقية وايستريا ودلماشيا . واستطاعت بيزنطة أن يكون لها كل هذا على الرغم من قلة أو من عدم وجود قوات برية تستخدمها أو قابلة لأن تستخدمها . وكى نفهم كيف أمكن هذا ، علينا أن نبحث جميع الخطط البيزنطية فى السيطرة على البحر المتوسط .

يفسر الضغط البرى المستمر من جانب الفرنجة والبلغار والعباسيين — رغم سيادة بيزنطة فى البحار — عدم تهاون حكام القسطنطينية خلال تلك الفترة فى سياستهم الاقتصادية اليقظة فى الأقاليم المطلة على مياه البحرين المتوسط والأسود . بل أكثر من هذا نراهم يجنحون الى استمرار تشديد حربهم الاقتصادية التى تعتبر طابعهم فى النصف الأول من القرن الثامن ، أى من عام ٧١٦—٧٥٢م . ويبدو أن الخطة التى ساعدت على ضعضعة قوة الأمويين البحرية هى نفس الخطة التى اتبعوها كوسيلة دفاعية اقتصادية لدولة تواجه ضغطا من جميع الجهات . فاستمرت بلاد الدولة البيزنطية على استعداد من النواحى الاقتصادية والبحرية والحربية، كأنها معسكر مسلح ، يتطلع دائما نحو أعدائه الملتفين حوله من الشمال والجنوب والشرق والغرب .

وكانت نتيجة هذا استمرار الظروف التى تميز بها الشطر الأول من ذلك القرن ، فحيل دون وصول سفن التجار المصريين والسوريين الى غرب البحر المتوسط . وعلى كل حال فلم يثبت ثبوتا قاطعا أن عددا كبيرا من تلك السفن استطاع ذلك . وربما كان لسياسة العباسيين ومواصـلة اجراءات الدولة الأموية الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركات التنقل شأن فى تحقيق ما عملت بيزنطة على بلوغه من اغلاق غربى البحر فى وجه المسلمين . ولكن الأرجح أن سياسة القسطنطينية وحدها هى التى أدت الى هذه النتيجة . واستمر حصر مرور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ، ولبلاد الغرب عامة ، عبر ثغر طرابيزون على البحر الأسود . وهذه التجارة هى المستوردة من الوسطاء العرب فى بلاد فارس والعراق(٦٩) . وربما سمحت بيزنطة لبعض التجارة أن تمر عبر مصر وسورية ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لاشراف دقيق . والى جانب هـذا فلا بد أنهم اشـترطوا أن تأتى السلع للقسطنطينية أولا . وثمة بعض منتجات شرقية أخرى — منها المنسوجات الحريرية والتوابل — وصلت بيزنطة عن طريق بلاد الخزر الى ثغر خرسون الذى خضع لنفس الاشراف الدقيق الذى خضع له ثغر طرابيزون .

وفيما يتعلق بتجارة الشمال ظل ثغر خرسون أكبر منفذ لتجارة الفراء والرقيق وسائر المنتجات الروسية التى خضعت لاشراف الخزر وتحكمهم كوسطاء هم الآخرون(٧٠) . أما تجارة البلغار فانها اتجهت صوب سالونيكا والقسطنطينية وتحدد ذلك فى المعاهدة المعقودة بين الدولتين عام ٨١٦ م ان لم يكن أسبق من ذلك التاريخ (٧١) .

وفى الأراضى الايطالية الخاضعة لبيزنطة وجدت مراكز مماثلة للتجارة مع الفرنجة مثلما حدث قبلا مع اللمبارد . ومن هذه المراكز : نابلى وجايتا وامالفى ، وربما أيضا مدينة سلرنو على الساحل الغربى ، والبندقية على

الساحل الشرقى . ولعل سلرنو حلت محـل لونى التى انتقلت الى أيدى الكارولنجيين حينذاك . وسمح لهذه المدن وحدها باستقبال السفن القادمة لبيع التوابل والحرير الفاخر فى ايطاليا ؛ وسمح كذلك ، ولمرة واحدة فقط فى العام ، لتجار هذه المدن بالسفر الى باڤيا فى حوض البو لعرض بضائعهم الشرقية على تجار شمال ايطاليا وسائر بلاد الغرب[٧٢] . ويبدو أن التجارة تمتعت بقسط أكبر من الحرية مع دوقية بنڤنتم اللومباردية ومع روما نفسها .

ومعلوماتنا ضئيلة جدا فيما يتعلق بالسماح بالاتجار مع مسلمى شمال افريقية ، الا أنه توجد بعض حقائق ترجح وجود تعامل تجارى عن طريق صقلية خلال السنوات الأولى من القرن التاسع ، وربما قبل ذلك . ويفسر هذا وجود مواد خاصة بالتجارة فى اتفاقيات الهدنة التى عقدت بين الأغالبة ، حكام تونس ، وبين حكام صقلية البيزنطيين عام ٨٠٥ ، ٨١٣ م ؛ الأمر الذى يحتمل معه وجود تجار من صقلية فى شمال افريقية وتجار من مسلمى شمال أفريقية فى صقلية ، فى حماية نصوص الاتفاقيات[٧٣] . والراجح أن زيت الزيتون كان — كما كانت الحال قبلا — أهم ما صدره المغـرب مقابل حصوله على بضائع الشرق التى يتجر فيها البيزنطيون .

ومعلوماتنا عن تجارة الأندلس أقل . وربما كانت أبعد خضوعا عن الاشراف التجارى لبيزنطة من أى اقليم آخر . ذلك لأن الأندلس كان حليفا هاما لبيزنطة ، وليس ببعيد أن يكون سمح للأندلس بالاتجار مباشرة مع الشرق دون أى تدخل بيزنطى . وثمت حقيقتان تؤيدان هذا الرأى : أولاهما ما جاء من أن اليهود قاموا من مدينة مرسيليا وعن طريق الأندلس [٧٤] . بالتجارة مباشرة مع مصر والشرق أوائل القرن التاسع . الحقيقة الثانية أن ابحار المنفيين المسلمين من ثوار قرطبة الى الاسكندرية رأسا دون معارضة بيزنطة ، يدل على وجود صلات تجارية وثيقة بين هاتين الجهتين . ويبدو من

هذا كله أن الأندلس كانت الدولة الوحيدة فى غرب البحر المتوسط ، التى لم تخضع لرقابة القسطنطينية التجارية فى ذلك البحر .

هذا واننا لا نستطيع أن نتوقع وجود نظام تجارى من هذا النوع منفذا تنفيذا كاملا . ومثل النظام البيزنطى فى هذا ، مثل قوانين الملاحة الانجليزية فى الأطلنطى فى القرن الثامن عشر ، فكانت تنفتح ، على الزمن ، ثغرات خطيرة فى نظام التجارة . والظاهر أنه وجد تراخ ملحوظ فى تنفيذ التعليمات زمن الملكة ايرين ، عندما أهمل شأن القوة البحرية بين كل من سورية ومصر ، وهى التجارة التى سارت فى حماية الأسطول السورى الذى واصل العباسيون الاهتمام به على الرغم من بقائه غير قوى . ومن المشكوك فيه استمرار وجود رقابة على شواطىء شمال افريقية فيما بين سوسه وقابس وبين مصر وسورية[75] ؛ اذ من الصعب على بيزنطة — ان لم يكن من المستحيل — أن تغلق تماما جميع طرق التجارة البحرية من قواعدها فى كريت وصقلية وقبرص ومالطة وقوصرة . ومن الخطأ أن نبالغ فى مقدار التجارة التى مرت فى هذين الطريقين خلال القرن الثامن وبداية التاسع . ويتضح مما كتبه ابن خرداذبة عن هذين الطريقين فى أوائل عصر العباسيين ، أن الطريق الرئيسية بين الرقة ومصر لم تسلك سبيلها الى الساحل ولكنها سارت فى الداخل من الرقة الى دمشق واقتربت من الساحل فقط عند جنوب فلسطين[76] . وحدث هذا أيضا فى معظم الطريق بين مصر وشمال افريقية ؛ اذ لم تتبع التجارة الطريق الرومانية الساحلية فى ذلك العصر وانما تركت الشاطىء الى الداخل ، سالكة مجموعة من الواحات الصحراوية . واستخدام هذه الطرق الداخلية — ومنها طريق فرانشيجنا Francigena الداخلى بين روما وشمال ايطاليا — يرجح القول بأن قوة بيزنطة البحرية غدت خطرا على استخدام الطرق الساحلية لنقل التجارة الى مصر من سورية وتونس[77] ، وان لم تجعل ذلك النقل مستحيلا .

ويزيد هذا الأمر وضـــوحا ما نذكره عن الســـفارات التى قامت بين الكارولنجيين وبين العباسيين . وأولى هذه السفارات هى التى أوفدها پيپين الى بغداد عام ٧٦٥[٧٨] ، وآخرها سفارة من الخليفة المأمون الى لويس التقى عام ٨٣١[٧٩] ، وتعددت هذه السفارات بشكل ملحوظ أواخر أيام شرلمان ؛ عندما اتفق الكارولنجيون والعباسيون على عدائهم لحكام القسطنطينية وأمراء قرطبة الأمويين . وكان انتقال السفارات عبر المسالك البحرية التى تسيطر عليها بيزنطة بين الشرق والغرب صعبا للغاية . ولهذا سلكت معظم هذه السفارات طريقا طويلة ملتوية من الاسكندرية الى شمال افريقية ثم الى الموانى الواقعة تحت سيادة الكارولنجيين فى ايطاليا . وغالبا ما كانت تستغرق هذه الرحلة المتعرجة ثلاث سنوات على الأقل . ويؤيد صعوبة الانتقال البحرى ، أنه فى عام ٨٠١ م أهدى هارون الرشيد الى شرلمان فيلا ضخما ، سمى «أبو العباس» وسلك هذا الفيل طريقه برا من مصر الى شمال افريقية ومن هناك وضع فى سفينة أبحرت به الى ثغر لونى حيث أنزل ليتم رحلته الى بلاط شرلمان [٨٠] . وغادرت اكس — لا — شاپل عام ٨٠٢ سفارة الى بغداد فبلغتها عام ٨٠٦ . ويقال انها أفلتت وهى فى طريق عودتها الى ايطاليا من الوقوع فى أسر بعض الأساطيل البيزنطية ويحتمل أن يكون أسطول نكتاس . ثم واصلت سيرها بأقصى سرعة حتى بلغت مدينة تريڤيزو الايطالية[٨١] . وعلى أية حال فاننا اذا راعينا طول المسافة وصعوبة الانتقال استطعنا أن ندرك أن السفارات التى قامت بين شرلمان وبين الأغالبة فى تونس كانت أوثق صلة وأحكم رباطا .

ولم يقتصر ظهور الخلل فى نظام الرقابة البحرية البيزنطية على التجارة والانتقال بين شمال افريقية والشرق الأدنى الاسلامى فحسب ، بل حدث ما هو أخطر من هذا ، حدث أن بعض الموانى الايطالية التى كانت تخضع

اسما للرقابة البيزنطية خالفت نظام الرقابة هذا ، وتأتى البندقية فى مقدمة هذه الموانى . وكانت البندقية تتمتع بحكم ذاتى تحت السيادة البيزنطية ، وفى ذلك التاريخ كان لها بحرية تتكون من ستين الى ثمانين سفينة منذ ٧٤٢م[٨٢] . وامتدت مصالحها التجارية الى ما وراء حدود الامبراطورية بفضل محافظتها — بصفة عامة — على رابطة الولاء نحو بيزنطة . على أنه رغم القيود البيزنطية المفروضة ، نشط التجار البنادقة فى تصدير الرقيق والخشب لمدن الشواطىء الاسلامية . واشتروا عام ٧٤٨م رقيقا من روما ذاتها ليجنوا ثمار تلك التجارة الرابحة ، وكانت هذه التجارة أصل قدومهم تجارا فى ثغور افريقية الشمالية[٨٣] ، وكان أمر هذه العلاقات التجارية شائعا لدرجة أن ليو الخامس امبراطور بيزنطة حذر رعاياه أوائل القرن التاسع ، ولا سيما البنادقة من الاتجار مع سورية ومصر[٨٤] . ولا شك فى أنهم لم يذعنوا لهذا التحريم ويدلنا على ذلك أن سفن البنادقة عام ٨٢٧ أو ٨٢٨ استطاعت أن تنقل عظام القديس مرقص من مدينة الاسكندرية المضطربة الأحوال[٨٥] . وكان لتلك البقايا مبلغ عظيم من القداسة .

ويحتمل وجود محاولات مشابهة[٨٦] لوقف التعامل التجارى المحظور بين جزر بحر ايجه وشواطىء آسيا الصغرى وبين مصر وسورية ، الأمر الذى أدى الى قيام المسلمين باجراءات انتقامية ، وسبب هجرة كثير من المسيحيين من سورية وفلسطين الى قبرص والأناضول فى ٨١٣م . وربما يرجع سبب هذه المحاولات الى ثورة توما السلافى الكبرى فى ٨٢١—٨٢٣م ، وتقبله العون من الأساطيل المحلية للولايات البيزنطية ومن الخليفة المأمون[٨٧] . ولا شك أن فرض قيود دقيقة على التجارة مع سورية ومصر ، كان معناه القضاء على رخاء الثغور (التيمات) البحرية وهى بالضبط القواعد التى اعتمدت عليها الأساطيل الاقليمية . ووجود تجارة تهريب من نوع ما شرحنا ،

يفسر السبب فى اتجاه اللاجئين الأندلسيين من الاسكندرية الى كريت مباشرة . وليس ببعيد أن كانت هناك علاقات تجارية بين جزيرة كريت والأندلسيين مدة اقامتهم بالاسكندرية وأثناء سيطرتهم على ذلك الثغر المصرى العظيم ، أى قبل انتقالهم لجزيرة كريت .

وفى الجانب الغربى من البحر المتوسط نشأت كذلك علاقات تجارية بين البلاد العربية وبين الممتلكات التابعة لبيزنطة . وحملت لواء مخالفة نظام الرقابة بعض مدن البحر التيرانى مثل أمالفى ونابلى وجايتا . ومن المعروف أن نابلى تحولت فى عهد الملكة ايرين من التبعية المباشرة للحكم البيزنطى الى الحكم الذاتى بزعامة دوق ستيفن الذى كان ينتمى الى احدى أسر مدينة نابلى[٨٨] . وفى أيام ليو الخامس ، عندما كانت بيزنطة تزيد رقابتها الاقتصادية احكاما فى غير نابلى ، حدث أن فقدت المدينة استقلالها الذاتى وآل حكمها الى يونانى أجنبى اسمه برستوس پثاريوس الذى عينه حاكم صقلية[٨٩] . ولم يدم هذا التغيير طويلا ؛ ففى عام ٨٢١م طرد الحاكم اليونانى وعادت نابلى الى التبعية غير المباشرة تحت حكم رجل من سلالة دوق ستيفن[٩٠] . وفى هذه التغييرات ما يغرينا على الاعتقاد بأنها ترجع الى رغبة أهل نابلى فى الخلاص من القيود الاقتصادية التى يفرضها الحكام البيزنطيون عليهم . ومن المحتمل أن تكون تجارة شمال افريقية واسبانيا وصلت زمن الكارولنجيين الى روما عن طريق هذه الموانى البحرية وعلى الأخص نابلى .

ولم تكن المدن الممتدة على طول الساحل الفرنسى الايطالى ، بين ناربون ومصب التيبر ، معدومة النشاط فى تلك الفترة ؛ اذ قام مسلمو الأندلس حول ختام القرن الثامن بنقل بعض المتاجر الى مدينة آرل[٩١] ؛ وهذا بالاضافة الى نشاط اليهود . كذلك حدثت بعض اتصالات بين لوى

وبيزا وبين شمال افريقية[٩٢] . ويحتمل قيام ناپلى وجايتا وامالفى بالتجارة على طول سواحل البحر التيرانى . وثمة اشارة الى وجود تاجر انجليزى بمرسيليا وقتذاك ؛ ووجود أدلة على قيام علاقات تجارية بين انجلترا وبين مسلمى الأندلس[٩٣] .

على أن هذه الحالات الشاذة وأمثالها لا تغـير من الصورة الكاملة لتجارة ذلك العصر . فبقيت غالبية طرق التجارة الدولية فى البحرين الأسود والمتوسط تتجه نحـو المناطق التى تريد بيزنطة أن توجهها نحوها . وبلغ ذلك التوجيه فى هذه الحقبة مبلغا أقوى مما كان من ذى قبل . ولنا أن نقول اذن انه اذا أمكن للتونسيين أن يتاجـروا مع الشرق ومع موانى غرب ايطاليا ؛ واذا أمكن لتجار البندقية وناپلى وامالفى أن ينقلوا سلعهم الى البلاد العربية فى شمال افريقية وبلاد الشرق ؛ واذا أمكن للأقاليم البحرية فى آسيا الصغرى وكريت وبلاد اليونان أن يكون لها علاقات تجـارية بسورية ومصر على الرغم من خطة القسطنطينية المعادية لهذه العـلاقات جميعا ، فان ذلك التبادل التجارى كان ضئيلا نسبيا ولم يكن له من سبيل الى أن يناظر التجارة العظيمة الحرة التى قامت بين بيزنطة وبين تلك البلاد ذاتها قبل عام ٧١٦م . والمناطق الوحيدة التى احتفظت بأهميتها وحيويتها فى ميدان التجارة الدولية ، كانت المناطق التى شاءت بيزنطة لها ذلك مثل : خرسون وطربيزون والقسطنطينية وسالونيكا وصقلية وجايتـا وأمالفى وناپلى وبارى والبندقية ؛ وكذلك بعض الثغور الأندلسية فيما يحتمل . أما المراكز والأقاليم الأخرى المجاورة فمنها ما فقد أهميته منذ عام ٧١٦م ومنها ما كان جل تبادله التجارى مقصـورا على التجارة المحلية ولم يشارك فى التجارة العالمية الا بقدر ضئيل .

ولعل نظام الرقابة على التجـارة ذاك ، هو خـير ما يفسر الصراع

الطويل بين شرلمان وبين بيزنطـة حتى عام ٨١٢ م . وفى أول الأمر تردد شرلمان—فيما يبدو—فى مجاراة سياسة أبيه وهى التدخل فى شئون ايطاليا ، ولذا نراه لا يعبر الألب قبـل سـنة ٧٧٤م ولكنه أخـذ يدرك تدريجيا — ولا سيما أواخر حكمه — الأهمية الاقتصـادية للتجارة بالنسـبة لامبراطوريته . وعلى هذا فلم يكن تأييده للبابوية العامل الوحيد فى تشكيل سياسته فى ايطاليا وفى موقف العداء الذى وقفه من القسطنطينية ولكنه رأى أيضا ضرورة الاشراف على منابع الثروة التى يمكن أن تتدفق من البحر المتوسط على الشواطىء التابعة له . كما أنه رأى أيضا كيف تسيطر بيزنطة على التجارة ، وحاول أن يحطم تلك السيطرة . ويذكر أينهارت أنه أبدى مرة لسفير بيزنطى ، رغبته فى أن تكون امبراطوريته وثيقة الصلة فى التجارة مع الشرق[٩٤] .

وما بناء شرلمان لأسطول فى البحر المتوسط ، ومد نفوذه فى جزر البليار وسردينية وجنوب ايطاليا ، ومحاولاته السيطرة على البنـدقية وايستريا ودلماشيا ، الا جزء من خطة مدبرة تستهدف السيطرة على مصادر الثروة التجارية التى حرمت منها بلاده . والى هذا أيضا هدفت كل مباحثات شرلمان مع مبعوثى بطريق صـقلية ، نائب الامبراطور البيزنطى فى الغرب[٩٥] ، وكذلك خطبته للامبراطورة ايرين[٩٦] ، ومفاوضاته مع الحكام والخلفـاء العباسيين[٩٧] . بل ان اتخاذه لقب امبراطور عام ٨٠٠ يمكن أن يكون خطوة نحو ذلك الهدف ذاته .

وتجلى فهم شرلمان للنظـام التجارى واهتمـامه به ، فى مشروعاته الاقتصادية . فحاول أن يتخذ تدابير مضادة لقواعد الاحتكار التجـارى البيزنطى فى ايطاليا ولا سيما البندقية . ومع أن البندقية أعانته عام ٧٧٤م بقوة بحرية أثناء هجومه على پادوا ، الا أنه لم يكتف منها بذلك . وعندما

نزلت حملة بيزنطية بجنوب ايطاليا عام ٧٨٧ م ، عمد شرلمان الى الضغط الاقتصادى على البندقية ، فصادر منشآتهم فى پنتاپوليس وألغى امتيازاتهم التجارية الواسعة فى بلاده[٩٨] . وكانت هذه الوسائل بالغة الأثر للغاية ، فاستطاع فى فترة قصيرة ، بين عامى ٨٠٢ ، ٨٠٥ م ، أن يخضع البندقية تماما لنفوذه . وعندما تغير ميزان القوى بتدخل بيزنطة بقوتها البحرية ضده عام ٨٠٦ ، لجأ شرلمان الى فرض حصار اقتصادى وتسيير قوة حربية نحو المدينة[٩٩] . وظفر شرلمان بما أراد عام ٨١٢ م فقررت بيزنطة وقد هددت من كل جانب ، أن تتفق مع أعدائها الكارولنجيين . ويظهر من مطالعة نصوص هذا الاتفاق أن شرلمان نجح على الأقل فى الحصول لجميع التجار من رعاياه على أن يكون لهم حرية الاتجار داخل الامبراطورية البيزنطية . وفى مقابل هذا استعادت البندقية امتيازاتها التى كانت لها . على حين اعترف شرلمان بملكية بيزنطة لايستريا ودلماشيا[١٠٠] .

على أن الأحداث جعلت من هذا النصر شيئا أجوف فمات شرلمان قبل أن يوضع الاتفاق موضع التنفيذ ، ومات كذلك الامبراطور البيزنطى الذى منح كل هذه الامتيازات لشرلمان . ولم يتسن للويس التقى أن يظفر بأى تعاون من جانب البيزنطيين[١٠١] ، مع أن العلاقات ظلت وثيقة بين الدولتين حتى عام ٨٢٨ م . ولم يظفر رعايا الامبراطورية الكارولنجية بالحرية التجارية التى سعى اليها شرلمان . واستمر الوسطاء الخاضعون لرقابة أباطرة الدولة الشرقية هم وحدهم القائمون بتوزيع تجارة الشرق الهامة فى بلاد الغرب الخاضعة للفرنجة . وحتى لو صدقت رغبة بيزنطة فى أن تمكن التجار الكارولنجيين من المشاركة فى تجارتها فانها لم تقبل أبدا أن تسمح لهم بالاتجار المباشر مع مصر وسورية ، وهكذا نجد أنه عندما استولى الضعف على دولة الكارولنجيين عادت بيزنطة الى قصر التعامل فى السلع التجارية

التى كانت تحتكرها ، على المدن الايطاليـــة التى كانت تدين لها بالولاء . واستمر هذا النظام سائدا ، ولم يتحطم الا فى القرن الحادى عشر . ويمكن القول اذن ، أن شرلمان أخفق فى تحقيق هـــدفه الرئيسى ؛ ولم تســـتطع امبراطوريته ، وقد ضعفت فى أيدى خلفائه العاجزين عن احتذاء مثاله ، ان تحقق ما تمناه لها من آمال . وعلى هذا فليس هو شرلمان الذى حطم النظام البيزنطى وقضى على ما لبيزنطة من اشراف على تجارة البحر المتوسط . انما كان مسلمو شمالى أفريقية هم الذين فعلوا ذلك وأمكنهم أن يحققوا ذلك لا عن طريق الدبلوماسية والمفاوضـــات ولكن عن طـــريق تحطيم قـــوة القسطنطينية البحرية وبناء قوة أخرى خاصة بهم .

على أن الرقابة التجارية البيزنطية لم تقف عند مجرد حصر مرور التجارة الدولية فى مواضع خاصـــة ومنع مرورها من مواضع أخـــرى فيما بين عامى ٧١٦ ، ٨٢٧ م . بل كانت لها أهمية أخرى ،ترتبت عليها نتائج ربما لم تكن منظورة بالنسبة لتشكيل التجارة فىحوضىالبحرين الأسود والمتوسط . ذلك أن هذه الرقابة أدت الى تغيير الوسطاء الذين كانوا يقومون بالتبادل التجارى بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من نشاط بعض التجار الوطنيين فى ايطاليا وشمال افريقية ، فان التجارة بين الشرق والغـــرب ظلت حتى عام ٧١٦ م فى يد السوريين والمصريين واليونانيين واليهود ، واستقر التجار المشارقة ، جلابو البضائع الشرقية ، فى مستعمرات لهم فى الغرب ، ومنه كانوا يرسلون السفن الى الشرق محملة بالبضائع الغربية .

وابتداءمن عام ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار السوريين والمصريين الى أسواق الغرب(١٠٢) . وأكثر من هذا نرى البيزنطيين فى ختام القرن الثامن ، يحرمون على عـــدد كبير من التجـــار اليونانيين فى مناطق القسطنطينية وبحر ايجه وآسيا الصغرى ، نقل هـــذه

التجارة[١٠٣] . وهكذا ضيقوا الخناق على أنفسهم وعلى منافسيهم العرب ؛ والتزموا فى الوقت ذاته اتباع سياسة اقتصادية سلبية تكاد لا تقل سلبية عن تلك التى اتبعتها كل من سورية ومصر . وانتهى الأمر بأن حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية واشترطت ألا تسلك التجارة غيرها . وبهذا حطمت ما كان للتجار من رعاياها من حرية التبادل التجارى خارج حدود الامبراطورية . بل انها فعلت أكثر من هذا ؛ ذلك أنها جعلت توزيع البضائع الثمينة ، مثل الحرير والتوابل ، احتكارا لتجار تلك المنافذ التجارية ولمن سمح لهم بالقدوم اليها لأغراض التجارة . فمن خرسون مثلا قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتها ، ومن طريبزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ؛ ومن صقلية قام تجار شمال افريقية بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الأقصى . وكان أكبر جميع الموزعين نصيبا تجار المدن البحرية المحظوظة : البندقية وأمالفى ونابلى وجايتا .

وعندما بدأت هذه المدن تجنى أرباح قيامها بتوزيع التجارة فى الغرب ؛ تطلعت الى كسب جديد فأخذت ترسل سفنها الى مصادر التجارة والى القسطنطينية بالذات ، وسرعان ما صار لها الى جانب السيطرة على توزيع التجارة ، السيطرة على نقلها أيضا . ولقد ظلت القسطنطينية مركز التقاء جميع طرق التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ؛ ولكنها لم تتول الا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير ، ولذا انتقلت الأهمية التجارية أكثر فأكثر الى أطراف الدولة . وذلك باستخدام مدن الأطراف التى تمتعت سفنها الخاصة بالامتيازات فى الاتجار مع عاصمة الامبراطورية ومع الخارج . هذا وكانت ايطاليا خير مكان نستطيع أن ندرس فيه ذلك النظام وذلك لغزارة ما لدينا من معلومات عنها . فحتى عام ٧١٦ م كان التجار اليونانيون منتشرين فى المراكز الايطالية ويضعون أيديهم على معظم التجارة

البحرية بين ايطاليا وشرق البحر المتوسط . ولكن حوالى عام ٨٠٠ اختفى أكثر هؤلاء ، كما اختفى السوريون والمصريون (١٠٤) .وانتقل العمل فى هذه التجارة الهامة الى أهل البندقية وأمالفى وبارى .

ولعل الاشارة الى تطور حديث مماثل ، يزيد ما حدث وضوحا . فقرب نهاية القرن السادس عشر ، احتكرت هولندة توزيع تجارة التوابل الهامة بسبب رفض البرتغال بيع التوابل فى غير لشبونة . وكانت سفنهم تلتقى بالأسطول البرتغالى فى لشبونة وتشترى التوابل جملة وتحصل على أرباح الوسيط من توزيعها فى غرب أوربا . ثم سرعان ما بلغ الهولنديون مرتبة أعلى ، فبدأوا خلال القرن السابع عشر يذهبون الى مصادر هذه السلع فى مناطق النفوذ البرتغالية فى الشرق الأقصى ، ثم لم تلبث أن تركزت فى يدهم عملية نقل تلك التجارة من الشرق وتوزيعها فى الغرب . وهذا هو ما حدث تماما لبيزنطة .

وانتهى هذا الاجراء الى نتيجتين هامتين بالنسبة لبيزنطة : أولاهما ، قيام قوة بحرية عند أطراف الدولة ، فى ايطاليا مثلا ، حيث كان من الصعب ان لم يكن من المستحيل السيطرة عليها بالقوات البرية المحدودة التى كانت تملكها القسطنطينية اذ ذاك . وفى هذه الظروف بلغت مدن ، مثل البندقية ونابلى ، مرتبة الولايات المستقلة (١٠٥) . واذن فلم يكن من الميسور على بيزنطة أن تشرف على تلك المدن اشرافا كاملا الا عندما ترسل اليها أسطولا بحريا كما حدث مع البندقية عام ٨٠٦ ، ٨٠٨ م . وغالبا ما استغلت هذه المدن قواتها البحرية والتجارية استغلالا يخالف اتجاهات السياسة البيزنطية ، كالاتجار مع المناطق التى حظر التعامل معها ، وعلى الأخص مع الموانى الاسلامية فى شمال افريقية ومصر وسورية . ويعتبر نشاط البندقية بالذات هو سبب تحريم الامبراطور ليو ، الاتجار مع بلاد الشرق الاسلامى أوائل

القرن التاسع [١٠٦] . هذا والموقف الذى وقفته المدن الايطالية من سن القيود التى فرضتها بيزنطة على التجارة يماثل موقف سكان اقليم نيوانجلند الأمريكيين من قوانين الملاحة البريطانية فى القرن الثامن عشر ، فكانت النتيجة واحدة فى الحالتين وهى عدم رضا الدولة الأم عن تصرف رعاياها فيما وراء البحار .

والنتيجة الثانية ، ولعلها أكثر أهمية ، هى أن ازدياد قوة ممتلكات بيزنطة البحرية القائمة عند أطراف الامبراطورية فى ايطاليا ، كان له أثره فى قوة بيزنطة البحرية ذاتها . ذلك أنه بازدياد خروج عملية نقل التجارة من أيدى البيزنطيين الى أيدى الأغراب البعيدين ، ازداد التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل الأجناد البيزنطية فى بحر ايجه وكبيرها يوت ، اذ كانت تلك الأساطيل تعتمد على من تجمعهم بالقوة من ملاحى السفن التجارية . وهذا هو الذى يفسر ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع . أى ان ذلك الضعف يرجع الى هذا أكثر مما يرجع الى اهمال فعلى من جانب الحكومة لشئون الأسطول . وقد ترتب على هذا الضعف أنه لم يعد فى مقدور أساطيل صقلية وبحر ايجه مواجهة قوى بحرية كانت منذ قرن لا تستطيع أن تقف أمامها [١٠٧] .

انتهى هذا النظام البيزنطى الى نوع من السلبية الاقتصادية فى داخلها والى ضعف بحرى صار من العسير اصلاحه مالم تلجأ بيزنطة الى تغيير شامل فى أساليبها الاقتصادية والحربية والبحرية . وأخذت بيزنطة طريق الركود الاقتصادى ، شأنها فى هذا شأن ضحيتيها : سورية ومصر . حقيقة كانت بيزنطة لا تزال غنية ، ولا تزال قوية ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامته ضد أعدائها .

وكانت نتيجة السياسة البيزنطية بداية تحول التجـار الايطاليين من أصحاب ثغور تتمتع بامتيازات خاصة الى وسطاء فى التبادل التجارى بين الغرب والشرق ، ذلك التبادل الذى كانت تسيطر عليه بيزنطة . ولم يكن الايطاليون وحدهم فى هذا الميدان ، بل ظهر الى جانبهم — فيما بعد — منافسون أقل منهم درجة وهم تجار مسلمى شمال افريقية . فقام العرب — نتيجة لانهيار قوة بيزنطة البحرية — من موانيهم ببلاد المغرب ، بدور الوسيط بالنسبة لسكان شمال افريقية وبالنسبة للأندلس أيضا . وهو الدور الذى قام به التجار الايطاليون بالنسبة لأوربا . وكان مسلمو شمال افريقية هؤلاء ، يذهبون الى موانى سورية ومصر — وقد ترك أهلهما للغرباء القيام بضروب مختلفة من النشاط الاقتصادى — ويعودون ببضائع تلك البلاد ليوزعوها على البلاد الاسلامية فى الغرب . وقاموا بهذا الدور ذاته فيما يتعلق بالبضائع البيزنطية المأخوذة من صقلية وانتقلت بعد عام ٨٢٧ ، الى أيدى هؤلاء التجار المسلمين — أكثر مما انتقلت الى الايطاليين — الثروة التى فاضت بها تجارة البحر المتوسط على من كانت لهم السيادة عليه من قبل.

واتجهت الطرق التجارية الكبرى فى ذلك الوقت حسبما اقتضت مصالح بيزنطة فى منطقتى البحرين الأسود والمتوسط ؛ فكانت مدينة القسطنطينية نقطة التقائها جميعا . ويبدو أن أكثر توابل الشرق وحريره وسائر منتجاته وردت الى القسطنطينية وعالم البحر المتوسط عن طريق الطرق الساسانية القديمة . وهذه الطرق كانت اما برية تسلك بلاد فارس ، واما بحرية الى الخليج الفارسى ومنه الى البصرة ثم بغداد [١٠٨] . أما التجارة البحرية مع بلاد الشرق الأقصى فبلغت درجة كبيرة من الأهمية ولا سيما مع موانى العراق ، بسبب عظم نشاط التجار المسلمين وقتذاك . اذ وصلت جموع كبيرة منهم الى بلاد الصين [١٠٩] ؛ وغدت بغداد — بفضل تلك التجارة —

مدينة عالمية كبرى ، والمدينة الثانية بالنسبة للقسطنطينية من حيث الثروة وعدد السكان (١١٠) .

وانتقلت عن طريق العراق كميات من بضائع الشرق الى البحر الأسود الذى كان المدخل البيزنطي لتجارة العرب . وأصبحت أرمينية بحكم عبور التجارة الى طربيزون أشبه ما تكون بدولة تعزل دولتين كبيرتين احداهما عن الأخرى ، وان خضعت بصورة أوضح للنفوذ العباسي ، هذا وقد بلغت أرمينية درجة كبيرة من الثراء والرخاء(١١١) . ومن طربيزون كانت تنتقل المتاجر الى القسطنطينية ، وكانت هذه أكبر مركز لتوزيع التجارة على بلاد البحر المتوسط . ووصلت كميات أخرى من بضائع الشرق الى العاصمة عن طريق خرسون ، على يد الخزر الذين قاموا بدور الوسيط على طول طريق وسط آسيا التجارى .

ومن بيزنطة كانت طرق البحر المتوسط العظمى ، هى تلك التى تتجه الى صقلية وأمالفى ونابلى وبارى والبندقية وغيرها . ويظهر أن طريق البحر الادرياتى استخدم أكثر من غيره . وعرض البنادقة وغيرهم للبيع بضائع الشرق وتوابله وحريره الوارد من بيزنطة فى مدينة پافيا(١١٢) ، حيث كان يحضر للشراء تجار الغرب ومعظمهم من الألمان ثم يعبرون الألب ببضائعهم ليبلغوا بها شمال أوربا عن طريق ميانس والرين(١١٣) ، الى جانب استخدام ممرات أخرى تصل بهم الى حوض الرون الأعلى (١١٤) . ويبدو أن أهالى أمالفى ونابلى وجايتا ، نقلوا هذه البضائع الى روما وبلاد الغرب كما نقلها مسلمو شمال افريقية الى بلاد المغرب وربما الى الأندلس(١١٥) .

ووجد الى جانب هذه الطرق ، طريق آخر بلغ جانبا كبيرا من الأهمية وقتذاك لوصوله الى شمال أوربا ، وهو الطريق الذى يسلك أنهار روسيا الى البحر البلطى والبحار الشمالية . ويمكن القول أن هذا الطريق الأخير

جاء بديلا للطريق الواصل الى ايطاليا . ووجدت التجارة الشرقية الآخذة فى الازدياد عبر ذلك الطريق ، انه من الضرورى اتخاذ مراكز لها فى كييف وتشجرود ، على روافد الأنهار الروسية ، واستخدمت هذه الأنهار كذلك لنقل أفواج من العبيد وكميات من الفراء التى كانت تصدر الى بيزنطة مقابل المنتجات الواردة منها الى تلك المراكز (١١٦) .

وبينما كانت تستخدم معظم التجارة العالمية هذه الطرق اذا بالطرق التجارية القديمة تفقد أهميتها بشكل ملحوظ . وينطبق هذا بصفة خاصة على الطريق الواصل ، عبر مصر ، الى الشرق الأقصى . وربما لم يشجع العباسيون استخدام طريق البحر الأحمر لنقل تجارة الشرق(١١٧) ، بسبب حرصهم على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون . لكن الرأى الأكثر وجاهة هو أن بيزنطة لم تشجع ورود هذه التجارة عن طريق البحر المتوسط. وبصرف النظر عن مسئولية أحد الطرفين عن ذلك فالملاحظ عامة تدهور تجارة البحر الأحمـر وقتذاك اذا ما قورنت بالازدهار الذى بلغته زمن البيزنطيين وأوائل عهد الأمويين . وحوالى عام ٨٠٠ اختفت هـذه التجارة كلية الا من أيدى اليهود وحدهم ، وكانوا آخر من بقى ممن يمثلون النظام القديم ؛ فكانوا يسلكون هذا الطريق ويعبرون برزخ السويس الى البحر الأحمر وعدن ثم الى بلاد الصين (١١٨) . أما القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فتركت لتطمرها الرمال (١١٩) ، كما اختفى أسطول الأمويين من البحر الأحمر . وفى هذه الآونة ألف القراصنة ارتياد هذا الطريق الى قرب جزيرة سقطرى (١٢٠) ، واقتصر العمل فى مياه البحر الأحمر على عدد يسير من السفن الصغيرة عرفت بسفن القلزم وكانت تقوم بنقل بعض بضائع الشرق من الخليج الفارسى الى مصر (١٢١) .

وشاهدت المياه المصرية من البحر المتوسط خمولا مماثلا ، اذا ماقورنت

فى ذلك العهد بما كانت عليه من قبل . حقيقة أن الاسكندرية ما زالت ثغرا عظيما ولكنها كانت دون عظمتها فى الماضى ؛ كما كان نشاطها الاقتصادى اذ ذاك سلبيا ، فكانت تكتفى باستقبال التجار من سورية ومن سوسة أو من البندقية أو من أصحاب السفن اليونانيين الذين تجاهلوا تحريم بيزنطة حضورهم . وتغلب الأندلسيون المبعدون عن الأندلس على المدينة بدون عناء كبير عام ٨١٥ (١٢٢) . ولكن هل كانت للاسكندرية تجارة مباشرة قيمة مع بيزنطة أم لا ؟ من العسير أن نجد الدليل الكافى عليه .

ويمكن القول جملة ان موانى سورية كانت هى الأخرى على حالة مماثلة من الركود فى ذلك الحين . حقيقة كان قد بقى لبيروت بعض الأهمية ولكن لا دليل على افاقة سواحل سورية من السكون الذى خيم عليها منذ عام ٧١٦ م ، اذ فترت سفنها عن المساهمة فى مضمار التجارة الدولية ، اللهم الا من بعض رحلات لعلها بلغت القسطنطينية (١٢٣) . وربما كان لنزوح عدد من المسيحيين عن هذه السواحل فى سنة ٨١٣ تحت ضغط العباسيين ، آثاره البعيدة فيما لحق هذه السواحل من كساد (١٢٤) .

وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط فى سورية ومصر ، يقال مثله عن نهايات هذه الطرق القديمة فى غربه . فعلى الرغم من بقاء بعض الأهمية لكل من لونى ومارسيليا فى التجارة المحلية مع شمال افريقية والأندلس بصفة خاصة (١٢٥) ، فان التجارة العالمية بين الشرق والغرب لم تعد تقصد طريق جنوب فرنسا وتكملته فى وادى الرون . وحلت ايطاليا وعلى الأخص وادى البو محل فرنسا . وأخذت تنضب بعد عام ٨٢٨ ، التجارة المحلية الذاهبة الى الشواطىء الكارولنجية ، بين شقيتاقكيا وبين برشلونة . واقتصر استخدام الطريق القديم بين مارسيليا والموانى الأندلسية وبين مصر على التجار اليهود (١٢٦) . ولا نعرف عن الأندلس سوى القليل ،

ولكن يظهر أن أهميته فى ميدان التجارة الدولية لم تكن كبيرة فى ذلك الوقت (١٢٧) ، وربما أدى تحالفه مع بيزنطة الى منع التعرض لتجارته مع الاسكندرية .

ونجم عن تغيير طرق التجارة وتغيير الوسطاء التجاريين فى حوض البحر المتوسط ، تكبات أصابت اقتصاديات كثير من البلاد المطلة على سواحله . والواقع أن هذه الارتباكات بلغت من الخطورة بحيث عمت الشرق والغرب ، وكانت ايطاليا وبيزنطة القطرين الوحيدين اللذين لم تصبهما كل آثار ذلك الارتباك . ومع ذلك فانه مع بقاء مستوى الرخاء فيهما مرتفعا فانه كان دون ما كان عليه فى أيام جستنيان (١٢٨) .

وقد حدث ما يماثل هذا فى الأجزاء الغربية من بلاد البحر المتوسط ، وهذا يدلنا عليه عدد من الحقائق ، أولاها استمرار تدهور المدن الساحلية فى جنوب فرنسا وشمال غرب ايطاليا رغم حركة الانتعاش البحرى الكارولنجية المؤقتة زمن شرلمان ولويس التقى . ونذكر على سبيل المثال أن جنوة ظلت خاملة ، على حين استمر طريق التجارة بين روما وشمال ايطاليا يتبع طريق فرانشجنا الداخلى (١٢٩) . وينطبق هذا القول تماما بالنسبة لساحل جنوبى فرنسا ، فمثلا لم تبن ماجلون ثانية بعد ما خربها الكارولنجيون الأول ، بل تركت على حالها (١٣٠) . واقتصر ما حدث من تطور فى تلك المنطقة على تقدم الزراعة فقط دون التجارة أو عمران المدن . ومنح شرلمان وخلفاؤه أملاكا واسعة للأديرة مثل دير أنيان ودير جيلون ، وهذه الأديرة أسست عددا كبيرا من الأديرة الصغيرة الملحقة (١٣١) . وكذلك منح لويس التقى بعض اللاجئين من اسبانيا أرضا فى هذا الاقليم (١٣٢) . ويمكننا أن نستدل على مدى غلبة الصفة الزراعية على هذا القسم من الامبراطورية الكارولنجية ، وعلى قلة تأثره بالتجارة ، من أن الفضة كانت النقد المسكوك المستعمل .

وهذه الفضة سكت على أساس البنى (أو الفلس) الكارولنجى القليل القيمة فى التجارة الدولية فى ذلك الحين [١٣٣] .

ونجد الحال فى الأندلس مشابهة لهذا بعض الشيء . اذ ساد استخدام الدرهم الفضى الذى ضربه الأمويون [١٣٤] . وثمة شواهد على قيام مشكلات اقتصادية اذ توالت الثورات ضد أمراء قرطبة . والظاهر أنها تركزت فى المدن مثل قرطبة وطليطلة ، وان اخمادها تم بصعوبة . وربما كانت هذه الثورات دينية أو اجتماعية فى حقيقة أمرها ولكنها تدل أيضا على أحوال اقتصادية قاسية [١٣٥] . وحوالى منتصف ذلك القرن ازدادت الثورات الى حد كبير فشملت المستعربين والمسيحيين الأصليين على حد سواء ، مما عرض الحكم الأموى للزوال [١٣٦] .

أما شمال أفريقية فكان أحسن نوعا من الأندلس وفرنسا ، رغم أن قيام بلد من نوع فاس ، يؤكد الطبيعة الزراعية التى اتصف بها القسم الغربى من بلاد المغرب حينذاك [١٣٧] . على أن الثورات والاضطرابات العنيفة استمرت حتى عام ٨٠٠ م ، بين قبائل البربر . وقد انتشرت آراء الخوارج بينهم وبين الجند المحاربين من العرب[١٣٨] . وربما كانت هذه الاضطرابات سبب تدهور الأحوال الاقتصادية فى ذلك الحين وربما كانت نتيجة لها كذلك . لكن ثمة حقائق مؤكدة لا غموض فيها ، ففى خلال الخمسين السنة التى سبقت استقلال الأغالبة بحكم تونس ، هبط مستوى الرخاء فى هذه المنطقة الى حد ضئيل جدا ، حتى غدت الوسيلة الوحيدة لتغطية نفقات الحكومة هى الاعانة السنوية المرسلة من مصر والتى بلغت مائة ألف دينار من الذهب[١٣٩] ولا شك أن هذا يدل على حال تختلف كثيرا عن حال الثراء الذى تمتع به شمال أفريقية زمن البيزنطيين .

ويمكن القول ان تلك الفترة شاهدت تدهور معظم الحواضر الرومانية

والبيزنطية القديمة على طول الساحل الافريقى ولم تخرّب قرطاجة وحدها بل خربت مدن أخرى كثيرة واضطر الناس الى هجرها والنزوح عنها[١٤٠] . على حين أنشئت فى الجنوب الشرقى من تونس مراكز جديدة مثل سوسة وصفاقس وجفصة والقيروان وغيرها . وكانت معظم هذه المدن على صلات طفيفة مع ماضى شمال أفريقية القديم ، وبعيدة فى الوقت نفسه عن تهديدات صقلية البيزنطية . ورغم أن هذا الاقليم أخذ يتطور ويصل الى رخاء حقيقى بعد عام ٨٠٠ ، الا أنه سار فى هذه الطريق ببطء شديد . وبصرف النظر عن كل هذه الارتباكات ، فقد ظلت العملة السائدة فى شمال أفريقية[١٤١] ، هى الدينار الذهبى لا الدرهم الفضى الذى جرى عليه الأمويون فى الأندلس والكارولنجيون فى فرنسا . وربما رجع تدعيم اقتصاديات هذا الاقليم الى ما ينتجه من زيت الزيتون الذى احتاجت التجارة الدولية اليه بكثرة .

أما فيما يتعلق بمصر فقد عرضنا للحالة فيها باختصار ، ولكن بدراسة أكثر دقة ، يتضح لنا مركزها الاقتصادى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع . فمع بقاء الدينار الذهبى الاسلامى وسيلة للتعامل فى مصر فان أحوالها الاقتصادية يمكن أن يقال عنها كل شيء ، الا كونها مرضية [١٤٢] . وحتى هذا المستوى السيىء للمركز الاقتصادى ، نجده يتدهور فى المدة بين ٧١٦م الى ٧٥٢م . وفى أيام العباسيين الأول ، يبدو أن ثورات القبط والقبائل العربية المقيمة بمصر قد قامت بسبب زيادة الضرائب على الأخص . ثم دخل ذلك الاقليم عام ٨١٥ م فى دور من الفوضى والاضطراب استمر ستة عشر عاما ؛ ولم يسد النظام بعض الشيء الا بعد عام ٨٣١ م . وأضيف الى عامل القلاقل ذلك ، اعتداءات خارجية كتلك التى قام بها اللاجئون الأندلسيون على الاسكندرية . هذا كله أوقف حركة النقل والتصنيع والتجارة فانتشرت المجاعة بين النساجين فى تنيس [١٤٣] . وهجـر الفلاحون القبط أراضيهم

رغم عدم السماح لهم بذلك (١٤٤) . وخرب البدو الرحل مساحات كبيرة من الأرض على الرغم من الجهود اليائسة التى بذلها ولاة العباسيين لاعادة النظام(١٤٥) . وان الفارق لعظيم بين مصر هذه ، وبين مصر أيام البيزنطيين وأوائل عهد الأمويين .

أما الحالة الاقتصادية فى سورية فمعلوماتنا عنها أقل الا أننا نعرف أن الدينار الذهبى بقى مستخدما فى التعامل هناك أيضا . ويبدو هذا غريبا اذا علمنا أن الدرهم الفضى هو العملة السائدة وقت ذاك فى بلاد العراق المجاورة لسورية . ويدل بقاء استخدام الذهب فى سورية على استمرار بقاء التجارة بينها وبين مصر والقسطنطينية . على أن أحوال جزيرة قبرص — وهى التى تقع بين شواطىء سورية وبين الامبراطورية البيزنطية ولا يتسلط عليها أحدهما أو كلاهما — تدلنا على أن التجارة بين تلك الأقاليم المتجاورة لم تكن على جانب كبير من الانتعاش . وقد حدث فى قبرص فى تلك الفترة أن تدهورت مدنها ، مثل ما حدث فى المدن الرومانية القديمة بشمال افريقية؛ ففقدت معظم المدن الهامة سكانها . وعندما عاد الرخاء الى الجزيرة فى القرن العاشر أنشئت المدن الجديدة بعيدا بعض الشىء عن المواضع التى قامت بها المدن الرومانية والبيزنطية السابقة (١٤٦) .

ولم يفلت من هذا الركود الاقتصادى الذى أصاب بلاد البحر المتوسط سوى الامبراطورية البيزنطية ذاتها وايطاليا معها . وظلت مدينة القسطنطينية أكبر مراكز البحر المتوسط للتجارة والصناعة . وظل نقدها الذهبى نقيا ومتوافرا ورخاؤها مضمونا . واذا كان القياصرة الأيسوريون أقل من جستنيان تشييدا للعمائر ، واذا كان ما خلفوه من الصور ضئيلا فربما كان مرجع هذا الى موقفهم من الايقونات أكثر من أى سبب آخر . ونحن نسلم بأن ذلك العصر خلا من الثوران الثقافى الذى ميز القرن السادس ؛ ولكننا

نستطيع أن نعزو ذلك الى انشغال الناس بالجدل الدينى أكثر من أن نرجعه الى قلة النشاط العقلى . ويظهر أن خلفاء ليو الثالث من الموالين لتقديس الصور أمثال قنسطنطين الخامس وغيره من المنتمين للأرثوذكسية حطموا ما أنتجه اللاأيقونيون . وكان ميزان القسطنطينية التجارى خاصة وميزان الامبراطورية البيزنطية عامة فى صالحها ، وكان نشاطها الاقتصادى عظيما . والا فكيف تفسر مقدار الكميات الطائلة من الذهب التى أرسلت جزية من القسطنطينية الى بغداد فى القرن الثامن ؟ (١٤٧) .

وما قلناه عن بيزنطة يصح قوله عن ايطاليا الا فيما يختص بسواحلها الشمالية الغربية . ذلك أن التجارة أنعشت معظم شبه الجزيرة بفضل اتجاه طرق التجارة اليها ، وبفضل ما كانت تجلبه من ثروة . ولم يقتصر الرخاء على المناطق المملوكة لبيزنطة فحسب بل تعداه الى مناطق أخرى . وشاركت البلاد التابعة للكارولنجيين البلاد الأخرى فى هذا الرخاء . وتدلنا حياة التجار من أمثال فرتناتس Fortunatus على مدى اتساع نطاق التجارة اذ ذاك(١٤٨) . كما يدلنا عليها أيضا ما تمتع به بلاط ملك اللمبارد فى بنفنتم(١٤٩) من ثراء . وتداول الناس فى حرية تامة الدنانير الذهبية العربية وعملة القسطنطينية . وضرب الكارولنجيون فى الشمال عملتهم الذهبية على نسق العملتين السابقتين المستخدمتين فى أغراض التبادل التجارى(١٥٠) .

وثم اقليم آخر جديد هو روسيا نال اذ ذاك قدرا مماثلا من الرخاء بعد أن كانت امكانياته التجارية محدودة نسبيا . فعندما تحولت طرق التجارة وتركزت فى القسطنطينية ، ازدادت أهمية الطريق التجارى القديم الواصل بين البحرين الأسود والبلطى . وقامت على طول أنهار روسيا ، مراكز تخصصت فى التجارة ، وسلكت البضائع البيزنطية والاسلامية طريقها عبر هذه الأنهار الى البحر البلطى وبحر الشمال ، وانحدر الى هذه الطرق

مغامرون من الشمال من اسكندناوة ، وقصدوا مدينة ميكلجراد العظيمة Micklegrad على شـواطىء البسـفور . وهكذا أخـذ طريق الفارنجيين Varangians فى الظهور ؛ وأوشكت روسيا — كما عرفت فى التاريخ — أن تولد ، ثم كان فطامها على ذهب الامبراطورية البيزنطية وفضـة التركستان الاسلامية [١٥١] .

وهكذا أدى عصر سيادة بيزنطة على البحر المتوسط وكفاحها فى مراحله الأخيرة الى تحول كبير فى شئون هذا البحر . فاستخدمت بيزنطة قوتها البحرية فى توجيه التجارة الوجهة التى تنفق ومصالحها . ونتجت عن هذا سلسلة من الاضطرابات الاقتصادية : هبوط اقتصادى حاد فى الأندلس ومصر ، جلاء كامل تقريبا عن المدن فى جنوب فرنسا وشمال غرب ايطاليا وقبرص وساحل شمال أفريقية ، تضاؤل أهمية الطرق التجارية القديمة المارة بسورية والبحر الأحمر ووادى الرون ، وازدياد قيمة الطرق التجارية الجديدة بين البحر الأدرياتى ونهرى البو والرين وكذا طريق الفارنجيين الواصل الى شمال أوربا والطرق المؤدية الى الشرق بين البحر الأسود وبحر الخزر وبين طربيزون وأرمينية ، والجزيرة .

وشاهدت تلك الفترة أيضا ، قصر استخدام الذهب فى التجارة الدولية ، على مجال أضيق كثيرا مما كانت عليه الحال زمن جستنيان أو معاوية . واقتصر التعامل بالذهب حينذاك على وسط شرق البحر المتوسط ، حيث تعاملت مصر وسـورية وشمال أفريقية بالدينار الاسلامى . واستخدمت الامبراطورية البيزنطية عملتها الخاصة بها واستخدمت ايطاليا العملتين معا . أما الصلدى الذهبى الذى ضربه شرلمان ولويس التقى لمنطقة بحر الشمال خاصا بامبراطوريتهم فيغلب أن سكته كان قليل التأثر بتلك التطورات . أو أنه يمثل ما كان موجودا ، فيما يلى نهاية طريق الفارنجيين التجارى [١٥٢] .

وامتدت مناطق استخدام الفضة الى الشرق والغرب على جانبى منطقة استخدام الذهب . ففى الغـرب استخدم الأندلس الدرهم الاسـلامى ، واستخدم معظم غرب أوربا فيما عدا ايطاليا وقليلا من المناطق الشمالية — البنى الفضى الكارولنجى . أما فى الشرق فاستمرت كل من العراق وفارس والتركستان تستخدم الدرهم الفضى القديم المضروب على نمط العمـلة الساسانية التى كان لها السيادة فى المحيط الهندى .

كما أن السيادة البيزنطية أفضت الى تغيير الوسطاء بين بلاد الشرق والغرب فى البحر المتوسط ؛ فقضت على قيام السوريين والمصريين بهذه الوساطة فى نقل التجارة العالمية ، وقضت أخيرا وبطريقة غير مقصودة على وساطتها هى أيضا . وساعدت على انتقال تلك العملية الى التجار الايطاليين ، والى تجار شمال أفريقية المسلمين بدرجة أقل . فقاموا بدور الوسـيط التجارى الكبير فى حوض البحر المتوسط وربطوا توابل الشرق وحريره ومصنوعاته برقيق الغرب وحديده وخشبه وزيت زيتونه . ويتمثل اخفاق بيزنطة فى ذلك التغيير أكثر مما يتمثل فى أى شيء آخر ، ذلك ان الخطة التى سارت عليها أوجدت قوة بحرية فى بلاد لم تستطع بيزنطة أن تسيطر عليها السيطرة اللازمة . وفى عام ٨٢٧ م ، قام سكان شمال أفريقية بهجوم بحرى قضوا فيه على ما بقى لبيزنطة من سلطان بحرى وتجارى فى البحر المتوسط ، وأوجدوا نظاما جديدا لذلك البحر أتاح للاسلام السيطرة على جانب كبير من مياهه .

حواشي الفصل الرابع

١ - Pirenne's Mohammed and Charlemagne, p. 184-8.
الرأى الأساسى لبيرين فى هذه المسألة يبدو معقولا .

٢ - Brooks, E.N. "The Relations between the Empire and Egypt from a New Source" in Byz. Zeit. (1913) XVII, 383-4.

٣ ـ على الرغم من أن قوصرة كانت فى أيدى المسلمين عام ٧٠٠ الا أنها صارت عام ٨٣٥ بيزنطية تماما ، ويحتمل أنها انتقلت الى أيديهم حول عام ٧٥٢ . انظر .
Ibn al Athir, trans. in Vasiliev Byzance et les Arabes I, 360.

٤ ـ هذا التحول فى مركز القوى الاسلامية بتونس حول قرطاجة ليس آخر الأمور خطورة فى ذلك العصر ، اذ الواقع أنه تحول هام للغاية والمعتقد أنه راجع الى خوف العرب من غارات القوات التابعة لصقلية .

٥ - Ibn Al Athir. trans. Fagnan (Algiers 1901), p. 90.

٦ - Ibn Idhari I, 107. Nuwairi in Ibn Khaldun Hist. des Berbères I, 394.Ibn Al Athir, p. 149. Masudi Prairies d'Or ,IV, 98.

٧ - Masudi Prairies d'Or, IV, 98.

٨ - Theophanes, p. 671. Lombard, M. Constantin V (Paris 1902), p. 48.

٩ - Theophanes, p. 687

١٠ - Gay L'Italie Meridionale p. 46-48.

١١ - Chron. of Psuedo Fredegarius in MGH Script. Rer. Merov. II, 197.

١٢ - Jaffé-Wattenback Ragesta, no. 2424.

١٣ - Bôhmer-Muelbacher Regestrum, p. 138.

١٤ ـ استمرت العلاقات الوثيقة بين أمويى الأندلس وبين بيزنطة فترة طويلة الى ما بعد الكارولنجيين أى الى القرن ١١ م فى الواقع . واعتمدت هذه العلاقات على المصالح المتشابهة والمعارضة المشتركة للكارولنجيين ولأسرة أوتو وللحكام المسلمين فى صقلية وشمال افريقية .
Lévi Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (Cairo 1944), pp. 175-78376-82.

١٥ - Brooks, E.N. op. cit., p. 384.

١٦ - Brooks, E. N. "The Byzantines and Arabs at the time of the Early Abbassids", in Eng. Hist. Rev. (1900) XV, 745-46.

١٧ - Balduri, p. 154, Weil Geschichte der Chalifen II, 151.

١٨ - Ibnu'l-Tigtaga-aè Fakri trans. Amari (Paris 1910) in Archives Marocaines XVI, 240-43.

١٩ ـ المرجع السابق ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ .

٢٠ - Mas Latrie Traités de Paix et Commerce, etc.... (Paris 1865) p. 5.

٢١ - Amari, Storia I, 268-77.

٢٢ - Wiet, Egypte Arabe, p. 61-63. Lane-Poole Egypt, p. 31-38.

٢٣ ـ وفى الوقت نفسه نجد أن حركات انفصالية مشابهة حدثت فى الاقاليم الشرقية التابعة للدولة العباسية حيث لم يكن للقوة البحرية أثر بالمرة . وهذا الانحلال الذى أصاب دولة العباسيين فى الشرق مرجعه الى النظام الادارى السيىء الذى جرى عليه حكامها .

٢٤ - Ann. Reg. Franc in MGH Script. I, 104.

٢٥ - Eginhard in MGH Script. II, 45. Ann Reg. Franc. in MGH-Script. I, 193.

٢٦ - Ganshof "Note sur les Ports de Provence du VIIIe au Xe siècles" in Rev. Hist. (1938) CLXXXIII, 31.

٢٧ - Ann. Reg. Franc. in MGH Script. I, 194. Buckler op. cit. p. 23-24.

٢٨ - Eginhard Ed. Duchesne, p. 258. Amari Storia I, 354-55.

٢٩ - Campaner y Fuertes Bosquejo Historico de la Dominacion Islamica en las islas Baleares (Palma 1881), p. 10-17.

من الأمور الطريفة تلك الفروق الدقيقة فى المراجع عن مسلمى الاندلس ومسلمى شمال افريقية ، اذ اطلقت تلك المراجع على أهل الاندلس اسم المغاربة على حين أطلقت على أهل شمال افريقية اسم العرب . وقد أدرك مؤرخو الكارولنجيين الاختلاف بين سياسة كل من هذين المعسكرين حيال ممتلكات الكارولنجيين فى أوربا .

٣٠ - Wiet op. cit., p. 68-72.

٣١ - Al Kindi, p. 180-84. Lane-Poole op. cit., p. 35-38.

٣٢ - Theophanes, p. 749. Abu-al Fida Annales Moslemica trans. Reiske and Adler, II, 91.

يبدو أن قبرص كانت خالصـــة للبيزنطيين فى ذلك الحين ، اذ نفى اليهـــا قنسطنطين الخامس عام ٧٧٠ م . بسبب تقديسه للصور .
Theophanes, p. 688.

٣٣ - Masudi Prairies d'Or II, 337.

٣٤ - Const. Porphyr. De Admin. Imp. c. 49, p. 217.

٣٥ - Vasiliev. A. Byzance et les Arabes I, 64,
انظر أيضا Amari Storia I, 332, 356-7.

٣٦ - Codex Carolinus ed. Cenni, IX, X.

٣٧ - Ibn Al Athir, p. 182.

٣٨ - Amari Storia I, 358-59.

٣٩ - Ibn Idhari I, 120.

٤٠ - Pirenne op. cit., p. 248.

٤١ - "Capitula de expeditione Corsicana" in Capit. Regum.
أرسل الكارولنجيون فى نفس الوقت (٨٢٥ م) حملة الى قورسيقا
Franc. ed. Boretus I, 325.
وللاغارة على مرسيليا عام ٨٣٨ انظر
Campaner y Fuertes op. cit., p. 116-17

٤٢ - Vita Hlud. Imp. in MGH Script. II, 632.

٤٣ - Dandolo Chron. p. 23. John Diac. Chron. Ven. ed. Monicolo, p. 100

٤٤ - Eginhard Annales in MGH Script. II, 184, Brown, H. Studies in Venetian History (London 1907) I, 10-47.

٤٥ - Bury, J.B. Eastern Roman Empire, p. 322-26.

٤٦ - المرجع السابق .

٤٧ - Const. Porphyr. De Admin. Imp., p. 124.

٤٨ - John Diac. Chron. Ven., p. 106.

٤٩ - Gasquet Byz. Empire, p. 287-318. Hazlitt History of the Venetian Republic I, 46-52. Cessi, R. op. cit., p. 31-33.

٥٠ - Lopez, R. S. "The Silk Industry in the Byzantine Empire in Speculum (1945) XX, 31-5.

٥١ - Vasiliev Byz. et les Arabes I, 22-49.
عالج كثيرون ثورة توماس الصقلبى ، وخـير من تناولهـا هو Vasilier
انظر أيضا Vernadsky, Ancient Russia, p. 302.

٥٢ - Tabari trans. in Vasiliev Byz. et les Arabes I, 287. Al Kindi, p. 180-84

٥٣ - Vasiliev Byz. et les Arabes I, 67-71.

٥٤ - Riad an-Nufus, p. 78.

٥٥ - Ibn Adhari, p. 146. Nuwairi, p. 174.

٥٦ - Brooks "The Byzantines and the Arabs" in Eng. Hist. Rev. (1900) XV, 728-47 ; (1901) XVI, 84-92.

٥٧ - Brooks, op. cit., 737-9. Theophanes ed. De Boor, p. 456.

٥٨ - Weil op. cit., II, 157.

٥٩ - Masudi Prairies d'Or, II, 337.

٦٠ - Pirenne op. cit., p. 210-35.

٦١ - Jaffé Regestrum, pp. 126, 149. Ann. Laur. Min. in MGH Screipt. I, 112-13. Epist. Mer. et Carol. XVI, pp. 545, 650.

٦٢ - Pirenne op. cit., p. 224-6.

٦٣ - Codex Carolinus ed. Cenni, Lettres Nos. XVIII, XXXVIII, LX, LXV, LXXI, LXXII.

٦٤ ـ انظر خطاب البابا هادريان الى شرلمان فى :

Codex Caroli, p. 617. Gau Itali Meridionale, p. 46-48. Buckler op., cit., pp. 16, 26-27.

٦٥ - Bury Eastern Roman Empire, p. 317-18. Gasquet op. cit. p. 287-318.

٦٦ ـ مسألة اخلاص بيزنطة لهذه المعاهدة لا يزال موضع بحث ٠ انظر :

Cessi, R. "Pacta Venetia" in Archiv. Veneto new series (1928-29) V-VII; and Cessi, R. Venezia Ducale (Padua 1928-29) 2 vols.

بعثة السفن الكارولنجية الى مدينة بونة الاسلامية ، تدل على أن لويس التقى كان يعتبرها حتى عام ٨٢٨ أنها معه فى اتحاد وثيق ٠ كما تدل السفارات المختلفة التى أرسلتها القسطنطينية الى اكس لاشابل حتى عام ٨٤٠ على وجود صلات قوية بينهما انظر :

Vasiliev, Byz. et les Arabes I, 185-87 and Gasquet op. cit.,

وللكلام عن ضغط البلغار على بيزنطة واثره على العلاقات بين بيزنطة والفرنجة انظر :

Runciman : History of the First Bulgarian Empire (London 1930), p. 67-73.

٦٧ - Bury : East. Rom Empire, p. 308-11. Gay Ital .... Mer., p. 18-19.

٦٨ - يبدو أن المنصور طم القناة الواصلة بين النيل والبحر الاحمر عام ٧٦٢ م لرغبته فى تحويل تجارة المحيط الهنـدى عن طريق البحر الاحمر الى طريق العراق . Weil, op. cit., I, 119.

٦٩ - Al Istakhri trans. Defremery in Journ. Asiat. 1849) XIV, 462. Masudi Prairies d'Or II, 3.

ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد ما قاله ثيوفانس فى القرن ٨ م عن خط سير الطاعون ، نجده يتنقل من مصر الى شمال افريقية ثم الى صقلية ومنها الى القسطنطينية . ويرينا هذا كيف ان التجارة بين مصر وبين بيزنطة كانت ضئيلة جدا فى ذلك الحين Theophanes, p. 442-43.

٧٠ - عن النزاع الذى قام بين بلاد الخزر وبيزنطة بسبب شأن كل من خرسون والقرم فى التجارة أواخر القرن ٨ م انظر :

Vasiliev Goths in the Crimea, p. 89-97.

وعن دور خرسون فى أوائل القرن ٩ م انظر :

Const. Prophyr. De Admin. Imp., p. 71.

٧١ - Theophanes ed. Bonn, p. 775. Runciman Bulgarian Empire, p. 144-48.

٧٢ - Solmi L' Amministrazione finanziaria del regno italio nell'alto medio eva (Pavia 1932), pp. 86, 94-96, 105. See Lopez, "Silk Trade", p. 35-41, for an excellent summary of Solmi's main points.

٧٣ - For a summary of these treaties see Amari Storia I, 357.

٧٤ - Ibn Khordadhbeh : Book of Routes ed. De Geoje in Bibl. Geog. Arab (1899) VI, 114-116.

هؤلاء اليهود كانوا محايدين بين الكارولنجيين المتنازعين مع أمويى اسبانيا وعرب شمال افريقية وبين العرب فى الشرق المتنازعين مع بيزنطة . ومن الواضح أن الاسطول البيزنطى لم يتعرض لهم ، وربما كان ذلك لأنهم اتخذوا من الغرب فى الاندلس قاعدتهم . ويشبه نشاطهم نشاط يهود الخزر الذين قاموا بدور مماثل فى الجهـات الاخرى من الامبراطورية البيزنطية ويدل وجودهم على استمرار بعض أساليب التجارة القديمة الى حد ما . وكانوا يحتكرون تجارة الخصيان بعد ذلك بسنوات بين فردان والاندلس .

Mir. St. Bertiniani in Acta Sanctoru8 Sept. II, p. 597.

ولم يسمح لهؤلاء ولا لغيرهم منطوائف اليهود بالاتجار بالرقيق أو غيره داخل الامبراطورية البيزنطية ، وعلى أية حال يحسن الاطلاع على :

Starr, Joshua The Jews in the Byzantine Empire (Athens 1939).

٧٥ ـ السفارة التى رافقت الفيل المهدى الى شرلمان من الاسكندرية الى أوربا الكارولنجية عام ٨٠٢ م ، عادت عن طريق تونس والاسكندرية وهكذا يتضح وجود تجارة بحرية على طول ساحل افريقية فى تلك الفترة .

Buckler op. cit., p. 25.

٧٦ - Mez : The Renaissance of Islam (London 1937), p. 497.

كان ذلك الطريق يمر بالبلاد الآتية :

حلب ، حماه ، حمص ، بعلبك ، دمشق ، طبرية ، الرملة ، الجفار ، القاهرة ، الاسكندرية .

٧٧ ـ وللكلام عن هجر الطريق الساحلى فى ليجوريا انظر

Honorantie Civitatis Papiae ed. Solmi in L'Ammin. financi. regno italico (Pavia 1931), p. 21.

وعن الطرق البرية من مصر الى تونس انظر

Lopez "Orig. du Capit. Genois", p. 43.

وعن تقدم طريق فرانشيجنا الداخلى ، انظر

Mez. op. cit., p. 501.

٧٨ - Buckler op. cit., p. 9.

٧٩ - Ann. Reg. Franc. a 831. Buckler op. cit., p. 40.

٨٠ - Mas Latrie op. cit., p. 11.

٨١ - Ann. Reg. Franc. a 806. Buckler op. cit., p. 30.

فى عام ٨٠١ م أوفد أمير تونس الاغلبى الجديد سفارة الى بلاط شرلمان عن طريق بيزا .

Eginhard, in MTH Script. I, 190.

ونشير هنا الى أنهـا فضلت الطريق البرى الطويل من بيزا الى اكس لاشابل وتجنبت ركوب البحر الى مرسيليا .

٨٢ - Hodgkin : Italy and Her Invaders VI, 490.

٨٣ - Liber Pont. ed. Duchesne (Paris 1886) I, 433.

٨٤ - Dandolo Chron., p. 167.

يرجح أنه كان قانونا عاما فى كل الامبراطورية ـ وليس فى البندقية فقط .

٨٥ - Dandolo Chron., p. 170.

٨٦ - Theophanes, p. 778-80.

٨٧ - Michel the Syrian Chron., ed. Chaboi III, 37.

٨٨ - Capasso ed. Monumenta ad Neapolitani ducatus Historian pertinentia (Naples 1881) II, 251-53.

٨٩ - Capasso op. cit., I, 205.

٩٠ - المرجع السابق ص ٢٠٧ ، Gay Ital. Mer., p. 18-19.

٩١ - Theophilus Carmina contra indices in MGH Poeta Latini Medii Aevi I, 499.

٩٢ - Ganshof "Notes sur les Ports de Provence" in Rev. Hist. CLXXIII, p. 29-36.

٩٣ - Annales Petavini in MGH Script. I, 17.

٩٤ - Eginhard Vita Carol. in MGH Script. II, 455-57.
Mon. St. Gall in op. cit., p. 761.

٩٥ - Bury East. Rom. Emp., p. 317-8. Buckler op. cit., p. 17.
Amari Storia I, 315-17.

٩٦ - Ann. Reg. Franc. a 802. Buckler op. cit., p. 320-21.

٩٧ - أورد بكلر (المرجع السابق) الصيغة الكاملة للمفاوضات التى تمت بين شارل وخليفة بغداد ويمكن القول أنه ربما غالى فى بعض آرائه
Buckler op. cit.,

٩٨ - Codex Corolinus (Rome 1761 .) No. LXXXIII, Brown Studies in Venetian History I, 15-20.

٩٩ - المرجع السابق ص ٢٥ - ٤٧ . كوفيء فورتناتس نائب بطريق جرادو الكارولنجى على جهوده فى تحويل البندقية الى صف شرلمان عام ٨٠٣ م وكانت هذه المكافأة عبارة عن مرسوم امبراطورى يعطيه حق الاتجار فى كافة أجزاء الامبراطورية دون دفع أية ضريبة وهكذا أدرك شرلمان بوضوح ما هية الضغط الاقتصادى

١٠٠ - Cessi, R. "Pacta Veneta" in op. cit., and Venezia Ducale.

١٠١ - فيما يتعلق باتجاه بيزنطة الى عدم التعاون مع الكارولنجيين انظر
Lopez "Silk Industry" in op. cit., 35-41.
ويرى بيرين نفس الرأى Mohammed and Charlemagne, p. 174-85.

١٠٢ - يبدو أن هذا هو التفسير الحقيقى لاختفــاء معظم التجار السوريين من الاسواق الغربية - وهى مشكلة أشار اليها بيرين وغيره من المؤرخين ولكن تعرض لشرح هذه الظاهرة واحد فقط هو
Runciman : Byzantine Civilization, p. 66-67.

١٠٣ ـ تشبه مشكلة اختفاء التجار اليونانيين ـ حتى من أجزاء ايطاليا التى تحكمها بيزنطة ـ نفس مشكلة اختفـاء السوريين ، غير أن مشكلة اليونانيين لم تظفر بالعناية والشرح كسابقتها Heyd op. cit., p. 55-56.

١٠٤ – Pirenne op. cit., p. 255-60.

١٠٥ ـ تعتبر هـذه الحقيقة خير ما يوضح موقف البندقيـة الكارولنجيين انظر : Borwn op. cit., p. 115-47 and Cessi Venezia,p.33-34.
وفيما يتعلق بنابلى انظر Gay op. cit., p. 43-48.

١٠٦ – Dandolo Chron., p. 167.

١٠٧ ـ يمكن اعتبار ضعف بيزنطة البحرى اذن ، نتيجة لموقفها السلبى فى الناحيـة الاقتصادية خلال القرن ٨ م أكثر من كونه مجرد اهمال لقواتها البحرية كما يقول بيورى وغيره .

١٠٨ – Wiet op. cit., p. 166-68. See Al-Mansur's statement that Mesopotamia in 758 was the center of commerce. Yaqubi Geog, p. 237

١٠٩ – Hitti op. cit., p. 305-06.

١١٠ ـ المرجع السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٤ .

١١١ – Der Nersessian Armenia and the Byzantine Empire (Cambridge, Mass. 1947), p. 7-10.

١١٢ – Solmi op. cit., pp. 86, 94-6, 105, Ganshof "Note sur un passage de la vie de St. Guerard" in Mélanges Iorga (Paris 1929), p. 295.

١١٣ – Tuler, J. E., The Alpine Passes (Oxford 1930), p. 148-49.

١١٤ ـ المرجع السابق .

١١٥ – Sabbe, E. "L'importation des tissus Orientaux en Europe Occidentale au Moyen Age. IXe-Xe siècles" in Revue Belge de Philo., et d'Histoire (1935) XIV, 813-23.

١١٦ – On pre-Varangian trade in Russia, see Cross, S. F. "The Scandinavian Infiltration into Russia" in Speculum (1946) XXI, 514. Also Meyendorf, A.F. "Trade and Communication in Eastern Europe A.D. 800-1200" in Travels and Travelers of the Middle Ages ed. A. P. Newton (London 1926).

١١٧ ـ تقول الروايات العربية ان المنصور طم القناة الموصلة للبحر الأحمر عام ٧٦٢ م لتجويع الحجاز ولكنه كان على الأرجح ليحول التجارة الى العراق مركز قوة العباسيين ونفوذهم . Wiet op. cit., p. 166-67.

١١٨ – Ibn Khordadhbeh, p. 513.

١١٩ – وبدأ تعطل القناة أوائل القرن ٨ م كما يقول Lane فى كتابه مصر ص ٢٠ ، ويتفق هذا مع بداية الحصارالتجارى الذىقامت به بيزنطة ضد مصر حول عام ٧١٦ . انظر الفصل الثالث Heyd op. cit, p. 40-41

١٢٠ – Wiet op. cit., p. 167-68.

١٢١ – المرجع السابق .

١٢٢ – Maqrizi Kitat ed. Wiet (Cairo 1927) III, 181-91. Al Kindi, pp. 158-70, 180-84.

١٢٣ – Lopez "Silk Industry", p. 28-31.

١٢٤ – Theophanes, p. 778.

١٢٥ – Lopez "Orig. du Capit. Génois", p. 434. Sabbe "L'importation des Tissus", p. 840-3.

١٢٦ – استخدم الطريق البرى بين الاندلس وفرنسا فى تلك الفترة دون الطريق البحرى انظر Mir. St. Bertiniani in op. cit., and for later date Vita Johannis Abbatis Goriensis in MGH Script. IV, 369-75. On Liguria see Lopez op. cit., p. 434.

١٢٧ – القول بأن الأندلس كان يستخدم العملة الفضية خلال القرنين الثامن والتاسع يدل على أن الأحوال الاقتصادية لم تكن مرضية وقتذاك Ibn Khaldun I, 464. A. Vives y Escudo Monedas de las dinestias arabigo-espanolas (Madrid 1893), p. IX.

كما توضح ذلك أيضا المشاكل السياسية والاجتماعية التى صادفت حكام الأمويين بالأندلس وقتذاك وعلى الأخص قيام الثورات فى بعض المـــدن .

Levi-Provençal Hist. de l'Espagne Musulmane, pp. 113-21, 158-67.

١٢٨ – نجد نظرة عامة واضحة على الأحوال الاقتصادية بالامبراطورية البيزنطية فى القرن الثامن وأوائل التاسع فى :

Diehl Byzantine Portraits (New York 1927), p. 73-147.

١٢٩ – Lopez op. cit., p. 435-41.

١٣٠ – Arnaud de Verdale Catal. Episcop. Magal. ed. Germain in Mèm. Soc. Anch. Mont. 1[er] ser. (1881) VII, 508, 510.

لم يعد بناؤها حتى القرن الحادى عشر .

١٣١ – Imbart de la Four "Les colonies Agricoles et L'occupation des terres désertes à l'époque Carolingienne in Melanges Paul Fabre, p. 147.

١٣٢ ــ المرجع السابق ص ١٤٨ .

١٣٣ ــ هناك جدل كبير حول مشكلة اســتخدام العملة الفضية الأوربية فى ذلك الحين وخاصة فيما يتعلق بسبب استخدامها . يرى پيرين أنها دليل على التدهور الاقتصادى على حين يرى دبش عكس ذلك . أما لوپيز فيرى ببساطة أنها توضح ضعف الكارولنجيين وهى فى الوقت ذاته تقليد للعملة الاسلامية فى الأندلس . ومع ذلك فثمة أمر واحد مؤكد ذلك هو أن تلك العملة الفضية زادت تعقيد التجــارة الاوربيــة وذلك أن الفضة لم تكن مقبولة فى أسواق كل من البيزنطيين والعرب فى حوض البحر المتوسط التى كانت عملتها على قاعدة الذهب ما عدا الأندلس . ويشبه هــذا فى العصر الحديث ما تعانيه بريطانيا ومن معهــا من دول الـكتلة الاسترلينية من صعوبات تجارية بسبب قلة ما لديها من الدولارات . أما تجــارة أوربا مع الجانب الشرقى من العــالم الاسلامى (العراق ــ ايران ــ تركستان) فقد جرت بالعملة الفضية . وانتعشت التجارة وقتذاك وساعدت على خلق طريق الفارنجيين التجارى . وان مجموعات النقود العربية التى وجدت على طول ذلك الطريق كانت من الفضة ولم تكن من الذهب . فهل ساعد وجود العملة الفضية هنا على رواج التجارة كما حال دون رواج التجارة فى شمال افريقية ومصر وسورية وبيزنطة ؟ .

١٣٤ ــ Ibn Khaldun I, 464.

١٣٥ ــ يقول ليفى پروڤنسال ان الفتح الاسلامى للاندلس لم يغير فى أول الأمر من غلبــة الزراعة على اقتصاديات البلاد عما كانت عليه أيام القوط الغربيين .

Léli-Provençal op. cit., p. 113-21.
Lévi-Provençal l'Espagne Musulmane au Xe. Siècle (Paris 1930), p. 159-62.

١٣٦ ــ Lévi-Provençal Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 158-67.

١٣٧ ــ كانت مدينة فاس مركزا اداريا وزراعيا فى القرن ٨ م ولكنها لم تكن مركزا للتجارة وهى كذلك مدينة داخلية بعيدة عن البحر كمعظم العواصم الاسلامية فى ذلك الحين .

Lévi-Proveuçal "La Fondation de Fes" in Ann. de l'Institut Oriental d'Alger (1938) IV, 22-35.

١٣٨ ــ Gautier op. cit., p. 266-73. Marçais Barberie, p. 43-53.

١٣٩ - Ibn Al Athir, p. 157.

١٤٠ - Marçais, op. cit., p. 76-87.

١٤١ ـ المرجع السابق ص ٥٨ ـ ٦٠ .

١٤٢ - Lane-Poole, Egypt, p. 31-38.

١٤٣ - Michael the Syrian, Chron. I, 516.

١٤٤ - Wiet op. cit., p. 63.

١٤٥ ـ المرجع السابق ص ٦١ ـ ٦٤ .

١٤٦ ـ انتقلت عاصمة الجزيرة ذاتها فى ذلك الحين الى الداخل حيث مدينة نيقوسيا .

Hill Cyprus, I, 261-70.

ويحتمل كذلك أن يكون ترك حول ذلك الوقت ، الموقع القديم لمدينة انطاكية اليونانية الرومانية .

١٤٧ - Lombard, M. "L'or Musulman du VIIe. au XIe. siècles" in Annales (1947) II, 146-49.

١٤٨ ـ انظر القصة كاملة عن حياة فورتناتس التجارية فى

Brown Studies in Venetian History I, 25-47.

١٤٩ ـ فيما يتعلق بثروة أرخيس أمير بنفنتم انظر

Gay op. cit., 46-48.

١٥٠ - Lopez "Mohammed and Charlemagne", p. 33-34. for a full survey see St. Monneret de Villard "La Moneta in Italia durante l'alto medio evo" in Rivista Ital. di Numismatica (1919-20) XXXII-XXXIII.

١٥١ - Cress op. cit., p. 505-14.

١٥٢ ـ والقول بأن هذا الذهب وصل الى موانى الكارولنجيين الشمالية عبر طريق الفارنجيين التجارى لم تؤيده الأدلة الكافية .. ولزيادة الايضاح انظر تفسير دبش فى

Pirenne op. cit., p. 245- Dopsch Wirtshaftsentwicklung der Carolingerzeit 2nd ed. (Vienna 1922) II, 306-20.



الفصل الخامس

التوسع الإسلامي
(٨٢٧ - ٩٦٠م)

بدأ عهد جديد فى التاريخ البحرى للبحر المتوسط باغارة المسلمين على صقلية ثم باستيلائهم على كريت عام ٨٢٧م وانتهى بهذين الحادثين أيضا عهد العجز عن تحدى الامبراطورية البيزنطية ، وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطىء الجنوبية لذلك البحر ، من جبال طوروس حتى جبال البرانس . ولم يتم هذا التغيير كله مرة واحدة بل ظلت لحكام القسطنطينية سيطرة على بعض القوات البحرية الهامة . كما أنهم ظلوا يكافحون ببسالة ضد أعدائهم المسلمين ، فى شرق البحر وغربه . فاستطاعوا أن يؤخروا اتمام فتح الأغالبة لجزيرة صقلية حتى عام ٩٠٢ ، وتمكنوا من أن يجمعوا من الأساطيل ، ما حفظ لهم سيطرتهم على مناطق هامة فى جنوب ايطاليا والبحر الادرياتى . وبقى البيزنطيون سادة البحر الأسود ، وان لم يتم لهم ذلك دون صعوبات شتى . وحاولوا استعادة كريت بارسال الحملة تلو الحملة لطرد القرصان المسلمين من أرض الجزيرة ، ولكنهم كانوا — فيما عدا فترات محدودة — فى موقف المدافع لا المهاجم ؛ كما أن ما أخفقوا فيه يرجح كثيرا ما حققوه . وعلى هذا لم يأت القرن العاشر الا وقد انتقلت السيادة الكاملة فى البحر المتوسط لأعدائهم المسلمين .

وكان أبلغ الحملات أثرا على مصير سيادة البيزنطيين الحربية ، تلك التى قامت بها الأساطيل الافريقية الشمالية فى بحار صقلية وايطاليا وتلك التى قامت بها أساطيل كريت الاسلامية فى بحر الأرخبيل والبحر اليونانى. على أن الحملات التى وقعت فى البحار الغربية ترتبت عليها نتائج أخطر مما ترتب على الحملات فى البحار الشرقية . وقد بدأ الهجوم فى الغرب بانزال قوة من الأفريقيين المغاربة فى مازر على شاطىء صقلية الجنوبى عام ٨٢٧ م . وسارت القوات الاسلامية عبر الجزيرة لتحاصر عاصمتها سرقوسة وتحرك أسطول اسلامى ليتم ذلك الحصار من البحر أيضا . وتنبهت القسطنطينية توا للخطر فجمعت شمل قوتها البحرية لتدفع الحصار عن المدينة [١] . كما أنها استنجدت بالبندقية فجاءت أساطيلها الى الميدان[٢]. وكذلك قامت من تسكانيا قوة بحرية كارولنجية بقيادة بونيفيس Boniface بهجوم مضاد على ثغر بونة (عنابة) بساحل شمال أفريقية [٣] وربما كان ذلك بالاتفاق مع بيزنطة . وأهم من هذا كله أن القسطنطينية أرسلت معظم أسطولها الشرقى الى هذا الميدان ، وانه استطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الأفريقية وأن يجبر البقية الباقية منها على الالتجاء الى ميناء سرقوسة . ولما عجز المسلمون عن الهرب بباقى سفنهم أحرقوها وانسحبوا من المدينة [٤] . وفى عام ٨٢٩ وقعت فى أيديهم مدينة مازر ، التى نزلوها أول الأمر ومدينة مينيو القريبة منها .

ولم يثن هذا الفشل العرب عن استئناف الهجوم فى العام التالى فأمد أسطول أفريقى كبير الجيش الاسلامى المرابط فى الجزيرة بقوات أخرى[٥]. يضاف الى هذا وصول قوات أندلسية من طرطوشة الى الجزيرة لمساعدة القوات الاسلامية هناك . على أن هذه القوات الأندلسية لم تبذل سوى مساعدات يسيرة ، ثم انسحبت بعد أن حاقت بها الهزيمة على أيدى القوات البيزنطية فى داخل الجزيرة [٦] . ولكن القوات

الأفريقية لم تنسحب بل مالبثت أن تقدمت لحصــار مدينة پلرم الهامة على الشاطىء الغربى لصقلية . ولم تصل فى الوقت المناسب أية قوات بحرية بيزنطية لمساعدة المدينة فسقطت فى قبضة الأغالبة عام ٨٣١ (٧) . ومنذ ذلك الحين صارت پلرم أهم قاعدة حربية وأعظم مراكز القوة الاسلامية بصقلية وصار لها نوع من الحكم الذاتى وان تبعت اسما حكام شمال أفريقية . كذلك كانت الثغر الأكبر الذى تقلع منه الأساطيل الاسلامية للاغارة على الشواطىء الايطالية وباقى الممتلكات البيزنطية فى الجزيرة .

وسرعان ما قوى شأن هذه القاعدة البحرية الأولى بفضل ما جد من تطــورات كــان أولها اســتيلاء أســطول الأغالبة على جزيرة قوصرة عام ٨٣٥ (٨) . وزال بالاستيلاء على هذه الجزيرة الخطر الذى كان يهدد المواصلات بين كل من صقلية وأفريقية عندما كانت قوصرة هذه فى قبضة بيزنطة . وترتب على هذا أن صار ارسال الأمداد الى صقلية أكثر سهولة عن ذى قبل . وكان التطور الثانى : تحالف پلرم مع المدن الايطالية الموجودة على ساحل كمپانيا وعلى الأخص مدينة ناپلى (٩) . وربما قام هذا التحالف نتيجة للمساعدات التى قدمتها سفن پلرم لأهــل ناپلى فى صراعهم ضــد عدوهم على البر ، أمير بنفنتم اللمباردى (١٠) . ويحتمل أيضا أن يكون سبب هذا التحالف ما كان هناك من صلات تجارية قديمة بين هاتين المدينتين وبين مسلمى شمال أفريقية ، رغم اعتراضات بيزنطة على تلك العــلاقات وقتذاك . وأيا كانت أسباب هذا التحالف فان صداقة ناپلى كانت عظيمة القيمة بالنسبة لعرب صقلية لأنها أضعفت فى لحظة حاســمة قوة أسطول بيزنطة فى مياه البحر التيرانى . كما أن تخلى ناپلى عن بيزنطة يفسر عجز القوات البحرية البيزنطية عن قطع الطريق على أسطول أفريقى آخر كان يحمل حاكما جديدا لمدينة پلرم عام ٨٣٥ م (١١) . كما يفسر نجاح الغارة

التى قامت بها الوحدات الاسلامية على الجزر الأيولية فى تلك السنة ذاتها[١٢]
ومما يستحق أن نسجله ان أسطول أفريقية اشتمل أثناء الاشتباك الأول ؛
على حراقات — وهى سفن تقذف بلهب النفط — الأمـر الذى مكن
الأفريقيين من مقاومة النار الاغريقية التى يستخدمها أعداؤهم البيزنطيون .
وهذا هو أول ذكر لاستخدام المسلمين لمثل هذا النوع من السفن ولعله كان
سلاحهم السرى الجديد [١٣] .

وفى عـام ٨٣٨ قدر أمير پلرم أن قوته أصبحت تكفى للهجوم على
قلعة شلفودة البحرية الواقعة على ساحل صقلية الشمالى ، لكن هجومه
انتهى بالفشل فى البر والبحر بسبب مجىء أسطول من القسطنطينية خلص
المدينة وأجبر المسلمين على الانسحاب [١٤] . ولم توقف هذه الصدمة تقدم
المسلمين ؛ ففى عام ٨٤٣ م استولوا بفضل مساعدة سفن ناپلى ، على
مدينة مسينا وسيطروا على المضيق بين قلورية وبين صقلية [١٥] . ويظهر
أنه لم تكن بمياه صقلية قوات بيزنطية بحرية تكفى لحماية هذا المركز الهام
من هجمات العرب .

وكان من أسباب نجاح العرب فى مياه البحر التيرانى ، انشغال القسطنطينية
بالمشاكل فى أماكن أخرى من الغرب . فقد حدثت اذ ذاك هجمات اسلامية
على المراكز البيزنطية فى كل من البحـرين الأيولى والأدرياتى . وبدأت
الهجمات بالاستيلاء على برنديزى عام ٨٣٨ ، بأسطول من مسلمى كريت
أو شمال أفريقية أو منهما معا . وقام من البندقية أسطول مكون من ستين
قطعة حربية للدفاع عن ذلك الاقليم ولكنه عانى أهوالا شدادا قرب كروتونى
على خليج طارنت حيث حطمه المسلمون تماما [١٦] . ثم صارت الأحـوال
المحلية فى جنوب ايطاليا مدعاة لتدخل أيسر شأنا . وذلك حين قام صراع

بين رجلين متنافسين يطالب كل منهما بالسيطرة على دوقية بنفنتم اللمباردية . وفى عام ٨٤١ م استعان أحدهما ، وهو رادلكيس بجنود مرتزقة من مسلمى أفريقية وصقلية ، على حين لجأ المنافس الآخر ، سيكنولف الى الرد على ذلك بتأجير عدد آخر من مغامرى اسبانيا المسلمين . ومثل هؤلاء المرتزقة لا يهمهم سوى الحصول على الغنائم ، من ذلك أنه فى عام ٨٤١ م استولى عدد من مرتزقة رادلكيس على مدينة بارى والأراضى المحيطة بها ، متعاونين فى ذلك تعاونا كاملا مع أساطيل قراصنة كانت تعمل قرب الشاطىء [١٧] . وسرعان ما تكونت دولة اسلامية من المغامرين تماثل الدولة التى تكونت فى پلرم واستمرت أكثر من ثلاثين عاما . أما حاكمها السودان أو السلطان ، فكان على ما يظهر ، مستقلا استقلالا ذاتيا عن سيطرة كل من كريت وشمال أفريقية لأنه طلب من بغداد مباشرة الاعتراف به وبمركزه [١٨] .

كان من نتائج انهزام البندقية ، وتأسيس حكومة اسلامية جديدة فى بارى ، واستيلاء مسلمى كريت على طارنت حوالى ذلك الوقت ، أن تعرض البحر الادرياتى لغارات الأساطيل العربية . ففى سنة ٨٤١ ذاتها بدأت هذه الأساطيل غزواتها بالاستيلاء على مدينتى انكونا وأوزيرو Osero بجزيرة كرسو واحراقها ، كما استولت فى طريق عودتها الى بلادها على عدد من سفن البندقية التجارية العائدة من صقلية [١٩] . ثم عاودوا الكرة فى العام التالى على شمال البحر الادرياتى وهزموا أسطولا بحريا للبندقية فى مياه خليج كوارنيرو Quarnero [٢٠] .

ولم يحرز المسلمون فى البحر التيرانى من النجاح مثلما أحرزوا فى البحار الواقعة فى شرقى شبه جزيرة ايطاليا . والظاهر أن ناپلى ، بعد ما ساعدت عرب صقلية على الاستيلاء على مسينا ، تخلت عن تحالفها مع العرب ، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب اتخاذ المسلمين قواعد لأساطيلهم فى سواحل

نابلى . وكانت هذه القواعد بالقرب من نابلى بحيث هددت أمنها وتعرضت لتجارتها . لهذا عقد سرجيوس ، دوق نابلى ، حلفا مع المدن البحرية المجاورة وهى أمالفى وجايتا وسرنتو ، واشتركت هذه المدن فى تكوين أسطول هزم المسلمين فى البحر وأجبرهم على التخلى عن مراكزهم فى جـزيرة پنزا Ponza قرب نابلى ، وفى ليكوزيا Licosia احدى رءوس خليج سلرنو [٢١] . ولما حيل بين المسلمين وبين ما يبتغون فى تلك المنطقة تحولوا الى أراضى البابوية . ففى عـام ٨٤٦ أنزل المسلمون على السواحل قوات هزمت الحاميات الموجودة فى شيڤيتاڤكيا ونوڤا أوستيا وأغارت قواتهم هذه على ضواحى روما ذاتها [٢٢] .

وأسرع البابا بطلب عون بحرى من مدن كمپانيا المتحالفة وكانت هذه فيما يظهر على استعداد للاستجابة لدعوته ، فأرسلت أسـطولا لحماية الشواطىء البابوية ؛ غير أن عاصفة حطمت السفن الاسلامية قرب أوستيا فلم تعد لتلك المساعدة أية ضرورة [٢٣] . ولعل المقاومة التى لقيها المسلمون عند شواطىء نابلى ، شجعت المسئولين البيزنطيين فى صقلية على ارسال حملة بحرية صغيرة عام ٨٤٨ مكونة من عشر سفن حربية ؛ بلغت خليج مندلو Mondello الذى يبعد ثمانية أميال من پلرم ذاتها [٢٤] . الا أن نابلى والمدن المجاورة بعد ما وضعت حدا لتوغل المسلمين فى السـواحل الايطالية استأنفت توثيق علاقاتها بالمسلمين كما كانت . وبناء على هـذا فلعشرين سنة أو تزيد ، أصبحت العلاقة بينها وبين پلرم علاقة صداقة وسلام.

ولعشر سنوات كاملة من هذه الحوادث لم يتحرك المسلمون ضـد جيرانهم المسيحيين الا حركات طفيفة جدا سواء فى البحر التيرانى أو البحر الادرياتى . ومرجع هذا — فيما يظهر — الى ما كان من صراع بحرى بين مسلمى كريت وبين الأغالبة [٢٥] . ومع ذلك فيمكن القول ان هذا السلام

بلغ نهايته عندما هوجمت شلفودة برا وبحرا ، ثم سقطت فى يد پلرم آخر الأمر (٢٦) ، عندما حاقت الهزيمة بأسطول بيزنطى مكون من أربعين سفينة تجاه ساحل أپوليا (٢٧) . وقد حركت هذه الخسائر القسطنطينية لبذل جهد بحرى جديد ، فأرسلت أسطولا كبيرا من الشرق الى سرقوسة عدته ٣٠٠ سفينة ، وعبر هذا الأسطول مضيق مسينا ، لاستعادة شلفودة . التقى الأسطولان العربى والبيزنطى تجاه الساحل الشمالى لصقلية وكانت النتيجة انتصارا عظيما للمسلمين، وفقد البيزنطيون مائة سفينة . ويعتبر هذا أشنع انكسار حاق ببيزنطة منذ عام ٨٤٠ م (٢٨) . ثم حلت بالقوة البيزنطية فى صقلية بعد هذه الصدمة المريرة مصيبة أخرى هى فقدها حصنها البرى قصريانه عام ٨٥٩ (٢٩) . واقتصرت ممتلكات القسطنطينية فى الجزيرة على الساحل الشرقى فيما حول سرقوسة وبعض الجهات الداخلية . أما العرب فبلغ ما وقع فى قبضتهم ثلثى الجزيرة تقريبا .

وبعد سنوات ثمان قرر المسلمون اتمام فتح صقلية فأرسل والى پلرم جيشا بريا وحراقات الى سرقوسة . ولكن نجدة من أسطول الشرق التابع لبيزنطة ردت المهاجمين على أعقابهم عام ٨٦٨ (٣٠) . ولم تمر هذه الصدمة دون انتقام اذ استولى الأغالبة على جزيرة مالطة عام ٨٧٠ م وتأكدت بذلك سيطرتهم الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وافريقية (٣١) . وفى عام ٨٧٨ سارت آخر حملة برية وبحرية صوب سرقوسة (٣٢) ، ولما لم تدركها المساعدات البيزنطية هذه المرة سقطت فى قبضة القوات الاسلامية ودانت بذلك معظم جهات جزيرة صقلية ، ولم يبق لبيزنطة سوى طبرمين وجزء ضئيل على المضيق تجاه ريو . وكان من أسباب نجاح المسلمين فى امتلاك صقلية أن تهديدهم لايطاليا ذاتها شغل انتباه أعدائهم . فقد مكنهم تحالفهم مع نابلى الواقعة على الساحل الغربى لايطاليا ،

كما مكنتهم قواعدهم البحرية القوية على شاطىء الادرياتى فى بارى وغيرها ، من القيام بغارات على وسط ايطاليا وجنوبها . وقد بلغت ذروة التخريب عام ٨٥٠ م ؛ وبدا الأمر وكأن مصير الاقليم كله على وشك الانتقال الى أيدى العرب . وأفزع هذا العمل لويس الثانى الكارولنجى حاكم ايطاليا ، فقرر ، وقد بارك البابا خطوته ، أن يقوم بعمل ضد العرب ، لكنه لم يصب نجاحا يعتد به . وكيف يستطيع وهو لا يملك أسطولا أن يطرد المسلمين من مواقعهم الحصينة على الشواطىء ؛ ومن هذه المواقع كانوا يوغلون بعيدا فى غاراتهم الداخلية . وكان حصار لويس الطويل لمدينة بارى عملا عديم الجدوى بسبب سيطرة المسلمين على المسالك البحرية[٣٣].

وأخيرا وفى عام ٨٦٧ م ، بدأت الأحوال تتغير اذ استطاعت البندقية والقسطنطينية أن تعملا فى البحار الايطالية . وانتصرت البندقية — ولعلها كانت متحالفةمع لويس الثانى — فى البحر تجاه طارنت ؛ وبذا تكون انتقمت للهزيمة التى حلت بها فى ذلك البحر منذ سبعة وعشرين عاما [٣٤] . وأرسل باسيل الأول امبراطور بيزنطة حملة من مائة سفينة بقيادة البطريق نكيتاس لانقاذ راجوزة ، وكانت تحاصرها قوات مشتركة من أهل كريت وطارنت[٣٥] ولما انتصر البيزنطيون فى راجوزة تحولوا الى ايطاليا ، ففى عام ٨٧٠ م ظهر أمام بارى أسطول كبير اشتمل على فرق بحرية من راجوزة ودلماشيا وكانت تحاصرها من البر قوات لويس الثانى . وظهر أن تدخل العنصر البحرى فى الحصار كان حاسما ، فسقطت المدينة آخر الأمر فى يد الملك الكارولنجى . غير أن النزاع نشب فى تلك اللحظة ذاتها بين لويس الثانى وبين بيزنطة بسبب ما أظهرته بيزنطة من عداء لمطامعه فى جنوب ايطاليا . وعاد لويس الثانى ، وقد حبطت أعماله الى شمال ايطاليا حيث أدركته منيته ، فنعم باسيل الأول وحده بجنى ثمار تلك الجهود [٣٦] . وفى عام ٨٧٣ م استعادت قواته

أترانتو ، كما استعادت بارى عام ٨٧٦ م [٣٧] . وبقيت طارنت وحدها فى يد العرب ، ومن هذه المدينة — وربما من كريت — أبحر الأسطول الاسلامى الذى أغار على البندقية عام ٨٧٥ . وأحرق ميناء كوماتشو الواقع على مصب نهر البو . وتعتبر هذه الغارة آخر الغارات الاسلامية فى شمال الادرياتى [٣٨] .

وعلى حين يتوطد سلطان بيزنطة البحرى على هذا النحو فى الشاطىء الشرقى لايطاليا بفضل مساعدة البندقية اذ الحال تبقى كما هى دون جديد فى الجانب الغربى من ايطاليا باستثناء قيام قوة صغيرة قوامها عشر سفن بحرية بقيادة جورج ، حاكم قلورية ، تحركت فى مياه البحر التيرانى ولم تفعل شيئا يستحق الذكر . ثم ازداد ضغط المسلمين على هذا الشاطىء الايطالى ، اذ حدثت خلال عامى ٨٦٨ ، ٨٧٢ غارات اسلامية غير موفقة على مدينتى جايتا وسلرنو [٣٩] ؛ وعانت الأملاك البابوية الأمرين من جراء هذه الغارات . وأرسل البابا حنا الثامن الى شارل الجسور وبيزنطة ومدن أمالفى وجايتا ونابلى يلتمس لنفسه ولأملاكه الحماية [٤٠] . ولكنه لم يظفر الا بنجاح ضئيل . وسبب ذلك أن القسطنطينية لم تطمئن الى تقرب البابا من الكارولنجيين ولأنها كانت مشغولة بأمر صقلية وبلاد الشرق . فأما شارل الجسور فلم يكن لديه أسطول يبعث به ؛ وأما حلف مدن كمپانيا فلم يرغب فى معاداة المسلمين أصدقائه . وقد ترتب على هذا أن شيئا من السكينة لم تحظ به ممتلكات الكنيسة فى وسط ايطاليا الا بعد دفع اتاوة قدرها ٢٥٠٠٠ قطعة فضية للمغيرين [٤١] .

ولم يخف هذا الضغط الا فى عام ٨٨٠ م حين ظهر أسطول بيزنطى كبير فى مياه صقلية قدر له أن يظفر ببعض النجاح . وهدد هذا الأسطول

طريق التجارة بين المسلمين وبين مدن جنوب ايطاليا . بل استطاع أن يستولى خلال هذه العمليات على كميات كبيرة من زيت الزيتون ، حتى قيل ان ثمن هذه السلعة تدهور تدهورا ملحوظا فى أسواق القسطنطينية (٤٢) . ويظهر أن البيزنطيين أقاموا هذا الأسطول بصفة دائمة فى المياه الغربية عند ثرمة . ويعتبر وجوده مسئولا عن عودة نابلى فى ٨٨٤ م الى ولائها القديم لبيزنطة بعد أن انصرفت عنه زمنا طويلا (٤٣) . على أن هذا لم يمنع المسلمين من اقامة وكر لمغامرهم فى مونت جارليانو عام ٨٨٢ أو ٨٨٣ (٤٤) :

ويبدو أن البحرية البيزنطية كانت على جانب من القوة كفى لازعاج بلرم ذاتها . وأدى هذا فى عام ٨٨٥ م الى عقد هدنة بين الطرفين (٤٥) . وفى تلك السنة ذاتها ، بذلت بيزنطة مجهودا واسع النطاق فى الميدان الغربى ؛ فأنزلت جيشا كبيرا فى جنوب ايطاليا بقيادة نقفور فوكاس ، ظل يعمل بالمنطقة لمدة عامين ، طورا بالقوة والعنف وطورا بالسياسة والحيلة . وفى عام ٨٨٦ م تم له تدعيم قوة بيزنطة فى جنوب ايطاليا ، وانتظمت كل من قلورية وأپوليا فى أجناد Themes ، واعترفت بنقنتم بسلطان بيزنطة مثلما فعلت مجموعة المدن الكمپانية (٤٦) . وباخلاد مسلمى صقلية الى السكينة من جهة ، وباستئناف الأسطول البيزنطى نشاطه الحربى فى البحر التيرانى من الجهة الأخرى ، بدا كما لو أن عصر سلام قد بزغ فجره . ولكن لم يتحقق شىء من هذا ، فقد حدث بعد موت باسيل الأول عام ٨٨٦ ، أن عاد المسلمون ، الى سابق عدوانهم فغزوا قلورية فى عام ٨٨٨ (٤٧) : وأبحرت الأساطيل الامبراطورية غربا الى ريو مخترقة مضيق مسينا . وقرب ميلازو ، وتجاه الشاطىء الشمالى لصقلية ، التقى هذا الأسطول بعمارة بحرية كبيرة للمسلمين . وتكررت مأساة عام ٨٥٩ ؛ اذ انهزم البيزنطيون شر هزيمة وتحطمت سفنهم (٤٨) . وما ان عقد الصلح بين الطرفين عام ٨٩٥ ، الا وكانت

القسطنطينية قد فقدت سيادتها القصيرة الأجل على مياه جزيرة صقلية وغرب ايطاليا [٤٩] .

وبعد سبع سنوات قام الأغالبة بضربتهم الأخيرة ضـــد بيزنطة . فقاد ابراهيم بن الأغلب — المتنازل عن الحكم فى شمال أفريقية — حملة برية وبحرية كبيرة من پلرم عام ٩٠٢ ، ضد المواقع المملوكة لبيزنطة فى صقلية مثـــل طبرمين والجهات المحيطة بها . وسقطت المنطقة كلها فى أيدى المســـلمين ولم يستعص عليهم سوى موضـــع واحد هو طبرمين الجديدة . واستمر ابراهيم بن الأغلب فى انتصاراته فعبر المضيق الى قلورية ، غير أن وفاته المفاجئـــة فى كوسنزا Cosenza ، حررت ايطاليـــا من هول ما تعرضت له طبرمين ، وانسحب الجيش الاسلامى عائدا الى صقلية [٥٠] . وفى هـــذه الأثناء أتاحت الاضطرابات التى لازمت سقوط الأغالبة وقيام الفاطميين بالقيروان ، فرصة للايطاليين ليأخذوا بعض الراحة ، رغم ضعف بيزنطـــة الحربى برا وبحرا .

وقصارى القول أنه لم تأت سنة ٩٠٢ حتى كانت صقلية قد وقعت فى قبضة مسلمى شمال أفريقية ، على الرغم من الكفاح المرير الطويل الذى قامت به بيزنطة للحيلولة دون ذلك . ولكن منذ أيام باسيل الأول حشدت بيزنطة قوة بحرية كبيرة استطاعت بها ، وبمعاونة حلفائها فى الغرب ، كالبنادقة أن تستعيد مدينتى بارى وطارنت من المسلمين وأن تدعم اشرافها على أجناد قلورية وأپوليا وأن تعيد فرض نوع من السيادة على مجمـــوعة المدن الكمپانية غير المخلصة لها ، وهى نابلى وجايتا وأمالفى . وبقى وكر المغامرين فى مونت جاريليانو وحده شوكة تؤذى الريف الايطالى فى الجنوب من شبه الجزيرة .

أشرنا الى أن الاضطرابات القائمة فى افريقية وصقلية ، أتاحت الفرصة

لاخراج المسلمين من هذه القـواعد الأمامية . ففى عام ٩٠٩ ، اسـتولى الفاطميون على تونس ، وأصبحوا سادة القيروان . أما محاولة فرض سيطرتهم على صقلية فلم تصادف نجاحا يذكر أول الأمر [٥١] . وفى عام ٩١٣ ثارت مدينة پلرم وسيرت أسطولها فى العام التالى ، ضد الفاطميين فى افريقية . وكانت معظم قوة الفاطميين البحرية مشغولة حينذاك فى محاولة ضم مصر للفاطميين ، ولهذا صادف أسطول صقلية مقاومة يسيرة جدا ، واستطاع أن يحطم فرقة بحرية أفريقية تجـاه لانلى على مقربة من المهـدية وأن ينزل بعض قواته وينهب صفاقس ويغزو طرابلس[٥٢] . ولم يستطع الفاطميون أن يستعيدوا سلطاتهم على الجزيرة الا عام ٩١٧ م ؛ حين هاجموها بأسطولهم الذى استخدموه ضد مصر من قبل [٥٣] .

وفى تلك الأثناء رأى حاكم قلورية البيزنطى شراء سلامة بلاده بدفع ٢٢٠٠٠ قطعة ذهبية كل عام لحكام صقلية [٥٤] . وأهم من هذا ، أنه رغم فشل ناپلى وكاپوا وأمالفى على موئث جاريليانو عام ٩٠٨ ، الا أن النجاح حالف فى النهاية أعداء المغامرين عام٩١٥ . وذلك أنه عندما انتهى خطر التدخل الصقلى ، تكونت قوة برية بحرية مشتركة من بيزنطة وايطاليا بزعامة نيقولا بنشنلى (Nicolas Pincingly) ، واشتملت على قوات من الأملاك البابوية والايطالية ومن نابلى وجايتا . وقامت هذه القوات بغارة على معاقل المسلمين واستأصلت شأفتهم . وبهذا تحررت البلاد الايطالية ، حتى جنوب تسكانيا ، من مضايقات المسلمين لأول مرة منذ عام ٨٤٢[٥٥] .

وترجع أسباب ضعف بيزنطة البحرى فى مياه ايطاليا وصقلية فى ذلك الوقت ، الى ما واجهه البيزنطيون فى الشرق من مشاكل ؛ وعلى الأخص فى مياه بحر ايجـه المجاور لجزيرة كريت . اذ وجـدت القسطنطينية أنه من العسير عليها أن تحارب أعداءها فى بحر ايجه وفى المياه الغربية فى وقت

واحد . وقد حاولت وقف تهديدات كريت التى بدأت مباشرة ، عقب أن استولى عليها المسلمون النازحون اليها من الأندلس عن طريق الاسكندرية عام ٨٢٧ م . وفشلت الحملة الأولى التى قادها فوتينوس[٥٦] . كما فشلت محاولة ثانية لاستعادة الجزيرة قام بها كراتيراس حاكم اقليم كبيرهايوت العسكرى ، على رأس ٧٠ سفينة حربية من ولايته ومن بلاد اليونان وبحر ايجه [٥٧] . ورد مسلمو كريت على هذه المحاولات بغارات على ساحل تراقيا وجزر السيكلاديز [٥٨] . وفى عام ٨٣٩ م أصاب مسلمو كريت نصرا باهرا على بيزنطة ودمروا أسطولها قرب جزيرة تاسوس [٥٩] . عندئذ جهزت القسطنطينية عام ٨٤٣ م أسطولا ضخما فى العاصمة وجعلت على قيادته تيوكستوس لاخضاع هؤلاء المغامرين المزعجين . ويبدو أن مؤامرات أهل كريت كانت ناجحة لدرجة أنها عاقت هذا الأسطول حتى عن الابحار من موانيه [٦٠] .

ولم تقم بيزنطة بأية عمليات بحرية جديدة فى تلك المياه حتى عام ٨٥٣م . ثم قامت بهجوم آخر — لا ضد كريت هذه المرة — لكن على دلتا وادى النيل ، لأن أصحابها كانوا على تحالف وثيق مع مسلمى قندية (أو الخندق) . ونهبت هذه الحملة مدينة دمياط واستولت على أسلحة كانت معدة لارسالها الى مسلمى كريت [٦١] . ثم حدثت غارة أخرى على دلتا النيل عام [٦٢] ٨٥٩ م . ولا يبعد أن كان لهذه الغارات ، مثلما كان لغارات الأغالبة ، بعض الأثر على كريت ذاتها ؛ فقد انصرف أهل كريت عن ازعاج الأراضى البيزنطية حتى عام ٨٦٢ م ؛ وهى السنة التى هاجموا فيها مدينة ميتلين ونهبوا جبل آتوس[٦٣] . ثم حدث بعد ذلك بأربع سنوات ، أى عام ٨٦٦ م أن أقاموا قاعدة شبه دائمة على جزيرة نيون قرب شبه جزيرة خلسيد Chalcide [٦٤] .

ثم أصابت البحرية البيزنطية زمن باسيل الأول انتعاشا انعكس أثره فى

مياه بحر ايجه ومياه البحر المتوسط الغربية . ففى عام ٨٧٩م استطاع أسطول كبير بقيادة الأميرال نيكتاس أريفا ، أن يحطم أسطولا كريتيا فى خليج كورنث وأن يثبت دعائم السلام فى بحر ايجه مدة تزيد على عشرين عاما(٦٥)؛ وحال هذا دون قيام غارات كريتية جديدة حتى عام ٩٠١ م . وكانت هذه الغارات الجديدة موجهة ضد جزر السيكلاديز ؛ وفى الوقت ذاته استطاعت بعض السفن أن تبلغ مياه بحر مرمرة (٦٦) . وفى عام ٩٠٤ م وجهت كريت أقسى ضرباتها على الاطلاق ، اذ اشترك ليو الطرابلسى (*) مع بعض السفن الكريتية فى القيام بغارة واسعة النطاق على سالونيك وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية : وسارت قاذفات اللهب فى طليعة هذا الأسطول ؛ مما جعل الغـزو ناجحـا للغاية . وأسر المسـلمون من سكان المـدن عـددا يبلغ ٢٢٫٠٠٠ نسمة (٦٧) اقتيدوا لمختلف الأقطار الاسلامية . ولا يخفى أن هذه الغارات آلمت القسطنطينية ودفعتها الى القيام بعمل بحرى يكون أشد انتقاما . فتحركت حملة بحرية كبيرة عام ٩١٠ صوب كريت ؛ ولكنها لاقت هى الأخرى المصير الفاشل الذى لاقته الحملات السابقة ، وبقيت مدينة قندية مركز تهديد مستمر للنفوذ البيزنطى فى بحر ايجه (٦٨) . والحقيقة أن تهديد كريت لأمن بيزنطة فى البحر بقى حتى عام ٩٢٣ بلا رادع الى أن اندحر فى تلك السنة أسـطول المغامر ليو الطرابلسى على يد رومانوس ليكابينوس قرب جزيرة لمنوس (٦٩) .

على أن مسلمى كريت لم يناصبوا وحدهم بيزنطة العداء بحرا فى خلال تلك الحقبة وان كانوا أشد أعدائها عليها خطرا وأكثرهم تصميما . وكان لسورية وطرسوس نصيب من القوة البحرية غير أنها كانت مهملة نسبيا ، الى أن كانت الهجمات البيزنطية بين عامى ٨٢٨ ، ٨٤١ التى نهبت فيها مدينـة أنطاكية (٧٠) . فأقنع هذا العباسيين — فيما يبدو — بضرورة وجود قوة

بحرية لحماية هذه الشواطىء بالاضافة الى الأمداد غير المباشرة التى تأتى من أسطولى كريت وشمال افريقية . لهذا أمر الخليفة المعتصم ببناء سفن فى سورية ، وربما فى طرسوس . وفى عام ٨٤٢ م تحرك هـذا الأسطول المكون من ٤٠٠ سفينة الى بحر ايجه فتلقفته العواصف وشتت شمله قرب سواحل آسيا الصغرى ، حتى لم يبق منه سوى سبع سفن (٧١) . وبعد ذلك بسنوات قليلة أغارت بيزنطة على مصر (٨٥٣ م) فرأت السلطات الحاكمة ضرورة تنظيم قوة بحرية مصرية ، ولكننا لا نعرف على وجه التأكيد مدى ما انتهى اليه هذا العمل فعلا (٧٢) .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع شاهدت هذه المناطق قيام قوة بحرية أكثر استقرارا ، وعلى الأخص عند حدود طرسوس . ويبدو أن تلك القوات كانت تحت امرة الأمير الذى عهد اليه فى نفس الوقت قيادة قوات الحدود البرية ، المستخدمة ضد بيزنطة ، وكان لهذا الأسطول — ويجوز أنه دعم أيضا بفرق مصرية وسورية — من القوة ما مكنه من الهجوم بغارة على القاعدة البحرية البيزنطية الأناضولية فى اضالية عام ٨٦٠ م ورافق ذلك الهجوم هجوم عباسى آخر من البر على بلاد آسيا الصغرى (٧٣) . ثم أغار أسطول سورى طرسوسى على جزيرة أيوبيا فى بحر ايجه عام ٨٧٣ وربما ساعدته فرق كريتية فىهذا الهجوم أيضا (٧٤) .

وفى أواخر عهد الامبراطور باسيل الأول — وهى المرحلة التى امتازت بالانتصار على الكريتيين فى بحر ايجه عام ٨٧٩ ، وعلى الأغالبة وأهل صقلية فى الغرب بين عامى ٨٨٠ و ٨٨٦ م ساعد احياء البحـرية البيزنطية على وقف الجهـود البحرية المشتركة من قوات طرسوس وسـورية ومصر . وربما كانت المشاكل الداخلية أقوى أثرا فى صرف المسلمين عن أعدائهم البحريين البيزنطيين . وترجع هذه المشاكل الى امتداد نفوذ ابن طولون

من مصر الى سواحل سورية حتى طرسوس . وكان لطرسوس هذه أسطول عظيم البأس فتمكنت بفضله من المقاومة الى سنة ٨٨٨ عندما وقعت فى أيدى الطولونيين . وخلال هـذه الفترة استعاد باسـيل الأول ، قبرص وحكمها الكسيوس الأرمنى سبع سنوات كولاية عسكرية[٧٥] .

ثم تدهور النفوذ الطولونى ، وانتهى أمر تلك الأسرة باسـتعادة العباسيين لمصر عام ٩٠٤ . وتتيجة لذلك ارتفع شأن القوة البحرية فى كل من طرسوس وسواحل سورية . واستطاع ليو الطرابلسى أن يبحر بأساطيل من طرابلس وسائر مدن سورية الساحلية عام ٩٠٤ لا لينهب سالونيك فحسب بل ليبقى مصدر رعب لسكان بحر ايجه جيلا من الزمان . وخرج من طرسوس فى نفس السنة أسطول عباسى هزم فلول الطولونيين فى النيل ويسر سهولة استرداد العباسيين لمصر [٧٦] . وفى عام ٩٢٠ خرج أسطول آخر من طرسوس ، قوامه خمس وعشرون سفينة ، وأوقع الهزيمة قرب الاسكندرية بأسطول فاطمى قوامه ٨٠ سفينة حربية ، وأسر قائده وعاد به منتصرا الى قيليقية ، وحال ذلك دون فتح الافريقيين لمصر[٧٧] .

ولما كانت بيزنطة ضعيفة بحريا فترة حكم ليو الحكيم فانها لم تستطع القيام بشىء تجاه تلك القوة البحرية . ويظهـر أن قبرص عادت لسلطان بيزنطة مرة أخرى عام ٩٠٢ ، وعهد الى حاكمها ورئيس جماعات المردة فى أضالية بالحيلولة دون اتصال مسلمى كريت باخوانهم مسلمى سورية[٧٨] .

ويمكننا أن نتبين مقدار نجاحهما الضئيل من الغارة الكبيرة التى شنها ليو الطرابلسى على سالونيك عام ٩٠٤ م ومع ذلك فلابد أنهما استطاعا تحقيق مزيد من الازعاج ، اذ استطاع ليو الطرابلسى ، أمير صور وقائد الأسطول السورى ، الاغارة على الجزيرة لخروجها عن الحياد التقليدى فى الحرب التى نشبت بين العرب وبيزنطة[٧٩] .

واذن فيمكن القول جملة أنه كانت لمسلمى طرسوس وسورية ومسلمى مصر أيضا قوة بحرية كبيرة ، وعلى الأخص أوائل القرن العاشر . واستطاعت هذه القوة تدعيم قوة كريت وتقوية امكانياتها لتهديد طرق التجارة البحرية البيزنطية ؛ وتم هذا كله رغم الخلافات القائمة فى صفوف المسلمين وقتذاك . ولم يهمل حكام القسطنطينية حساب سفن المسلمين الحربية الا بعد آن تحطم آسطول ليو الطرابلسى عام ٩٢٣ م . وحتى ذلك التاريخ نفسه كانت سفن المنطقة الواقعة بين شواطىء قيليقية وشواطىء سورية لا تزال قوية لدرجة أنها استطاعت أن تعوق الغزو الثالث للفاطميين على مصر عام ٩٣٥ ، وأن تعين الأخشيد ، حاكم سورية على حكم وادى النيل الخصيب[٨٠] .

واذا كان هؤلاء الخصوم المسلمون فى أفريقية وصقلية وكريت وسورية وطرسوس هم وحدهم الذين كافحتهم بيزنطة طيلة قرن من بعد عام ٨٢٧ م ، لكفى هذا لتعليل ضعفها البحرى فى البحر المتوسط . ولكن كان هناك عدو آخر ، فقد شهدت تلك الحقبة تقدم ذلك العدو البحرى الآخر ، وعرّض مركز بيزنطة فى البحر الأسود للخطر ؛ وكان ذلك البحـــر من قبل منطقة نفوذ للقسطنطينية وحدها دون أن تجد عناء فى الاشراف عليه . وهذا الخطر الجديد هو الروس الفارنجيون أصحاب كييف وجنوب روسيا . وهم اسكندناويون ؛ وقد يكونون على الأخص من السويديين الذين أتت بهم الى هذه المناطق فرص التجارة والنهب على طول طرق التجارة الفارنجية الممتدة عن طريق الأنهار الروسية ، من بحر قزوين والبحر الأسود . وسرعان ما صار هؤلاء المغامرون الطبقة الحاكمة فى المدن التجارية الواقعة فى أحواض تلك الأنهار ، وسرعان ما سيطروا كذلك على موارد الثروة ، التى جلبتها تجارة الصادر والوارد الى كييف وتشجورود والمراكز الأخرى المشابهة[٨١] .

هـــذا النشاط التجـــارى أعطى الروس فكرة عن ثروة القسطنطينية

أو مدينة القيصر Tsargrad . وأثارت هـذه الثروة طموحهم وأطماعهم ، فقاموا عام ٨٦٠ بغارة واسعة النطاق على القسطنطينية ، واشتمل أسطولهم على مائتى سفينة ، واختاروا لحملتهم وقتا مناسبا للغاية . ففى هذه الأثناء كان الأسطول الرئيسى لبيزنطة يعوقه العطب الذى حاق به من جراء هزيمته المنكرة قرب صقلية على يد أسطول الأغالبة عام ٨٥٩ م . وكان أسطول سورية يهاجم أضالية ، الى جانب ازدياد نشاط الكريتيين فى مياه بحر ايجه ، وهذا حين لم يكن لدى القسطنطينية من القوة البحرية ما يكفى لمواجهة المغيرين الجدد القادمين عليها من الشمال ، لذا استمر الحصار حول المدينة عشرة أشهر الى أن بددت شمل الروس وأجلتهم عن المدينة عاصفة عاتية من عواصف الشتاء [٨٣] . وربما قاموا بغارة ثانية عام ٩٠٧ م على نحو ما حدث عام ٨٦٠ م ، عندما نزلت قوة بيزنطة البحرية لمستوى الحضيض عقب ضياع طبرمين فى الغرب عام ٩٠٢ ، وعندما نهب ليو الطرابلسى سالونيك عام ٩٠٤ . على أن الروس وان أجلاهم البيزنطيون عن المدينـة دون كبير عناء [٨٣] ، الا أن خطر قوتهم البحرية فى البحر الأسود عقد مشكلة الدفاع البحرى عن القسطنطينية لدرجة كبيرة .

على حين كانت قوة المسلمين البحرية بوسط البحر المتوسط وشرقه هكذا متفقة ، وبينما الروس يهددون سلطان بيزنطة على البحر الأسود ؛ ترى ماذا كانت الحال فى الغرب وفى الأندلس ؟ ... لقد أظهرت الدولة الأموية باسبانيا عدم اكتراث بتكوين قوة بحرية لها أول الأمر ، وبدت أقل اهتماما بهـذا الموضوع من أى اقليم اسلامى آخر فى حوض البحر المتوسط . وربما يرجع عدم الاهتمام للحقيقة التالية ، وهى أن حكام قرطبة ظلوا على سياستهم التقليدية التى قضت بمصادقة البيزنطيين ومعاداة العباسيين . ولهذا رأيناهم لا يساهمون بصفة عملية فى الغزو الذى قام به الأغالبة على صقلية وايطاليا .

ولم يحدث أن ساعد الأندلسيون أعداء بيزنطة الا مرة واحدة عام ٨٢٩ . اذ خرجت حملة من طرطوشة واشتركت فى الهجوم على صقلية جانبا من الوقت ، لكنها سرعان ما انسحبت من القتال . واذا كان الكارولنجيون ساعدوا البيزنطيين بالهجوم على ميناء بونة عام ٨٢٨ م ، فربما مثّل هذا الحادث فترة خصام قصيرة جدا بينحلفاء قدامىهم الأغالبة والكارولنجيون. وعلى الرغم من مساهمة أفراد من مغامرى الاسبان فى أعمـــال الأساطيل الاسلامية وعصابات القرصان التى خرجت من المعاقل الاسلامية فى جارليانو وطارنت وبارى وكريت ، للانتقام من الشواطىء الايطالية ونهب تجارتها ، فان العلاقات بين الأندلس وبيزنطة ظلت علاقة صداقة ومودة فى الغالب . وقد أرسل الامبراطور تيوفيل سفراءه عام ٨٣٩ ، الى كل من عبد الرحمن الثانى ولويس التقى ملتمسا العون ضد مسلمى صقلية وأفريقية ، ولكن رغم استقبال سفرائه أحسن استقبال ، والرد على ذلك بايفاد سفراء من قرطبـــة الى القسطنطينية ؛ فان هـــذا كله لم يثمر ســـوى كلمات الود والمجاملة (٨٤) .

ولم يكن لهذه المودة وجود فى العلاقات بين الأمويين فى الأندلس وبين الكارولنجيين لأن العداء بينهما كان طويلا ومستمرا .

تركزت البحرية التى امتلكتها الأندلس أوائل القرن التاسع على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشة وبلنسية ؛ وتزعم هذه القوة ضد الكارولنجيين الأمير المستقل الوحيد وهو أمير سرقسطة . ثم تفككت قوة الكارولنجيين البحرية أواخر أيام لويس التقى ، عندما ضاعت طرطوشة وبرشلونة وضعف سلطانهم على شمال ايطاليا . لهذا رأى مسلمو اسبانيا أن فى الامكان الاغارة على طول السواحل الكارولنجية دون خوف فبدءوا غاراتهم عام ٨٣٨ بارسال أسطول من طركونة الى مرسيليا مزود بفرق

خاصة من جزر البليار [٨٥] . وفى عام ٨٤٢ جاء دور آرل وما حولها [٨٦] .
ثم لاقت مرسيليا هذا المصير مرة أخرى عام ٨٤٦ [٨٧] . وفى عام ٨٤٨ قبلت
جزر البليار سيادة الأمويين عليها وتعهدت بعدم التعرض لسفن المسلمين[٨٨]
وفى عامى ٨٤٨ ، ٨٥٠ م تعرضت آرل لهجمات المسلمين [٨٩] ، ثم ضعفت
المقاومة أخيرا على طول ساحل فرنسا الجنوبى ، بحيث استطاع مغامرو
المسلمين اتخاذ قاعدة شبه دائمة لأنفسهم فى جزيرة كامرج Camargue
عند مصب نهر الرون [٩٠] . وتوغلوا من هذا الموضع الى الداخل حتى بلغوا
آرل وأسروا أسقفها عام ٨٦٠[٩١] . وربما استمرت اقامتهم بطريقة شبه
دائمة بعيدا عن الساحل عند خرائب مدينة ماجلّون . ويؤيد ما كان للمشارقة
من قواعد هناك فيما بعد وصولهم فعلا الى تلك الجهات [٩٢] . ولذا اضطر
شارل الجسور أو شارل الأصلع الى توقيع صلح مهين عام ٨٦٤ ، أتاح
لسكان هذه المنطقة من فرنسا بعض الراحة من تلك الغارات .

ويبدو أن غارات المسلمين البحرية توالت بسرعة متزايدة أواخر القرن
التاسع الميلادى . ففى عام ٨٨٨ أسس مسلمو الأندلس قواعد أكثر ثباتا
فى فراكسينت Fraxinetum على ساحل پروڤانس بالاضافة الى قواعدهم
شبه الدائمة فى كامرج وماجلون ، ولعلهم استعانوا فى هذا العمل برجال
من جهات أخرى . ومن تلك القاعدة شن العرب غارات برية على الداخل
مثل ما فعلوا فيما مضى عندما نزلوا بارى ومونت جارليانو . وتعرض اقليم
بروڤانس وحوض الرون الأدنى لغاراتهم المستمرة طيلة أربعة وثمانين عاما .
بل انهم انتشروا فى جبال الألب وتحكموا فى الممرات الموصلة بين فرنسا
وايطاليا فيما بين مونت سنى والبحر المتوسط . وجعلوا السفر عبر تلك
الطرق الى وادى إلپو عسيرا جدا ، ان لم يكن مستحيلا [٩٣] . يضاف الى
هذا أن مسلمى الأندلس احتلوا عام ٩٠٢ جزر البليار وأقاموا عليها واليا

منهم [٩٤] . ومع أن هذه الجزر وقعت تحت نفوذ المسلمين منذ ٨٣٨ الا أن ضمها النهائى تأخر حتى التاريخ السابق وربما رجع ذلك لضعف بحرية الأمويين .

ولم تساند قوة الحدود البحرية الأندلسية هـذه ، الآخذة فى النمو التدريجى منذ القرن التاسع ، قوة بحرية أخرى فى باقى شبه الجزيرة . فلم يعن الأمويون اطلاقا بتكوين أسطول لهم بالمعنى الصحيح فى هـذا القرن . ومع ذلك فان تأسيس فراكسنت واحتلال جزر البليار ، يشير الى مطلع فجر قوة بحرية نامية . غير أن هذه القوة البحرية الاسلامية النامية ، ظهر ضعفها بأوضح صـورة فى عجزها عن مواجهة غارات أهل الشمال Norse أواسـط هـذا القرن . وقام الڤيكنج Viking بأولى غارات هؤلاء الشماليين عام ٨٤٤ م ، عندما هاجم أسطول القراصنة الاسكندناويين مدينة لشبونة بأربع وخمسين سفينة ، عضدتها بعد ذلك ست وعشرون سفينة أخرى . وأعملت جميع هذه السفن النهب والسلب فى اشبيلية ومدينة نكور على الساحل الأفريقى [٩٥] . ولما لم تكن للأمويين سفن حربية كافية فى تلك المناطق فانهم عجزوا عن وقف هذه الهجمات ؛ بل انهم أرسلوا رسلهم لمفاوضة ملك الڤيكنج . ويبدو أن هؤلاء الرسـل زاروا چتلند واستقبلوا هناك أحسن استقبال [٩٦] .

ولكن هذه الجهود الدبلوماسية لم تق الأمويين التعرض للغارات فى المستقبل . ففى عام ٨٥٨ قام الڤيكنج بهجوم أكثر عنفا على اسـبانيا ، وظهرت سفنهم مرة أخـرى تجاه الأندلس ونهبت بعض مدن الأندلس وشمال أفريقية مثل الجزيرة ونكور . ثم سارت سفنهم فى البحر المتوسط حيث نهبت أوريوله على الساحل الشرقى للأندلس وكذا جزيرتى ميورقة ومنورقة ، واسـتقرت فى جـزيرة كماريا عنـد مصب الرون شـتاءين

متعاقبين [٩٧] . ومن هنالك قام الشماليون بغارات نحو الداخل ؛ وكانت من ضحايا غاراتهم مدينتا لونى وپيزا على ساحل ايطاليا . ويقال ان بعض هؤلاء المغيرين توغلوا فى شرق البحر المتوسط حتى انهم أغاروا ، قبل عودتهم الى ديارهم فى الشمال ، على الدردنيل وربما على الاسكندرية أيضا [٩٨] . وتوضح هذه الحملة الجريئة التى قام بها الڤيكنج مدى ضعف القوة البحرية الأندلسية ؛ ولها كذلك دلالتها بالنسبة لحقيقة الأوضاع البحرية فى سائر البحر المتوسط جملة وقتذاك . فقد حرص هؤلاء القراصنة الشماليون على الابتعاد عن جميع المناطق التى لها أساطيل حربية قوية ، تستطيع بوساطتها أن تعترض عمليات سلبهم ونهبهم . وهذه المناطق هى الساحل الاسبانى بين دانية وطرطوشة وساحل شمال افريقية ، حيث بنو الأغلب ، ثم صقلية وجنوب ايطاليا وسواحل سورية وهكذا اقتصرت غاراتهم على جنوب اسبانيا وجنوب فرنسا وشمال غرب ايطاليا والدردنيل ومصر ، وهى المناطق التى خلت ، أو كادت ، من القوات البحرية فى هذه السنوات .

وربما أدت هذه الغارة الكبيرة الى التزام حكام قرطبة السكون ، الا أنه من المهم أن نعلم أنها لم تدفعهم الى بناء قوة بحرية منظمة خاصة بهم . ويتضح لنا ذلك عام ٨٧٩ ، عندما حاولت قرطبة بناء أسطول لاستخدامه فى الاغارة على جليقية المسيحية . فقد كان بناء هذا الأسطول سيئا للغاية ، وبحارته من أضعف الملاحين حتى انه غرق بمجرد بلوغه مياه المحيط [٩٩] . ولم توجد للأندلس قوة بحرية منظمة بالمعنى الصحيح الا على عهد عبد الرحمن الثالث أى فى القرن العاشر الميلادى .

ولكن عالم البحر المتوسط ، فى هذه الفترة المبكرة من القرن العاشر ، بسكانه من المسلمين المقيمين فى جزر البليار فى الغرب وصقلية فى الوسط

وكريت فى الشرق وسكان سردينية وقبرص المحايدتين ، لم يبق هكذا أمدا طويلا . اذ بدأ البيزنطيون فى الشرق والأمويون فى الغرب يوسعون سلطانهم البحرى ويخلون بميزان القوى البحرية الموجودة وقتذاك . وقد اهتم كل من رومانوس ليكاپينوس فى القسطنطينية وعبد الرحمن الأموى فى الأندلس بنواحى النشاط البحرى ووصلوا فى هذا الميدان الى نتائج هامة .

ورومانوس ليكاپينوس ، الذى كان قائدا للأسطول البيزنطى قبل أن يغتصب العرش الامبراطورى ، هو أول حاكم بيزنطى — بعد باسيل الأول — آمن بأهمية الأسطول وضرورته للامبراطورية . ففى أيامه أفاقت القوة البحرية بالقسطنطينية ونهضت من المستوى المنخفض الذى كانت عليه أيام ليو الحكيم . وفى عام ٩٢٣ حرر بانتصاره الكبير على أسطول ليو الطرابلسى ، منطقة بحر ايجه من هجمات العرب مدة تزيد على عشرين عاما . وفى عام ٩٢٨ ، أرسل وحدات من الأسطول البيزنطى للاغارة على مصر لأول مرة منذ عام ٨٥٩ [١٠٠] . ولسوء حظه قضت عاصفة على هذا الأسطول قبل أن يبلغ غرضه من التخريب . وفى عام ٩٤١ كانت القوة البحرية البيزنطية قادرة على تبديد وتحطيم قوة بحرية روسية كبيرة تحركت لمهاجمة القسطنطينية بألف سفينة تحت قيادة أيجور Igor أمير كييف [١٠١] . وخرجت حملة كبيرة صوب كريت عام ٩٤٩ لكنها أخفقت رغم ضخامتها ، فى الاستيلاء على مدينة قنـدية ، معقل المسلمين بالجـزيرة ، فبقيت كريت فى قبضة المسلمين [١٠٢] . وفى عام ٩٥٤ تحركت أطماع البيزنطيين ودفعتهم قوتهم الى الاغارة على ميناء الفرما المصرى [١٠٣] . وهكذا تكوّن الأسطول البيزنطى الجديد الذى سيصبح أداة فعالة فى أيدى نيقفور فوكاس .

ولم يفتر نشاط بيزنطة فى المياه الغربية ، اذ كانت الحاجة ماسة الى بذل

نشاطها هناك مثلما تفعل فى الشرق . ومنذ أن استقر سلطان الفاطميين فى صقلية عام ٩١٧ ؛ وسكانها وسكان شمال أفريقية يعاودون غاراتهم على الأراضى البيزنطية . ففى عامى ٩١٨[١٠٤] ، ٩٢٤ أغاروا على قلورية فى منطقة قرب ريو [١٠٥] . وفى عام ٩٢٥ نهبت مدينـــة أريو Orio [١٠٦] . ورأى حاكم قلورية أن من الحكمة تجديد دفع الجزية وقدرها ١١٫٠٠٠ قطعـــة من الذهب سنويا ، ليضمن الخلاص من شرور هذه الغارات[١٠٧] . ثم حول الفاطميون اهتمامهم الى بلاد أخرى ؛ فهاجموا طارنت بأربع وأربعين سفينة عام ٩٢٩ [١٠٨] . ورأت سلرنو ونابلى وقتذاك أنه من الأفضل لهما أن تدفعا الجزية للعرب .

ولعل الضغط البحرى الذى قام به الفاطميون من قواعدهم فى أفريقية وصقلية هو وحده السبب فى عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية فى البحر التيرانى ، لأول مرة بعد عام ٨٨٨ م . اذ استطاع هذا الأسطول البيزنطى أن يهاجم بنجاح معقل المغامرين العرب فى فراكسينت على ساحل پروڤانس . وهو المعقل الذى ربما كان يتصدى أصحابه لتجارة المدن الساحلية الايطالية مثل أمالفى وجايتا ونابلى وسلرنو . وعلى أية حال فان الأسطول عجز عن تحقيق أغراضه بسبب حاجته الى مساندة من قوات برية [١٠٩] . وفى عام ٩٤١ نجحت الســـياسة البيزنطية فى ضم هيو Hlugh ملك ايطاليا الى صفها ؛ ووعد هذا الملك بمهاجمة المعقل الاسلامى من البر عندما يهاجمه الأسطول البيزنطى من البحر . ونجح الهجوم البحرى فعلا ، الا أن هيو نقض العهد من ناحيته ، فاستمر المسلمون فى معقلهم باقليم بروڤانس [١١٠] .

والظاهر أن نشاط القوى البحرية البيزنطية فى غرب البحر المتوسط أزعج الفاطميين كثيرا فأرسلوا عام ٩٣٥ أسطولا كامل الاستعداد ليثبت دعائم سلطانهم على مياه البحر التيرانى . وأغار هذا الأسطول الفاطمى على

سردينية وكورسيكا وربما على جنوة أيضا ، واستطاع أن يحرق الكثير من السفن [١١١] . وتدل الغارة على سردينية — لأول مرة منذ سنين طويلة — على استعادة البيزنطيين سيطرتهم على هذه الجزيرة التى كانت مستقلة استقلالا ذاتيا قرابة قرن من الزمان ؛ والتى عاشت — كما عاشت قبرص — فى حالة حياد بين بيزنطة وبين مسلمى صقلية وشمال أفريقية [١١٢] . وسرعان ما توقفت حركات الفاطميين هذه بسبب سلسلة من المشاكل الداخلية الخطيرة اذ حدث على أثر فشل هجومهم الثالث على مصر عام ٩٣٦ أن قامت ثورة فى صقلية شغلوا أنفسهم باخضاعها من سنة ٩٣٧ حتى ٩٤٠ ؛ وساعدت بيزنطة على اشتعال هذه الثورة [١١٣] . ثم قامت بعد ذلك بسنوات قليلة ثورة أكثر خطورة فى شمال أفريقية وهى المعروفة بثورة أبى حماره (أبى يزيد الخارجى) وهددت بضياع كل أملاك الفاطميين فى أفريقية [١١٤] .

ولم يستطع الفاطميون أن يحـولوا نشاطهم واهتمامهم الى ايطاليا البيزنطية قبل عام ٩٥٠ ؛ ففى تلك السنة أغاروا على قلورية بجيش برى وبأسطول بحرى ، وعجز البيزنطيون حقيقة عن مقاومتهم ، وخسروا فى أرض المعركة البطريق وحاكم الاقليم [١١٥] ؛ ولم يعد السلام الى ربوع ذلك الاقليم الا بتجديد دفع الجزية التى كانت تدفع من قديم . وأقنع هـذا الضعف البادى فى موقف بيزنطة أهل نابلى بعدم جدوى تحالفهم مـع القسطنطينية فساروا فى تيار تجاهلهـا . لكن سرعان ما اسـتعاد نواب القسطنطينية فى الغرب سلطانهم على المدينة عام ٩٥٦ بالاستيلاء عليها بعد هجوم مزدوج من البر والبحر [١١٦] . وتوطدت حول هذا الوقت العلاقات السياسية المفعمة بالصداقة والمودة بين بيزنطة وبين مسلمى الأندلس ، أعداء الفاطميين الألداء [١١٧] . وقضت هذه الصداقة على السلام المضطرب الذى كان قائما بين بيزنطة وبين پلرم ، فملأت أحداث الغارات المتبـادلة بين

قلورية وصقلية تلك السنوات بالمشاكل والصعاب . ثم عاد السلام ثانية بعد عام ٩٦٠ على الأسس القديمة التى تفرض على قلورية دفع الجزية[١١٨] . وشاهد الشرق والغرب الدولة البيزنطية أكثر نشاطا وأوفر قوة فى البحر مما كانت عليه أوائل القرن التاسع ، الأمر الذى ألزم الفاطميين مياههم وأعاد ناپلى الى البيزنطيين وأتاح لهم انشـــاء علاقات دبلوماسية مع الأندلس ، والعمل فى مياه جنوب فرنسا .

شارك الأمويون فى الأندلس بيزنطة فى انتعاش القوة البحرية فى الغرب . والراجح أن تقدم الأندلس البحرى كان يرجع الى عدم اطمئنان عبد الرحمن الثالث ، اطمئنانا صادقا ، الى نوايا جيرانه الفاطميين فى شمال أفريقية . فعقـــائدهم الشـــيعية وطموحهم الى الاستيلاء على أمـــلاك الأدارســـة والرستميين فى الجزائر والمغرب الأقصى — وهى الجهات التى كانت تخضع للنفوذ الأموى عادة — كل ذلك كان تهـــديدا لأمن الأسرة الأموية فى الأندلس [١١٩] . واذن فمن أجلهم شيد عبد الرحمن الثالث أسطولا كامل الاعداد والتنسيق ، اتخذ مراكزه على طول سواحل اسبانيا ، واستولى عام ٩٣١ على سبتة ، الواقعة على الشاطىء الأفريقى قبالة جبل طارق [١٢٠] . وفى عام ٩٤٤ دل هذا الأسطول على قيمته عندما التقى بعدو آخر ، فحدث عندما ظهرت قوة من الڤيكنج قرب الأندلس ونهبت قادس ومدينة شذونة وأشبيلية ، ان تمكن الأسطول الاسلامى فى أشبيلية من القضـــاء على المغيرين وأحرق معظم سفنهم بالنار ولم يفلت من هؤلاء القراصنة الشماليين الا القليل[١٢١] .

وما لبث أن كشف الفاطميون عن نواياهم ، فبعـــد أن انتصروا على صقلية وثوار أفريقية ، حولوا اهتمامهم نحو خلافة قرطبة . وفى عام ٩٥٤ كلف الخليفة الفاطمى واليه فى پلرم بالاغارة على الأندلس ؛ فأرســـل

هذا الوالى أسطول صقلية الى الأندلس حيث هاجم المرية ونهبها واستولى على غنائم كثيرة وحمل معه منها الى صقلية عددا كبيرا من الأسرى . وكانت المرية اذ ذاك القاعدة البحرية الرئيسية للأسطول الأموى فى الأندلس(١٢٢) . وردا على هذا أرسل خليفة قرطبة أسطولا أندلسيا مكونا من سبعين سفينة للانتقام من الشواطىء الأفريقية (١٢٣) . واستمرت الغارات متبادلة بين الطرفين دون توقف تقريبا فيما تلا ذلك من سنين ، الى أن سار جوهر أقدر قواد الفاطميين ، بجيش نحو الغرب فأخضع الرستميين والأدارسة وفرض سلطان سيده المعز على سجلماسة وفاس وسائر البلاد الداخلية فى الجزائر والمغرب الأقصى . وفى عام ٩٥٩ كانت سبتة وحدها المدينة التى لم يفتحها الفاطميون والتى تخضع لنفوذ عبد الرحمن الثالث (١٢٤) . غير أن الأسطول الذى بناه الخليفة فى قرطبة بقى قويا ؛ وهذا الأسطول سوف يهدد منافسيه الفاطميين أصحاب المهدية .

* * *

ومن الخير أن نجمل هنا نتائج العمليات البحرية التى حدثت فى البحر المتوسط طيلة قرن وربع قرن : بدأ تقدم المسلمين من شواطىء سورية الى فرنسا عبر البحر المتوسط حول عام ٨٢٧ . فأقاموا معاقل قوية لهم فى كريت وبعض أجزاء من صقلية ، ثم امتدوا من هذه المعاقل الى قواعد أخرى أمامية فى بارى وجاريليانو . ثم حدث فيما بعد ما يشبه هذا فى الغرب ، اذ لعبت جزر البليار الدور الذى لعبته كريت وصقلية ؛ وقامت فراكسينت بدور بارى وجاريليانو . أما جزيرتا سردينية وقبرص فلم تحتلهما قوات اسلامية بالمعنى الصحيح بسبب التزامهما جانب الحياد من تلك الحوادث . لذا كان الدور الذى لعبتاه ضئيلا جدا الا لمدة قصيرة . وما يقال عن هاتين الجزيرتين يمكن أن يقال عن جزيرة كورسيكا التى لم يرد بشأنها شىء يذكر خلال ذلك الحين .

على أن دولة الكارولنجيين وهى التى تأثرت وحدها بالتوسع الذى أحرزه مسلمو الأندلس ، لم تستطع المقاومة بأية صورة بسبب الضعف المتزايد فى قوتها البحرية ، ولأن امبراطورية شرلمان الآخذة فى التدهور أواخر أيام لويس التقى ، فقدت القليل الذى كان لها من القوة البحرية . أما بيزنطة فتمكنت بفضل مالها من موقع جغرافى ممتاز ، الى جانب ثروتها وحسن تنظيمها ، من أن تكون أكثر توفيقا فى مقاومتها . وأغلب الظن أن أقسى مراحل ضعفها كان عام ٨٦٠ تقريبا ، وذلك بعد المصيبة البحرية التى حلت بها قرب صقلية ، وقت أن هاجم الروس القسطنطينية وأغار القراصنة الشماليون على الدردنيل ، وأغار السوريون على سواحل آسيا الصغرى ، ونهب الكريتيون جزر بحر ايجه .

ثم تمتعت القسطنطينية أثناء حكم باسيل الأول بفترة من الانتعاش البحرى . ولعل هذا راجع الى ما قام به ميخائيل الثالث من اعادة تنظيم الأسطول . وأتاح هذا الانتعاش القضاء على الكريتيين فى بحر ايجه ، وعادت بيزنطة لاحتلال قبرص ، وتم جلاء الغزاة المسلمين عن أپوليا — بفضل مساعدة البندقية — واستطاع نقفور فوكاس بأسطول بيزنطى منتعش فى غرب المتوسط ، أن يدعم حكمه على جنوب ايطاليا .

ومع ذلك توقفت هذه الهجمات بهجوم آخر مضاد أوقع بالبيزنطيين هزيمة ساحقة قرب ملاص بصقلية عام ٨٨٨ . وأعقب ذلك فترة أخرى من فترات الضعف البحرى ، بلغت الحضيض أواخر حكم اليو الحكيم ؛ فضاعت طبرمين ونهبت سالونيك ووقعت جزر بحر ايجه فى يد ليو الطرابلسى . ويحتمل أن يكون الروس الفارنجيون قاموا بغارة أخرى على القسطنطينية وقتذاك . وكان القضاء على معقل العرب فى جاريليانو ، الأمر

الذى ساعد عليه قيام بعض المشاكل الداخلية فى الدولة الفاطمية ، هو المغنم الوحيد الذى حصل عليه البيزنطيون فى تلك الفترة .

وأخيرا ، فانه ابتداء من أيام رومانس ليكاپينيوس انتعشت البحرية البيزنطية انتعاشا ظهرت آثاره فى نفوذها فى البحر . وظهرت سفن بيزنطة الحربية ثانية فى المياه الغربية على نحو قوى وفعال فخلص بحر ايجه من قرصنة أسطول ليو الطرابلسى وأغار على كريت عام ٩٤٩ م . وهزم الروس هزيمة ساحقة فى هجومهم الذى شنوه على العاصمة البيزنطية عام ٩٤١ . وأثبتت غارات الأسطول البيزنطى على مصر عامى ٩٢٨ ، ٩٥٤ ، مقدار القوة التى توافرت له فى تلك المنطقة ، لأول مرة منذ سنين طويلة وبالجملة فانه غدا قوة هجومية كبيرة يحسب لها حساب .

وبينما تنتعش بيزنطة بحريا هكذا ، تصبح الأندلس ولأول مرة قوة بحرية زمن عبد الرحمن الثالث . فلم يسيطر على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبى فحسب ، بل أصبحت قوته قوة يحسب لها الفاطميون فى شمال أفريقية وصقلية كل حساب .

أما موضوع كيفية تنظيم القوى البحرية الاسلامية فى مناطقها الثلاث وهى أولا الأندلس وثانيا شمال أفريقية وصقلية وثالثا كريت وسورية ومصر ، فأمر لا يزال غامضا ولا تسهل الاجابة عليه . فالمعلومات عنه قليلة مبعثرة بل وغامضة فى الأغلب ، وان لم يمنع هذا من وضوح الخطوط الرئيسية للموضوع . من ذلك أن أساطيل الأقاليم الواقعة عند أطراف البلاد الاسلامية مثل أساطيل سرقسطة وطرسوس وكريت ، وپلرم فى أزمنة سابقة ، كانت أقرب الى أن تكون سفن قرصان معظمهم من المغامرين المسلمين ، ومن المسيحيين الذين تحولوا عن دينهم . والغرض الأول لهؤلاء جميعا هو النهب والغنيمة . وقد خلّف لنا ابن حوقل — أواخر القرن العاشر — عن هؤلاء النهابة صورة لا تشرفهم ، فى وصفه للحى الذى كانوا يسكنونه

فى پلرم (١٢٥) . كذلك صور المقريزى خلال وصفه لاعادة تنظيم الأسطول المصرى بعد الغارة البيزنطية عام ٨٥٣ ، هؤلاء الملاحين الضئيلى الأرزاق ، الذين كانوا يجمعون للعمل على غير نظام ، والذين كانوا موضع ازدراء ذوى الاعتبار من الجماعة الاسلامية(١٢٦) . والغالب أن تنظيم ذلك النوع من القوى البحرية الخاص بالأطراف كان فى الغالب مماثلا لتنظيم القوى البرية التى كانت تقوم بالغارات قرونا عديدة على الأراضى المسيحية فيما يحاذى نهر ابرو باسبانيا أو جبال طوروس على الحدود البيزنطية . هذا وحتى فى القرن التاسع عشر لم يختلف نظام أساطيل القراصنة الرابضة عند شواطىء بلاد البربر عن تلك الأساليب .

وجانب القرصنة فى هذا النظام كان أكثر بروزا فى نشاط القواعد البحرية من أمثال باري ومونت جاريليانو وفراكسينت . وكان كل وكر من هذه الأوكار مستقلا استقلالا داخليا . ولو أن باري — فيما يبدو — كانت تعتمد على كريت ، وربما على أفريقية لحد ما . كما كانت مونت جاريليانو تعتمد على صقلية ، وفراكسينت على اسبانيا . وكان نشاط هذه القواعد أقرب شبها بنشاط مغامرى البحر الكاريبى خلال القرن السابع عشر الميلادى ، منه بنشاط الدول البحرية المنظمة . وعلى هذا فان الحرب البحرية التى كان يشنها سلطان باري أو أمير كريت أو ليو الطرابلسى كانت من النوع الذى لو قدر لهنرى مورجان فى قاعدته فى بورت رويال أن يطلع عليه ، لفهمه حق فهمه على الرغم من القرون الثمانية التى مرت . وكانت العلاقة بين هؤلاء القراصنة وبين العاملين فى التجارة المشروعة من المسلمين فى پلرم أو الاسكندرية أو طرابلس أو سرقسطة أو حتى بينهم وبين التجار المسيحيين فى نابلى ؛ لا تختلف كثيرا عما كان بين دريك وهوكنز وبين مدن بليموث وبريستول ؛ أو ما كان بين بلاك بيرد وبين موانى كارولينا

بأمريكا الشمالية . وفى أفريقية أيام الفاطميين ، كانت السلطات الحكومية تحصل ضريبة قدرها العشر من أسلاب حملات القرصنة [١٢٧] . وهذا يذكرنا بأساليب سياسة الملكة اليزابث فى انجلترا فى القرن ١٦ م . وعلى هذا النحو كانت الغارات البحرية حرفة معروفة تدر الربح على السعداء أو المهرة من الرجال .

وخلف هذه الطليعة المكونة من أساطيل القرصنة والقواعد الأمامية ، كان للمسلمين فى البحر المتوسط قوة بحرية أحسن تنسيقا وأكثر ضبطا وانتظاما . وينطبق هذا بصفة خاصة على الأغالبة وعلى الفاطميين بشمال أفريقية ابتداء من القرن التاسع ؛ وعلى صقلية فى القرن التالى [١٢٨] . وذلك لأن أساطيلهم بنيت فى دور صناعة منظمة وجهزت بالعتاد والرجال عن طريق الحكومة وقام على امرتها — ما بين أمير وقبطان — رجال ذوو دراية واسعة وذوو قدرة على ملاقاة أسطول بيزنطة الامبراطورى فى معارك بحرية هامة وحاسمة . وان الانتصارات التى أحرزتها أساطيل صقلية وشمال أفريقية عامى ٨٥٩ ، ٨٨٨ م قرب صقلية ، وهى الانتصارات التى قضت على آمال البيزنطيين فى المحافظة على هذه الجزيرة ، كانت مما حققته تلك القوات البحرية الاسلامية المنظمة .

أما فيما يتعلق بتنظيمات البحرية الأندلسية فى القرن العاشر فان المعلومات التى وصلتنا عنها وفيرة جدا ، ويحتمل انطباق هذه المعلومات ذاتها على الأقاليم الاسلامية الأخرى أيضا . وأمير البحر فى الدولة الأموية بالأندلس كان أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة . وكان يقال عنه انه كان قسيم الخليفة فى السلطان ، فهذا يحكم البر وذاك البحر . وكانت المرّية القاعدة البحرية الرئيسية ؛ وفيها تجمعت معظم دور الصناعة الهامة ،

وفى هذه المدينة كانت تجهز السفن التى كونت البحرية النظامية وعددها مائتا سفينة . وكانت هناك قواعد أخرى ، على ما يظهر فى سلبيس والجزيرة وبجاية وطرطوشة ، ويابسة ، واليقنت . ومن الطبيعى أن عددا من السفن كان يرابط فى كل من هذه القواعد أيام السلم ، ولكن فى وقت الحرب كانت كلها تتجمع فى مكان واحد ، الا أن أغلب السفن كان فى المرّية وبجاية . ولكل سفينة من تلك السفن قبطان أو قائد مسئول عن الأسلحة وعن المحاربين وكبير للبحارة أو رئيس يتولى ادارة الشرع والمجاديف . وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو من أصحاب المناصب العليا ، مالم يتول القيادة كبير أمراء البحر بنفسه . ويمكن القول انه كان للفاطميين نفس ذلك التنظيم ، يدلك على ذلك حملتهم على مصر عام ٩٢٠ ؛ وفيها كانت القيادة فى يد أمير من أمراء البحر ، وفيها كذلك ، اشتركت قوات من تونس وطرابلس وصقلية (١٣٠) . وفيما يتعلق بالأساطيل الشرقية أى أساطيل سورية ومصر ، وكانت اذ ذاك أضعف شأنا ، فان المعلومات عنها أقل ، اللهم الا أن أمير صور كان — فيما يبدو — قائد البحرية السورية (١٣١) . وكانت قبرص هى نقطة تجمع الحملات السورية المصرية المشتركة على الأراضى البيزنطية ، وبلغت تكاليف احدى الحملات ١٠٠٫٠٠٠ دينار (١٣٢) . ونستخلص من هذا ، وجود تنظيم دقيق عند مسلمى المشرق مشابه لما هو متبع فى أساطيل شمال أفريقية والأندلس .

ومن الأمور الهامة المتعلقة بالقوى البحرية الاسلامية فى ذلك الحين تجهيزها بالنار الاغريقية أو بمركب نفطى مشابه للنار الاغريقية . فالحراقات التى استخدمها الأغالبة قرب صقلية عام ٨٣٥ م كانت سفنا من قاذفات اللهب ؛ تقذف مادة سريعة الاشتعال على سفن الأعداء (١٣٣) . واستخدم ليو الطرابلسى قاذفات اللهب فى هجومه على سالونيك عام ٩٠٤ م (١٣٤)

وبهذا السلاح أحرق الفاطميون السفن التى هاجموها فى البحر التيرانى عام ٩٣٥ م [١٣٥] . واذن فلم تعد النار الاغريقية وقفا على بيزنطة ، ولم تعد سلاحا سريا مخيفا كما كانت فيما مضى . وربما يوضح لنا هذا كله عجز البحرية البيزنطية وافتقارها الى النجاح المنشود معظم تلك الفترة . والواقع أنه كان من المستحيل على البيزنطيين الاحتفاظ بسيطرتهم على البحار مالم تكن لهم وحدهم ميزة استخدام النار الاغريقية . ذلك لأن ما لديهم من أسلحة وما هم عليه من تنظيم لم يرتق عما كان عند منافسيهم المسلمين الا قليلا جدا ، ان صح أنه كان أرقى .

ومعلوماتنا عن تنظيم البحرية البيزنطية فى ذلك الحين أكثر بعض الشيء من معلوماتنا عن بحرية الشعوب الاسلامية . وعلى أية حال فان النظم القديمة الموضوعة للأسطول الامبراطورى وأساطيل الأجناد ظلت كما هى ولم تختلف كثيرا عما جـرى عليه الجانب الاســلامى من تنظيم . ولكن الكوارث التى تعاقبت على القسطنطينية فى البحر بعد عام ٨٢٧ م دفعتها الى اعادة تنظيم أساطيلها الشرقية حوالى منتصف القرن التاسع ، ويحتمل أن يكون بدء ذلك زمن حكم ميخائيل الثالث . على آن الأثر الكامل لذلك الاصلاح لم يظهر قبل حكم باسيل الأول [١٣٦] ، فتولى أمر الأســطول الامبراطورى أميرال جديد عرف باسم Drongarios of the Ploımen وربما كان هذا يقوم بوظيفة القائد العام للبحرية أيضا . وكانت ترابط قطع من هذا الأسطول عند جزيرة متلين بقصد حراسة مدخل الدردنيل ؛ وأصبحت هذه الجزيرة ، على ما يظهر ، أكثر القواعد البحـرية أهمية اذ قامت عائقا فى وجه نشاط قراصنة كريت ، فى بحر ايجة [١٣٧] . وهــذا الأسطول ذاته هو الذى حطم — تحت قيادة نيكيتاس أوريفوس — قوة كريت فى خليج كورنث عام ٨٧٩ م .

ويحتمل أن يكون التهديد الذى وجهه أسطول المسلمين من قندية سببا فى احداث تغيير آخر فى نظم البحرية البيزنطية بايجاد أسطول بحرى اقليمى جديد فى بحر ايجه. فأضيف الى أسطولى: كبيرهايوت وبحر ايجه، أسطول ثالث هو أسطول جزيرة ساموس [١٣٨]. واقتصرت مسئولية أسطول اقليم كبيرهايوتس على حماية السواحل الجنوبية للأناضول ضد غارات القوات العربية القادمة من طراسوس وسورية؛ وتلك هى المهمة القديمة لذلك الأسطول. أما أسطول بحر ايجه فكان عليه حماية الشواطىء الأوربية لذلك البحر، على حين يتولى أسطول جزيرة ساموس حماية شواطئه الأسيوية ضد غارات كريت. ووجدت الى جانب هذه الأساطيل، قوات بحرية أخرى أقل أهمية من ثغور هيلاس والپلوپونيز وسيفالونيا وپامپلاجونيا Pamplàgonia. ولكن المعلومات التى لدينا عن قوة بيزنطة البحرية فى الغرب وقتذاك قليلة جدا. ومن المؤكد أنها كانت أضعف من ذى قبل، بدليل أن قوات صقلية البحرية لم تستطع أن تسترد قوتها بعد كارثة ٨٢٧ م؛ كما لم يستطع حكام صقلية رد القوات الاسلامية فى البحر الا بعد أن جاءتهم أمداد من أساطيل الأقاليم الشرقية ومن الأسطول الامبراطورى. ولعل هذا يوضح أكثر من أى شىء آخر، اتباع بيزنطة فى الجملة سياسة دفاعية، ولعله يوضح أيضا عدم خوف مدن كمپانيا من بأس حكام بيزنطة فى الغرب. فلم تكن لهؤلاء قوة بحرية يفرضون بها مطالبهم على تلك المدن. وقد احتفظت قلورية التى كانت تعتبر جزءا من صقلية حتى عام ٩٠٢ م، بأسطول اقليمى ضئيل مكون من عشر سفن [١٣٩]. على حين لم يكن لأپوليا قوة بحرية تذكر. والواقع أن القوة البحرية الوحيدة فى الغرب الجديرة بالاعتبار والتى كان يمكن لبيزنطة أن تعتمد عليها، كانت فعلا قوة البندقية، تساندها أحيانا قوات أخرى

من ساحل دلماشيا . والبندقية والساحل الدلماشى كادا أن يكونا مستقلين ذاتيا بعد عام ٨٢٧ م . والظاهر أن البندقية بنت لنفسها سفنا حربية بعد كارثة ٨٤٠ م . والى هذه السفن يرجع الفضل فى تخليص أپوليا من المسلمين زمن باسيل الأول(١٤٠) . ومما لاشك فيه أن قوة البندقية البحرية كانت ، الى حد ما ، فى حكم أساطيل الأجناد التابعة لبيزنطة ، وكان هذا على الأخص بعد أن وقعت سرقوسة وصقلية فى قبضة المسلمين .

وفى أيام الامبراطور رومانس ليكابينوس قوى شأن الأساطيل الامبراطورية والاقليمية فى الشرق والغرب وذلك ببناء سفن حربية أكثر ضخامة أو أعظم قوة . يوضح هذه الحقيقة ما قامت به تلك السفن من غارات فى المياه الغربية وقرب الشواطىء المصرية . وفى أوائل تلك المرحلة غلب على القوة البحرية البيزنطية التزام جانب الدفاع فى الجملة ؛ فيما عدا ما قامت به جماعات المردة المقيمين بالشواطىء الأناضولية . وهؤلاء — وقد كانوا فوق كل شىء قراصنة كأعدائهم من رجال أسطول طرسوس — هم وحدهم الذين اتخذوا خطة الهجوم التى كان أعداء بيزنطة من المسلمين يسيرون عليها دائما .

ويتضح مما جاء عن الحرب البحرية فى كتاب « الخطط الحربية » Tactica الذى وضعه ليو . أن أساطيل بيزنطة كانوا يدربونها على تجنب ملاقاة العدو الا فى حالات الضرورة القصوى ، وأنها كانت تعتبر عضدا للقوات البرية لا سلاحا قائما بذاته (١٤١) . وهذا المسلك الدفاعى المملوء بالحذر ، والذى سيطر على قواد بحرية القسطنطينية ؛ ربما يوضح أكثر من أى شىء آخر ، المظهر الهزيل الذى ظهرت بيزنطة به فى البحار معظم تلك الفترة .

ومما هو جدير بالملاحظة ضآلة أثر الأعمال الحربية فى البر على القوة البحرية فى ذلك الحين . اذ بقيت ميادين القتال البرية بين الاسلام والمسيحية

فى الشرق والغرب على السواء ، مستقرة نسبيا . ففى الغرب ظلت الحدود بين المسلمين والمسيحيين فى اسبانيا هى هى تقريبا منــذ عام ٨٢٧ حتى عام ٩٦٠ م . وفى القرن التاسع نقل ملوك قشتالة وليون وناقار ، حدودهم قليلا قليلا صوب الجنوب ، لكن قوات الأمويين الحربية القوية ردتهم على أعقابهم فى القرن العاشر ، بل أقامت فى شمال اسبانيا نوعا من التفوق على هذه الممالك الاسبانية الصغيرة (١٤٢) .

وهذه الصور ذاتها تتمثل فى الشرق بوضوح بين العرب وبيزنطة على طول الحدود الأناضولية ، اذ بقى خط الحدود عامة على ما كان عليه أيام الأمويين وأوائل عهد العباسيين . وكانت بيزنطة فى السنوات الأولى من القرن التاسع ملتزمة جانب الدفاع بعد كارثة عمورية عام ٨٣٩ م . وتمثل هذه الكارثة أدنى ما وصل اليه نفوذ القسطنطينية من تقلص (١٤٣) . غير أن حروب ميخائيل الثالث كانت أكثر توفيقا لأنها أعادت توازن القوى الحربية (١٤٤) . ثم تحول التيار تماما زمن رومانوس ليكابينوس ؛ اذ امتد نفوذ بيزنطة فى تلك الأثنــاء الى أرمينية وقيليقية بسبب انقسام الدولة العباسية تدريجيا بين الأسرات الاسلامية المتحاربة فى مختلف الأقاليم (١٤٥) . وبهذا يكون مسرح الحوادث قد تهيأ للأعمال التى سيقوم بها كل من نقفور فوكاس ويوحنا چيمسكى . على أن هذه التغيرات لم تؤثر فى القوة البحرية فى كل من اسبانيا وآسيا الصغرى تأثيرا يعتد به .

وينطبق هذا تماما على كل بلاد البحر المتوسط . فايطاليا التى كانت اشكالا حــربيا وبحريا بالنسبة لقسطنطين الخامس ، وايرين ؛ غدت أقل تعرضا لخطر الجيوش البرية زمن الأسرات البيزنطية الأرمينية والمقدونية . ولم تعد أطماع لويس الثانى سوى محض خيال . اذ أن حملة واحدة قام بها نقفور فوكاس بين عامى ٨٨٥ و ٨٨٦ م كانت كافية لاستقرار خط الحدود

نسبيا بجنوب ايطاليا . أما أسرة أتو الألمانية — وهى الأسرة التى واجهت القوات البيزنطية فى ايطاليا بنفس الاشكالات التى واجهها بها شرلمان — فانها ظلت قابعة فيما وراء جبال الألب ابان الدولة الألمانية الأولى .

ويبدو أن أكثر الأخطار البرية شدة على القسطنطينية فى تلك الفترة أتى من جهة البلغار والقبائل الأسيوية المتنقلة ، وهى قبـائل الكومانس والپتشناغ Cumans & Petcheneck التى عبرت سهوب الروسيا الجنوبية الى اقليم الدانوب الأدنى . ويجب أن نضيف الى هؤلاء مشاغبات قبائل الروس الفارنجيين . وكان انتصار بيزنطة الحربى على حكام البلغار أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر ، ضئيلا جدا . ورغم المدد البحرى فان جيوشا بيزنطية عديدة دفعت ثمن اشتباكها فى معارك حربية مع القيصر سـمعان Simeon . ولم يلبث ذلك التهديد أن توقف بسبب ما قامت به القـوة البحرية والدبلوماسية البيزنطية من تحريض القبائل المتبربرة على مؤخرة قوات البلغار . فلم تستطع جيوش البلغار أن تهدد بشكل جدى مدينة القرن الذهبى بسبب افتقارها الى قوة بحرية . وحتى عام ٩٦٠ م لم يكن زمام الموقف فى هذا الصراع قد خرج من أيدى البيزنطيين ؛ كما لم يتأثر الوضع البحرى للقسطنطينية تأثرا جديا [١٤٦] .

ونجد هذه الصورة نفسها بصفة عامة فى العالم الاسلامى . ففى أيام الطولونيين والاخشيديين ، كانت الانتصـارات المؤقتة للقـوات البرية بالاشتراك مع القوات البحرية فى كل من طرسوس وسورية ومصر ، قد جمّعت هذه البلاد كلها ، تحت امرة حاكم واحد[١٤٧] . وانكفاح الطولونيين من أجل الاستيلاء على سـورية وطرسوس ، حرر لفترة ما ، قوة بيزنطة البحرية ، من خطر عدوان المسلمين فى الشرق ، الأمر الذى يفسر الكثير من أسباب النجاح البحرى الذى صادفه باسيل الأول . ورغم كل هذه الظروف

ورغم هجوم الفاطميين على مصر وخمود المنافسة بين الرستميين والأدارسة فى المغرب ، فان العمليات الحربية البرية فى العالمين : الاسلامى ، والمسيحى ، لم تكن ذات نتائج خطيرة من الناحية البحرية حتى عام ٩٦٠ م . وربما كانت أكثر التطورات خطرا على بلاد الاسلام وقتذاك ، ازدياد قوة البدو القرامطة فى بلاد العرب ؛ فقد أضعفت غاراتهم على سورية والهلال الخصيب سلطان بغداد على أقرب الأقاليم الى عاصمة الخلافة العباسية . وأثرت هذه الحركات بشكل واضح على أواخر القرن العاشر أكثر مما أثرت على أوائله .

واذا لم يكن للمعارك البرية الا هذا الأثر الضئيل على مصائر الشعوب المحيطة بالبحرين الأسود والمتوسط فما هى اذن الآثار الناجمة عن تغير الأوضاع البحرية فى ذلك الحين ؟ يبدو أن التغيير الحيوى الذى حدث ، هو انتقال الجزر الهامة فى البحر المتوسط الى أيدى المسلمين . وكان لهذا الانتقال انعكاسات هامة على القوى البحرية فى المتوسط ، نتيجة للسيطرة — معظم الوقت — على كريت شرقا وصقلية ومالطة وقوصرة فى الوسط وجزر البليار (ميورقة ومينورقة) غربا ، ثم على جزيرتى سردينية وقبرص المحايدتين . ولم يبق هناك سوى طريق واحد بعيد عن خطر القواعد الاسلامية فى البر والبحر ، هو الطريق الموصل بين البحر المتوسط وبين البندقية ، عبر مياه البحرين الأيونى والادرياتى . وحتى هذا الطريق ، ظل مغلقا مدة ثلاثين عاما لوجود قواعد اسلامية فى بارى وطارنت . واستمرت الحال كذلك الى أن تخلص منها البحر الادرياتى بعد عام ٨٧٥ م . وهكذا سيطرت على مداخل البحار الضيقة جزيرة أو قاعدة أمامية واقعة فى قبضة المسلمين ؛ فمثلا سدت كريت مدخل بحر ايجه ، وسدت صقلية ومونت جاريليانو مدخل البحر التيرانى ، وسدت جزر البليار وفراكسينت خليج ليونز . حقيقة أن بيزنطة حافظت على سيطرتها على

مضايق مسينا الواصلة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، حتى عام ٩٠٢ م ، أو بعد هذا التاريخ فيما يحتمل ؛ ولكن سيطرتها على هذه المضايق لم تكن تامة بسبب تعاون نابلى وجايتا وأمالفى مع القوى الاسلامية تعاونا تأكدت صلاته أكثر من مرة . وعلى الجملة فيصح القول بأن موقف الاسلام بازاء بيزنطة أصبح منذ عام ٨٧٨ م على عكس ما كان عليه بين عامى ٧٤٧و٨٢٧م ؛ أى أن الشعوب الاسلامية صارت اذ ذاك سيدة البحر المتوسط ومالكة زمام طرق التجارة الدولية فيه . هذا اذا نظرنا الى تلك السيادة من حيث تأثيرها على الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط .

وقد حصر الاسلام البيزنطيين والشعوب المسيحية الغربية فى البحار الضيقة ، على أن هناك وجهة نظر أخرى . ذلك أنه يمكننا القول بأن سيطرة المسلمين على الجزر ذات المواقع الهامة كانت لأغراض دفاعية أو على الأقل انتهت الى نتيجة ، هى تحقيق أغراض الدفاع . فكانت طرسوس وجزيرة قبرص المحايدة تحميان شواطىء سورية ؛ وكانت كريت تحمى مصر ، كما تحمى صقلية شمال افريقية ، وكما تحمى جزر البليار الأندلس . وفى أواخر القرن التاسع صارت هذه الشواطىء الاسلامية فى مأمن من أى غزو لأول مرة منذ عام ٦٤٥ م .

شعر المسلمون كذلك أن لديهم جميع ما يحتاجون اليه لحد ما وهذا فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبناء السفن . ففى صقلية كميات وفيرة من أخشاب السفن وكذا بعض الحديد[١٤٨] . وفى غرب تونس بشمال افريقية كميات وفيرة من الأخشاب وأنواع جيدة من الحديد استغلت كلها فى ذلك الحين [١٤٩] . وفى الأندلس قرب طرطوشة صوارى الأرز ، كما وجد خشب البلوط والحديد بكثرة فى أماكن كثيرة[١٥٠] . وأمدتهم جبال قيليقية بأنواع جيدة من أخشاب السفن . وكانت الاسكندرونة فى ذلك

الحين ميناء هاما لتصدير الخشب الى مصر [151] . ويحتمل ألا تكون كريت اذ ذاك قد تجردت من أشجارها بالقدر الذى كانت عليه فيما بعد . وعلى فرض أنها كانت جرداء فقد وجدت أمداد وفيرة جدا من خشب الأرز وخشب السرو على ساحل الأناضول القريب . حقيقة أن الشاطىء الممتد بين دمياط ومدينة سوسة عديم الشجر ولا ينتج أى نوع من الحديد ؛ ولكن أمكن تدبير هذه الحاجة عن طريق استيرادها من سورية ومن بلاد الاسلام فى الغرب أيضا . هذا بالاضافة الى ما يمكن الحصول عليه من طريق الاتجار فى هذه اللوازم مع البندقية القائمة على البحر الادرياتى والتى تملك كميات وفيرة من خشب السفن ؛ والتى كان الحديد على مقربة منها ، فى شمال ايطاليا واقليم التيرول[152] . واذن فلم يشعر بناة السفن الاسلامية بالبحر المتوسط حينذاك بأية حاجة الى المواد الأولية اذا ما قورنت الأمور بالحال فى المحيط الهندى .

وعلينا أن نجعل فى اعتبارنا فى هذه اللحظة ، الآثار الاقتصادية التى ترتبت على السيطرة الاسلامية الجديدة على البحر المتوسط ؛ وكيف كان مدى هذه السيطرة اذا قارناها بالسيطرة البيزنطية السابقة . لابد لنا أن نعترف قبل كل شىء أن قولنا السيطرة الاسلامية انما يدخل فى باب التعميم غير الواضح أو غير الدقيق . فلم يكن هناك نظام موضوع لسيطرة تامة الا بالمعنى العام . ولم توجد فى ذلك الحين وحدة سياسية وبحرية شاملة تضم جميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط . ان تعبير « دار الاسلام » يستند الى أساس من الواقع ولكنه لا يدل على ما تدل عليه كلمة « امبراطورية » كما فهمت أيام أغسطس أو جستنيان أو حتى أيام ليو الأيسورى .

الواقع أنه كانت للعالم الاسلامى فى تلك الفترة ثلاثة مراكز لثلاث

قوات اسلامية بحرية متميزة فى حوض البحر المتوسط : الأولى فى الغرب ، والثانية فى الوسط ، والثالثة فى الشرق . وأغلب الظن أن أهم هذه القوى الثلاث هى القوة المتوسطة التى ربطت صقلية بشمال افريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩ م ، والتى انتقل الاشراف عليها الى الفاطميين بعدهم . وربما اعتبرت أوكار القرصنة العربية المستقلة القصيرة العمر فى بارى وجاريليانو ، جزءا من تلك القوة البحرية الاسلامية المتوسطة . والى غرب تلك القوة وجدت القوة البحرية الأموية فى الأندلس وتكونت ، ابان القرن التاسع ، من أسطول مرابط فى الثغور بقيادة أمير سرقسطة وفراكسينت . ثم اتسعت دائرة سلطان هذه القوة فى القرن العاشر ، واشتملت على أسطول جيد حسن التنظيم ، خضعت لسلطانه مجموعة جزر البليار . أما القوة الشرقية فكان نطاقها أكثر تلك القوى اتساعا وأقلها تحديدا . وكانت تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس — وهذه فى حكم المستقلة — وأساطيل سورية ومصر . وقد توحدت هذه الأساطيل الثلاثة مرتين تحت حكم الطولونيين وتحت حكم الأخشيديين ، وكانت كريت وثيقة الصلة بمصر دائما . وكثيرا ما كان يحدث ألا تكون تلك الأساطيل متحدة بل فى حالة عداء كما حدث فى عام ٩٠٤ و ٩٣٥ م .

وعلى الجملة فان الاحتكاك بين القوات البحرية الثلاث التى ذكرناها كان قليلا حتى ظهور الفاطميين فى أوائل القرن العاشر . وحدث عندئذ أن أطماع الفاطميين فى السيطرة الاقليمية دفعتهم الى استخدام قوتهم البحرية ضد كل من دولتى الاسلام المنافستين لهم فى شرقيهم وفى غربيهم . ولتحقيق هذه السياسة غزا الفاطميون مصر عام ٩١٤ ، ٩٢٠ ، ٩٣٥ ، كما غزوا امارات شمال افريقية والأندلس عام ٩٥٠ . وثارت عليهم جزيرة صقلية التابعة لهم ثورتين : الأولى بين عامى ٩١٣ — ٩١٧ والثانية من عام ٩٣٧ — ٩٤٠ .

والواقع أن وجود ثلاث خلافات اسلامية : فى قرطبة والمهدية وبغداد فى ذلك الحين ، دليل على وجود عوامل انحلال فى العالم الاسلامى . وعلى هذا فان السيادة الاسلامية ، على البحر المتوسط فى ذلك الحين ، لم تكن شيئا يمكن مقارنته بالسيادة البيزنطية على هذا البحر ذاته . ومع أن المسلمين حطموا سيادة بيزنطة البحرية ، الا أنهم لم يقيموا — أو فى الحقيقة لم يستطيعوا اقامة — سيادة تعادل سيادة بيزنطة .

مع أنه يجب الاعتراف بأن سيطرة المسلمين البحرية كانت لها آثار عظيمة على الحياة الاقتصادية والتجارية فى كل أقاليم البحرين المتوسط والأسود . وربما كان أول المستفيدين من هذا التحول بل أكثرهم استفادة فى القرن التاسع — من وجهة النظر الاقتصادية — هم سكان صقلية وسكان شمال افريقية بصفة خاصة . ونتج عن سيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وبخاصة على طريق التجارة الدائرية فى الشمال ، الواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص ، زيادة أهمية الدور الذى قام به سكان شمال افريقية كوسطاء فى تجارة ذلك البحر . وهكذا تحكم الافريقيون فى نقل التجارة بين الشرق والغرب ؛ وكانت سفنهم دائبة الحركة الى سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى الى شمال افريقية وسائر بلاد الاسلام فى الغرب .

وقد عم الرخاء جميع بلاد المغرب بفضل هذه السيطرة . وليس هناك أكثر استرعاء للنظر من المقارنة بين هذا الاقليم أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، وبينه فى هذه الفترة التى نتكلم عنها . فقد غدت تونس ، أواخر حكم الأغالبة ، بلدا زراعيا غنيا ، اكتست أقاليمه الجنوبية بأشجار الزيتون والكروم وفاضت سهوله الوسطى بالحبوب الوفيرة (١٥٣) . ولم تكن صناعاتها أقل انتعاشا من ثروتها الزراعية . فعلى مقربة من الحدود التونسية

الجزائرية الحالية وجدت مدينة مجانة الغنية بمناجم الحديد والاثمد والفضة والرصاص [١٥٤] . وخامات المعادن التى استخرجت كانت تجهز للاستعمال فى بلاد المغرب وعلى الأخص فى قاعدة سوسة البحرية [١٥٥] . وقامت فى القيروان صناعة الزجاج والخزف المموه بالمينا ، وامتازت أنواعه برقيها وجودتها [١٥٦] . وغدا النسيج من الصناعات الهامة واشتهرت البلاد بانتاجها الفاخر من الأبسطة والأقمشة الرقيقة (الطراز) [١٥٧] ، وتدخلت حكومة الأغالبة فى الحياة الاقتصادية والتجارية تدخلا مباشرا . فأشرفت على الأسعار وعلى مستوى الانتاج وأحوال الصناعة ، وذلك عن طريق نظام الحسبة واشراف المحتسب [١٥٨] .

وكانت القيروان أعظم المراكز التجارية أهمية حيث صدر منها القمح الى الاسكندرية ، والرقيق السودانى الى بلاد البحر المتوسط الشرقية ، وربما الى الأندلس أيضا . أما زيت الزيتون فكان يستورد من مناطق طرابلس والساحل حيث يعاد تصديره الى صقلية وايطاليا [١٥٩] . كذلك كانت تونس مركزا تجاريا هاما هى الأخرى ، ومثلها فى ذلك مذكورة (قاصرة) ، وقفصه وبجاية ، والأربس [١٦٠] . ولم تقل أهمية مدينة قابس الواقعة عند نهاية أحد الطرق الصحراوية [١٦١] عن المدن السابقة ، ولا عن صفاقس وسوسة . وكانت صفاقس مركزا هاما لصيد الأسماك وزيت الزيتون ، كما كانت سوسة سوقا لزيت الزيتون وترسانة بحرية رئيسية وثيقة الصلة بصقلية [١٦٢] . وعظمت الثروة فى هذا الاقليم من التجارة والصناعة ومن أعمال القرصنة أيضا . واشتغل أفراد الأسرة المالكة ومن دونهم من الناس بالتجارة فى أنواع السلع المختلفة .

والجدير بالذكر فى ذلك الحين ، ما أقيم من أعمال المنافع العامة مثل قناطر رقادة والقيروان وأسوار صفاقس وسوسة . ويرجع تخطيط هـذه

المدن الى أيام الأغالبة لا الى أيام البيزنطيين أو الرومان ؛ على الرغم من أن أسلوبها المعمارى جاء قريب الشبه من الأساليب الرومانية والبيزنطية (١٦٣). ثم عظم قدر القيروان فى ميدان الفكر وعلا مركزها كمدينة مقدسة فى نظر أهل العلم ، وكان ذلك ثمرة من ثمرات الرخاء الذى عم حينذاك .

وفى زمن الفاطميين ازدادت ثروة البلاد رغم فداحة الضرائب التى فرضها عليها هؤلاء لتحقيق أطماعهم الحربية . والواقع أن الثروة الكبيرة التى أنفقها الخليفة الفاطمى علـى فتح مصر ، تجمعت فى الغالب نتيجة الرخاء الذى تمتعت به بلاد المغرب فى التجارة والصناعة ، فى الداخل والخارج معا (١٦٤) . والأمر العظيم الأهمية هو الحال التى وصلت اليها تجارة شمال افريقية مع مصر فى القرن العاشر ؛ فقد توافد على وادى النيل عدد كبير من البربر أقاموا فى الاسكندرية وما حولها (١٦٥) ؛ وكان لهم دور كبير وخطير فى الثورات التى مهدت لنجاح الفاطميين فى حملاتهم للاستيلاء على الاسكندرية عام ٩١٤ ، ٩٢٠ ، ٩٣٥ . ويبدو أن الفاطميين وثقوا بقدرتهم على السيطرة على البحار لدرجة أنهم بنوا عاصمتهم المهدية ذات التحصينات المنيعة ، عام ٩١٥ م ، على شاطىء البحر المتوسط ؛ وهم بذلك أول الحكام المسلمين الذين قاموا بمثل هذا العمل (١٦٦) . ومما يدل على أهمية اتصال شـمال افريقية ببلاد الشرق الأدنى وقتذاك ، ادخال زراعة بعض النباتات الشرقية ، مثل القطن وقصب السكر والزعفران ، فى بلاد المغرب ، وربما فى صقلية أيضا (١٦٧) . ومن الأمور الجديرة بالاعتبار كذلك ، قيام نظام أبراج المراقبة الدقيق التنظيم ، على طول الساحل ؛ وهى الأبراج التى يمكن بوساطتها نقل الأخبار ، عن طريق استخدام النار المشتعلة فوق قممها ، بين الاسكندرية وسبتة خلال يوم واحد (١٦٨) .

ولم يكن الأمر مقصورا على الرخاء التجارى والصناعى والزراعى الذى

ساد شمال افريقية فى ذلك العصر والذى فاق كثيرا الرخاء الذى كان سائدا فى العصر البيزنطى والأموى بل والرومانى . فقد عمل الاقليم على استغلال ما خلفه من الأراضى الافريقية الداخلية على نحو لم يكن له مثيل فى العصور السابقة . وفى عهد الأغالبة والفاطميين خططت المسالك لتسير فيها القوافل مخترقة الصحراء الى بلاد السنغال والنيجر والسودان ، حيث يتوافر الذهب والرقيق . وصارت سجلماسة التى أسسها الرستميون حكام تافيللت عام ٧٥٨ ، أهم مدخل لطرق القوافل المقلة لهذه التجارة . وفى القرن العاشر بلغت حصيلة الضرائب المفروضة على هذه التجارة السودانية وحدها حوالى ٤٠٠ر٠٠٠ دينار سنويا [١٦٩] . وكانت هناك ثلاث طرق للقوافل توصل الى ذهب السودان : أحدها الطريق الذى سبق ذكره من سجلماسة الى السنغال ، والثانى فى الوسط ، ويمر عبر واحة وارقلان Ouargla الى عنق نهر النيجر ؛ أما الطريق الثالث فيقع الى الشرق ويبدأ من الجريد أو طرابلس مارا بغدامس الى قلب السودان . وسيطر الرستميون فى تافيللت على الطريقين الغربيين وذلك حتى منتصف القرن العاشر ، وكان الرستميون أصدقاء للأمويين فى الأندلس [١٧٠] . ثم تغلب جوهر الصقلى قائد الفاطميين على ملك الرستميين . وبعد عام ٩٥٨ انتقل أمر السيطرة على هذه الطرق الثلاث المؤدية الى الجنوب الى حكام تونس فعملوا على توطيد النظام بين جماعات البدو حتى لا يتعرضوا لهذه التجارة الرابحة [١٧١] . وهكذا أثرت بلاد المغرب من هذه الطرق البرية ، وغمرها ذهب السودان ، تماما مثلما أثرت بحرا من أعمال القرصنة والتجارة ، ومن قيامها بدور الوسيط فى تجارة البحر المتوسط . نرى اذن كيف بلغ شمال افريقية هذا المبلغ من الثروة وازدهار الصناعة وعظم القوة فى ذلك الحين . ولا غرو أن كانت الدنانير المغربية التى ضربها حكام المغرب

من الذهب الذى يملأ خزائنهم ؛ من أهم العملات الشائعة الاستخدام فى البحر المتوسط حتى القرن الحادى عشر .

وما يقال عن شمال افريقية يقال كذلك عن مصر ولكن بدرجة أقل ؛ فبعد فتح كريت بخمس سنوات ، أى عام ٨٣٢ ، تم اخماد آخر ثورات المصريين بعد فترة من الفوضى والاضطراب الداخلى استمرت أكثر من قرن من الزمان [١٧٢] . وسرعان ما بدأت البلاد تستعيد الرخاء الذى عرفته زمن البيزنطيين وأوائل عهد الأمويين . وظهر أثر هذا الاستقرار المتزايد فى احياء النفوذ المصرى فى البلاد الجنوبية . ففى عام ٨٥٤ امتنع جيران مصر الجنوبيون وهم قبائل البجة سكان النوبة ، عن دفع الجزية وقتلوا رجال المناجم والقواد المصريين هناك ، ونهبوا اسنا وادفو . عندئذ أرسلت مصر حملة كبيرة فى النيل ، عاونتها قوة أخرى ، أرسلت الى القصير ، على البحر الأحمر ، واستطاعت الحملة أن تخمد ثورة هذا الاقليم فى وقت قصير [١٧٣] . ثم سارت أعمال البحث عن ذهب النوبة بسلام ، وزاد استغلاله ، وتدفق من جبال النوبة الى مصر مثلما تدفق الى شمال افريقية . وكذلك تدفقت التجارة فى غير الذهب من الجنوب الى الشمال . ويغلب على الظن أن القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر قد أعيد فتحها فى ذلك الحين . يدل على ذلك أن المسعودى يذكر فى أوائل القرن العاشر ، أنه رأى فى كريت سفنا محملة بخشب الساج وهذه لا يمكن أن تصل الى هناك الا عن طريق تلك القناة [١٧٤] .

وكان الطولونيون ، الذين حكموا مصر [١٧٥] أواخر القرن التاسع قد أظهروا مدى أهمية التجارة فى نظر حكام مصر ببنائهم حيا تجاريا مستقلا بمدينتهم القطائع ، قرب الفسطاط . ومما يؤيد توافر الثروة فى البلاد :

انشاء القصر الفخم الذى بناه خمارويه بأشجاره الصناعية المذهبة والمفضضة وبحيرته المملوءة بالزئبق . يضاف الى هذا ازدياد قوة مصر، وامتداد نفوذها حتى سورية وطرسوس زمن الطولونيين . وتدل الأرقام المالية التى وصلتنا من ذلك العصر ، على مبلغ ما تمتعت به البلاد من ثراء . ففى عام ٨٧٠ ، حين تولى ابن طولون أمر مصر ، أرسل الى الخليفة فى بغداد خراجا بلغ ٠٠٠ر٧٥٠ دينار [١٧٦] . وبعد أربع سنوات ارتفع الخراج الى ٠٠٠ر٢٠٠ر٢ دينار [١٧٧] . وفى أثناء حكمه ارتفع الخراج من ٠٠٠ر٨٠٠ الى ٠٠٠ر٣٠٠ر٤ دينار . وهذا دليل على رخاء البلاد الزراعى [١٧٨] .

وقد بلغت مصر درجات أعظم من الرخاء خلال القرن العاشر ، رغم الاضطرابات التى حدثت أوائل ذلك القرن . ويبدو أن تجارة الشرق الذاهبة الى المحيط الهندى والشرق الأقصى أخذت تتحول عن طريق الخليج الفارسى والعراق ، أى عن طريق هرمز والبصرة ، الى طريق مصر والبحر الأحمر . ويذكر المقدسى أن ثغر عدن صار فى ذلك القرن أهم مراكز تلك التجارة المربحة [١٧٩] . ولا جدال فى أن بغداد أخذت تتدهور وتفقد سكانها [١٨٠] . ولعل هذا يوضح سر سلطان الأخشيد الذى لم يقتصر — فيما بين عامى ٩٣٥ ، ٩٦٨ — على مصر فقط بل شمل سورية وطرسوس والحجاز بما فى ذلك مكة والمدينة أيضا .

ولم يقم رخاء مصر فقط ، على الزراعة وعلى ذهب النوبة وعلى انتعاش طريق التجارة الدولية الهام المار بها : طريق البحرين المتوسط والأحمر ؛ فقد كانت مصر الى جانب هـذا كله بلدا صناعيا هاما ، اذ أنتجت من وافر تيلها وكتانها نسيجا رقيقا (طرازا) فى تنّيس ودمياط وشطا ودبيق [١٨١] . وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الفضية والذهبية . وكانت تحصل على ما يقرب من ٢٠ ألف الى ٣٠ ألف دينار فى السنة مما كانت

تصدره من تلك الأقمشـــة الى العراق [١٨٢] . ومن صناعتها ذات الشـــأن الأبسطة القرمزية اللون . وظهرت فى هذه الأثناء أيضا صناعة الورق التى حلت محل البردى [١٨٣] . وترجع أول وثيقـــة حكومية من الورق الى عام ٩١٢ ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من الورق البردى الى عام ٩٣٥ [١٨٤] . يضاف الى هذا اشتهار مصر فى ذلك الحين بصناعاتها الكثيرة وأسلحتهـــا القوية وتحفها الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة .

على أن فارقا مهما جعل تجارة وادى النيل تختلف عن تجارة بلاد المغرب هو السلبية الواضحة التى كانت الخاصية الرئيسية للتجـــارة المصرية ، فكانت تعمل فى نقل تجارة الأجانب أكثر من اشتغالها بتبادل التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجى ، الأمر الذى أحال الاسكندرية الى مخزن كبير لتجارة غرب البحر المتوسط ، فازدحمت بكثيرين من تجار المغرب والبندقية والقسطنطينية [١٨٥] . وكانت الفرما الميناء الذى يستقبل تجار ســـورية وسائر أقاليم شرق البحر المتوسط [١٨٦] . ويغلب أن يكون أحد أســـباب السلبية المشار اليها هو حاجة مصر الى الخشب . ومع أنها استوردت كميات من الاسكندرونة ومن البندقية ، وحاولت فى الوقت ذاته معالجة أخشابها المحلية لتجعلها صالحة لبناء السفن ، وان كان من المشكوك فيه القول بأنه كان كافيا لها . وعلى الجَمْـــلة فقد تغلبت على مشكلة الأخشاب على وجه مرض .

وشاركت سورية وفلسطين مصر فى رخائها رغم تأثر بعض بلاد تلك الأقاليم بالصراع الذى قام بين العباسيين والطولونيين والأخشيديين وبين الأسرات الصغيرة الحاكمة فى دمشق وحلب وطرسوس . وقد انتعشت طرابلس وبيروت وصور وسائر الموانى الساحلية الأخرى بسبب اعادة فتح البحر أمام التجارة الاسلامية . وهكذا عاد التجار السوريون الى البحر ثانية رغم أن مجال تجارتهم ظل أكثر محلية من مجال تجارة اخوانهم أهل

المغرب الذين اتجهوا أول أمرهم الى مصر والقسطنطينية [١٨٨] . ويبدو أن الرخاء التجارى والصناعى الذى شاهدته حلب ودمشق وبيت المقدس كان عظيما جـدا [١٨٩] . وتؤيد الأرقام ما كانت عليه تلك البـلاد من ثروة فى ذلك الحين ؛ ففى عام ٩٠٨ بلغ دخل سورية ٣٨ مليون درهم (أى حوالى ٢ مليون دينار) وذلك بعد دفع أجور الموظفين كافة [١٩٠] . ويقرب هذا الرقم الى حد كبير من الرقم الذى بلغه دخل مصر زمن الطولونيين .

ونرى فى البلاد الاسلامية الواقعة فى غرب البحر المتوسط الاسلامى أحوالا مماثلة لأحوال البلاد فى شرق البحر المتوسط ووسطه . فقد تمتع الأندلس أواخر القرن التاسع وطوال العاشر بازدهـار زراعى وتجارى وصناعى كبير . وهذه حال تختلف اختلافا كبيرا بالنسبة لما كانت عليه البلاد من كساد أواخر عهد القوط الغربيين وأوائل أيام المسلمين . وظلت الزراعة المجال الرئيسى للنشاط الاقتصادى . فالقمح هو أكثر المحاصيل أهمية ، وزيت الزيتون أعظم الحاصلات انتاجـا ، وكان أكثره يستهلك محليا . والماشية والأغنام عديدة وفيرة [١٩١] وأشجار الفاكهة تكاثر عددها ، والنبيذ يصنع فى كل مكان ، ويشربه الناس علنا [١٩٢] . والأرز وقصب السكر زرعا فى المناطق ذات الميـاه الموفورة ، فى القسم الأدنى من حوض نهر الوادى الكبير على مقربة من اشبيلية ومالقة [١٩٣] . أما الكتان الذى كان يزرع فى اقليم البيره وكذا القطن الذى ازدهر قرب اشبيلية فانهما كانا يصدران الى شمال افريقية ويباعان هناك بأثمان [١٩٤] مرتفعة [١٩٥] . وأخذت تربية دود الحرير طريقها الى الاقليم المحيط بجيان [١٩٦] .

ولم يهمل شأن الصناعة على نقيض ما كانت عليه حالها أيام القوط الغربيين . فاستغل ما هناك من حديد بين أشبيلية وقرطبة فى قسطنطينة وفريش [١٩٧] وأنتج الزئبق فى المدائن Almaden [١٩٨] . والقصـــدير فى

الغرب [١٩٩] . والرصاص قرب قبرة [٢٠٠] والفضة قرب مرسية [٢٠١] . وبلغت صناعة النسيج شأوا بعيدا فصنعت الأقمشة الصوفية فى بكيران [٢٠٢] . والأبسطة فى جنجالة وقونكة [٢٠٣] . والكتان فى سرقسطة [٢٠٤] ، والحرير فى بسطة وقرطبة [٢٠٥] . كما اشتهرت هذه الأخيرة بخزفها الرقيق وتحفها الذهبية والفضية ومصنوعاتها الجلدية[٢٠٦] ، وذاع صيت طليطلة فى انتاج السيوف . وانتقلت صناعة الورق من الشرق الى اسبانيا حوالى ذلك الحين [٢٠٧] .

وكان الأندلس حينذاك بلدا عامرا بالمدن أكثر مما كان المغرب [٢٠٨] . وصارت قرطبة ، زمن عبد الرحمن الثالث ، من كبريات مدن العالم الاسلامى، وشاع ذكر ما اشتهرت به من ثقافة وعلم وثروة . وكانت الجهات الأكثر أهمية والأكثر تقدما هى الركن الجنوبى والجنوبى الشرقى ، أى الجزء المواجه للبحر المتوسط ، وهذا يبين أهمية تجارة البحر بالنسبة للأندلس[٢٠٩] . وربما ظفرت الأندلس ، مثلما ظفر شمال افريقية ، بجانب كبير من ذهب السودان ، الذى جاء عبر طرق القوافل الغربية الى سجلماسة والمغرب الأقصى [٢١٠] . وعلى أية حال فقد كانت اسبانيا من الغنى بحيث أمدت — حسبما يقول ابن حوقل — عبد الرحمن الثالث بين عامى ٩١٢ — ٩٥١ بايراد مبلغ ٢٠ ألف ألف دينار من الذهب ؛ أى أكثر من ٥٠٠٫٠٠٠ دينار سنويا [٢١١] . ولا يمكن أن تعدل هذه الثروة العامة ثروات الفاطميين فى شمال افريقية ، أو الطولونيين فى مصر ، أو حكام العباسيين فى سورية ، ولكنها على أية حال ثروة عظيمة المقدار .

واذن فان آثار سيادة الأسطول الاسلامى على البحر المتوسط كانت بعيدة المدى وعلى جانب كبير من الأهمية . ولم تقتصر تلك الآثار على انعاش التجارة الدولية على طول طرق التجارة الدولية القديمة بين شرق

البحر المتوسط وغربه ؛ بل جددت حيوية كل من سورية ومصر ، وجلبت الرخاء الى الأندلس وصقلية وشمال افريقية ، وأفاضت خيرا كثيرا على تلك البلاد من تجارة البحر وذهب بلاد السودان والنوبة . وثمة ظاهرة هـامة مسترعية للنظر فى الأقاليم الغربية من العالم الاسلامى ؛ تلك هى تصنيع البلاد التى اشتهرت بالزراعة أواخر أيام الرومان وطول عهد البيزنطيين وأوائل عهد المسلمين أنفسهم . ففى هذه النهضة الاسلامية — كما يسميها متز بحق — كانت الأقاليم الاسلامية فى المغرب هى الرابح الأول من تلك الحركة . وورث مسلمو المغرب وصقلية ، والأندلس الى حد ما ، أعمال السوريين واليونانيين واليهود ، الذين عاشوا أواخر أيام الرومان وأوائل عهد البيزنطيين . وكان هذا بفضل التصنيع الجديد وبفضل القوة البحرية واحتكار نقل التجارة العالمية فى البحر المتوسط الى الشرق الاسلامى .

وثمة تغيير آخر له دلالته فى بلاد العالم الاسلامى ، وهو تغيير فى ناحية العملة اذ انتشر الدينار الذهبى شرقا وغربا وصارت بلاد العالم الاسلامى من تاجه حتى جزر الهند الشرقية مرتبطة تجـاريا داخل وحـدة اقتصادية واحـدة . فحوالى عام ٨٠٠ م كان الدينـار الذهبى لا يستخدم الا فى شمال افريقية وسورية ومصر وبعض أجزاء من ايطاليا ؛ ولكنه غدا حوالى عام ٩٥٠ م نقدا دوليا دون منـازع ، واستخدم فى سـائر بلاد العـالم الاسلامى [٢١٢] . وفى أوائل القرن العاشر سك عبد الرحمن الثالث دينارا أندلسيا على قاعـدة الذهب لا الفضـة التى جرى الأخـذ بها كقاعدة للنقد أواخر أيام القوط الغربيين وأوائل حكم المسلمين [٢١٣] . والشىء الأكثر استرعاء للنظر ، كان انتشار الدينار الذهبى فى الشرق ؛ ففى أواخر القرن التـاسع وأوائل العاشر اختفى الدرهم الفضى من العراق وايران ومن المحيط الهندى ، بين جزيرة مدغشقر وساحل ملبـار [٢١٤] . حقيقة

ان استخدام الفضة ظل باقيا ، ولكنه اقتصر على الاستخدام المحلى والثانوى وفى التعامل التجارى مع روسيا وغرب أوربا فحسب [٢١٥] .

ولو صرفنا النظر عن وجود قاعدة الذهب الموحدة هذه ، فان وحدة العالم الاسلامى الاقتصادية تتجلى لنا بوضوح فى شيوع استخدام أساليب حكومية واقتصادية مماثلة ، من الأندلس الى بلاد التركستان . فنظام الجوازات المعمول به فى مصر والموروث عن الأمويين ، ظل يستخدم زمن الطولونيين والأخشيديين ، بل انه انتشر شرقا حتى بغداد [٢١٦]. ويصدق القول أيضا على اشراف الدولة اشرافا دقيقا على تجارة الصادروالوارد وعلى الجملة فان التجار الأجانب كانوا يدفعون ١٠٪ على ما يحملونه من بضائع لوادى النيل ويتسلمون مقابل ذلك اذنا أو ترخيصا بالاقامة فى البلاد لمدة عام [٢١٧] . واحتفظت الحكومة المصرية باحتكار النسيج (الطراز) وبعض المنتجات الأخرى .

ووجد مثل هذا النظام عند الفاطميين فى شمال افريقية حيث كان لزاما حتى على الحجاج الذاهبين الى مكة والمدينة ، أن يمروا بالقيروان وأن يدفعوا للدولة عوائد خاصة من المال [٢١٨] . كما وضع الحكام المسلمون فى كل من الأندلس وبلاد المغرب ، القواعد الدقيقة لتنظيم الصناعة والاشراف عليها فى مدنهم [٢١٩] . وجعلوا للدولة نوعا من الاحتكار على نمط ما عرف فى مصر . وخير الأمثلة على ذلك مصائد المرجان عند مرسى الخرز بشمال افريقية [٢٢٠] ، ومناجم الحديد قرب پلرم بصقلية [٢٢١] . ويبدو أن اشراف الحكومة كان بصفة عامة أقل فى الأندلس فى أيام الأمويين منه فى افريقية ومصر . والواضح فيما يبدو ، أن هذه القيود لم تكن لحماية التجارة أو لاستخدام الاقتصاد سلاحا من أسلحة الحرب ، على نحو ما فعلت بيزنطة منذ زمان فى حوض البحر المتوسط ، وانما فرضت القيود من أجل زيادة

الايراد ، وليس هناك ما يدل ، بشكل واضح ، على أنها عرقلت التجارة. بل على العكس يبدو أنها أفادتها وزادتها نموا مستمرا فى ذلك العصر .

وهناك دليل آخر على الوحدة الاقتصادية ألا وهو تطور الأساليب المصرفية الدولية ؛ اذ تقدمت أساليب أعمال البنوك كثيرا وقتذاك ؛ وكان كبار رجال هذه الحركة المصرفية من أهل فارس أو من أهل البصرة بأرض العراق . على أن رجال المال اليهود كانوا أيضا ذوى شأن . واتسع استخدام الصكوك المصرفية وسميت بأسماء فارسية (٢٢٢) ؛ وزاد تداول الحوالات وخطابات الاعتماد . ويرى ابن حوقل : أن هذه الحوالات المسحوبة على رجال المصارف من أهل الشرق والقابلة للصرف ببلاد الغرب ، قامت مقام النقود فى السودان فى القرن العاشر (٢٢٣) . وكان سعر النقود والفائدة على الاقتراض أقل مما كان عليه فى أيام جستنيان حينما بلغت الفائدة ١٢٪ . أما فى العالم الاسلامى فكان السعر السائد لعمولة صرف الشيكات والحوالات١٠٪(٢٢٤) .ولكى تتصور مدى دولية هذا التصرف المالى، علينا أن ننظر الجهات التى تنقل بينها رجال المال من سكان البصرة وأهل فارس . ان هؤلاء ظهروا فى كل مركز من مراكز التجارة : فهم فى جدة عند نهاية طريق الحج وهم فى سجلماسة ببلاد المغرب وهم كذلك فى طرابلس الغرب وبيروت ومصر (٢٢٥) .

ويمكننا أن نرى مثلا آخر من أمثلة وحدة العالم الاسلامى وذلك فى انتشار نباتات المناطق الحارة وشبه الحارة ذات القيمة الاقتصادية على نطاق واسع فى سائر ديار الاسلام ؛ وعلى الأخص فى أقاليم غرب البحر المتوسط . اذ جلب الليمون والبرتقال من الهند الى البصرة وسورية بعد عام ٩١٢ . ولم تمض سنوات قليلة حتى كان انتاجهما وفيرا فى طرسوس وأنطاكية وفلسطين ومصر (٢٢٦) . وفى هذه الأثناء اتخذت دودة القز طريقها الى بلاد

الغرب . وانتقلت من سورية الى صقلية والأندلس . ولعل الليمون والبرتقال قد انتقلا على هذا النحو أيضا (٢٢٧) . وحوالى ذلك الوقت ظهر قصب السكر والقطن فى بلاد المغرب والأندلس ويحتمل أن يكون فى صقلية كذلك (٢٢٨) . وزرع الرز والزعفران فى أملاك خليفة قرطبة (٢٢٩) . وسلكت صناعة الورق نفس طريق الانتقال والتطور الذى سلكته المواد السابقة . ويرجع الفضل للعرب ، أكثر مما يرجع للرومان ، فى ادخال حاصلات ذات قيمة اقتصادية الى بلاد البحر المتوسط ، وأقلمتها فى تربة هذه البلاد (٢٣٠) .

والظاهر أنه لم يكن لسيطرة المسلمين على البحر المتوسط أثر اقتصادى ضار بالأقاليم البيزنطية فى الشمال . وليس ثمة دليل على محاولة الشعوب الاسلامية عرقلة أو التحكم فى التجارة الذاهبة الى الامبراطورية البيزنطية أو الخارجة منها . ولو فرض ووجدت سياسة اسلامية اقتصادية بازاء القسطنطينية — ولا يوجد دليل على محاولة ايجاد هذه السياسة — فان تعدد الدول الاسلامية كان يحول دون تطبيقها . حقيقة أن غارات المسلمين اندفعت بانتظام صوب الشواطىء البيزنطية فى الشرق والغرب ، وانتزعت كريت وصقلية من أيدى حكام القسطنطينية ؛ ولكن فترات السلام الطويلة بين تلك الغارات سمحت بكثير من النشاط التجارى بين الطرفين . ولا دليل كذلك على أن الامبراطورية البيزنطية عانت أى تدهور اقتصادى خلال تلك المدة ؛ بل تدل القرائن على عكس ذلك تماما (٢٣١) . وظلت القسطنطينية أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر ، مدينة قوية غنية ؛ بل أقوى مركز صناعى وتجارى فى عالم البحر المتوسط . وبقى نقدها الذهبى موفورا حافظا لدرجة نقاوته ، وعملتها شائعة التداول بينها وبين بلاد البلقان وشعوب روسيا الدائرة فى فلك القسطنطينية (٢٣٢) . وظفر أصحاب الأعمال المصرفية فيها Trapezites بأرباح وفيرة من النشاط المالى الذى خلقه الرخاء الذى عم العاصمة (٢٣٣) .

ولم تغير بيزنطة من طابع حياتها التجارية فى ذلك الحين . فبقيت طربيزون المنفذ التجارى ، الذى تتلقى عن طريقه : الحرير والتوابل والعطور وبضائع العراق وفارس من بلاد شرق العالم الاسلامى [٢٣٤] . كذلك بقيت مدينة خزسون المدخل الوحيد لمنتجات روسيا ، ونهاية طريق تجارة الحرير الذاهب الى الصين ، وهو الطريق الذى ظل طويلا تحت اشراف الخزر . وفرضت هناك ضريبة قدرها ١٠٪ على جميع الواردات [٢٣٥] . واتجر البلغار مع القسطنطينية ، وربما مع سالونيك أيضا . وخضعت هذه التجارة لقيود جوازات الدخول ومدة الاقامة وتحديد البضائع المستوردة والمصدرة وغيرها . واقتصرت اقامة هؤلاء التجار على أحياء بذاتها طوال مدة بقائهم للتجارة [٢٣٦] .

وأهم ما طرأ على تجارة الشمال ، ظهور الروس الفارنجيين فى القسطنطينية ، وهم الذين بدءوا تجارة نشيطة ، عقب هجومهم الفاشل على عاصمة القياصرة الذهبية Golden Tsargrad . ونظمت هذه التجارة معاهدات خاصة وضعت عام ٩١١ ، ٩٤٤ م [٢٣٧] . وحدث مع الروس مثلما حدث مع البلغار ، اذ وضعهم البيزنطيون تحت اشراف دقيق أثناء اقامتهم فى أحياء خاصة بمدينة القرن الذهبى وفرضوا عليهم الرحيل عقب انتهاء الشهور المحددة لاقامتهم . ونظمت الرقابة على ما يحملون من بضائع أثناء دخولهم وخروجهم [٢٣٨] . ونتيجة لأهمية هذه التجارة ازدادت أهمية المراكز التجارية الروسية مثل كييف ونفجورود الواقعة على طول الطريق الفارنجى . وفى طليعة البضائع التى وفد بها التجار الروس الى القسطنطينية : الفراء والرقيق مقابل ما حملوه الى بلادهم من التوابل والمصنوعات الفاخرة التى أنتجتها هذه المدينة العالمية .

وقد حافظت بيزنطة على صلاتها مع بلاد الغرب اللاتينية عن طريق

علاقاتها مع المدن التجارية الايطالية مثل البندقية وأمالفى وغيرهما . وبقى لهذه المدن التى اعترفت بسيادة القسطنطينية ، الحق فى أن تستورد وحدها من القسطنطينية التوابل والعطور والحرير . على حين حرّم على تجار هذه المدن أنفسهم وعلى جيرانهم من البلغار ، الاتجار فى أنواع خاصة من الحرير الرقيق الفاخر (٢٣٩) . والغالب أن كان الميزان التجارى مع الغرب فى صالح القسطنطينية ؛ اذ كانت سفن البندقية تدفع ، أواخر القرن العاشر ، ضريبة استيراد مقدارها قطعتان من الذهب عن كل سفينة تدخل ابيدوس عند مدخل الدردنيل ، وخمس عشرة قطعة ضريبة تصدير فى نفس المدينة ذاتها (٢٤٠) . وليس من الصواب أن نعزو هذه المسائل كلها الى خطة موضوعة من جانب الحكومة الامبراطورية ؛ اذ الحقيقة أنه فيما عدا الذهب لم يكن لدى الغرب ما يستطيع أن يقدمه الا القليل مما تحتاج اليه تجارة القسطنطينية . فالخشب والحديد والعبيد — وهى الصادرات الرئيسية لبلاد الغرب — كلها متوافرة فى بيزنطة ؛ فلديها وفى أراضيها الخشب والحديد بكثرة . أما العبيد فكان من اليسير الحصول عليهم من روسيا .

على أن أنشط علاقات بيزنطة التجارية كانت مع المسلمين الذين أمدوها بما تحتاج اليه من الحرير والتوابل والعطور . ومع أن طربيزون ظلت — من الوجهة النظرية على الأقل — المدخل الوحيد للبضائع الاسلامية الوافدة على الامبراطورية ، الا أن أباطرة القسطنطينية عدّلوا بصفة عملية ، فى أساليب الرقابة الموجهة ضد التجار المسلمين فى حوض البحر المتوسط . ويبدو أن كان ثمة تدبير لمحاولة اجتذاب التجارة الاسلامية فى البحر المتوسط الى القسطنطينية (٢٤١) . بل ان وكالتين أقيمتا بالقسطنطينية : احداهما لتجار الحرير الفاخر ، والأخرى لتجار التوابل والعطور ؛ ويرجع الفضل فى وجودهما الى التجارة الاسلامية قبل غيرها (٢٤٢) . والغالب أن التجار

المسلمين الذين وفدوا ومعهم كميات وفيرة من المنسوجات الحريرية والكتانية عوملوا — أثناء وجودهم بعاصمة القرن الذهبى — معاملة تفضل معاملة سائر التجار الأجانب . ولقى السوريون ترحيبا خاصا ، وهم الذين كانوا يحضرون الى القسطنطينية بالعطور والمنسوجات البغدادية (٢٤٣) .

ومن العسير الاجابة عما اذا كان هناك توافد مماثل لأعداد كبيرة من التجار اليونانيين على الموانى الاسلامية بالبحر المتوسط . غير أننا نلاحظ وجود حى للتجار اليونانيين فى مدينة القطائع التى بناها ابن طولون ، وان لم يمكن الجزم بكونهم أجانب أو وطنيين(٢٤٤) . وفى عام ٩٥٤ م حدث أن قام الناس على الروم المقيمين بمصر وقتلوا عددا منهم بعد الغارة التى قام بها البيزنطيون على بلاد الدلتا(٢٤٥) . وربما دلت هذه الحقائق على وجود علاقات تجارية نشيطة مع مصر . وعندما استعادت البحرية البيزنطية قوتها ، وعاد اليها نشاطها فى غرب البحر المتوسط ؛ أخذنا نسمع عن وجود تجار يونانيين يتعاملون مع مدينة آرل (٢٤٦) ؛ وان لم يتضح تماما ما اذا كان هؤلاء التجار من الشرق أو من ايطاليا . وجملة القول ان هذه المدة شاهدت — أكثر مما حدث فى القرن الماضى — تعاملا أكثر حرية من جانب القسطنطينية مع بلاد البحر المتوسط الاسلامية .

وعلى الرغم من ذلك فان الرقابة الحكومية على الناحية الاقتصادية لم تخف الا بقدر يسير جدا . اذ تطلب النظام الامبراطورى البيزنطى ، تنظيما دقيقا لأحوال الصناعة فاق ما عرف عند المسلمين فى مصر وشمال افريقية . ويؤكد لنا كتاب المحتسب The Book of the Prefect مدى اتساع تلك الرقابة المرة بعد المرة . ونحن نعلم أن المناجم والمحاجر والملاحات ظلت حقوقا ملكية (٢٤٧) . كما احتفظت الدولة لنفسها بصناعة وتصدير بعض الأنواع الفاخرة من الحرير والأقمشة المطرزة (٢٤٨) . وأشرفت الحكومة

اشرافا دقيقا على بيع القمح بالعاصمة ؛ ويحتمل قيامها بهذا العمل ذاته فى جهات أخرى (٢٤٩) .

واذن فليس لدينا من الأسباب ما يسوغ الظن بأن ميزان التجارة البيزنطية مع العالم الاسلامى لم يكن فى صالحها ، وذلك بسبب أن أقمشتها الحريرية الرقيقة والمطرزة ، ومصنوعاتها الدقيقة ، كانت موضع التقدير فى الشرق والغرب على السواء . والراجح أن تجارتها مع أوربا وروسيا عادت عليها بربح أوفر مما عادت به تجارتها مع جيرانها المسلمين . وان ثراء القسطنطينية فى ذلك الحين وامتلاء خزائنها بالذهب يشير الى رخاء عميم يتعادل مع ما تتمتع به الأندلس وأفريقيا ومصر وسورية .

ومن الأمور الهامة التى تتصل بحياة بيزنطة الاقتصادية اتصافها بالسلبية من وجهة نظر التجارة العالمية . وهذه السلبية البادية الوضوح فى حياة القسطنطينية والامبراطورية عموما خلال القرن الثامن ، صارت أكثر وضوحا فى القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى . اذ أنها اكتفت — كمصر التى تشبهها من الناحية الاقتصادية الى حد كبير — بأن تكون مجالا للتجارة دون أن تعمد الى الاتجار لحسابها الخاص . وأحال الروس والبلغار والطليان والعرب ، مدينة القرن الذهبى الى سوق للتجارة العالمية ، وسيطروا على جميع تجارتها الخارجية . ومع أن مطلع القرن العاشر أخذ يشاهد بعض الانتعاش فى مجال النقل البحرى للتجارة البيزنطية ، الا أن سفنها لم تلبث أن توقفت بصفة عامة عن الظهور فى ميدان التجارة الخارجية . بل ان تجارة البحر الأسود التى ظلت مقصورة حتى هذا العصر على البحارة اليونانيين ، اقتحمها هى الأخرى : الروس الفارنجيون الذين جاءوا ببضائعهم الى القسطنطينية (٢٥٠) .

وهذا الاتجاه المحافظ والميل الى السلبية التقليدية فى المجال البحرى ،

تعهدتهما دون شك ، من جانب الحكومة الامبراطورية ، روح متزمتة فى سياسة الاشراف التجارى . ويوضح هذا الكثير من التغـيرات فى نظام حيازة الأرض فى الامبراطورية فى القرن العاشر . فان الثروة التى تدفقت على الامبراطورية من الصناعة والتجارة لم تجد سوى فرصة قليلة للاستثمار فى التجارة . ولذا اتجه بعض الأغنياء ، ولا سيما طبقة النبلاء لاستثمار أموالهم فى الأراضى . وهذا فى الوقت الذى اتجه فيه المسلمون فى الجانب الآخر من البحر المتوسط اتجاها مغايرا [٢٥١] . ونتج عن ذلك الاتجاه فى بيزنطة ، اعتداء منتظم على الممتلكات الحرة لطبقة الفلاحين الذين كانوا عصب الجيش وعموده الفقرى . لهذا حاول أباطرة مثل قنسطنطين پرفيروچنيتوس Constantine Porphgrogenitus ، ورومانوس ليكاپينوس وقف هـــذا التطور الخطير باصدار بعض المراسيم لحماية ممتلكات الفلاحين الأحرار من جيرانهم الأغنياء . بل عمد هذان الامبراطوران الى منح الفلاحين نوعا من حق الشفعة على أراضى الطبقة الأرستقراطية [٢٥٢] . وطبعا لم يأت هذا الاجراء بأية ثمرة . وأخذ الفلاحون يفقدون ممتلكاتهم شيئا فشيئا خلال القرن العاشر لصالح الطبقة الأرستقراطية بالبيع أو بالغصب . وبدأنا نرى ضياعا كبيرة تملكها أسرات مثل أسرة كمنين Commenie وغيرها تشـــمل آسيا الصغرى بأسرها [٢٥٣] . ولو كانت هناك امكانيات أخرى للاستثمار فى غير الأراضى ، لما حدث ذلك التطور الذى انطوى على تهديد خطير لأمن بيزنطة من الناحية الحربية .

أما الوضع الاقتصادى فى الأقاليم الهامة من الغرب اللاتينى فانه اختلف تمام الاختلاف عن بقية بلاد البحر المتوسط . فعلى النقيض البين من المدن الصاخبة والتجارة النشيطة عند مسلمى الأندلس وشمال افريقية ، كانت بلاد الساحل المسيحى ، من برشلونة حتى نهر التيبر ، مناطق ميتة مهجورة .

اختفى منها ما سبق أن وجد بها من تجارة وقوة بحرية زمن شرلمان ولويس التقى . وبقيت برشلونة وناربون ومارسيليا وجنوه ، بل وبيزه ذاتها ، مدنا قليلة السكان وغير قادرة على حماية نفسها من غارات المسلمين المتوالية الموجهة اليها من الأندلس ذاته أو من قاعدته الأمامية فى فراكسينت[٢٥٤] . وضاعت أهمية جزيرتى سردينية وكورسيكا ، من الناحيتين الزراعية والتجارية ، وان شاركتا فى قليل من الرخاء الذى فاض حولهما على صقلية والأندلس وجزر البليار [٢٥٥] .

ولا جدال فى أن غارات المسلمين مسئولة الى حد ما عن هذا التدهور . غير أنه من العسير أن نجد فى هذه الغارات التعليل النهائى للانهيار ، الذى يمكن البحث عن أسبابه فى أشياء أخرى . فلعل من الأسباب ، تحول طرق التجارة ، التى عرفت زمن سيادة بيزنطة ، وازدياد هذا التحول عن القسطنطينية بعد ظهور قوة المسلمين البحرية بصفة خاصة . هذا بالاضافة الى أن مدن ساحل ايطاليا الغربى أمثال أمالفى وجايتا وسلرنو ونابلى ، وهى المدن الهامة فى القرنين الثامن والتاسع ، لم تبق على صلاتها مع بيزنطة ، وهى الصلة التى فقدتها مدن أخرى فى الغرب . ولكن هذه المدن استطاعت بما لديها من قوة أن تضع علاقاتها الاقتصادية مع المسلمين على ما يقرب من أساس المساواة . وما يقال عن المدن السابقة يقال عن البندقية على البحر الادرياتى . فانها أعانت القسطنطينية على تطهير مدخل الادرياتى من القراصنة المسلمين زمن باسيل الأول ، وظلت تعترف بسلطان بيزنطة وتحافظ على صلاتها بها ؛ وفى الوقت ذاته أفاد تجارها كثيرا من تفوق المسلمين فى البحر [٢٥٦] . وبفضل هذا ، استطاع هؤلاء التجار التعامل على نطاق واسع مع البلاد الاسلامية دون أن تزعجهم اعتراضات بيزنطية . وكانت حاصلاتهم الثلاثة : الحديد والخشب والأسلحة — وكلها متوافرة لديهم للتصدير —

مطلوبة بوجه خاص على طول السواحل الاسلامية من فلسطين الى المهدية. يضاف الى هذا أن تجارة الرقيق المحظورة ، درّت على البنادقة أرباحا طائلة من أسواق الرقيق فى العالم الاسلامى بين قرطبة وبغداد ، حيث كان لهذه السلعة الآدمية قيمة كبرى فى قصور الحريم وحراسة الحكام (٢٥٧) .

أما نابلى وغيرها من مدن اقليم كمپانيا فكانت صلتها بالمسلمين أوثق من صلتها بأهل البندقية أنفسهم ، بل كان بينها وبينهم محالفات فى أغلب الأوقات. فقد بذلوا الحماية والمساعدة لقراصنة المسلمين أثناء اغاراتهم على المدن الايطالية الأخرى (٢٥٨) . ثم انهم لم يحجموا على جلب العبيد ؛ وكانوا يصدرون للمسلمين العبيد والمنسوجات مما ينسجونه بأنفسهم أو ما يستوردونه من القسطنطينية نظير حصولهم على زيت الزيتون والسلع الشرقية والمصنوعات التى يستطيعون أخذها من بلرم وشمال افريقية والأندلس (٢٥٩) .

وقد أحدث قراصنة العرب ومغامروهم الكثير من التخريب فى الأجزاء الأخرى من جنوب ايطاليا ووسطها . وامتد تخريبهم فيما وراء الساحل الى قدر غير يسير من الداخل وذلك فيما بين عامى ٨٤٠ ، ٨٨٦ . ولكن لا ينبغى أن نغلو فى تقدير الآثار الاقتصادية لتلك الاغارات. وفى عام ٨٧٦ ، عندما تخلصت ابوليا من قراصنة المسلمين ، انتهى الانزعاج والاضطراب الذى طالما تعرض له البحر الادرياتى وشواطىء شرق ايطاليا . وكذلك أوقفت حملات نقفور فوكاس عامى ٨٨٥ و ٨٨٦ تهديدات المسلمين الموجهة لتلك الجهات ، ما عدا منطقة جاريليانو التى صفّيت آخر الأمر عام ٩١٦ فتخلص ذلك الاقليم نهائيا من تهديد العرب وهجومهم .

النتيجة لكل هذا ، عودة الرخاء الشامل لجنوب ايطاليا فى القرن العاشر اذ نشطت التجارة ؛ وتبادل الناس بحرية العملات الذهبية البيزنطية

والاسلامية بصفة خاصة [٢٦٠] . ومن الأمور الأهم شـأنا ، ذلك التقـدم الاقتصادى الذى أصابته البندقية ووادى نهر پو . ويرجع فضل هذا الى معاهدة خاصة عقدتها البندقية مع لوثير عام ٨٤٠ ، صار لها بمقتضاها امتياز امداد هذا الاقليم بالبضائع الشرقية . كذلك أعطيت البندقية حقوقا تجارية خاصة فى پافيا وبعض بلاد أخرى من حوض البحـر الادرياتى الأعلى [٢٦١] . وبعد ذلك أيضا كان جميع حكام شمال ايطاليا يجددون تلك الامتيازات للبندقية ، مدينة القنوات [٢٦٢] . وبعد آن تم التغلب تماما على كوماكيو Comacchio فى أواخر القرن التاسع لم يعد للبندقية فى تلك المنطقة منافس فى تجارتها الدولية .

ومن پافيا وسائر مدن اللمبارد الأخرى ، كانت تنقل الى ألمانيا وشمال فرنسا ، عبر جبال الألب ، البضائع الشرقية التى كانت تستوردها البندقية وغيرها . وسلكت هذه التجارة ممرات الألب المعروفة ولا سيما ممرات سبتمر وموتت سنى وسان برنار [٢٦٣] . وفى سنة ٩١١ م ، وفى وصف زيارة لكنراد الأول لاقليم سانت جال ، ورد ذكر لاستيراد الحرير . وفى عام ٩٤٩ ، أوفد أتو الأول أحد تجار مدينة مينز ، واسمه لويتفرد سفيرا من قبله الى القسطنطينية ، عن طريق تلك الممرات وطريق مدينة البندقية [٢٦٥] . ويمكن أن نستبين مدى انتشار هذه التجارة ، من المكوس التى حصلهـا جيزو ، أسقف أوستا عام ٩٦٠ عند جنوب ممر سان برنار ، اذ شملت هذه المكوس ضرائب على بضائع تجارية منوعة منها السلاح والرماح والسيوف والدروع والملح والرصاص والقصدير والنحاس والصقور والأطيار [٢٦٦] . ويذكر اكارت أحد رهبان سانت جال عام ٩١٧ ، مرور طائفة من التجار بديره فى طريق عودتهم الى بلادهم من ايطاليا [٢٦٧] . وفى عام ٩٤٧ رأى رئيس ذلك الدير آن الطريق قد بلغت من الأهمية ما يقتضى اقامة سوق للتجارة فى مكان

ملاثم . ويحتمل أن تكون نقلت عبر ممرات الألب . كميات التوابل الوفيرة التى وجدت فى كمبراى وميتز حينذاك . ويبدو أن أسهم الممرات بين لمبارديا وألمانيا هو ممر برنر الذى استخدم على نطاق ضيق فى ذلك الوقت بسبب تعرض المجريين للحركة فيه . ولم يخلص ذلك الطريق للمسافرين الا بعد انتصار أتو على المجر عام ٩٥٥ [٢٦٩] . وكذلك حد تعرّض المسلمين للنقل النهرى فى ذلك الاقليم من حركة مرور التجارة فى الممرات الواصلة بين ايطاليا وبين فرنسا [٢٧٠] . من الواضح اذن أن قدرا هاما من التجارة ظل يصل أوربا من الشرقين الاســلامى والبيزنطى حتى عام ٩٦٠ عن طريقى البندقية وممرات الألب .

وربما يفسر لنا ما سبق كيف احتفظت ألمانيا ، أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر ، بنوع من النظام واستتباب الحكم ؛ وكيف أنها لم تعان من الفوضى الاقطاعية ما عانته فرنسا . ذلك أن الألمان حافظوا على صلات تجارية هامة مع الشرق عبر ايطاليا ، بالاضافة الى تجارة أقاليم البحــر البلطى ؛ على حين كان نصيب فرنســا من ذلك أقل . وينبغى أن نســلم بأن مجال هذه التجارة كان محدودا جدا . فانه بينما كانت ممرات الألب تصلح لنقل السلع الشرقية الثمينة مثل الحرير والأقمشة الموشاة والتوابل مقابل ما كان ينقل عليها من العبيد والسلاح الى البندقية أولا ثم للشحن البحرى فانها لم تكن كذلك بالنسبة للبضائع الثقيلة . هــذا وبينما نوع التجارة الذى كان يسلك ذلك الطريق ، كان يتيح للمبارديا والبندقية التعامل على قاعدة الذهب مع الاستمتاع بقدر وفير من الرخاء ، الا أنه عجز عن أن يؤثر فى الوضع الاقتصادى فى بقيــة غرب أوربا . فظل غرب أوربا بذلك منحصرا فى مجالاته الزراعية وعملاته الفضية الكارولنجية ومرتبطا اقتصاديا بمن هم أكثر منه تقدما من المسلمين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط ، الى أن حصل الغرب على مسالك أسهل وأقرب منالا مثل وادى الرون .

وليس لنا أن نفترض أن طريق التجارة الأدرياتى — الألبى ، كان الطريق الوحيد الذى ربط بين الشرق والغرب ، وان كان هو الأكثر أهمية من غير شك . فقد سلكت بعض التجارة طريقها الى جنوب فرنسا والى وادى الرون الأعلى ، ولكن هذا كان نزرا يسيرا . وظلت قردان طوال ذلك الوقت ، مركزا لتجارة الخصيان مع مسلمى الأندلس . كما ظل اليهــود يتبعون أواخر القرن التاسع طرقا برية تصل وادى الرون واقليم لنجدوك بالحدود الأندلسية (٢٧١) . وفى القرن العاشر ظهر بعض النشاط الاقتصادى على طول سواحل ايطاليا الشمالية الغربية وسواحل جنوب فرنسا أيضا . ويبدو أن كان لمدينة آرل عام ٩٢١ بعض النشاط فى التجارة الخارجية(٢٧٢) ؛ بدليل أن غارة للفاطميين على البحر التيرانى عام ٩٣٥ حطمت سفنا لها قرب سردينية وكورسيكا . ولا يبعد أن كان للأندلس نفسه علاقات بحرية مع شمال أوربا ، كما يتضح من وجود ٢٠٠٠ قطعة ذهبية (٢٧٣) . سكها الملك الانجليزى عام ٩٥٥ م .

وجملة القول ، أن مسلمى شمال أفريقية والأندلس تعاملوا على نطاق ضيق جدا مع الغرب اللاتينى ، وفضلوا ترك مثل هذا التعامل التجارى لمن رسخت أقدامهم فى هذا الميدان من سكان المدن الايطالية واليهود الذين ترددوا على طرق التجارة الواصلة بين پراج وشمال فرنسا ، وبين أسواق الرقيق فى الأندلس . والحالة الوحيدة الشاذة هى زيارة أحد الرحالة المسلمين لمدينة مينز أواخر القرن العاشر . وقد وصف هذا الرحالة البضائع المعروضة للبيع هناك بدهشة واستغراب (٢٧٤) . ولعل تجارة الشرق وتجارة الصحراء استوعبتا كل نشاط التجار المسلمين . وربما أدت غاراتهم على الشواطىء المسيحية وكذا نشاط أوكار القرصنة من نوع فراكسينت ، الى تعطيل نمو التجارة مع الغرب اللاتينى .

بيد أنه لا دليل على أن المسلمين اعترضوا سبيل تجارة أوربا اللاتينية أكثر مما فعلوا مع بيزنطة . والواجب اسقاط هذا الزعم باعتباره خرافة . واذا كان ثمة شك حول هذا الموضوع ، فمن اليسير تبديده ، لو أننا درسنا طريق الحج الى الأراضى المقدسة حينذاك . والواقع أنه لم يحدث أى ازعاج أو اعتراض من قبل حكام المسلمين لطريق الحجاج بدليل ازدياد أعدادهم [٢٧٥] بل ان سلطان بارى Soudan of Bari (*) وهو حاكم قرصان كان تواقا لمساعدة حجاج الغرب وهم فى طريقهم الى فلسطين ، ولم يقفه عند حد تيسير حصولهم على السفن فحسب ، وانما أعطاهم جوازات خاصة تيسر لهم الأمور فى مصر [٢٧٦] .

وجملة القول آن سنوات السيطرة الاسلامية على حوض البحر المتوسط (٨٢٧ — ٩٦٠) أحدثت الكثير من التغيرات الاقتصادية فى تجارة ذلك البحر . وشاهدت انتعاش كثير من طرق التجارة القديمة التى تدهورت زمن سيادة البحرية البيزنطية . وتحدد هذه السنوات كذلك ظهور شمال أفريقية واسبانيا وصقلية باعتبارها مناطق صناعية هامة ، أخذت تنقب فى مناجمها وترقى بصناعاتها وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصدة الى الشرق ، والعابرة لطرق الصحراء الى ذهب السودان . وشاهدت هذه السنوات ذاتها عودة الرخاء الى سورية ومصر وعودة التجارة الى ميـاه البحر الأحمر . يضاف الى هذا أن العالم الاسلامى بأسره ، أصاب فى هذه المرحلة تقدما كبيرا ، من حيث اندماجه فى وحدة اقتصادية واحدة وقيامه على التعامل بنقد ذهبى شائع ، مقبول للتعامل ما بين بلاد فارس والأندلس . على أن بيزنطة أسهمت هى الأخرى فى هذا الرخاء فزادت من تعاملها التجارى مع الروس الفارنجيين . ووصلت الى أوربا عن طريق البندقية والمدن الايطالية القديمة ، وعن الطريق الواصلة بين البحرين الأسود والبلطى .

أما فى بلاد الغرب اللاتينى فقد أسهمت معظم مدن ايطاليا فى ذلك الرخاء ذاته . ويحتمل أنها كانت أكثر بيعا للعرب وأكثر شراء من القسطنطينية . ولم تحرم ألمانيا من هذا الرخاء ولم يحرم منه الى حد ما شمال فرنسا وانجلترا . وانحصر التدهور الاقتصادى فى جنوب فرنسا وسواحل شمال غرب ايطاليا وجزر سردينية وكورسيكا . وظلت هذه المناطق الى ما بعد ذلك بقرن ، فى حالة ركود اقتصادى بسبب افتقارها الى قوة بحرية وبسبب ضعفها فى انتاج ما تحتاج اليه البلاد الاسلامية والبيزنطية المحيطة بها .

ويعد هذا العصر من عصور الحيوية العارمة فى تاريخ البحر المتوسط . اذ تبدل النظام الاقتصادى القديم وتحولت الأقاليم الاسلامية فى الغرب الى بلاد صناعية مع سيطرتها بالاشتراك مع المدن الايطالية ، على نقل التجارة فى البحر المتوسط . وكان هذا كله ، الخطوة الأولى نحو سيطرة الغرب وتسلطه على هذا الاقليم . وكانت هذه بداية لها ما بعدها ، بداية عصر ينتقل فيه التحكم فى شئون البحر المتوسط الى أوربا الغربية .

حواشي الفصل الخامس

١ – Vasiliev, A. Byzance et les Arabes I, 73-74.

٢ – Dandolo Chron. in Mur. Rer. Ital. Script. XII, 170. John Chron. in MGH Script. VII, 16.

٣ – Manfroni Storia della Marina Italiana (Livourni 1899), I, 36-40.

٤ – Nuwairi in Vasiliev op. cit., p. 382.

٥ – المرجع السابق ص ٣٨٣ .

٦ – Ibn Idhari ed. Dozy, p. 92. Ibn al Athir ed. Thornberg VI, 238.

٧ – Cronica di Cambridge ed. Cozza-Luzi, p. 24. John Deac. Gesta Episcop. Neapol. in MGH Script. Rer. Lang., p. 430.

٨ – Ibn al Athir VI, 239.

٩ – Vasiliev: op. cit., I, 177-8.

١٠ – John Deac. in op. cit., p. 431.

١١ – Ibn al Athir VI, 239.

١٢ – Vasiliev op. cit., p. 132.

١٣ – يذكر ابن الاثير الحراقات على أنها سفن تقذف اللهب ، وامتلاك سفن مسلحة على هذا النحو ربما يوضح سبب نجاح أساطيل شمال افريقية وفشل الأساطيل البيزنطية . ولكن هل يمكن أن تكون لخيانة أيوفيميوس صلة بنقل سر النار الاغريقية للأغالبة قبل ذلك بثماني سنوات ؟ انظر معجم لين مادة حراقات

Harraqas

١٤ – ابن الأثير جـ ٦ ، ص ٢٤٠ .

١٥ – Ibn al Athir VII, 3. Abu'l Farag Historia Dynastorium ed. Pocock (oxford 1663), p. 167.

١٦ – سوف يجيء ذكر الاستيلاء على برنديزى فيما بعد

Chron. Salern. in MGH Script. III, 503

أما طارنت فقد أخذت فى العام التالى

Chron. Salern. in op. cit., III,

وفيما يتعلق بهزيمة البندقية أنظر :

Dandolo Chron., p. 175 and John Chron. Ven., p. 114.

١٧ – Vasiliev op. cit., I, 209-12. Erchemperti Hist. Lang. in MGH Script. III, 247. Chron. Salern. in op. cit., III, 508-10.

١٨ – البلاذرى جـ ١ ص ٣٧١ – ٣٧٢ . تعتقد بعض المصادر أن كلمة سودان أسم لشخص وليس لقبا وهو اعتقاد لا تقره بعض المصادر الأخرى .

١٩ – Dandolo Chron., p. 175. John Chron. Ven., p. 17.

٢٠ – John Chron. Ven., p. 18.

٢١ – John Deac. Gesta Episcop. Neopol. in op. cit., p. 432.

٢٢ – "Vita Sergius II" in Liber Pont. ed. Duchesne II, 99-101. Chron. Casinensis in MGH Script. III, 225-26.

٢٣ – "Vita Leonis IV" in Liber Pont. II, 127.

٢٤ – Ibn al Athir VII, 4.

٢٥ – يوضح الصراع العباسى بين أمير تونس وبين مسلمى كريت ، سر تعرض أساطيل بارى ومسلمى كريت لسفن تجارة الأغالبة مع الشرق على طول طريق التجارة الدائرية المارة بكريت وجنوب ايطاليا كما يوضح الاعتداء على السفن المسيحية الأخرى .

٢٦ – Ibn al Athir VII, 40. Ibn Idhari, I, 104-05.

٢٧ – يرى ابن عـــذارى أن تلك الحمـــلة تكونت من مسلمى كريت لا من البيزنطيين ، وهو قول يبدو مقبولا . ولكن من المحتمل تحالف مسلمى كريت مع البيزنطيين فى تلك الآونة .

Ibn al Athir VII, 41-42. Nuwairi in op. cit., p. 384.

٢٨ – Ibn al Athir VII, 42. Amari Storia II, 182.

٢٩ – Ibn al Athir VII, 97. Bury East. Roman Empire, p. 397-98.

٣٠ – Ibn Khaldun Hist. de l'Afrique et de Sicile, p. 125. Ibn al Athir trans. Fagnan I, 148.

٣١ – Ibn al Athir I, 240. Nuwairi trans. Gaspar II, 86.

٣٢ – Ibn Adhari, I, 52.

٣٣ – Bury East Roman Empir, p. 315.

٣٤ – Dandolo Chron., p. 184.

٣٥ – Theoph. Cont., p. 280-91. Const. Porphyr. De Themathibus (ed. Bonn) II, XI. Amari Storia I, 519-20.

٣٦ – Amari Storia I, 520-23.

٣٧ – Gasquet Byz. Emp., p. 459-60. Vasiliev Byz. Emp. I, 396-97.

٣٨ – John Chron. Ven., p. 20.

٣٩ – Iqn al Athir I, 239. John Deac .Chron. Episcop. Neapol. in op. cit., II, 317.

٤٠ – See letters of John VIII in Labbe Sacrosancta Concilia IX.

٤١ – Lable op. cit., p. 74. On the role of John VIII in these struggles, see Engreen "Pope John VIII and the Arabs" in Speculum (1945) XX.

٤٢ – Theoph. Cont., p. 307-05.

٤٣ – Gasquet op. cit., p. 422-23.

٤٤ – Leo of Ostia in Mur. Rer. Ital. Script. IV, 316-17.

٤٥ – Ibn al Athir I, 261.

٤٦ – Ibn Adhari I, 157. Ibn al Athir I, 262.

٤٧ – Amari Storia I, 568.

٤٨ – Ibn Adhari I, 157-58.

٤٩ – Cronica di Cambridge, p. 66.

٥٠ – Ibn al Athir, I, 248-50. John Deac. in Gaetani Vita Sanct. Sic. II 61.

٥١ – Ibn al Athir I, 309' Ibn Idhari I, 235.

٥٢ – Ibn Idhari I, 236-40' Ibn Khaldun Hist. des Berbères trans' de Slane, Appendix II, 524.

٥٣ – Ibn al Athir I, 245;46. Nuwairi II, 261.

٥٤ – Amari Storia II, 180-81. Cedrenus ed. Bonn (1838-9) II, 355'
رحبت بيزنطة بعقد الصلح مع مسلمى صـــقلية بسبب انشغالها فى الحرب مع البلغار .

٥٥ – Luidprand Antapoderis in MGH Script. III, 299-98. Amar Storia II, 190-97. Gay op. cit', p. 161.

٥٦ – Theoph' Cont., p. 76-77. See Brooks "The Arab Conquest of Crete" in Eng. Hist. Rev. (1913) XXVIII.

٥٧ – Theoph. Cont., p. 79-81.

٥٨ – المرجع السابق ص ١٣٧ .

٥٩ – Vasiliev Byz' et les Arabes I, 90.

٦٠ – Theoph' Cont', pp. 200,203.

٦١ – Tabari trans. in Vasiliev Byz. et les Arabes I, 315-17' Al Athir, p. 203.

بالغ ڤازيلييف فى تقدير قيمة هذه الحملة . وعلى أية حال فلم يكن من نتائجها اعادة بناء الأسطول المصرى ، لأنه عندما احتاج الأمر الى ارسال حملة بحرية اسلامية جديدة ضد بيزنطة عام ٨٧٧ م فان السفن الجديدة بنيت فى مصر وسورية معا . Theop. Cont. V, 68

٦٢ – Al Kindi p. 203.

٦٣ – Petit, L. "Vie et Office de Sainte Euthyme le Jeune" in Revue de l'Orient, Chretient (1903) VIII, 189-90.

٦٤ – المرجع السابق . ربما أنشأ المغامرون قاعدة لهم فى أثينا فى تلك الفترة .

٦٥ – Theoph. Cont., p. 298-300.

٦٦ – المرجع السابق ص ٢٩٨ .

٦٧ – المرجع السابق ص ٣٦٦ – ٣٦٨ ، John Comeniati "De Excidio Thessaloniciensi" in Corp. Script. Hist. (ed. Bonn), p. 491, 59=.

٦٨ – حدث هجوم فاشل آخر عام ٩٠٢ – وربما كان هذا الهجوم هو نفسه هجوم عام ٩١٠ م . Cost. Porphyr. De Ceremoniis, p. 65-58.

٦٩ – Theoph. Cont', p. 405. Runciman The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign (London 1919), p. 89-90.

٧٠ – Michael the Syrian Chron. III, 101.

٧١ – Vasiliev Byz. et les Arabes I, 192-93.

٧٢ – يرى المقريزى ان هذه الغارة كانت سببا فى تجديد الاسطول المصرى ، وهـــذا القول يحتاج الى كثير من التساؤل ، اذ لم تكن لمصر قوة بحرية ذات قيمة قبل مجىء الفاطميين فى القرن التالى . Bury East. Rom. Empire, p. 291-93.

٧٣ – Tabari III, 1449.

٧٤ – Theoph. Cont., p. 59.

٧٥ – Wiet op. cit., p. 94-95. Const. Porphyr. De Themat., p. 40.

٧٦ – Whiet op. cit., p. 95.

٧٧ – Al Kindi, p. 276. Eutrychius Annales ed. Pocock II, 509-10.

٧٨ – Const. Porphyr. De Ceremoniis, pp. 656, 660.

٧٩ – Masudi Prairies d'Or VIII, 282.

٨٠ – Wiet op. cit., p. 127-29. Lane-Poole Egypt, p. p. 82-91.

٨١ – ساهمت بيزنطة فى بناء قلعة سركل Sarkel حيث رأى الخزر ضرورة ذلك بسبب ضغط الروس الفارنجيين عام ٨٣٣ م .

Vernadsky Ancient Russia, 303-07.

٨٢ – انظر قصة هذا الهجوم كاملة فى :

Vasiliev The Russian Attack on Constantinople (Cambridge, Mass. 1954).

٨٣ – ينكر بعض المؤرخين قيام الروس بأى هجوم عام ٩٠٧ رغم ورود ذكر لهذا الهجوم فى :

The Primary Chronicle.

ويمكن أن نرى شرحا لوجهة النظر هذه فى :

G. de Costa-Louillet "Y eut-il des invasions Russes dans l'empire Byzantin avant 860" in Byzantion XV, 231-40.

ويبدو لى أنه من الأرجح قيام مثل هذا الهجوم وهذا هو السبب فى وجود) معاهدة عام ٩١١ .

٨٤ – Vasiliev Byz. et les Arabes I, 185-87.

٨٥ – المرجع السابق ص ١٨٦ .

Condé Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana Barcelona 1884) I, 227.

٨٦ – Poupardin Le Royaume de Provence sous les Carolingiens (Paris 1901) p 240.

٨٧ – Masson, P. De Massiliensibus Mercatoribus, p. 129.

٨٨ – Campaner y Fuertes op. cit., p. 17-21.

٨٩ – Masson op. cit.,

٩٠ – Dupart "La Provence dans le haut moyen age" in Bouches du-Rhône, Encyclopédie Departementale (Marseilles 1923) II, 33-36.

٩١ – يبدو ان ثمت خلط بين القراصنة المسلمين وبين القراصنة الشماليين الذين قاموا بعملياتهم من تلك الجزيرة فى عامى ٨٥٩ ، ٨٦٠ .

Annales Bertiniani in MGH Script. I, 453.

انظر ايضا :

Vasiliev Russian Attack, p. 47-49.

٩٢ – Arnaud de Verdale Cat. Epis. Mag. in op. cit., p. 500.

٩٣ – Poupardin Le Royaume de Bourgogne (888-1038) (Paris 1907), p. 86-112, 250-54. The fuller account is Patrucco "I Saraceni

in Piemonte e nelle Alpi Orientali" in Biblioteca della Società Storica Subalpini (Pinerola 1908) XXXII.

٩٤ – Campaner y Fuertes op. cit., p. 40-56.

٩٥ – Dozy Recherches sur l'histoire et la litérature de l'Espagne II, 252-56.

٩٦ – المرجع السابق ص ٢٦٧ – ٢٧٨ .

٩٧ – Al Bakri (Algiers 1913), p. 184. Ibn Idhari II, 99.

٩٨ – القول بأن الفيكنج أخطأوا لونى حيث أصابوا روما قول غير صحيح ، فقد كانت لونى الثغر الوحيد الهام على ساحل ليجوريا الايطالى منذ القرن السابع وهى بهذا أكثر الفاتا لنظر الراغبين فى الغنائم .

Vasiliev Russian Attack, p. 49-65.
Chs. III and IV on Luni's importance.

٩٩ – Ibn Idhari II, 170.

١٠٠ – Theoph. Cont., p. 405.

١٠١ – Liudprand Antapodesis, p. 137, -40. Theoph. Cont., p. 423. Nestor, p. 33.

١٠٢ – Bury East. Rom. Empire, p.231.

١٠٣ – Wiet. op. cit., p. 147.

١٠٤ – Ibn Idhari. I, 270.

١٠٥ – Cronica di Cambridge in Amari Biblio Arabo-Sicula I, 283.

١٠٦ – Chron. Barensis in Mur. Rer. Ital. Script. I, 31 and Lupus Prospatarios in op. cit., V, 38.

١٠٧ – Cedrenus II, 356-58.

١٠٨ – Ibn al Athir I, 317. Nuwairi II, 262.

١٠٩ – Luidprand op. cit., pp. 179, 139.

١١٠ – المرجع السابق .

١١١ – Ibn al Athir I, 301. Ibn Adhari I, 301. Nuwairi II, 262.

١١٢ – وربما كانت سردينيا متمتعة باستقلال ذاتى وقت ذاك وربما كانت خاضعة لنفوذ أو سلطان بيزنطة .

Besta La Sardegna Medioevale (Palermo 1908), I, 48-60.

ويعتقد كارتاراسبى أنها كانت مستقلة . وربما كانت مستقلة استقلالا ذاتيا مثل البندقية ونابلى . ولكن من المؤكد أنها لم تكن تابعة للمسلمين .

ويشك بستا فى أن غارة المسلمين التى حدثت عام ٩٣٤ كانت موجهة ضد سردينيا : Besta op. cit., p. 47.

ومعلوماتنا قليلة جدا عن قورسيقا وربما كانت هى الأخرى مستقلة ذاتيا وليست خاضعة للمسلمين أو البيزنطيين ·

١١٣- Amari Storia II, 217-44.

١١٤- Marçais Berbérie, p. 147-53.

١١٥- Ibn al Athir I, 353-55. Lupus Prospatarios in MGH Script. A, 54.

١١٦- Theoph. Cont., p. 453. Cedrenus II, 359.

١١٧- Al Kairouani trans. Pellesier et Remusat, p. 104. Ibn Adhari I, 382.

١١٨- Theoph. Cont., p. 454-55. Cedrenus II, 359-60.

١١٩- Amari Storia II, 322-24. Ibn Kallikan trans. de Slane I, 340.

١٢٠- Ibn Idhari II, 170.

١٢١- Dozy Recherches II, 252-67.

١٢٢- Ibn Khaldun Hist. des Berbères II, 542. Ibn Idhari, II, 366.

١٢٣- Ibn Idhari II, 362 and 368-69.

١٢٤- Lane-Poole op. cit., p. 99-100.

١٢٥- Ibn Hawkal Description de Palermo trans. Amari (Paris 1845), pp. 26 & 38.

١٢٦- Bury East. Rom. Empire, p. 293-94.

١٢٧- Marçais Berbéri, p. 142-43.

١٢٨ـ كانت مناجم الحديد والمصانع الأخرى مملوكة للدولة فى بلرم ، ومنها استطاع الأمراء أن يمونوا الاساطيل الحكومية فى صقلية بكل ما تحتاج اليه من مواد .

Ibn Hawkal op. cit., p. 28-9.

١٢٩- Lévi-Provençal L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle (Paris 1932), p. 85-86. Idrisi Description de l'Afrique et de l'Espagne, pp. 212, 217, 219, 237. Ibn Idhari III, 104. Ibn Khaldun Prolegomènes trans. de Slane II, 40-41.

١٣٠- Al-Kindi, p. 276-77.

١٣١- Masudi Prairies d'Or VIII, 282....... Hill Cyprus I, 281-2.

وربما كان أمير طرسوس قائدا بحريا .

١٣٢- Abu'l Faraj in De Goeje Bibl. Geog. Arab. VI, 195-8.

١٣٣- Vasiliev Byzance et les Arabes I, 132

١٣٤- Schlumberger Un Empereur Byzantin au Xe. Siècle. Nicephore Phocas (Paris 1923), p. 27-30.

١٣٥- Carta-Raspi op. cit., p. 130-33.

١٣٦- Bury "The Naval policy of the Roman Empire in relation to the Western provinces from the 7th to the 9th Century", in Centenario della nascita di Michele Amari (Palermo 1920) II.
على أن بيورى يخطىء اذ يعتقد اهمال الايسوريين للبحرية أواخر القرن الثامن أو أوائل التاسع . انظر :

Bury : East Roman Empire, p. 299-330.

١٣٧- Bury: The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London 1911), p. 108-110.

١٣٨- المرجع السابق .

١٣٩- انظر عن هذا الموضوع Bury. "Naval Policy". تكون أسطول كلابريا أو قلوريه الاقليمى من عشر سفن ، وورد ذكرها فى حوادث عام ٨٧٧ فى التماس للمساعدة تقدم به البابا حنا الثامن الى جريجورى حاكم الاقليم .

Gasquet : Byz. Emp. p. 475-82.
وورد ذكره أيضا فى أخبار عام ٨٤٨ عندما أغار هذا الاسطول على موندللو من أعمال صقلية .

Ibn Al Athir VII, 4

١٤٠- Wiel, Althea The Navy of Venice (London 1910). p. 15-23.

١٤١- Leo Tactica, p. 989 ff.

١٤٢- Lévi-Provençal Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 304-22.

١٤٣- Bury East. Rom. Empire, p. 253-71.

١٤٤- المرجع السابق ص ٢٨٢ — ٢٨٤ .

١٤٥- Runciman Romanus Lecapenus has an excellent account of these years.

١٤٦- تركزت جهود سمعان قيصر البلغار فى الظفر بتحالف مع حكام الفاطميين بشمال افريقية ومع أمراء طرسوس ، وهكذا يحصل على القوة البحرية التى ينشدها والتى هو فى حاجة اليها . لكن رومانوس

ليكاپينوس أفسد على قيصر البلغار خططه حين أمكنه أن يضع يده على مبعوثى شمال افريقية الذاهبين اليه . وتوضح هذه القصة الدور الذى لعبته القوة البحرية فى الحيلولة دون سيطرة بلغاريا على بيزنطة . لكن أهميـــة القوة البحرية فى تلك المرحلة لم تظفر من الباحثين بالتقـــدير اللازم .

Cedrenus II, 356. Vasiliev, Vizantia i Arabya II, 222.

١٤٧- Wiet op. cit., p. 88-95.

١٤٨- Ibn Hawkal Descript. Palerm., p. 29.

١٤٩- Yaqubi, p. 74. Baladuri, p. 66.

١٥٠- Yakut Mu'gam al-Buldan I, 733. Idrisi, pp. 231, 237-38.

١٥١- Al Istakhri, p. 63.

١٥٢- Schaube Handelgeschichte der Romanischer Volker, des Mittelmeergebeite bis zum der Kreuzzuge (Munich and Berlin 1910), p. 3-26.

١٥٣- Yaqubi, p. 212-213.

١٥٤- Al Maliki Rujaden Nufus in Idris, Revue des Etudes Islamiques (1935), p. 303.

١٥٥- المرجع السابق ص ٣٠٥ .

١٥٦- Abu'l Arab Classes des Savants de l'Ifriquiya trans. Ben Cheneb, I, 146.

١٥٧- Ibn Khaldun Prolegomenes I, 366.

١٥٨- Marçais Berbérie, p. 80-82.

١٥٩- Nuwairi in Ibn Khaldun Hist. des Berbères I, 453.

١٦٠- Marçais Berbérie, p. 83-84.

١٦١- المرجع السابق .

١٦٢- Al Bakri trans. de Slane 2nd Ed. (Algiers 1913), p. 59.

١٦٣- Marçais Berbérie, p. 85-87.

١٦٤- بلغت حصيلة ما جمعـــه الفاطميون من أجل الحملة التى فتحت مصر عام ٩٦٩ م حوالى ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينارا ذهبيا وهو مبلغ عظيم جدا .

١٦٥- Lane-Poole, Egypt, p. 101-02.

١٦٦- Wiet Egypte Arabe, p. 127-29.

١٦٧- Al-Bakri, p. 65-68. Ibn al Athir I, 314-15.

١٦٨- Al Bakri, p. 55.

١٦٩- Lombard, M. "L'or Musulman de VIIe au XIe Siècle" in Annals (1947) II, p. 149.

١٧٠- المرجع السابق ص ١٥٠ ،
Gautier, E.F. "L'or du Sudan dans l'histoire" in Ann. d'Hist Econ. et Soc. (1935) VII, 113-23. For sources see articles by. Monteuil in Bulletin de A.O.F. (1928-9), XI, XII.

١٧١- Lombard op. cit., p. 151. Ibn Khaldun Hist. des Berbères II, 10. Ibn Hawkal, p. 249. Ibn Idhari I, 244. Abu 'l 'Arab, p. 235.

١٧٢- Mez : Renaissance of Islam, p. 254.

١٧٣- Al-Istakhri, p. 288. Lane-Poole, op. cit., p. 41-42. Lombard, op. cit., p. 109-10.
ويزعم لبارد أن ازدياد حصيلة مصر من الذهب فى تلك المدة مرجعه اقرار ضرائب على قبط مصر تدفع ذهبا ، الى جانب الحصول على ما فى المقابر الفرعونية من ذلك المعدن النفيس .

١٧٤- Masudi Prairies d'Or III, 12. Wiet op. cit. p. 168.

١٧٥- Wiet, op. cit., p. 109-10.

* - تكتب بعض المراجع الأفرنجيـة كلمة سلطان « سودان » أحيانا (المترجم)

١٧٦- Lane-Poole op. cit., p. 59-60.

١٧٧- المرجع السـابق .

١٧٨- المرجع السابق ص ٦٠ - ٦٤ . ويقول : Mez ان هذا الرخاء كان موضع عناية الاخشيديين وذلك فى كتابه :
Renaissance of Islam, p. 29-30.

١٧٩- Masudi Prairies d'Or III 7 and 43-48 echoes these views. Wiet op. cit., p. 169.

١٨٠- Le Strange, G. Baghdad under the Caliphs, p. 77.

١٨١- المرجع السـابق ص ١٧٣ - ١٧٤ .

١٨٢- Maqrizi Kitat I, 177.

١٨٣- Mez Renaissance of Islam, p. 467-69.

١٨٤- Marabecek Mitteilungen aus den Papyrus Rainer III, 98.

١٨٥- Mez op. cit., p. 118.

١٨٦ - المرجع السابق ،
Schaube Handelgeschichte, p. 149.

١٨٧- Maqrizi I, 204. Wiet op. cit., p. 174-75.

حاول حكام مصر توليف نوع من خشب السنط عن طريق غمره فى الماء بعض الوقت ، ثم تجميعه بعضــه الى بعض ، غير أن هذا النوع لم يكن مرضيا فضلا عن غلو ثمنه .

١٨٨ـ عن قوة سورية البحرية انظر :

Yaqubi Geography, p. 327.

وعن تجارة سورية مع القسطنطينية انظر :

The Book of the Prefect V., 1-5.

١٨٩- Heyd op. cit., p. 43. Mez op. cit., p. 508-09. Al Istakhri, p. 31. See somewhat later Muqqadasi Description of Syria trans. G. Le Strange, pp. 91-92, 167.

١٩٠- Mez op. cit., p. 126.

١٩١- Yakut I, 733. Lévi Provençal L'Espagne Musulmane au Xe Siècle, p. 162-64.

١٩٢ـ المرجع السابق ص ١٦٤ ـ ١٦٧ .

١٩٣- Yakut I, 316-18.

١٩٤ـ المرجع السابق جـ ١ ـ ٢٢٧ ، جـ ٤ ـ ٢٠٤ .

١٩٥- Yakut IV, 275.

١٩٦ـ ولا يزال امر ترتيبهـا ، أوائل القـرن العاشر من الأمور الغامضة ، وان كان من المحتمل حدوث ذلك .

Idrisi, p. 209.

١٩٧- Idrisi, p. 256. Yakut III, 889-90.

١٩٨- Al Makkari Annalectes I, 91.

١٩٩- Lévi-Provençal op. cit., p. 179.

٢٠٠ـ المرجع السابق .

٢٠١ـ المرجع السـابق .

٢٠٢- Idrisi, p. 234. Al-Makkari, p. 122.-23.

٢٠٣ـ المرجع السابق ص ٢٣٧ .

٢٠٤- Yakut III, 79.

٢٠٥- Al Makkari, p. 123.

٢٠٦- Lévi-Provençal op. cit., p. 185.

٢٠٧- Idrisi, p. 235.

٢٠٨- Lévi-Provençal op. cit., p. 179-83.

٢٠٩ـ فيما يتعلق بالمراكز الصناعية بأسبانيا انظر :

Al Makkari II, 198.

٢١٠- ولحماية هذا الطريق ، أرسل عبد الرحمن الثالث أسطوله ليضطلع بالأمر في : Ceuta عام ٩٣١ .

Ibn Idhari II, 170.

Ibn Hawkal, p. 73. -٢١١

Lombard op. cit., p. 152-53. -٢١٢

Ibn Khaldun Hist. des Berbères I, 464. C. del Rivero La Moneda-٢١٣ Arabigo-espanolo (Madrid 1893).

٢١٤- وفي الوقت ذاته كان الخـراج الوارد من بابل وخوزسـتان وفارس وبلاد ايران يأتي نقدا ، بعد أن كان يأتي نقدا ونوعا ، الأمر الذي يدل على ازدياد الرخاء .

Kremer : Uber Einmahmebudget das Abbasider-Reiches (Vienna 1887), p. 6, p. 309-23.

٢١٥- ربما كان من أسباب قيام طريق التجارة الفارنجية وتكدس العملات الفضية به ، حاجة تجـارة غرب أوربا الى التعـامل مع الأقاليم المماثلة التي تتبع قاعدة الفضة كبلاد ايران والعراق وسمرقند . واستمر هذا حتى القرن العاشر وبهذا تم تفادي مناطق الدينار والبرنت .

De Goeje : Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwi,-٢١٦ Verslagen in Medeelinger der K. Akad Van (Wetenschapen 1909), p. 265.

Mez : Renaissance of Islam, p. 41.

De Goeje op. cit., p. 265-66. -٢١٧

Ibn Idhari I, 265. -٢١٨

Marçais Berbérie, p. 80. Lévi-Provençal L'Espagne Musulmane,-٢١٩ p. 187-94.

Ibn Hawkal Geog., p. 182. -٢٢٠

Ibn Hawkal Desc. Paler., p. 28-29. -٢٢١

Mez Renaissance of Islam, p. 476-78. -٢٢٢

Ibn Hawkal Geog., pp. 42, 70. -٢٢٣

Yakut I, 385, 399. -٢٢٤

Mez op. cit., p. 478. -٢٢٥

Masudi Prairies d'Or II, 438. Makrizi Khitat I, 28. -٢٢٦

Calendar of Cordova ed. Dozy, pp. 25- 41, 91 Chron. of Mora-٢٢٧ Rases in Mem. Acad. Madrid VIII, 37-38, 56.

٢٢٨- Mez op. cit, 435-36.

٢٢٩- Yakut I, 773 III, 316, 318. ;

٢٣٠- جاء هذا الموضوع ملخصا أحسن تلخيص فى :

Hitty History of the Arabs, p. 528-29.

٢٣١- Lombard op. cit., p. 153.

٢٣٢- المرجع السابق ص ١٥٤ .

٢٣٣- Book of the Prefect IX, 5; X 4. Michwitz, G. "Byzance et l'économie de l'occident" in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. (1936) IX.

٢٣٤- Masudi II, 3 Al Istakhri, p. 462.

٢٣٥- Cross, S. H. The Russian Primary Chronicle (Cambridge 1930), p. 159-63. Const. Porphyr. De Admin. Imper., p. 71.

٢٣٦- Runciman The First Bulgarian Empire (London 1930), p. 144-48 Book of the Prefect IX, 6. Const. Porphyr. De Admin. Imp pp. 79, 177.

٢٣٧- Heyd op. cit., p. 68-73.

٢٣٨- لمعالجة موضوع التجار الروس فى القسطنطينية انظر :

Cross Primary, Chronicle, p. 150-70.

٢٣٩- Lopez "Silk Industry", p. 35-40. Book of the Prefect IX, 6. Runciman op. cit., p. 148.

٢٤٠- Lombard op. cit., p. 153-4.

٢٤١- يعتقد لوپيز صحة هذا القول على تجار المغرب المسلمين فى تلك الفترة بقيت طرابيزون المركز التجارى بالنسبة لتجار الشرق الاسلامى .

Al Istakhri, p. 462. Masudi II, 3.

٢٤٢- Book of the Prefect V, 1-2. 4-5; IX, 6; X, 2.

٢٤٣- المرجع السابق جـ ٥ ص ١ ــ ٥ .

٢٤٤- Wiet Egypt Arabe, p. 109.

٢٤٥- المرجع السابق ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

٢٤٦- كان هــذا الوقت الذى ازداد فيه نشاط قوات بيزنطة البحرية حول فراكسينت ، ولذا يبدو معقولا وجود تجار بيزنطيين وقتذاك فى هذه المناطق أيضا .

Dupont, A. Les Relations commerciales entre les cités maritimes de Longuedoc et les cités d'Espagne et d'Italie (Nimes 1942), p. 22.

٢٤٧- Andréadès "Byzance, Paradis de Monopole" in Byzantion IX, 171-81.

٢٤٨- المرجع السابق . ولمعرفة استمرار اشراف بيزنطة على التجارة فى البلاد الاسلامية ، انظر قصة القديس الياس الكاستروچيوفانى ، الذى تنقل داخل بلاد المسلمين بحرية تامة ، على حين قبض عليـــه كجاسوس فى ايطاليا البيزنطية . وقد وردت هذه القصة فى :

Acto Stanctorum 17 Aug. Amari : Storia I, 554-56.

٢٤٩- Book of the Prefect XVIII, 24.

Heyd, op. cit., p. 52-6.

٢٥٠- لاحظ هيـــد ان البيزنطيين جملة لم يكونوا متحمسين لنشر تجارتهم فى البلاد المجاورة . ولاحظ ديل الملاحظة ذاتها فى كتابه :

Diehl. Byzance, Grandeur et Décadence, p. 96-99.

٢٥١- انظر خلاصة طيبة لذلك فى :

Charanis, The Social Structure of Byzantium, in op. cit., p. 52-5.

وانظر ايضا :

Neumann, c. Die Weitstellung des Byzantischen Reiches aus den Kreuzzuge (Leipzig 1895).

أما عن أرستقراطية العرب فى شمال أفريقية فانظر ما ذكره النويرى فى تاريخ ابن خلدون (ترجمة (de Slan I, p. 435-6)

٢٥٢- Jus Graeco-Romanum ed. von Lingenthal III, 246-47, 292-96.

٢٥٣- نقض الامبراطـوران نقفور فوكاس وباسيل الثانى كل هذه القوانين التى أصدرها الحكام السابقون

Jus Graeco-Romanum III, 299, 303.

٢٥٤- فيما يتعلق بنشاط المسلمين حول فراكسينت انظر :

Tyler, J.E. : Alpine Passes Oxford (1930) p. 55-56.

وفيما يتعلق بانعدام أهمية اقليم لانجدوك من الناحية التجارية وقتذاك انظر :

Schaube op. cit., p. 100 and Dupont op. cit., p. 24.

وانظر عن شاطىء ليجوريا الايطالى

Lopez, Orig. du Capit. Gén. p. 434-41.

٢٥٥ـ اقرار عن فقدان سردينية لأهميتها فى تلك الفترة
Carta-Raspi, op. cit., p. 149-91.
واقرأ عن قورسيقا :
Casari-Rocca and Villat : Histoire de la Corse (Paris 1916), p. 39-41.

٢٥٦- Diehl Venise, p. 18-21. Heyd op. cit., p. 110-12.

٢٥٧ـ عن اشتغال البندقية بتجارة الرقيق فى القرن ٨ م انظر ٠
Liber Pont. I 443 and Codex Carol. ed Gelzer epis. LXXV. & Muratori Annalii d'Italia, p. 960. & Schaube op. cit., p. 8. Amari Storia II, 199-200. Mez. Ren. of Islam, p. 159.

٢٥٨- Chron. Salern. in MGH. Script. III, 526. Heyd op. cit., p. 89-90. Gasquet Byz. Emp., p. 420-23. Amari Storia II, 521-23.

٢٥٩- Gay Italie Mer., p. 247-53.

٢٦٠- Regii Neapolitani Monumenta (Naples 1845), pp. 129, 143, 178. Monneret de Villard "La Moneta in Italia durante l'alto medioeva" in Rev. Ital. di Num. (1919-20) XXXII-XXXIII. Bloch, M. "Le problème d'or au moyen age" in Ann. d'Hist. Econ. et. Soc. (1933), V, 2-3.

٢٦١- Cessi "Pacta Veneta" in Arch. Ven. n.s. (1928-9) V-VI. Diehl Venise, p. 18. Cessi Venezia, I, 41-43.

٢٦٢- Solmi l'amministrazicne finanziaria del Regno Italico, p. 80-110.

٢٦٣- Tyler, Alpine passes, p. 147-48.
وفيما يتعلق بقيام مسلمى فراكسينت بسد طرق التجارة الذاهبة الى فرنسا عبر ممرات الألب ، انظر :
Teyler, op. cit., 55-7.
وانظر أيضا :
Sabbe : "Importation des Tissus", in Revue Belge (1935) XIV XIV 813-23.

٢٦٤- Heyd op. cit., p. 86. Schaube op. cit., p. 89.

٢٦٥- Heyd op. cit., p. 80. Luidprand Antapodesis trans. Wright p. 207

٢٦٦- Besson Mémoires du Diocèse de Genève, p. 473. Ochlman" "Die Alpenpasse im Mittlelalter" in Jahrbuch fur Schweiz geschichte III, 248-9.

٢٦٧- Schaube op. cit., p. 92.

٢٦٨- المرجع السابق •

٢٦٩- Tyler op. cit., p. 144-5.

٢٧٠- المرجع السابق ص ١٥٤ – ١٥٧ •

٢٧١- من الطريف أن نلاحظ أن الطريق البحرى الى اسبانيا لم يكن مستخدما فى تجارة الرقيق وقت ذاك

Agob Lugdun. Archepis Apistolae in MGH. Epis, V, 185. Mr. St. Bert. in Acta Sanct. Bol. 1, p. 597. Vita Joh. Abb. G. in MGH. Script. IV, 369-75.

وحدث هذا تماما فى منتصف القرن العاشر

٢٧٢- Ganshof op. cit., p. 35-6.

٢٧٣- Lib. Monarch de Hyde ed. Edwards in Roll. Series, 154.

٢٧٤- Sabbe "Quelques Types de Marchands des IXe et Xe. siècles" in Revue Belge (1934) XIII, p. 178-80.

٢٧٥- يجب أن نؤكد أن العداء الذى لم ينته حتى عام ٨٦٤ م بين الأمويين فى الاندلس وبين الكارولنجيين ، وكذا نشاط المسلمين حول فراكسينت ابتداء من عام ٨٨٨ م ، قد أزعج التجارة بين شمال غرب ايطاليا وبين جنوب فرنسا . يضاف الى هذا ان العالم العربى المطل على البحر المتوسط بما فى ذلك اسبانيا كان يسير على قاعدة الذهب على حين كان غرب أوربا – بخلاف جنوب ايطاليا ووادى نهر البو يتبع قاعدة الفضة

See Bloch : Problem d'Or, p. 7-9.

٢٧٦- Wiet Egypt Arabe, p. 86.

الفصل السادس

مرحلة الانتقال

(٩٦٠ - ١٠٤٣م)

حدثت في السنوات الأخيرة من القرن العاشر وفي النصف الأول من القرن الحادى عشر ، تغييرات على جانب كبير من الأهمية في الشكل العام للقوى البحرية في البحر المتوسط . فقد استطاعت الخلافة الفاطمية بالقيروان بعد محاولات فاشلة لأكثر من خمسين عاما ، أن تتحرك صوب الشرق وأن تستولى على معظم ما كان يملكه الأخشيديون في مصر وسورية والحجاز . بهذا استطاع الفاطميون أن يربطوا القوة البحرية الاسلامية في شرق المتوسط بالمحور البحرى في وسطه ؛ وهو المحور المتكون من شمال أفريقية وصقلية . وفي هذا الوقت بالذات كانت بيزنطة تتحرك هي الأخرى ، فاستولى أباطرة القسطنطينية على كريت وقبرص وطرسوس وشمال سورية وعلى أجزاء أخرى من آسيا الصغرى والبلقان . وبهذا استطاعوا مواجهة الخلافة الفاطمية في القاهرة بقوة بحرية خطيرة في مياه شرق البحر المتوسط .

وبينما تجرى هذه الأحداث في بلاد الشرق ، اذا بوسط البحر المتوسط لا يبقى مستقرا هو الآخر ، من حيث ما يؤثر في الأحداث البحرية . فعندما ترك المعز لدين الله الفاطمى عاصمة القيروان الى القاهرة عاصمته الجديدة ، قسم ممتلكاته في المغرب الى قسمين رئيسيين : أولهما صقلية ، وهذه ترك بها الأسرة الكلبية ؛ وثانيهما شمال أفريقية ، وهذه ترك بها الأسرة الزيرية .

ثم أضيف الى هاتين الأسرتين أسرتان غيرهما أوائل القرن الحادى عشر ، وهما : الأسرة الحمادية التى استقلت بالجزائر استقلالا ذاتيا ، وأسرة أخرى فعلت نفس الشىء بطرابلس (*) . وفى أول الأمر لم يكن لهذه التقسيمات التى حلت بأملاك الفاطميين فى الغرب ، ولا للصراع الداخلى الناشب بينها فيما بعد ، سوى أثر ضئيل على طبيعة القوة البحرية الاسلامية . الا أنه بعد أن تحولت بيزنطة حوالى عام ١٠٢٥ صوب الغرب ، عقب انتهاء حروبها فى الجبهتين السورية والبلغارية ، ظهر أن ثمة تغيرا بحريا خطيرا قد حدث فى القوى الاسلامية القائمة وسط البحر المتوسط . فقد تدهورت القوة البحرية بصقلية وشمال أفريقية الى مستوى خفيض جدا . ولتلك المرحلة دلالتها بالنسبة للمستقبل .

كذلك أخذت أوضاع مماثلة تسود فى الغرب . ذلك أن سلطان الأمويين فى الأندلس ، وكان عزيز الجانب فى القرن العاشر ، أخذ ينهار بسرعة عقب وفاة المنصور بن أبى عامر ، حيث وقعت الامارات الاسلامية الصغيرة المتنازعة فى سلسلة من الخلافات أفقدت الأندلس قوته البحرية . وعلى حين تأخذ هذه الحوادث مجراها ، اذا بالغرب اللاتينى ينهض من فوضاه واضطرابه اللذين ساداه منذ وفاة شرلمان .

عبر جبال الألب الى ايطاليا ثلاثة من أباطرة الألمان : هم أتو الأول وأتو الثانى وأتو الثالث على رأس قوات من الفرسان التيوتون ، مندفعين تحت تأثير خطط واسعة النطاق ، تحلم باقامة امبراطورية تطرد العرب والبيزنطيين من ايطاليا وصقلية . وانتهت تلك المحاولات بالخيبة ، كما انتهت قبلها أحلام شرلمان بأكثر من قرن من الزمان . على أن تلك المحاولات تدل على ما سيجرى فى المستقبل . وفى تلك الأثناء وفى عام ٩٧٢ بالذات ، أجبر المسلمون على الخروج من فراكسينت — على ساحل پروفانس وجبال الألب — وتخلص هذا الجزء الأوربى من نهبهم وغاراتهم .

وانعكست مظاهر هذا النشاط الجديد على بلاد الغرب أوائل القرن الحادى عشر ، وتجلى فيما قامت به جنوه وپيزا على طول ساحل ايطاليا الشمالى الغربى . اذ أقلعت أساطيل هاتين المدينتين ، لأول مرة ولمدة قرنين ، لتنازع البحرية الاسلامية القوة والسيطرة فى المياه الغربية . ووضح هذا النشاط أيضا فى ازدياد قوة البندقية البحرية فى مياه البحر الأدرياتى ، وفيما أخذ يدعيه الملاحون الايطاليون من حقوق بحرية . ثم ظهرت الى جانب هذا الاندفاع البحرى الايطالى ، اتجاهات أخرى هجومية من قبل بلاد غرب أوربا ، اذ عبرت جبال الألب جماعات من المغامرين الاقطاعيين من نورمانديا وفرنسا الى ايطاليا ، كما عبرت جبال البرانس الى اسبانيا جماعات أخرى وكلها شوق الى النهب والغنيمة على حساب القوى القديمة قوى البيزنطيين والمسلمين .

وجملة القول أن العصر كان عصر انتقال . فمع أن سلطان المسلمين على البحر المتوسط لم يكن انتهى بعد ، الا أنه دخل فى طور جديد من الصراع مع البيزنطيين ومع ايطاليّى البندقية وبيزا ، وقد اشتد ساعدهم وصار واضحا انتهاء النظام القديم الى الزوال وان لم يكن قد اكتمل بعد التنظيم الجديد الذى سيعقبه .

وكانت الامبراطورية البيزنطية ، التى لم تتوقف منذ سنة ٦٤٥ م عن منافسة الدول الاسلامية فى السيطرة على مياه البحر المتوسط ، هى البادئة باتخاذ خطة الهجوم على قوة المسلمين البحرية . فاستخدمت الحكومة الامبراطورية بالقسطنطينية القوات الجديدة التى نمت بانتظام منذ أيام رومانس ليكاپينوس فى شن هجوم عنيف على معاقل القرصنة الاسلامية فى كريت عام ٩٦٠ . وكانت القوة البحرية التى حمت الجيش وحملته الى كريت على جانب كبير من الضخامة ، فقد اشتملت على ٢٠٠٠ سفينة حربية ،

١٣٦٠ سفينة للمؤن والأمداد . أما أحجام بعض سفنها فكانت هائلة جدا ، فمنها ما كان به ٢٥٠ مجدفا فى أربعة صفوف من المجاديف ، ومنها ما صنع بطريقة خاصة ليكون صالحا لانزال الجنــود ، كسفن انزال الجنــود المعروفة فى الحرب العالمية الثانية باسم LST (**) وكان فى مقدور تلك السفن الرسو على الشواطىء بفضل مالها من زلاقات تعبر من فوقها الى البر ، فرق الفرسان الكاملة التسلح . وعملت البحرية البيزنطية على حماية الحملة ورعايتها بارسال أساطيل الى الشرق لتحول دون مجىء أى عون بحرى من مسلمى سورية أو الأساطيل الشرقية عامة .

وتبع هذا صراع عنيف حاد . ولكن نقفور فوكاس أثبت أنه قائد بارع . فسقطت قندية ، معقل المسلمين ، فى يدى الغزاة عام ٩٦١م[١] ؛ وتم فى النهاية تخليص بحر ايجه من ذلك الشجى الاسلامى الذى كان خانقا له .

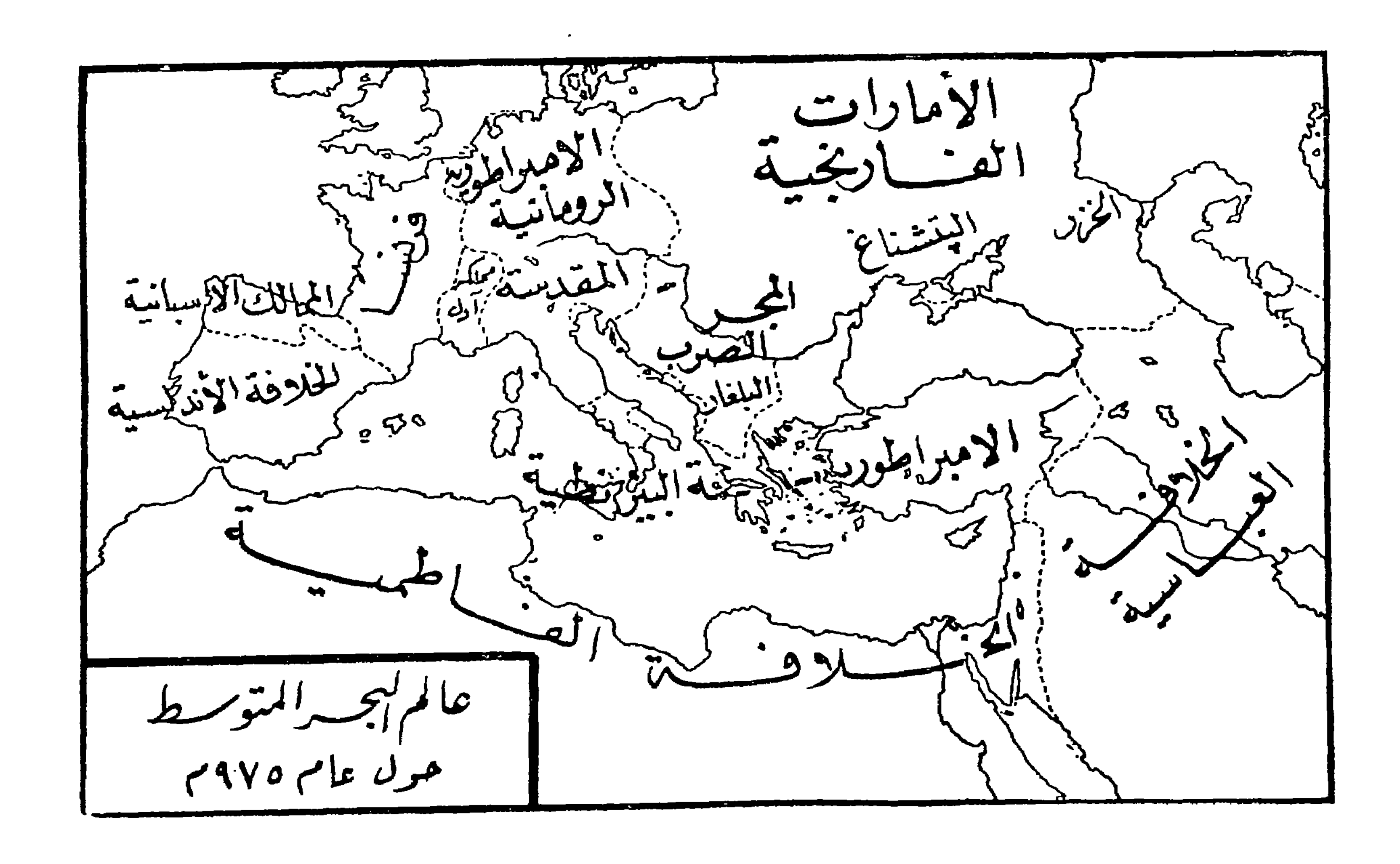
أثر ضياع كريت الى حد بعيد على العالم الاسلامى ولا سيما فى مصر . وأسرع كافور الأخشيدى يدعم قواته البحرية ببناء سفن جديدة . ولكن السفن التى أسرعت مصر فى بنائها لم يثبت أنها كانت تصلح للبحر الصلاحية الواجبة . ويدل قيام المسلمين على المسيحيين وقتذاك ، على مقدار غضبهم ولومهم المسيحيين ، لأن الســفن التى صــنعوها كانت غير صالحة[٢] . وزاد فى خوف المصريين ، ظهور سفن بيزنطية عند الفرما . وظهر أن الخوف كان فى محله عام ٩٦٣ ، عندما اتجه نقفور فوكاس ، وقد أصبح امبراطورا ، بجيشه وأسطوله صوب طرسوس وقبرص . وأمكنه القضاء على أسطول مصرى قوامه ٣٦ سفينة وذلك غير بعيد من قبرص . وترتب على ذلك أن دخلت قبرص فى حوزة الامبراطورية البيزنطية كما دخلت كريت من قبل[٣] . والظاهر أن أسطول مصر الأخشيدية قضى عليه تماما فى هذا الاشــتباك فلم يعد عاملا أساسيا فى توازن القوى فى البحر المتوسط .

وفى الوقت الذى ازداد فيه نشاط البحرية البيزنطية ، تحركت أيضا قواتها البرية صوب قيليقية ، واحتل جيش نقفور فوكاس طرسوس عام ٩٦٥ ، وضم هذا الاقليم البحرى الخطير الى ممتلكات الامبراطورية البيزنطية[٤] . بهذا أصبح الطريق الى سورية مفتوحا . وما حلت سنة ٩٦٨ الا وكانت جيوش القسطنطينية قد توغلت الى مسافات بعيدة داخل البلاد ؛ وسلمت المدن الداخلية مثل حماه وحمص كما سلمت المدن الساحلية مثل طرسوس ومرقيّه وجبلة واللاذقية ، ولم يفلت من قبضتهم سوى طرابلس بفضل ما كان لها من أسوار عظيمة[٥] . وفى عام ٩٦٩ م سقطت أنطاكية ودفعت حلب الأتاوة المفروضة عليها [٦] . ولاح أن شمال سورية وسواحلها على وشك العودة الى السيادة التى نبذها أهلوها منذ أكثر من ثلاثة قرون مضت . وفى خلال عشر سنوات تم التخلص من القوى البحرية التابعة لمسلمى الشرق فى كريت وطرسوس ومصر ومعظم سواحل سورية .

هذا ولم تقتصر جهود القسطنطينية البحرية على الشرق ، ولكنها اتخذت خطة مماثلة ، فبدأت الهجوم فى المياه الغربية أيضا . فقد انتهزت فرصة قيام المسيحيين فى صقلية للتدخل فى الجزيرة ، ومكنها ذلك من استعادة طبرمين عام ٩٦٣[٧] ؛ واحتلت رمطة عام ٨٦٥[٨] . وفى هذه السنة ذاتها أرسلت القسطنطينية أسطولا ضخما الى المنطقة ، والتقى الأسطول البيزنطى بأسطول صقلى أفريقى فاطمى عند مضيق مسينا . غير أن الحوادث التالية أثبتت أنه على الرغم من تغلب قوات القسطنطينية البحرية على أساطيل المسلمين فى الشرق ، فانها عجزت عن أن تكون ندا للقوى البحرية الاسلامية فى الغرب . فقد حدث فى واقعة مضيق مسينا السالفة الذكر ، أن انهزم البيزنطيون هزيمة منكرة مثلما انهزموا من قبل أوائل عهد اشتباكهم مع المسلمين فى مياه هذا المضيق عام ٨٥٩ ، ٨٨٨ . وبفضل استخدام المسلمين

للخطاطيف وما يشبه النار الاغريقية ، استطاعوا تحطيم السفن البيزنطية والقضاء على محاولاتها فى الوصول الى السيطرة على جزيرة صقلية [٩] . ثم عقد الصلح بين الطرفين عام ٩٦٧ [١٠] ، وسر الفاطميون بانتهاء الحرب بينهم وبين البيزنطيين ، وذلك بسبب اشتغال المعز خليفة القيروان بالاستعداد للسير نحو مصر . وقد أدرك المعز الفاطمى أن مصر أصبحت طيبة الجنى بفضل فتوحات بيزنطية فى الشرق : فى كريت وقبرص وطرسوس وسورية . وكل ما كان يأمله الخليفة الفاطمى هو أن يظفر بصداقة بيزنطة ووقوفها على الحياد . ورحبت القسطنطينية هى الأخرى بعقد الصلح مع الفاطميين ؛ ذلك أنه بالاضافة الى خسائرها البحرية عام ٩٦٥ ، فان مشاكل خطيرة تجسمت هنا وهناك فى بعض أملاكها . من ذلك ان العمليات الحربية فى سورية استنفدت كل عنايتها واهتمامها ؛ وفى الوقت ذاته فان أتو الأول الذى توج نفسه أخيرا على الامبراطورية الرومانية المقدسة ، بدأ يثير قلقها حول موضوع ادعاءاته فى الأراضى الايطالية .

قام الفاطميون بحركتهم الكبرى صوب الشرق عام ٩٦٩ ، يؤيدهم جيش ضخم وأسطول كبير ، تحت قيادة قائد المعز البارع جوهر ؛ وسرعان ما وقعت مصر فى قبضته دون قتال يعتــد به وأعقبتها فلسطين وجنوب ســورية . ولم يلبث الحجاز أن اعترف بسلطان الفاطميين[١١] ؛ وصار للخلفاء الشيعة أمر السيطرة على مكة والمدينة . ثم عمدت القوات الفاطمية الى الضغط على البيزنطيين لاختبار قوتهم وذلك بالهجوم على أنطاكية التى سبق أن استولت عليها القسطنطينية قبل ذلك بقليل . ولكن حدث عندئذ أن مشاكل انتابت الفاطميين المنتصرين ، فبعد أن مهدت غارات البــدو القرامطة وتحركات البيزنطيين صوب سورية زمن الأخشيديين ، طريق الانتصار الذى أصابه الفاطميون عام ٩٦٩ ، تحول القرامطة ضد خلافة القاهرة والقيروان فأرسلوا



الأمارات الفارنجية
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
فرنسا
الممالك الإسبانية
الخلافة الأندلسية
المجر
الصرب
البلغار
البتشناغ
الخزر
الإمبراطورية البيزنطية
الخلافة الفاطمية
الخلافة العباسية
عالم البحر المتوسط
حول عام ٩٧٥م

قواتهم الى سورية فى أعقاب القوات الفاطمية(١٢) . وتعاونت معهم المدن الساحلية السورية وأمكنهما معـا الحاق الهزيمة بأسطول فاطمى قرب يافا (١٣) . وفى عام ٩٧٢ هاجمت سفن سورية مدينة تنيس فى الدلتا (١٤) على حين اندفعت جماعات البدو القرامطة عبر الحدود الفلسطينية الى مصر لهذا أسرع المعز بالمجىء الى مصر عام ٩٧٣ ليتولى ادارة الأمور بنفسه . وفى أثناء ذلك أمكن لجيش ثالث من القرامطة أن يصـل حتى مشارف القاهرة — العاصمة الفاطمية الجديدة . ثم أُرغم على الانسحاب حين تعقبه فى ارتداده الى بلاد العرب ، الجيش الفاطمى المنتصر الذى تم على يديه استرداد فلسطين وسورية (١٥) .

لم تقم قوة البيزنطيين البحرية بعمل كبير ضد الفاطميين حينذاك بسبب الخطر الذى تعرضت له حدودها الشمالية . ثم انهم فى الوقت ذاته تجاهلوا هجوم الفاطميين على أنطاكية . ولكن أسرع خليفة نقفور فوكاس وهـو الامبراطور حنا چيمسكى الى عقد الصلح مع أسرة أتو الچرمانية فى ايطاليا متغاضيا عن غزوهم قلورية وهجومهم على ناپلى وطارنت ؛ وزوّج الأميرة البيزنطية تيوفانو ، من أتو الثانى عام ٩٧٠ (١٦) . على أن الخطر الذى تهدد القسطنطينية جاء من ناحية الروس ، اذ تحركت نحو الدانوب حملة كبيرة يقودها سفاتسلاف أمير كييف . وفى عام ٩٧٢ استعرض حنا چمسكى قوة بيزنطية بحرية عند القرن الذهبى وأرسلها شمالا لمواجهة الروس . وسارت هذه القوة البحرية البيزنطية فى نهر الدانوب فشتتت شمل السفن الروسية وحاصرت مؤخرتها ، كما حاصرت القوات البرية البيزنطية جيشا روسـيا أيضا . وبعد حصار طويل أجبر الروس الفارنجيون على التسليم وقتـل سفاتسلاف بيد قبائل البتشناغ عند شلالات الدنيبر ، وهو فى طريق عودته الى كييف (١٧) . وبهذا توقف الخطر الروسى عن تهديد القسطنطينية قرابة عشرين عاما .

تحول چيمسكى بعد هذا نحو سورية حيث اقتضت الضرورة ظهوره هناك ، بسبب عدوان الفاطميين الذى جاوز مداه على الأراضى البيزنطية ففى عام ٩٧٥ م ، استعاد الفاطميون بيروت ، وهزموا أسطولا للبيزنطيين هزيمة منكرة قرب طرابلس [١٨] . ولكن ظهور چيمسكى فى الميدان غير الموقف ، اذ استطاع أن يقتحم بجيشه الأراض السورية حتى فلسطين . ويذكر أبو الفدا أن شواطىء سورية وأقاليم الفرات وجدت نفسها بلا وسائل للدفاع ضد عدوان الروم ، فلم يكن هناك من يحمى الديار ، لدرجة أن دمشق اضطرت لدفع الاتاوة المفروضة عليها[١٩] . ولم ينج من السقوط فى يد العدو الا طرابلس بفضل أسوارها وبفضل حماية الأسطول المصرى لها . على أن خضوع وسط سورية وشواطئها للقسطنطينية لم يكن الا أمرا مؤقتا ، فقد مات چيمسكى الباســل عام ٩٧٦ ، وبموته عاد الفاطميون والقرامطة الى البلاد . وما حل عام ٩٧٨ الا وكانت قد دانت كل ســورية حتى أنطاكية وحلب للخلافة الفاطمية فى القاهرة . على أن شعور السنيين العدائى تلقاء الشيعة واستمرار الاضطراب أدى الى أن مقاطعات كثيرة كانت تستقل بحكم نفسها تماما فتتخلص من السيطرة المصرية [٢٠] .

ويرجع فشل بيزنطة فى متابعة نجاحها القديم فى سورية ، الى أسباب أكبر من مقدار وطبيعة المقاومة الاسلامية ، فيقترن الفشل بمشاكل داخلية : من ذلك أن السنوات الأولى من حكم باسيل الثانى لم تكن سهلة ، فحدثت بها الثورات العنيفة التى قام بها كل من برداس اسكليروس عام ٩٧٦ ، وبرداس فوكاس عام ٩٨٧ . وقد هزت هذه الثورات كيان الامبراطورية البيزنطية من أساسه . وهذه الثورات يرجع سببها فى الغالب الى محاولة باسيل الثانى حماية الفلاحين الأحرار من عدوان الاقطاعيين الذين أغاروا على أراضى الفلاحين شيئا فشيئا ، وقضوا بذلك على القوة الحربية التى تعتمد عليها الامبراطورية . وعلى هذا فان هذه الثورات كانت على نحو ما ،

ثورة الطبقة الأرستقراطية التى حظيت برعاية نقفور فوكاس وحنا چيمسكى على حساب السلطة البيروقراطية المركزية التى كانت تبغى كبح جماحها[٢١] .
على أنه ينبغى أن نلاحظ أيضا وجود عامل آخر فى قيام هذه الثورات هو تذمر أساطيل الأقاليم . يدل على ذلك أن الأساطيل الاقليمية الآسيوية هى التى أمدت الثوار وأعانتهم فى هاتين الثورتين . فقد حدث فى تلك المرة ما حدث فى عامى ٦٩٥ ، ٧٢٧ م ؛ وما حدث أيضا أثناء ثورة توما السلاڤى أوائل القرن التاسع ، حين أبحرت الأساطيل الاقليمية صوب العاصمة[٢٢] .
ويرجع سخط هذا الفريق من قوات البحرية البيزنطية الى أسباب أخرى غير تلك التى أثارت طبقة كبار الملاك الاقطاعيين فى آسيا الصغرى . ولعلنا نجد مفتاح هذا الموضوع فى المرسوم الذى أصدره حنا چيمسكى عام ٩٧١ م ، وحرّم فيه على البنادقة نقل الحديد والسلاح وأخشاب السفن الى البلاد الاسلامية[٢٣] . ولا شك أن بيزنطة حاولت أثناء صراعها مع الفاطميين ، شل حركة قوتهم البحرية بمنع المواد الرئيسية اللازمة لتلك القوة من الوصول الى شواطئهم . ولا شك فى أن غير البنادقة صدرت لهم أيضا مثل هـذه الأوامر ، بل الأكيد أنهـا طبقت على أقاليم الامبراطورية التى خضعت خضـوعا فعليـا لسـلطان الأباطرة المباشر . واسـتطاع المسئولون فى القسطنطينية — بفضـل اسـتيلائهم على قبرص وطرسوس والسـاحل الشـمالى لسورية — أن يمنعوا تصـدير أخشاب ذلك الاقليم الى مصر . بل ان اسـتيلاءهم على هـذه الأماكن أعطى قواتهم البحـرية فرصـة السيطرة على التجـارة فى الطريق الدائرية بين مصر وسـورية ، وهى الطريق الرئيسية للتجـارة بين غرب البحر المتوسـط والشرق الأدنى . واذا كانت المراسيم المماثلة التى أصدرها ليو الخامس منذ مائة وخمسين عاما ، سببت ثورة أساطيل التيمات أو أساطيل الأقاليم بزعامة توما الصقلبى فان القيود التى فرضها حنا چيمسكى دفعت أساطيل الأقاليم الى الخروج

على القسطنطينية أثناء ثورة كل من برداس اسكليروس وبرداس فوكاس . ولا يمكن أن يكون هذا محض مصادفة ؛ اذ أنه يدل على حقيقة واضحة هى أن القيود التجارية التى فرضتها القسطنطينية قضت على الأسواق التجارية الهامة فى الموانى الاسلامية ، وهى الأسواق التى اعتمد عليها رخاء التيمات البيزنطية . وما من شك فى أن ذلك الرخاء كان سندا قويا لأساطيل تلك التيمات ، وهذا هو سبب انحيازها للثورة ضد الحكومة المسئولة عن هذه السياسة .

ومن الأمور المسترعية للنظر اتفاق النتائج مع تنائج ما حدث عامى ٧٢٧ ، ٨٢٣ م . ففى عام ٩٨٧ بوجه خاص ، تمكنت أساطيل الأجناد من بلوغ بحر مرمرة ومحاصرة ابيدوس . ومع ذلك فان الأسطول الامبراطورى الرابض عند القرن الذهبى ظل على ولائه واستخدم النار الاغريقية لتشتيت شمل الوحدات الثائرة من أساطيل الأقاليم [٢٤] ، ففشل الثائرون فى تحقيق أهدافهم ، وكان باسيل الثانى فى عام ٩٨٩ مسيطرا تماما على امبراطوريته . لكن هذه الأحداث أضعفت قوة بيزنطة البحرية على طول شواطىء البحر المتوسط ، وهى الشواطىء المواجهة للقوى الاسلامية التى كانت ذات قيمة حيوية بالنسبة لأمن الامبراطورية ، ويرجع هذا الضعف الى ضياع كثير من سفن الأقاليم أثناء الثورات . ولما لم تستطع البحرية البيزنطية أن تستجمع قواها فى الحال ؛ والى أن تم ذلك فعلا ، كانت قوة الفاطميين البحرية فى سورية ومصر تتفوق تفوقا واضحا على منافستها البيزنطية .

ومما زاد فى سوء أثر تلك الثورات على البحرية البيزنطية ، ظهور مشاكل جديدة فى البحر الأسود . اذ تجدد خطر كييف على عهد أميرها الجديد فلاديمير وكانت القسطنطينية قد وعدت أن تزف احدى أميراتها — وهى الأميرة آن — الى الحاكم الروسى الجديد ، ثم عمدت العاصمة

الى التباطؤ فى تنفيذ وعدها بارسال الأميرة الصغيرة . وطال انتظار فلاديمير ، ولما نفد صبره عمد عام ٩٨٩ الى تقريب أحد الزواج بالاستيلاء على القرم ومدينة خرسون ميناء بيزنطة الهام . ولكن وصول الأميرة العروس أوقف العداء بين الفريقين وأقام عهدا من الوئام والسلام بين كييف وبين بيزنطة . على أن هذا لم ينقص من ضرورة مرابطة البحرية البيزنطية فى البحر الأسود لحمل الروس الفارنجيين على التزام الصداقة لبيزنطة (٢٥) .

واذن فلم يتعرض نفوذ الخلافة الفاطمية فى سورية لخطر التهديد برا أو بحرا ، خلال معظم المدة بين ٩٧٥ ، ٩٩٥ م . وبالرغم من عدم رضا السوريين عنهم ، وبالرغم من المشاكل التى سببتها غارات القرامطة ظل الفاطميون قادرين على الاحتفاظ بمركزهم هناك . ويفسر ذلك أيضا ما كانت عليه القوة البحرية البيزنطية من الضعف وقلة الأهمية فى المياه الغربية ابتداء من عام ٩٦٥ .

ومع ذلك فلم يطمئن الفاطميون الى أن القوة البحرية البيزنطية لن تنشط قرب سواحل سورية أبدا ، بدليل أن الخليفة العزيز أمر ببناء أسطول حربى ضخم فى دار صناعة جديدة بالمقس عام ٩٩٥ . وكان المشروع يرمى الى بناء ستمائة سفينة جديدة بعضها من حجم كبير جدا (٢٦) . ويصف لنا ناصرى خسرو الرحالة الفارسى فى القرن التالى (أى القرن الحادى عشر) احدى سفن الخليفة المعز وكانت قد أخرجت الى الشاطىء وقت فتح مصر عام ٩٦٩ ، بأنها تبلغ ٢٧٥ قدما طولا ، ١١٠ أقدام عرضا(٢٧) . ولكن لم تجر الأمور بالمأمول فى بناء ذلك الأسطول الجديد ، اذ تخربت عام ٩٩٥ دار صناعة المقس ومعظم ما بها من السفن ، نتيجة حريق ينسبونه الى مؤامرات عملاء بيزنطة . ولهذا قبضت الدولة على مائة من التجار اليونانيين وأعدمتهم (٢٨) ، ثم استمر بناء الأسطول بعد ذلك . وتلمح تفوق الفاطميين وقدرتهم البحرية

من حقيقة هامة هى أنهم أنزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط (منذ الحريق) سفنا من خير أنواع السفن (٢٩) . وسرعان ما ظهر فى المياه الشرقية للبحر المتوسط أسطول أقوى جديد ، ترفرف عليه راية خلافة القاهرة . وكانت الحاجة لهذا الأسطول على أشد ما تكون ؛ فان القيصر باسيل ابتدأ أخيرا يوجه اهتماما جديا الى سورية ؛ فحاصرت قواته طرابلس ونهبت حمص وبعلبك . لكن أسطول الفاطميين هزم أسطول باسيل قرب صور عام ٩٩٨ واستطاع أن يمون طرابلس من البحر (٣٠) . وفى عام ٩٩٩ تفاوض الخصمان لعقد صلح بينهما لمدة عشر سنوات ، وفى هذا الصلح احتفظت بيزنطة بما تحت يدها من الأراضى السورية وزادت عليه قليلا ؛ أما الشواطىء فبقيت فى قبضة الفاطميين . وهكذا أجبر البيزنطيون على اقتسام السيطرة على مياه شرق البحر المتوسط مع البحرية المصرية القوية .

وفى خلال العشرين السنة التالية لم تحدث سوى اشتباكات بحرية طفيفة بين الامبراطوريتين ، على الرغم من وجود خلافات ومنازعات قوية بين القاهرة والقسطنطينية . والواقع أن باسيل الثانى سخر كل قوى الامبراطورية واستغل قدراته ومواهبه العسكرية البارعة فى مواجهة مشاكل البلغار . فانشغل عدة سنين فى توجيه الجهود نحو غزو بلاد هذا الخصم العنيد . وأرسلت الحملة تلو الحملة ضد البلغار ، حتى كانت سنة ١٠١٨ ، حين خضعت بلادهم نهائيا وانضمت للقسطنطينية (٣١) . ويبدو أنه قد أهمل شأن البحرية طوال مدة ذلك الصراع اهمالا نسبيا .

وانشغال بيزنطة هذا ، بالحروب السورية الروسية البلغارية برا وبحرا ، يفسر الموقف البحرى فى غرب البحر المتوسط . ففى المدة بين عامى ٩٦٥ ، ١٠٢٥م، لم تخصص بيزنطة شيئا من قواتها البحرية لحماية أملاكها أو الدفاع عن مصالحها فى ايطاليا . وترك الايطاليون يدافعون عن أنفسهم بأنفسهم

لمدة ستين سنة تقريبا . وكانت نتائج هذا خطرة ، وذلك لأنه بينما كانت أساطيل الدولة الزيرية بشمال أفريقية ضعيفة كان الأمراء الكلبيون فى پلرم على جانب كبير من القوة البحرية تمكنهم اذا شاءوا من استخدامها ضـــد جنوب ايطاليا . ولما اشتدت الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين ظهرت لها آثار بحرية فى الغرب . ففى عام ٩٧٥ م ظهرت البحرية الاسلامية الصقلية قرب شـــواطىء قلورية وأپوليا ، واستطاعت أن تنهب مدينـــة جراڤينا Gravina [٣٢] . وبعد عامين اثنين أغارت هذه القوات ثانية على قلورية[٣٣] ، وهوجمت طارنت واترانتو(Otranto) وآوريو Orio [٣٤] وصارت غزوات المسلمين أحداثا سنوية منتظمة .

وعلينا أن ننظر الى تدخل الامبراطور أتو الثانى فى شئون جنوب ايطاليا فى ضوء تلك الظروف . وأصل هذا أن أتو الثانى كان يدعى لنفسه حق السيطرة على ايطاليا مثلما كان يدعى لويس الثانى من قبل . كان أتو يرى أن لابد له من أن يحميها من الغزاة المسلمين ، مثلما رأى سلفه الكارولنجى من قبل . والظاهر أن زواج أتو من أميرة بيزنطية جعله يرى فى نفســه وصى شارلمان وبيزنطة . على أنه كان يدرك ادراكا تاما مدى افتقاره الى قوة بحرية : ولذا عمل على أن يخضع البندقية لنفوذه اذ كان لديها وحدها القوة البحرية التى يعتد بها فى المياه الايطالية . وكان أبوه أتو الأول قد جدد للبندقية فى سنة ٩٦٢ بعد تتويجه امبراطورا رومانيا مقدسا امتيازاتها فى شمال ايطاليا [٣٥] . لكن أتو الثانى عندما جاء الى الحكم ، نقض سياسة أبيه وأحال الصداقة عداء . ومع تأكيد ما للبندقية من امتيازات عام ٩٧٧[٣٦]، فان الامبراطور الألمانى بدأ سياسة الضغط الاقتصادى على المدينة ، وتركز الضغط بالذات ضد تجارة البندقية فى ايطاليا . وفى ظل هذه الظروف ظهر بالمدينة حزب كبير موال للألمان استطاع السيطرة على المدينة مثلما حدث

تماما زمن شرلمان ، وبدا للعيان ان قوات البندقية قد غدت حليفا مخلصا لهم [٣٣] .

وعندما سار أتو الثانى جنوبا صــوب قلورية على رأس حملة كبيرة ليطرد العرب وليضم تلك المقاطعات البيزنطية الى أملاكه ، كان لديه من الأسباب ما يحمله على الوثوق بالنجاح . ولكن البنادقة تخلوا عنه فى أحرج اللحظات ؛ فانهم كانوا لا يزالون مقدرين لصلاتهم ببيزنطة ، ولذا امتنعوا عن تقديم أية مساعدة بحرية للامبراطور الألمانى . كما أن النواب البيزنطيين شاركوا البنادقة فى ذلك العداء لأتو الثانى . وقبلوا التعاون ضده مع المسلمين ، العدو القديم . ولما وصل أتو بجيشه الى رأس ستيلو ، وجد أن الجميع تخلوا عنه ، فواجه وحده جيشا اسلاميا قويا . ونتيجة هــذا اللقاء كانت مصيبة كبرى حلت بقوات أتو : اذ تمزق جيشه اربا ، واستطاع هو لحسن حظه أن يفر نحو الشمال فى سفينة بيزنطية كادت تنجح فى اقتياده أسيرا [٣٨] ، وبموته عام ٩٨٣ ماتت معه مشروعاته . وهكذا ظلت البندقية خــارج فلك أسرة أتو ، ونقلت الى ايطاليا قــوات برية بيزنطية سرعان ما أعادت النظام الى قلورية وأپوليا وأخضعتهما لحاكم جديد لقبه كتاپان[٣٩] . وربما حمل أتو الثالث فى نفسه أطماع أبيه غير أنه لم يؤت الفرصة أبدا لاظهارها . وقبل أن يموت ، أكد للبندقية حقوقها فى شمال ايطاليا وترك الممتلكات البيزنطية فى جنوب ايطاليا ترعى نفسها بنفسها [٤٠] .

وبزوال الخطر من جانب أسرة أتو ، تلاشى سريعا التعاون المؤقت الذى قام بين البيزنطيين والمسلمين فى جنوب ايطاليا . وفى عام ٩٨٦ أغارت القوات الاسلامية على قلورية ثانية ونهبت مدينة چراتشة Gerace [٤١] . وجاء دور كوسنزا عام ٩٨٧ [٤٢] ، ثم أعقبت ذلك اغارات أخرى على الجهات

القريبة من بارى ســـنة ٩٨٨ ، ٩٩١ ، ٩٩٤ [٤٣] . ثم زاد ضغط المســلمين وربما كان هذا بسبب ما جاء من أخبار انهزام بيزنطة أمام أساطيل الفاطميين قرب الشواطىء السورية . وفى عام ١٠٠٢ أخذ المسلمون ينتشرون داخل ايطاليا فى غارات واسعة النطاق ؛ كما نهبوا مدينة بنيفنتم [٤٤] واحتلوا بارى عام ١٠٠٣ ؛ وبدا احتلالهم لها كما لو كان شــيئا دائما [٤٥] . وقد أزعج هذا البنادقة أيما ازعاج ؛ فقد كرهوا تماما أن يكون للمسلمين ملك دائم فى ذلك الاقليم المسيطر على مدخل البحر الادرياتى . ولهذا أرسلوا حملة بحرية عام ١٠٠٤ ، الى أپوليا استطاعت طرد المسلمين من هناك [٤٦] .

ولما صد المسلمون عن البحر الادرياتى تحولت اغاراتهم الى الشواطىء الايطالية الغربية المطلة على البحر التيرانى . وفى عام ١٠٠٤ هاجم المسلمون مدينة پيزا [٤٧] . ورد أهل بيزا ، فيما يبدو ، بغارة من جانبهم على معاقل المسلمين فى مدينة ريو [٤٨] . والظاهر أن هذه التحركات أوقفت غارات المسلمين على هذا الجانب من ايطاليا الى حين ؛ ولكنهم عادوا للاغارة على قلورية عــام ١٠٠٩ واســتولوا عــلى مدينــة كوسنزا Cosenza [٤٩] . وبموت الامبراطور أتو الثالث ، وانشغال بيزنطة فى حروبها مع البلغار ، لم تبق فى هذه المناطق قوة تصد غارات العرب ؛ ولذا أغاروا ثانية على بيزا وربما كان المغيرون من عرب الأندلس [٥٠] . ولاقت مدينة لونى نفس المصير الذى لاقته مدينة بيزا [٥١] . وتحركت نحو تلك الأقاليم المضطربة جماعات أخرى من المغامرين الى جانب القوات الاسلامية . وفى عام ١٠١٦ ظهر النورمان لأول مرة ؛ واشتركت جماعة منهم فى السنة التالية فى طرد قوات المسلمين الذين كانوا يهاجمون مدينة سلرنو [٥٢] . وأمست ايطاليا مثلما كانت أواخر القرن التاسع ، الصيد السهل المباح للمغامرين من كل حدب وصوب .

ولم يكن فى مقدور بيزنطة حتى عام ١٠٢٥ أن تتدخل . فعندئذ كانت تهدئة بلغاريا قد تمت ؛ كما أن البيزنطيين كانوا قد انتبهوا الى خطر أساطيل شمال افريقية وصقلية التى اتسعت هجماتها حتى بلغت بلاد الپلوپونيز . لهذا حشد باسيل الثانى جيشا عظيما من مرتزقة ولاشيا وبلغاريا وروسيا وأرسل هذا الجيش الى جنوب ايطاليا يرافقه الأسطول . واستطاع هـذا الجيش أن يثبت سلطان بيزنطة فى تلك الجهات فور نزوله أرض قلورية ؛ ومن هناك عبر المضايق الى صقلية الاسلامية (٥٣) . وأحدق الخطر بمدينة پلرم فأرسلت تطلب المساعدة والعون . ولم تكن مصر تخلصت بعد مما أصابها من طغيان الخليفة الحاكم الفاطمى ، ولذا لم تستطع أن تبذل أى عون لصقلية . ولكن بنى زيرى حكام المهدية سارعوا الى تقديم العون المطلوب، وكان المعز بن باديس — من الأسرة الزيرية — قد بنى أسطولا جديدا لاستخدامه ضد طرابلس القريبة منه . فأسرع ابن باديس الى ارسال ٤٠٠ سفينة منه لنصرة أهل صقلية ؛ لكن العاصفة العاتية التى صادفته قرب جزائر قوصرة قضت على معظمه فلم يستطع أن يقدم بعدها الا عونا يسيرا (٥٤) . وأنقذت صقلية أحداث أخرى حدثت بعيدا عنها ، اذ مات محب الحروب باسيل الثانى ، وخلفه امبراطور أكثر جنوحا الى السلم هو قسطنطين الثامن . وكانت النتيجة لذلك عقد صلح مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة عام ١٠٢٧ ، وخروج الحملة البيزنطية من ايطاليا قبل أن تنجز عملا يذكر (٥٥) .

ثم عاد الصراع مع عرب صقلية وشمال افريقية عندما نقض الامبراطور رومانوس أجيروس الصلح مع الفاطميين باغارته على سورية . عندئذ أغار المسلمون على ساحل ايلّيريا عام ١٠٣١ (٥٦) . وفى عام ١٠٣٢ أصبحت شواطىء اليونان وجزرها هدف البحرية الاسلامية (٥٧) ؛ فهوجمت جزر

السيكلاديز والجزر القريبة من بلاد اليونان عام ١٠٣٥ (٥٨) . على أن تلك الغارات لم تكن موفقة تماما ؛ ففى عام ١٠٣٥ استطاع أسطول اقليمى بيزنطى أن يقضى على الأسطول الاسلامى الذى هاجم شواطىء ليسيا Lycia (٥٩) . ثم بدأ المسلمون يشعرون من جانبهم بالرغبة فى السلم ؛ وكانت صقلية أول من جنح الى السلم مع بيزنطة بسبب ما ابتليت به من المشاكل الداخلية بين العرب والبربر . وفى عام ١٠٣٥ ، اعترف أميرها — وهو أحد أفراد الأسرة الكلبية — بسيادة القسطنطينية (٦٠) ، وربما صدر هذا الاعتراف بموافقة الفريق الموالى للفاطميين بالجزيرة دون غيرهم . ثم نشبت ثورة بالجزيرة بتأييد من بنى زيرى فى شمال افريقية واستطاع الثوار تنحية الأمير الموالى للبيزنطيين عن الحكم واحلال أخيه محله فى حكم الجزيرة (٦١) . ورغبت القاهرة هى الأخرى فى عقد صلح مع أعدائها فى الشمال عام ١٠٣٨ (٦٢) . ويبدو أن صغر سن الخليفة الطفل (المستنصر) الى جانب الفزع من الحصار الاقتصادى ، جعلا هذه الرغبة أمرا مستصوبا . وقد دل الفاطميون على عدم رضاهم بما حدث فى صقلية بقبولهم أن يقطعوا العهد على أنفسهم فى معاهدتهم مع بيزنطة بألا يقدموا أية مساعدة الى بلرم اذا ما رأى البيزنطيون فتح باب العداء مع الجزيرة (٦٣) .

وعندما اطمأن البيزنطيون الى عدم وجود خطر يهددهم من ناحية معاونة الفاطميين برا وبحرا لأهل صقلية ؛ جهزوا جيشا بريا كبيرا ضــد الجزيرة ، عقد لواؤه لواحدمن ألمع القواد وأبرعهم واسمه جورج منياس G. Maniaces أما الأسطول فكان سيىء الحظ اذ اختير له قائد غير كفء اسمه ستيفن كان ذا حظوة كبيرة ببلاط الامبراطورة زوية ، ذلك البلاط الماجن الخليع . وفى أول الأمر سار كل شىء سيرا حسنا ؛ ففى عام ١٠٣٨ نزل منياس بجانب كبير من قواته المرتزقة الى أرض صقلية ، وفتح سراقوسه وسائر بلاد القسم

الشرقى من الجزيرة ، وذلك على الرغم من وصول القوات المساعدة التى أرسلت من شمال افريقية . ولكن الأسطول البيزنطى سمح للبحرية الاسلامية أن تقتحم الحصار البحرى وأن تخلص شلفوده ، كما فشل هجوم آخر كان قد شن على مالطة . وأخيرا استدعت القسطنطينية قائدها المظفر عام ١٠٤٠ . وزاد الموقف تعقيدا ، فتن المرتزقة النورمان فى جنوب ايطاليا ؛ وعلى الرغم من عودة چورج منياس ثانية الى ايطاليا فان النشاط الحربى قد تضاءل[٦٤]. وفى عام ١٠٤٣ ثار منياس غاضبا على ما عومل به من عدم ارسال عون له أثناء القتال ؛ فتحرك على رأس جيشه نحو العاصمة . وفى بلاد اليونان تلاقى جيشه مع الجيش الامبراطورى فهزم منياس وقتل [٦٥] . وبموته انتهت جميع محاولات اعادة السيطرة البيزنطية على صقلية وجنوب ايطاليا مثلما انتهت جميع المحاولات الأخرى المشابهة . ورأى الامبراطور قسطنطين التاسع — مونو ماخوس — حين جاء الى العرش عام ١٠٤٢ ، اتباع سياسة عقد الصلح بأى ثمن ؛ وخلفت هذه السياسة أخطارا جسيمة بالنسبة لمستقبل الامبراطورية .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن التدهور التدريجى فى قوة بيزنطة البرية والبحرية ، زمن الأباطرة الذين خلفوا باسيل الثانى العظيم ، صاحبه انحسار مماثل فى بلاد منافسيهم المسلمين . فالأسطول الفاطمى الضخم الذى أحضره المعز الى مصر عام ٩٧٣ ، والذى دعمه العزيز أواخر القرن العاشر ، لم يبق له شىء من القوة ، فى القرن الحادى عشر . وربما كان طغيان الخليفة الحاكم الذى استمر خمسة وعشرين عاما ، نقطة تحول كبرى فى هذا التاريخ . وليس ثمة دليل على وجود قوة بحرية فاطمية ذات شأن عندما تولى المستنصر عام ١٠٣٦ . وعلى الرغم من وجود بحرية للفاطميين تأتمر بأمرهم ، الا أنها لم تعد عاملا يحسب له حساب وقتذاك فى شرق البحر المتوسط .

ولو ظل شمال افريقية محتفظا بقوته البحرية ، لما كان لضعف الفاطميين أهمية كبيرة . ولكن عندما ترك الفاطميون القيروان الى القاهرة وأخـذوا معهم أسطولهم ، لم يبق لنوابهم من أسرة بنى زيرى سوى عدد قليل من السفن ، تعينهم على حماية أملاكهم فى الغرب ضد أسطول الأمويين القوى الرابض فى المرية على الشاطىء الأندلسى . غير أنه لازالت توجد عند بنى زيرى دار صناعة ضخمة وأحواض كبيرة فى المهدية يمكن بناء ٢٠٠ سفينة فيها دفعـة واحدة . وفى عام ٩٧٦ بدأ الزيريون فى بناء أسطول جـديد ، صادفوا فى تجهيزه بالرجال ، الكثير من الصعوبات ؛ اذ هرب أكثر ملاحيه قبل أن يبحر من مراسيه (٦٦) . ولذا يمكن القول ان الزيريين لم يملكوا قوة بحرية بمعنى الكلمة قبل عام ١٠١٦ ؛ اذ بدأ المعز بن باديس يبنى فى تلك السـنة أسطولا قويا ، ليواجـه به على ما يظهر ، منافسـيه فى طرابلس الغرب (٦٧) . وهذا الأسطول ذاته هو الذى قضت عليه العواصف وهو فى طريقه لنصرة أهل صقلية عام ١٠٢٥ ؛ وربما ساعدت أهل صقلية وحدات أخرى من هذا الأسطول بين عامى ١٠٣٨ و ١٠٤٣ . ويمكن القول ان بحرية بنى زيرى لم تبلغ من القوة وحسن التنسيق ما بلغته بحرية الفاطميين ولا بحرية الأغالبة (٦٨) . الا أن صـقلية ظلت محتفظة بقوة بحرية لا بأس بها وسط البحر المتوسط ، ثم بدأت تهمل شأن بحريتها هى الأخرى فى القرن الحادى عشر (٦٩) .

وفى أقصى الغرب بدأت أحوال مماثلة تلحق بالمسلمين فى الأندلس . ذلك أن انتقال الفاطميين بأسـطولهم الى مصر ، وانابتهـم بنى زيرى فى القيروان بقوة بحرية ضعيفة ؛ قلل . فيما يبدو ، من حاجة أمويبى الأندلس الى أسطول قوى . غير أنه لا دليل يذكر على تدهور شأن البحرية الاسلامية بالأندلس زمن الحكم الثانى وزمن المنصور بن أبى عامر ؛ فانهما احتفظا

بسلطانهما على سبته ، وامتد نفوذهما فى قلب بلاد المغرب عندما خف تهديد الفاطميين . وعندما اختبر قراصنة الفيكنج الشماليون قوة دفاع البحرية الأموية عامى ٩٦٦ و ٩٧١ ، وجدوا أنها لا تزال ذات بأس شديد . ولما أغار الفيكنج لأول مرة على مدينة شلب ، بعد هجوم لهم على لشبونة ، استطاع الأمويون تبديد شملهم دون كبير عناء (٧٠) . بل ان الفيكنج لم يستطيعوا أن يبدأوا هجومهم الثـانى على الأندلس بعد ذلك بخمس سنوات (٧١) . وقد خرجت حملة بحرية من اسپانيا فى عام ٩٧٢ وبلغت فى سيرها سواحل فلسطين وبحر ايچه ، ونهبت ما شاءت أن تنهب أينما حلت (٧٢) . وأتاح هذا الأسطول للمنصور بن أبى عامر — حتى عام ٩٩٧ — الظفر بالنصر ، اذ استطاع بوساطته أن ينقـل قواته بحرا الى شـواطىء الأطلنطى ليستولى على أكبر مزارات شنت ياقوب (٧٣) . ويعمل فيها السلب والنهب .

وعندما أخذت الخلافة الأموية فى الأندلس تتدهور بعد موت المنصور أوائل القرن الحادى عشر ، اختفت تماما البحرية الأموية التى طالما عنى بتنسيقها وتنظيمها عبد الرحمن الثالث . ولما آلت السلطة الى عـدد من المغامرين والملوك الصغار ، الذين استولوا على الحكم فى أيام الاضطراب الذى حدث بعد الأمويين ، فانهم لم يستطيعوا أن يوجدوا لأنفسهم قوة بحرية محترمة . ولا نستثنى منهم فى ذلك الا واحدا هو مجاهد بن يوسف العامرى الذى جعل نفسه أميرا على دانية ، اذ أعد هذا الأمير أسـطولا قويا ، استطاع أن يوسع به سلطانه وأن يضم جزر البليـار الى أملاكه عام ١٠١٤ (٧٤) . ومن هذه الامارة أطلق الأمير مجاهد أسطوله للغزو فى غرب البحر المتوسط . ففى عام ١٠١٥ ، سار على رأس ١٢٠ سفينة لمهاجمة جزيرة سردينية ومحاولة احتلالها ثم عاد الأسطول بعـد أن استولى على غنائم عظيمة (٧٥) . وسار أيضا الى سواحل ايطاليا حيث أغار على مدينـة

لونى وما حولها من المناطق الساحلية [٧٦] . وتعاون أهل جنوة وأهل بيزا ضده وانتصروا عليه قرب سردينية [٧٧] . وفى العام التالى أخذوا يعملون على طرده من الجزيرة [٧٨] . على أن أسطول الأمير مجاهد ظل يهدد شواطىء المسيحيين ؛ فقد أغار عام ١٠١٨ على اقليم برشلونة [٧٩] ؛ وربما كان بعض رجاله هم الذين هاجموا ناربون عام ١٠٢٠ [٨٠] وبقى الأمير مجاهد قويا مرهوب الجانب الى أن مات عام ١٠٤٤ .

وعلى الرغم مما كان لمجاهد من شأن فان العامل الجديد فى أوضاع غربى البحر المتوسط لم يكن القوة البحرية الاسلامية ؛ بل كان ما طرأ على قوة بيزا وجنوه وساحل ايطاليا الشمالى الغربى فى البحار من انتعاش مفاجىء . لقد كان لمدن هذه المنطقة منذ عام ٩٣٥ بعض السفن دون أن يكون لذلك أهمية تذكر [٨١] . وحول عام ١٠٠٠ م ، أخذ الايطاليون فى تلك المنطقة يقبلون على الملاحة اقبالا جديا . وربما كان تخليص فراكسينت من المسلمين على يد كونت وليام حاكم پروفانس عام ٩٧٢ ، العامل الحاسم فى هذا الاقبال على البحر [٨٢] . ومن يدرى .. فربما كانت الأسباب مطوية فى ثنايا الماضى الغامض . وعلى أية حال فان بيزا بعد أن هوجمت عام ١٠٠٤ ، ردت بغارة مضادة ناجحة على المسلمين فى ريو عام ١٠٠٥ م . ثم بعد أن أدبها المسلمون ثانية عام ١٠١١ م ، وبعد أن نهبوا مدينة لونى المجاورة ؛ اتخذت بيزا موقفا هجوميا أشد عنفا . وما حل عام ١٠١٥ الا وقد صارت هى وجنوةقوتين بحريتين استطاعتا أن تهزما الأمير مجاهد القوى فىالبحر ، ثم تمكنتا فى العام التالى أن تطرداه من جزيرة سردينيـــة . وبسردينية من مناجم الفضة الغنية ما جعل الجزيرة غنيمة قيمة تستحق أن تمتلك . وفى عام ١٠٣٤ عظمت قوة پيزا البحرية لدرجة جرأتها على مهاجمة مدينة بونه على الساحل الافريقى [٨٣] .

وربما كان من الخطأ أن ننظر الى النشاط البحرى لكل من پيزا وجنوه

على أنه قائم على أساس حماية التجارة من غارات المسلمين ؛ رغم أن هذه هي النتيجة التي انتهت اليها قواتهما البحرية بالفعل . والحقيقة أنهما لم تتحركا في البداية بدوافع اقتصادية ، بل تحركتا لأسباب دفاعية صرفة . ففي أول الأمر رغب الأهلون فقط في أن يتخلصوا من المسلمين الذين يغيرون على سواحلهم . ولكنهم سرعان ما اكتشفوا — وان كان من العسير أن نحدد متى كان هذا الاكتشاف — أن ثمة مغانم كبيرة يمكنهم الحصول عليها لو أنهم غامروا في البحر . ولهذا أخذوا هم أنفسهم منذ عام ١٠٣٤ ، يحترفون القرصنة ونهب التجارة الاسلامية ومدن المسلمين الساحلية . وكانت مغانم القرصنة — لا التجارة — هي الدافع الأساسي لتحرك أساطيل هاتين المدينتين في القرن الحادي عشر (٨٤) . وواتتهما الفرصة للظهور بسبب ما انتهى اليه حال المسلمين من ضعف في النصف الغربي من البحر المتوسط . والواقع أن اهمال الزيريين لقوتهم البحرية وتدهور الأمويين بالأندلس وضعف بحرية المسلمين في صقلية ؛ كل ذلك أتاح الفرصة لظهور بحرية هاتين المدينتين ؛ وما آتى عام ١٠٤٣ الا وكانتا تستغلان هذه الفرصة أكبر استغلال .

اختلفت أحوال البندقية ، على الساحل الشرقي من ايطاليا عن المدن البحرية الواقعة على سواحل ليجوريا وتسكانيا . ذلك أن مصالح البندقية الرئيسية تركزت في التجارة والنقل لا في القرصنة ؛ ولكنها في الوقت نفسه بنت قوة بحرية محترمة في الادرياتي أواخر القرن العاشر . وربما ألجأها الى ذلك أن عدم وجود قوة بحرية بيزنطية اضطر البندقية الى تحمل مسئولية الدفاع عن تجارتها ضد غارات القراصنة الكرواتيين على طول ساحل ايليريا. وكانت هذه القرصنة مما شغل البنادقة من زمن طويل ؛ ولكن البندقية حين شعرت بازدياد قوتها حوالي عام ١٠٠٠ م ، بدأت تحل المشاكل بنفسها ،

وتغلبت على مراكز القرصنة هذه . وكانت هذه المراكز منافسا للبندقية فى التجارة أيضا . وفى ذلك العام سار الدوق بطرس الثانى أرسيولى Peter II Orseoly على رأس أسطول ضخم وأجبر مدن زارة وفيجليا وأربى وتراو وكرزولا ولاجوستاوراجوزة ، على قبول التبعية للبندقية [٥٨]. وأخذ دوقات البندقية منذ عام ١٠٠٢ يلقبون أنفسهم دوقات البندقية ودلماشيا[٨٦] . وفى عام ١٠٠٤ أظهروا قوتهم البحرية من جديد بأن طردوا المسلمين من بارى وأبوليا[٨٧] .

ويجب ألا يتطرق الى أذهاننا أن البنادقة استخدموا قوتهم البحرية للاستقلال عن بيزنطة لأنهم ، مع قدرتهم على الوقوف بمفردهم ، أدركوا تماما ما يعود عليهم من كسب تجارى نتيجة ارتباطهم بالامبراطورية البيزنطية . فأذعنوا (ولو مؤقتا على الأقل) لأمر التحريم الذى أصدره الامبراطور يوحنا چيمسكى عام ٩٧١ ، وهو يقضى بعدم الاتجار مع الموانى الاسلامية فى بعض السلع مثل أخشاب بناء السفن والأسلحة والحديد [٨٨]. كذلك آثروا بعد فترة من التردد أن ، يتخلوا عن الامبراطور أتو الثانى وأن يقفوا فى صف حكام القسطنطينية ، وقبلوا فى مقابل امتيازات تجارية منحوها فى المياه البيزنطية الشرقية ، أن يتولوا نقل قوات القسطنطينية الى ايطاليا وكذا نقل القصاد والبريد الهام بين الغرب وبين مدينة القرن الذهبى [٨٩] . وظل البنادقة حتى أوائل القرن الحادى عشر ، مرتبطين بنوع ما من التبعية بالدولة البيزنطية . واستمرت بحريتهم وتجارتهم فى طريق النماء العظيم ، حتى صارت البندقية قوة كبيرة فى البحر المتوسط الى جانب قوتها وأهميتها فى البحر الادرياتى .

* * *

ونجمل التطورات البحرية بين عامى ٩٦٠ ، ١٠٤٣ م ، فى بعض الملحوظات الهامة الآتية :

أولاها — وربما كان أكثرها أهمية — أن السنوات الأخيرة من القرن العاشر شاهدت انتعاش البحرية البيزنطية فى البحر المتوسط ؛ فاستعادت كريت وقبرص ، وقضت على قوة المسلمين البحرية فى طرسوس وشمال سورية وضمت تلك الأقاليم الى الامبراطورية . وقضت بعملها هذا ، فى الوقت ذاته على الجانب الأكبر من القوة البحرية الاسلامية فى شرق البحر المتوسط . ومع ذلك استطاعت قوة الفاطميين البحرية فى الغرب أن تصد البحرية البيزنطية عام ٩٦٥ م ؛ كما أن أسطول الفاطميين المصرى صدها فى الشرق عام ٩٧٥ . ثم بعد فترة من الحرب الأهلية تضعضعت أثناءها قوتها البحرية ؛ استأنفت خطة الهجوم ولكنها منيت بالهزيمة قرب صور عام ٩٩٨ على يد البحرية الفاطمية الجديدة . وتلت ذلك فترة أهمل فيها شأن البحرية أو استخدمت لمساعدة القوات البرية ضد البلغار . ولم تعد عاملا يحسب له حساب الا منذ عام ١٠٢٥ ، حينما وجهت لمهاجمة صقلية . وبعد أن انشغلت تلك القوة فى مناوشة المسلمين وصد غاراتهم على بحر ايجه ؛ سيرت بيزنطة عام ١٠٣٨ أسطولها الى الغرب ليشترك فى آخر هجوم كبير لها على صقلية . وعندما أخفق ذلك الهجوم ، أعيد استخدام الأسطول ثانية ضد القوات الروسية التى هاجمت الامبراطورية عام ١٠٤٣ (٩٠) . وأخيرا تدهور الأسطول البيزنطى ، مثلما تدهورت سائر قوى الدولة عندما جنحت الامبراطورية الى سياسة المسالمة الخرقاء .

أما فى الجانب الاسلامى ، فقد شاهدت تلك الحقبة من الزمان ، استفادة الفاطميين فى شمال افريقية من تحطيم البيزنطيين لمنافسى الفاطميين من المسلمين . وشجع هذا الفاطميين على غزو مصر عام ٩٦٩ م ، وصدوا بأساطيلهم القوات البيزنطية البحرية قريبا من السواحل السورية عامى ٩٧٥ ، ٩٩٨ م . وقد أنابوا عنهم الأسرة الزيرية بالقيروان — وكانت ضعيفة

من الناحية البحرية — واستغلوا فى الوقت ذاته القوة البحرية العظيمة ، التى ملكها الكلبيون فى پلرم بصقلية ، للاغارة على ايطاليا . وأوائل القرن الحادي عشر ضعف شأن البحرية الفاطمية فى مصر ، ولم يكن الزيريون بشمال افريقية قد بلغوا شأوا بعيدا فى المجال البحرى ، رغم جهودهم الحقيقية فى هذا السبيل . هذا فضلا عن أن سلطان الكلبيين فى پلرم بدأ يضعف فى البحر ومن هنا جاء تفوق بيزنطة البحرى عامى ١٠٢٥ ، ١٠٣٨ . أما القوة البحرية الاسلامية الثالثة فى الأندلس فقد ضعفت هى الأخرى حول ذلك التاريخ . وبعد أن بلغ الأسطول غاية القوة زمن المنصور ، فانه لم يلبث أن تقوضت أركانه بسـبب انحلال الخلافة الأموية . ولم يحافظ على تقاليد البحرية الاسلامية الأندلسية فى غرب البحر المتوسط سوى صاحب دانية ، الغازى البحرى الأمير مجاهد ، الى أن مات فى ١٠٤٤ م .

وهذا الضعف الذى أصاب مسلمى الأندلس وشمال افريقية وصقلية ، الى جانب ضعف سلطان بيزنطة فى المياه الغربية ، أتاح الفرصة لظهور بحرية أوربا الغربية . فاستطاعت پروفانس أن تطرد الغزاة المسلمين ، وولت چنوه وپيزا وجهتهما صوب البحر وهزمتا أساطيل الأمير مجاهد ، أمير دانية . وعندما أدركتا ما فى أعمال القرصنة من مغانم ، اندفعتا فى حملات بحرية عبر المتوسط لنهب الشواطئ الاسلامية . وفى هذه الأثناء ، أمكن للبندقية الواقعة على الجانب الآخر من الشاطئ الايطالى ، أن تجعل الادرياتى بحيرة خاصة لها ، وذلك بعد طرد المسلمين من ابوليا وامتلاك مدن ساحل دلماشيا . ولم يأت عام ١٠٤٣ ، حتى كان هؤلاء الايطاليون هم حقيقة أصحاب القوة البحرية المهاجمة فى مياه البحر وأصبح مستقبل البحرية فى ذلك البحر فى أيديهـم .

يبقى لدينا بعد هذا أن نسأل عن مدى تأثير العمليات الحربية البرية على القوة البحرية فى البحر المتوسط وقتذاك . ونقـول انه على عكس الأيام

السابقة ، فان القوة البحرية تأثرت كثيرا بالقوة البرية بين عامى ٩٦٠ ، ١٠٤٣م. اذ تأثرت بحرية كل من الفاطميين والبيزنطيين بجهود جيوشهما ؛ فنرى مثلا أن جيوش نقفور فوكاس ويوحنا چيمسكى هى التى جعلت من الممكن غزو قيليقية وشمال سورية ؛ وبالتالى قضت على مراكز القوة البحرية الاسلامية فى الشرق . وان غارات القرامطة وثورات مدن سورية الداخليـــة ، مثل دمشق ، هى التى اضطرت الفاطميين الى العناية بقواتهم البرية وهى بالتالى التى حدت من أثر انتصاراتهم البحرية على بيزنطة عامــى ٩٧٥ و ٩٩٨ . ويدخل ضمن هذا أيضا أن جيش باسيل الأول ، لا أسطوله ، هو الذى أجبر الخلافة الفاطمية فى القاهرة على قبول ســيطرة بيزنطة على أنطاكية وحلب ، كما أن ضعف الخلفاء العباسيين الوهميين وتدهور قوتهم الحربية هو الذى حال دون تدخلهم فى الشئون الخارجية .

على أن أجدر شىء بالاعتبار كان تأثر الامبراطور باسيل الثانى بمشاغله مع البلغار وهو فى عنفوان قوته . فمن أجل حرب البلغار بذل الامبراطور كل ما يمكن من جهد لمدة عشرين عاما . ومن أجل هذا أيضا أنفق كل ثروة الامبراطورية على الجيش وأهمل الأسطول . ولو أن جانبا من الجهد الذى أنفقته الدولة فى كفاحها البرى المستمر خلال عشرين عاما ، أنفق فى تدعيم قوة بيزنطة البحرية ووجه ضد صقلية ، لتغير تاريخ البحر المتوسط تغيرا كاملا[٩١] . ولم يتحول اهتمام باسيل نحو العالم الغربى الا بعد عام ١٠٢٥ أى بعد فوات الأوان تقريبا . وكان هذا قبل وفاته بقليل ؛ وذلك حين أرسل أساطيله وجيوشه ضد صقلية ، ثم كان موته فحرمت الدولة من اليد القادرة الموجهة التى تحتاج اليها . وعلى الرغم من أن محاولة أخرى بذلت ضـــد الجزيرة عام ١٠٣٨ الا أن عجز حكام القسطنطينية سبب عدم نجاح تلك المحاولة . ولا شك أن باسيل الثانى أضاع فرصته الكبرى حين نسى ما كان

يوقن به چستنيان وليو الثالث ورومانوس ليكاپينوس ، ايقانا يكاد يكون غريزيا ، من أن الامبراطورية البيزنطية هى أساسا دولة بحرية وليست برية . وقد حفر باهماله هذا قبر الامبراطورية ؛ فان اصراره على تقديم الجيش وتفضيله وانصرافه التام الى الحملات البرية ؛ ذلك الانصراف الذى بلغ غايته فى حروبه ضد البلغار التى كلفته الكثير ، وأدى الى المساوىء التى انتهت بكارثة ملاذكرد ، وتدهور بيزنطة التدهور الذى قضى عليها نهائيا .

ومن الأمور الطريفة كذلك ، تأثر القوة البحرية الى حد بعيد ، بالعمليات الحربية على البر فى كل من ايطاليا والأندلس . فان القوات التيوتونية البرية التى كانت لأسرة أتو فى الأراضى الايطالية ، عجزت كما عجزت قوات شارلمان أو لويس الثانى من قبل عن أن تكون كفؤا للبحرية الاسلامية أو البيزنطية . وأخفقت الأسرة فى محاولاتها ضد البندقية وقلورية وابوليا ومدن ساحل كمبانيا ، الا أنها أضعفت بشكل خطير مركز بيزنطة فى جنوب ايطاليا ؛ ويسرت انتشار الفوضى التى استغلها النورمان أوسع استغلال بعد ذلك ببضع عشرات السنين . ولم يعد لايطاليا ما كانت عليه من توازن بين الامارات الايطالية الوطنية وبين الأجناد أو الثغور البيزنطية ، وهى الأجناد التى أقامها نقفور فوكاس أواخر القرن التاسع . والمسئول عن هذه الفوضى هو أسرة اتو ، تماما بقدر ما يسأل عنها باسيل الثانى أيضا (٩٣) .

واختلفت الحال بعض الشيء فى الأندلس . ذلك أن سياسة المنصور بن أبى عامر العسكرية قضت نهائيا على الخلافة الأموية ؛ وقضت معها على قوة المسلمين البحرية هناك . والمنصور نفسه قائد عسكرى على جانب عظيم من المواهب ، وهو يشبه فى هذا معاصريه البيزنطيين : يوحنا چيمسكى وباسيل الثانى . ويشبههما كذلك فى اتباع سياسة التوسع البرى

التى أنزلت بالدولة الكثير من المصائب . ولكى يضمن المنصور النصر ضد الممالك المسيحية فى شمال الأندلس ، غير نظـام تكوين الجيش الأموى تغييرا كاملا . فاسـتخدم جماعات كبيرة من المرتزقة والصقالبـة فى فرق الطليعة ، بدل الجند العرب المرابطين عند الحدود ، والذين كانوا موضع اعتماد الدولة وثقتها قبل القرن العاشر . وكان المرتزقة والأرقاء اما بربرا على الفطرة من افريقية أو مغامرين من المسيحيين . وطالما ظل المنصور على قيد الحياة ، آتاح له هذا الجيش سلاما دائما ونجاحا خارجيا . ولكن قيام هذا الجيش انطوى على خطرين عظيمين : أحدهما أن استخدام هذه القوات معناه أن الأرستقراطية العربية الأندلسية لم تعد تهتم بشـئون الحرب ، وركنت الى استئجار من يتولون القتال عنها . والثانى وهو الأكثر خطورة ، هو انفلات زمام هؤلاء المرتزقة والأرقاء من بعد وفاة المنصور ؛ فانقلبوا على الرعية المدنية مع أنهم نظموا فى الأصل من أجل الدفاع عنها . وهكذا التهمت كلاب الحراسـة الخراف التى كانت تحرسها ؛ وانتهت الى الفوضى والانحلال خلافـة قرطبة وكذا البحرية العظيمة التى بناهـا عبد الرحمن الثـالث (٩٣) .

وهكذا أدى ما حدث من تغيير فى القوة البحرية والحروب البرية الى ايجاد عالم من أقاليم البحر المتوسط عند منتصف القرن الحادى عشر ، يختلف تماما عما كانت عليه الحال قبل هـذا التاريخ بقرن من الزمان . ويتضح أعظم هذه الاختلافات أهمية من حقيقة واحـدة هى : أن فتح بيزنطة لكل من كريت وقبرص وقيلقية وشـمال سورية ، قلب الأوضاع البحرية من أساسها فى منطقة شرق البحر المتوسط . وبهذا الفتح زال تماما ما كان يتيحه امتلاك تلك الجزائر والأقاليم ، من حمـاية بحرية لسورية ومصر الاسلاميتين . ولم يعد ثمة سوى طريق بحرية واحدة أمينة بين بلاد الغرب وبين الشرق الاسلامى ، وهى الطريق الوعرة ملاحيا ، والواقعة على

طول الشاطىء الافريقى بين الاسكندرية وسوسة . وقد أمدنا اثنان من مؤرخى القرن العاشر المسلمين — المعاصرين لتلك الفترة — بوصف دقيق للموقف الذى تبدل حينذاك . أولهما ابن حوقل ، ويشكو من أن الروم أزعجوا المسلمين عام ٩٧٢ م بشتى أنواع الهجمات والاغارات على شواطىء البحر المتوسط ؛ فاستولوا على السفن واضطهدوا التجار [٩٤] . وجاء المقدسى بعد ذلك بخمسة عشر عاما ، فكتب فى نفس المعنى السابق وأشار أن قبرص كانت تحمى سورية وأن كريت كانت تحمى مصر* كما قامت صقلية بحماية شواطىء افريقية . وأنه بعد انتصارات البيزنطيين البحرية ، تردد الروم (ويقصد بهم البيزنطيين والطليان) على هذا البحر ولم يوقفهم عند حدودهم وداخل مياه خلجانهم سوى أهل الأندلس وصقلية [٩٥] .

من الواضح اذن أن شرق البحر المتوسط ، لم يعد ، أواخر القرن العاشر بحيرة اسلامية ؛ على أن القسم الغربى منه استمر كذلك فى منتصف القرن الحادى عشر تقريبا . وطالما بقيت صقلية وجزر البليار فى أيدى المسلمين ، وطالما بقيت سردينية على حيادها ، فقد توافرت للأندلس وافريقية الحماية التى افتقدتها سورية ومصر . وكان فى اخراج الأمير مجاهد من جزيرة سردينية على يد أساطيل جنوه والبندقية ، رغم أن احتلالهما الحقيقى للجزيرة لم يتم قبل ١٠٥٠ ، وكذا فى هجمات البيزنطيين على صقلية عام ١٠٢٥ وبين عامى ١٠٣٨ ، ١٠٤٣ ؛ ما يدل على ما سيكون من اتجاهات فى المستقبل . واذن فقد أخذ زمام سياسة المبادأة فى البحر ، فى قسميه الشرقى والغربى ينتقل من يد المسلمين الى يد الشعوب المسيحية البيزنطية واللاتينية المستقرة فى الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط . وفى هذا التحول خدمت الطبيعة الجغرافية اللاتينيين كما خدمتهم وقت قيام الأمويين بحركاتهم البحرية بين عامى ٦٤٥ و ٧٥٢ م . ذلك أن مجموعة الخلجان

والمداخل المائية الواقية ، تقع — كما لاحظ المقدسى — على الساحل الشمالى للبحر المتوسط . فالقسطنطينية تقع عند نهاية بحر ايجه ، وتقع البندقية على رأس الادرياتى . وتقع جنوه وبيزا على قمة البحر التيرانى . وهذه كلها توفر للشواطىء حماية افتقرت اليها الشواطىء الاسلامية . وفى ختام القرن العاشر ومطلع الحادى عشر ، أخذت الاتجاهات الهجومية فى الغرب اللاتينى والشرق البيزنطى تستفيد الى حد كبير من هذه الميزة الجغرافيـــة .

غير أن الجغرافية وحدها لا تكفى لتعليل ما أصاب القوة الاسلامية البحرية من تبدل فى مستهل القرن الحادى عشر ؛ بل ربما كان الرخاء الوفير الذى أصاب العالم الاسلامى هو سبب تدهور بحريته . فهذا ابن حوقل فى كلامه عن صقلية فى القرن العاشر — وكانت لا تزال تتبع خطة الهجوم فى البحر — يكشف عن نظرة الاحتقار للقرصان المسلمين الذين كانوا فى العصور السابقة فى طليعة القوة البحرية الاسلامية (٩٦) . ويبدو أن العالم الاسلامى أخذ ينسى ماضيه فى المغامرة البحرية حين استقرت به الأحوال وعمه الرخاء . وفى الحقيقة تشبه نظرة ابن حوقل الى قراصنة الروم ؛ نظرة الانجليز — وقد نسوا دريك وهوكنز — الى أعمال القرصنة التى قام بها پول چونز فى المياه البريطانية فى حروب الثورة الأمريكية . كما أن تلك النظرة تشبه أيضا نظرة اقليم نيوانجلند الى نشاط السفينة الاباما أيام الحرب الأهلية . وربما فسرت هذه النظرة التحول الخطير الذى اتصفت به اتجاهات المسلمين وحركاتهم البحرية . وهى تفسر لنا أيضا كيف أن القوى الاسلامية سمحت لرد الفعل البيزنطى — الأوربى ، أن يزيح من طريقه ذلك الحاجز الواقى من أساطيل القرصنة العربية ، دون أن يمد تلك القوات الواقية الواقفة عند الأطراف بأية مساعدة . حقيقة أن القضاء على بارى وجاريليانو ، تم أثناء سيادة المسلمين البحرية فى المتوسط ؛ ولكن معظم

خسائر المسلمين فى الأطراف أو المراكز الأمامية البحرية حدثت فى الحقبة التى نتكلم عنها الآن ؛ فضاعت كريت وطرسوس وفراكسينت دون بذل أية مساعدة من جانب الشواطىء الاسـلامية التى كانت تعيش فى حماية هذه المراكز . وعلى حين استمرت أساطيل أمراء بلرم وأساطيل مجاهد على سياستها الهجومية القديمة حتى منتصف القرن الحادى عشر ؛ فانها فشلت عام ١٠٤٣ فى وقف تقدم جنوه وبيزا فى المياه الغربية ، كما أخفقت فى وقف تقدم البندقية فى مياه البحر الادرياتى . وما حل عام ١٠٤٣ الا وكان فقدان الأطراف الأمامية وضعف القوات النظامية لمصر الفاطمية ولبنى زيرى فى افريقية وللأندلس المنقسم على نفسه ينبىء بقرب زوال السيطرة الاسلامية عن البحر المتوسـط .

لكن يجب التسليم بأن البحر المتوسط بقى الى حد كبير بحيرة اسلامية حتى عام ١٠٤٣ ، رغم ما أصاب القوى الاسلامية من ضعف . وان الأسطول المصرى زمن الفاطميين وغارات المسلمين الهجومية من صقلية وشمال افريقية على جنوب ايطاليا بل وعلى اقليم بحر ايجه ، وكذا حركات أسطول مجاهد قواعده بجزر البليار ، كل ذلك مكن للمسلمين من قدر كبير من السيطرة على البحر المتوسط . وبالجملة فان الوضع ظل قريب الشبه بما كان سائدا بعـد منتصف القـرن العاشر ؛ الا أنه بدا واضـحا أن ذلك الوضـع لن يسـتمر طـويلا .

شاهد هذا العصر قليلا من التغييرات الهامة فى النظم البحرية . فقـد استمرت قوة بيزنطة البحرية قائمة على الأسس التى وضعت أواخر القرن التاسع ، من حيث وجود أسطول امبراطورى الى جانب الأساطيل الاقليمية. ونتيجة لاتساع فتوحها برا وبحرا وتقدمها نحو الجنوب ، فقـد انتقلت قواعدها الأساسية ، تبعا لذلك ، فى الاتجاه ذاته ، وغدت قبرص قاعدة بحرية

رئيسية لأساطيل اقليم كبيرهيوت عقب عام ٩٦٥ [٩٧] . وربما غدت كريت بالمثل ، قاعدة أمامية لأساطيل منطقة بحر ايجه . أما أساطيل الفاطميين والزيريين والصقليين والأندلسيين ، فانها استمرت على ما كانت عليه منذ البداية . كذلك يبدو أنه كان للبندقية فى ذلك الحين أسطول حربى منظم وفق أسلوب العصر . وربما لم تختلف كثيرا سفن القرصنة ذاتها ، سواء فى پلرم أو دانيه أو زاره أو چنوه أو بيزا عن سفنهم فى العصر السابق .

ويعتبر التغيير الرئيسى المميز لتلك المرحلة ، ما حدث من ازدياد حجم بعض أنواع السفن الحربية التى استخدمها المسلمون أو البيزنطيون . وعلى الجملة فان هذا الموضوع يستحق دراسة أوفى مما يمكن أن نعطيها له فى هذه الصفحات . وربما كانت القسطنطينية أول من بنى شوانى بحرية كبيرة بدلا من الشلنديات والدرمونات الصغيرة المستخدمة فى البداية وقد اشتركت هذه السفن الكبيرة فى الاغارة على كريت [٩٨] . وثمة ذكر لاستخدام البيزنطيين لمراكب كبيرة فى وقعة المجاز عام ٩٦٥ [٩٩] . واتجه بناة السفن من المسلمين اتجاها مماثلا كما يستدل على ذلك من مقاييس بعض السفن الفاطمية التى استخدمها المعز فى غزو مصر عام ٩٦٩ [١٠٠] . والراجح أن الدول غير المتقدمة هى وحدها التى استطاعت بناء مثل هذه السفن فلا نجدها الا فى أساطيل الفاطميين أو الأندلسيين أو البيزنطيين . وربما بدأ البنادقة يزيدون فى حجم سفنهم منذ ذلك العهد [١٠١] .

لكن ما هو أثر ما حدث من تغيير فى الأوضاع البحرية على الحياة الاقتصادية والتجارية فى عالم البحرين المتوسط والأسود ؟ والى أى مدى أثر انتعاش بحرية كل من بيزنطة وغرب أوربا ، أو سقوط أمويى الأندلس ، أو حركات الفاطميين فى الشرق ، على رخاء الناس فى حوض البحر المتوسط ؟

الحقيقة أنه لم يكن لهذا كله أثر ضار بصفة عامة لأن تلك الحقبة امتازت باستمرار الرخاء الاقتصادى الذى كان يعم الجميع .

ولنبحث أولا أحوال بلاد العالم الاسلامى : فمصر التى تمتعت برخاء فعلى زمن الطولونيين والأخشيديين ، ارتفع مستوى نشاطها الاقتصادى تحت حكم الفاطميين . وبنيت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة قرب النيل . وقال عنها المقدسى عام ٩٨٧ أنها أضخم وأهم مدينة فى شرق العالم الاسلامى [١٠٢] . وفتن بسحر هذه العاصمة ، الرحالة الفارسى ناصرى خسرو (حول منتصف القرن العاشر) . وتكلم هذا الرحالة عن حوانيتها التى تبلغ عشرين ألفا — كلها ملك الحكومة — وعما يصنع بها من الأوانى الخزفية والزجاجية الفاخرة[١٠٣] .

استمرت مصر محتفظة بأهميتها الزراعية والصناعية معا ؛ فأنتجت السكر والعسل بكميات وفيرة[١٠٤] ، وزرع الأفيون بكثرة فى أسيوط[١٠٥] ، وكانت هذه المدينة مركزا هاما لصناعة المنسوجات الكتانية[١٠٦] . واشتهرت تنيس أيضا بهذه الصناعة كما اشتهرت بالأقمشة الكتانية الملونة وبصناعة كميات كبيرة من الأدوات القاطعة والمقصات[١٠٧] . واستمرت دور الطراز فى مصر مصدرا للثروة ، كما ظلت مصانع الدولة تنتج الأقمشة الموشاة بالذهب والحرير العتابى المموج وسائر المنتجات الأخرى الفاخرة . ويبدو أن عمال هذه المصانع كانوا على جانب كبير من الرضا بأحوالهم بفضل ما أعطى لهم من الأجور الطيبة[١٠٨] .

حافظ الفاطميون فى مصر على استمرار اشراف الدولة على الحياة الاقتصادية وهذا الاشراف كان الطابع الملحوظ فى مصر منذ عهد البطالمة . من ذلك الاحتفاظ بنظام جوازات الانتقال والسفر ، والدقة فى جباية الضرائب ورقابة الأسواق حيث يجب أن تعرض جميع السلع [١٠٩] ، ونظموا

جماعات العبيد للبحث عن الذهب فى مناجم النوبة[١١٠] . يضاف الى هذا اهتمامهم بالشئون البحرية . وكما عملوا على زيادة قوة مصر الحربيـة فى البحر فانهم كانوا يملكون ويديرون جانبا كبيرا من أسطول مصر التجارى، الذى كان يرسل لأغراض التجارة عبر مياه البحر المتوسط [١١١] . وربما حاولوا الخـروج بمصر عن سياستها السلبية السابقة فى ميـدان التجارة الخارجية ؛ وان كان من العسير أن نحدد بالضبط مدى نجاحهم فى هـذا المضمار[١١٢] .

كذلك تمتعت سورية وفلسطين الواقعتان تحت النفوذ الفاطمى ، بنفس المستوى العالى من الرخاء ، الذى تمتعت به مصر . على الرغم مما تعرض له هذان الاقليمان من قلاقل داخلية وهجمـات خارجية . وتقـدمت بهمـا الزراعة والصناعة ؛ ودخلت اليهما حديثا زراعة قصب السكر من الشرق فى تلك الأثناء ؛ فزرع القصب فى الجليل وفى جوار صور[١١٣] . وانتجت نابلس ومعظم بلاد سورية أنقى أنواع زيت الزيتون[١١٤] . وذاعت شهرة دمشق بما أنتجته من الأقمشة والأوانى النحاسية[١١٥] . كما اشتهرت الرملة وطبرية بأقمشتهما ذات الألوان المتعددة[١١٦] . أما الورق فانه صنع بدمشق وبعض المدن الأخرى بسورية[١١٧] .

ونجحت تجارة الشام مع الشرق والجنوب . وغدت عدن ميناء رئيسيا لكل تجارة المحيط الهندى الذاهبة الى بلاد الهند والصين[١١٨] . ونشطت حركة التجارة عبر البحر الأحمر الى بلاد الحبشة وزنجبار[١١٩] . واستخدم كثير من حجاج المسلمين هذا الطريق البحرى ، فكانوا ينزلون بثغر جـدة فى طريقهم الى مكة والمدينة . وليس ثمة دليل على استخدام القناة الواصلة بين النيل والبحر الأحمـر فى ذلك الحين . وكان الطـريق الرئيسى للحج والتجـارة يسـير الى عيـذاب ، ومنهـا برا الى أسـوان ومن هـذه

بالنيل الى القاهرة والاسكندرية[١٢٠] . وتقدمت كذلك التجارة الصاعدة مع النيل الى بلاد النوبة وزادت أهميتها .

وازدهرت تجارة البحر المتوسط مع سورية ومصر . وصارت للاسكندرية علاقات تجارية مع صقلية والقسطنطينية[١٢١] . وتردد على مدينة طرابلس كثير من التجار الأجانب الوافدين من بيزنطة والأندلس وصقلية وبلاد غرب أوربا [١٢٢] . وأبحرت من ذلك الميناء الأساطيل التجارية الخاصة بالخليفة الفاطمى فى القاهرة ؛ قاصدة القسطنطينية وصقلية وشمال افريقية للتجارة معها [١٢٣] . وكان أكثر تجار غرب أوربا نشاطا فى تجارتهم مع الفاطميين ، هم البنادقة وأهل أمالفى . وقد أمد البنادقة الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن — وهى المواد التى احتاجت اليها بلادهم كثيرا ؛ وحملت سفنهم فى عودتها من مصر التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة[١٢٤] .

نشطت التجارة كذلك بين العراق وايران وبين سورية بوجه خاص . وكانت شيلان العمائم المصنوعة فى تنيس تصدر الى أسواق ايران[١٢٥] ؛ وأرسلت أقمشة دور الطراز من مصر الى العراق وبيعت هناك بأثمان عالية ، ثم منع الفاطميون هذه التجارة كجزء من الحرب الاقتصادية التى أثاروها ضد منافسيهم العباسيين فى بغداد[١٢٦] .

وان العمائر الكثيرة الرائعة التى أنشأها خلفاء الفاطميين فى مصر ، والثروة المذهلة التى احتوتها خزائن المستنصر — قبل أن يلحق بها الخراب الذى أصاب القاهرة عام ١٠٦٧ — كل ذلك يوضح عظم الثروة التى تمتعت بها مصر فى ذلك الحين[١٢٧] . كما يوضحه أيضا حساب جزية الرءوس المقررة على سكان البلاد من المسيحيين ؛ ففى القرن التاسع زيدت ضريبة الرأس الى نصف دينار ؛ فسبب هذا الكثير من التذمر كما حدث فى تنيس عام ٨١٥ م . وفى العام الألف رفعت هذه الضريبة الى ١ ½ دينار على الرأس ومع ذلك فلم يسبب هذا الا تذمرا قليلا [١٢٨] .

الصورة التى وصلتنا عن شمال افريقيــة زمن الزيريين ، لا تختلف الا اختلافا يسيرا عما كانت عليه الحال فى مصر ؛ فابن خلــدون يقول : « واستمر ملك المعز بن باديس بافريقيــة والقيروان ؛ وكان أضخم ملك عرف للبربر بافريقية وأترفه وأبذخه » (١٢٩) . وثمة براهين أخرى يذكرها ابن حوقل ، أواخر القرن العاشر ، والبكرى فى القــرن الحادى عشر ، تؤكد ما ذهب اليه ابن خلدون .

ففى تلك الأثناء ظل شمال افريقية اقليما وفير الانتــاج من الناحية الزراعية . وكانت الحبوب هى المحصول الأساسى هناك . وانتشرت زراعتها حــول باجه . كما غطت أشجار الزيتون أرض الوديان الواقعــة غرب القيروان بين صفاقس وتونس ؛ وكانت القــيروان ذاتها فى وسط هــذه الزراعات(١٣٠) . وصار التمر وقصب السكر من أهم حاصــلات الواحات باقليم الجريد فى الجنوب(١٣١) . وزرع الموز وقصب السكر فى قابس(١٣٢) . والقطن فى هدنة والمسيلة وجهات أخرى غيرهما (١٣٣) . والنيلة فى شنوب والزعفران فى قرطاجة والمدن الداخلية (١٣٤) .

وحفلت الصناعة بتقدم يفوق حتى ما حفلت به الزراعة فى ذلك الوقت ذاته ؛ واشتهرت مدن مثل قابس وصفاقس وسوسة والقيروان بما أنتجته من أنواع المنسوجات(١٣٥) . وامتازت قابس بانتاج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية المأخوذة من ديدان القز المتكاثرة فى المناطق المجاورة(١٣٦) . وفاقت أقمشة صفاقس من حيث الجودة أقمشة الاسكندرية التى كانت الأصل الذى أخذت عنه(١٣٧) . وكانت الأقمشة الحريرية تنسج فى القيروان وتجهز فى سوسة . وأرسل القماش الموشى بالذهب منها ، هدايا من حكام شمال افريقية الى متبوعيهم خلفاء الفاطميين فى القاهرة (١٣٨) . وصنع قرب قفصه نوع خاص من النسيج يسمى الكساء الطراقى ، كان يصــدر أيضا الى

مصر [١٣٩] ، هذا بالاضافة الى بضائع أخرى كثيرة أنتجتها البلاد ؛ ففى تونس صنعت أنواع فاخرة من الأوانى الخزفية [١٤٠] ؛ وكانت زويله وكبره وبجاية مراكز هامة لصناعة الزجاج [١٤١] . وصنعت الأوانى النحاسية فى جهات متعددة هناك [١٤٣] .

وغدت القيروان آهم مدينة تجارية بالاضافة الى عظم أهميتها من الناحية الصناعية . وقد وضعها المقدسى بين عواصم العالم الاسلامى مع برقة وقرناه وسجلماسة . وبلغت المكوس المحصلة على البضائع عند أبوابها ٢٦٠٠٠ درهم فى اليوم الواحد . وزادت أهمية تونس وصفاقس وسوسة وقابس كمراكز تجارية[١٤٤] . وصدرت صفاقس زيتها الى مصر وصقلية وأوربا ، والى جهات أخرى من شمال افريقية [١٤٥] . وتاجرت المهدية ، على نطاق واسع ، مع مصر وسورية[١٤٦] . أما طرابلس التى كانت على رأس احدى الطرق الهامة المؤدية الى السودان فكانت مركزا لتجارة الرقيق من الزنوج والأوربيين معا ، ومنها كانوا يرسلون الى أسواق الشرق الاسلامى[١٤٧] . وازدحمت برقة ببضائع الشرق والغرب[١٤٨] . وقصد بونة تجار من الأندلس[١٤٩] ، ونشطت حركة التجارة بين الأندلس وبين كل من وهران وتنيس [١٥٠] ، وزاد صيد المرجان فى أهمية كل من تنيس وسبته [١٥١] وصارت المنستير سوقا سنوية كبيرة ، يتوافد عليها الكثير من التجار الأجانب [١٥٢] .

ونشطت تجارة المغرب مع بلاد السودان فى الجنوب مثلما نشطت مع بلاد البحر المتوسط . ولم ينس الخليفة المعز عندما ترك شمال افريقية الى مصر ، ان يأمر نائبه هناك — أمير بنى زيرى — أن يستمر فى سياسة فرض الضرائب الباهظة وأن يقسو فى اجراءاته ليمنع رجال القبائل الداخلية من قطع طرق القوافل . والظاهر أن هذه التوصية نفذت فعلا ، بدليل مجىء

فيلة وزرافات عام ٩٩٢ من السودان هدية لأمراء بنى زيرى[١٥٣] . وخلال القرن العاشر خضعت سجلماسة ثانية ، كما خضع المغرب الأقصى ، لنفوذ أمويى الأندلس . غير أن طريقى القوافل اللذين كان يجىء عنهما ذهب السودان والنيجر ، ظلا فى قبضة حكام القيروان . وتدفق عليهم فيض منتظم من الذهب والعبيد ملأ خزائن التجار والأمراء بالمال الوفير .

وتعطينا بعض الأرقام فكرة واضحة عن مقدار ثروة هذه البلاد . فمثلا بلغت المكوس التى جمعت من سوسة والمهدية وصفاقس وتونس ثمانين ألف دينار فى السنة ، عدا رسوم المرور عبر تلك المدن [١٥٤] . وبلغ ما دخل خزانة حاكم بونة فى العام ، عشرين ألف دينار[١٥٥] . ويقال ان بعض « القباقيب » المستخدمة فى قصور بنى زيرى صنعت من الأخشاب النفيسة المستوردة من الهند ، وضمت أجزاؤها بعضها الى بعض بمسامير من ذهب[١٥٦] ، ومن هذا يتضح كيف أمكن للمعز أن ينفق — أوائل القرن الحادى عشر — مليون دينار على زواج أخته ومائة ألف دينار على جنازة أمه[١٥٧] .

وشاركت صقلية حين ذاك ، وربما قبل هذا التاريخ ، فيما تمتع به شمال افريقية من ثراء ورخاء . ويذكر المقدسى جزيرة صقلية بين أهم مراكز التجارة فى العالم الاسلامى[١٥٨] ، وكانت زراعتها مزدهرة وكذلك صناعتها . وانتشرت بالجزيرة زراعة القطن والزعفران والقنب . ونقل اليها فى ذلك الحين — فيما يحتمل — البرتقال والليمون وقصب السكر ودود القز[١٥٩] . واستخرجت أملاح النشادر بكميات وفيرة فى اقليم آيتنا وبعض جهات أخرى [١٦٠] . واستخرجت كميات من الفضة والحديد والرصاص والزئبق والكبريت والنفط وكانت توجد بكميات غير قليلة فى الجزيرة[١٦١] . ولم يهمل بها شأن النسيج فقد أنتجت بها أنواع رقيقة منه ، حتى ان بعض عباءات أبناء الخليفة المعز كانت ترسل من صقلية الى مصر[١٦٢] . وزادت أهمية نساجى الحرير

بصقلية ، ونشطت الحركة التجارية مع افريقية وكثرت رحلات التجار الى المهدية وسوسة اقليبية [١٦٣] واستورد زيت الزيتون من صفاقس وزادت أهمية التجارة مع جهات بعيدة مثل سورية ومصر[١٦٤]. وخصص حى بأكمله من مدينة پلرم للتجار فازدحم بالصيارف وحائكى الملابس وصانعى الأسلحة والجلود ، وبذا صارت پلرم المدينة الرئيسية بالجزيرة وواحـدة من المدن الاسلامية الهامة بحوض البحر المتوسط [١٦٥] .

وتمتعت بلاد الأندلس بذلك الرخاء ذاته ؛ وزادت ثروتها بعـد وفاة عبد الرحمن الثالث حتى لقد بلغ دخل الحكم الثانى ضعف دخل أبيه [١٦٦] . وظل ذهب السودان يتدفق عليها من سبته ، عبر المغرب الأقصى ، مما زاد فى ازدهار الحياة الاقتصادية بها على نحو ما حدث فى دولة بنى زيرى بشمال افريقية . وغدت تجارة الأندلس مع شواطىء أفريقية وشرق البحر المتوسط ، على جانب كبير من الأهمية . ومن الناحية الاقتصادية ، لم يتأثر الأندلس كثيرا بسبب الاضطرابات التى صاحبت سقوط خلافة قرطبة ، أوائل القرن الحادى عشر ؛ اذ ظل ملوك الطوائف على جانب كبير من الغنى والتمدن[١٦٧]. وتأثر المغرب الأقصى بحضارة الأندلس الى حد كبير . وحتى القرن الحادى عشر ، كانت مدينة فاس وبعض المـدن المغربية الأخرى متـأثرة بالأساليب المعمارية والنقدية السائدة فى تونس . ولكن فى القرن الحادى عشر صار الأندلس هو المثل الذى يحتذى [١٦٨] . ويشهد ما كان بقرطبة من خزائن الكتب ، ونشاط الحركة العقلية على يد العلماء الأندلسيين ، والشعر الرقيق الذى جرى على ألسنة السراة من العرب ، ببقاء هذا القطر الغنى على حاله من الرخاء ، رغم ما انتابه من الخلافات الداخلية المستمرة .

ومن وجهة النظر الاقتصادية يمكن القول أن تلك الفترة من تاريخ عالم البحر المتوسط الاسلامى ، فيما بين لشـبونة ودمشق ، كانت استمرارا

للفترة التى تقع بين عامى ٨٢٧ ، ٩٦٠ بل شاهدت توسعا استكمالا لتطورات ترجع مبادؤها للفترة السابقة . وعلى الرغم من الضعف الذى انتاب بحرية العالم الاسلامى ، والانتعاش الذى طرأ على بحرية بيزنطة وبعض مدن غرب أوربا ، والانقسام السياسى الذى حل بالأندلس وشمال افريقية ؛ فان هذا الجزء من البحر المتوسط تمتع برخاء لم يعهده حتى فى العهد الرومانى . وبصرف النظر عن الغيوم الكثيفة التى تجمعت فى أفق العالم الاسلامى وقتذاك ، فان حركة التصنيع المتزايدة فى شمال افريقية وصقلية والأندلس ، والتوسع فى زراعة الحاصلات الشرقية ، وازدياد حركة التجارة وشيوع استخدام الدينار الذهبى ، كل ذلك جعل تلك المرحلة عصرا ذهبيا للاسلام هناك ، الأمر الذى جعل نفس ابن خلدون تهفو اليه عند أفول القرن الرابع عشر .

وشاركت الامبراطورية البيزنطية العالم الاسلامى فى رخائه فى هذا العصر مشاركة أكبر مما كان لها من قبل . ولا شك أن بعض هذا يرجع الى توسعها فى الجنوب والشرق على حساب الاسلام . ففى ذلك الحين وقعت جزيرتا كريت وقبرص فى قبضة بيزنطة وبهذا عادت بيزنطة الى الموقف الذى يتيح لها الأخذ بنصيب أوفر من أرباح الطريق الدائرية للتجارة العالمية بين سورية ومصر وبين الغرب ؛ وهى الطريق التى كانت تمر بهاتين الجزيرتين . وقليل من السفن التجارية استطاعت أن تبحر من شرق البحر المتوسط الى غربه دون أن تدفع أية ضرائب للقسطنطينية . ولم تكن لتستطيع ذلك الا باستعمال الطريق الخطرة المحاذية لشواطىء شمال افريقية . يضاف الى هذا أن توسع القسطنطينية فى شمال سورية واستيلاءها على مدينة انطاكية وسيطرتها على حلب زاد فى امتيازاتها التجارية ؛ ودعم هذه الامتيازات ما كان لبيزنطة من سلطان على شمال العراق . وللمرة الأولى — منذ القرن السابع — وقع فى يدها أفضل طرق التجارة ، من العراق والخليج الفارسى

الى البحر المتوسط . ومع أن معظم تجارة الشرق الذاهبة الى البحر المتوسط جاءت عن طريق عدن والبحر الأحمر ، وهو الطريق الواقع تحت سلطان الفاطميين ، الا أن طرق التجارة الساسانية القديمة ظلت محتفظة بأهميتها . ويدل على أهمية تجارة هذا الطريق ، المعاهدة التجارية التى عقدت أواخر القرن العاشر بين القسطنطينية وبين حكام المسلمين فى حلب . ومن شروط هذه المعاهدة أن يكون للموظفين البيزنطيين فى المدينة حق تحصيل ضريبة مقدارها ١٠٪ على كل الوارد من الحرير الخام والمخمل والأحجار الكريمة والحلى النفيسة ، على حين يحصل الحكام المحليون ضرائب على الملابس والكتان والماشية وسائر البضائع المستوردة من بلاد الامبراطورية البيزنطية[١٦٩] .

وهكذا غدت مدينة حلب أحد المنافذ الرئيسية لتجارة بيزنطة مع العالم العربى فى الشرق . وبلغ من أهميتها أن استثناها الامبراطور باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجار مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، وقت اضطهادات الخليفة الحاكم للمسيحيين عام ١٠١٥[١٧٠] . والغالب فيما يبدو ، أن تكون حلب قد أصبحت بدرجة كبيرة أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طربيزون . ولا شك أن الطريق الى حلب وأنطاكية كان أسهل كثيرا من الطريق المار فى جبال أرمينية الى البحر الأسود . ويؤيد صدق ماذكرناه عن التغيير الذى حدث فى نهاية طريق التجارة ، أن تتدبر أمر أرمينية عندما كانت الواسطة الكبرى بين العراق والقسطنطينية وما جنته بذلك من الثراء والقوة . ولكن بسط بيزنطة نفوذها فى شمال سورية أفقد ارمينية أهميتها السياسية والاقتصادية ثم اكتسحتها بيزنطة وضمتها الى امبراطوريتها فى القرن الحادى عشر[١٧١] . ويبدو أن الأرمينيين أنفسهم انتقلوا جنوبا بانتقال الطرق التجارية الى الجنوب ؛ وبحلول نهاية القرن الحادى عشر كانوا

قد استوطنوا مدن جنوب الأناضول وشمال العراق بين الرها وأطنة ، وعرف هذا الاقليم زمن الحروب الصليبية باسم ارمينية الصغرى[١٧٢] . ومن علامات الثروة التى جلبها هذا الطريق ما نجده فى قبرص وقنداك . فهذه الجزيرة بعد أن فقدت أهميتها ومعظم سكانها ، ابتداء من أيام چستنيان الثانى ، أخذت تزدهر وتصبح سريعا مركزا تجاريا غنيا عامرا بالمدن الجديدة وموطنا لطائفة من التجار ذوى النفوذ[١٧٣] .

وربما كانت القسطنطينية قد بلغت اذ ذاك أعلى درجات الرخاء الذى عرفته منذ أيام چستنيان . ويرى شلمبرجر أن هذه المرحلة هى مرحلة الأوج الذى بلغته بيزنطة . وشهادة ليدبراند الكريمونى Liudprand of Cremon عن رفاهية القصور الامبراطورية وغناها ، وعن اتساع مدينة القرن الذهبى وثروتها ، تكفى لاقناعنا بهذه الحقيقة[١٧٤] . والكنوز الجليلة التى خلفها باسيل الثانى لخلفائه التافهين — رغم حروبه الكثيرة — لا تقل فى ضخامتها عن ثروة الفاطميين فى مصر والزيريين فى شمال افريقية . ومن جهة أخرى فان نهضة الفن البيزنطى ، وظهور المفكرين من أمثال بسلوس (Psellus) ومادة البحوث البيزنطية وخصائصها تشهد بقوة حضـارة القسطنطينية الأرثوذكسية وعظمتها فى ذلك الحين[١٧٥] .

ومن الخصائص الكبرى الملحوظة فى حياة بيزنطة الاقتصادية سلبيتها الواضحة فى مجال التجارة الأجنبية ، وأصبحت هذه السلبية فى الحقبة التى ندرسها هنا أوضح مما كانت . ولا شك أن اشراف الحكومة القديم على التجارة الخارجية استمر قويا فى القرن العاشر . وفى بعض الأحيان حاول حكام بيزنطة — كما حدث عام ٩٧١ — منع ارسال السفن المحملة بالخشب والحديد والسلاح الى أعدائهم المسلمين . وفيما بين عامى ١٠١٥ و ١٠٢٧ نفذت الدولة منع الاتجار مع الفاطميين[١٧٦] . ومع ذلك فلم ينقطع الاتجار

مع العالم مدة طويلة ، وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى سورية ومصر ؛ ولكن أغلب التبادل التجـارى كان يتم على يد التجـار المسلمين . فهم الذين كانوا ينقلون متاجرهم الى القسطنطينية وهم الذين كانوا يحملون منها المنتجات التى تستطيع تصديرها ، أى انهم يفعلون كما كانوا يفعلون فى الماضى . والواقع أن سفن القسطنطينية التجارية لم تنقل فى القرن الحادى عشر ، سوى نسبة ضئيلة جدا من تجارتها الأجنبية الى بلاد العالم الاسلامى .

وكانت هذه الحقيقة أكثر انطباقا على تجارة الامبراطورية مع الغرب اللاتينى . فمن المعروف أن البندقية عادت الى حظيرة بيزنطة بعد فترة قصيرة انضمت خلالها الى أسرة اتو بين عامى ٩٧٨ و ٩٨٣ . وفى عام ٩٩٢ ظفرت البندقية بامتيـازات جمركية فى القسطنطينية كانت على جانب كبير من الأهمية ، جعلتها التاجر المفضل لدى مدينة القرن الذهبى[١٧٧] . وصارت البندقية ، زمن ليدبراند Liudprand تتهرب من القيود المفروضة على شحن الحرير الممنوع تصديره ، وذلك بالتواطؤ مع موظفى الجمـارك [١٧٨] . وأصبح موقفها التجارى هناك ، وبعد عام ٩٩٢ مما لا يمكن زعزعته أو مهاجمته . ولم تعد تطبق على البنادقة ومواطنيهم الايطاليين من أهل أمالفى ، تلك القيود القديمة التى كانت تفرض على التجار الأجانب وتحـدد مدة اقامتهم فى المدينة . وحول منتصف القرن الحادى عشر أقام التجار من كلتا المدينتين بصفة دائمة فى احياء خاصة بهم داخل القسطنطينية . ووصل البنادقة والتجار الايطاليون عامة الى ما يمكن اعتباره احتكارا لجميع تجارة الغرب مع بيزنطة[١٧٩] . ويبدو أنهم استطاعوا الوصول الى وضع مماثل فى مدينة انطاكية البيزنطية وقتذاك ، وهى المدينة التى نشط فيها التجار من أهـل أمالفى بصفة خاصة [١٨٠] . وهكذا نراهم قد نجحوا اذ ذاك فى حمل نفائس

المنتجات الشرقية من الشواطىء السورية الى أسواق الغرب مباشرة دون أن يمروا بالقسطنطينية .

ولا شك أن احياء قوة بيزنطة برا وبحرا فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط بعد عام ٩٦٠ ، أفاد التجار الايطاليين الى حد كبير . اذ استطاعوا فى ظل السيادة البيزنطية عليهم ، وبفضل نشاط أسطول القسطنطينية ، الوصول الى كل من القسطنطينية وانطاكية دون أن تزعجهم أساطيل الغزو الاسلامى وقتذاك . كما كان فى مقدورهم أيضا الوصول الى سورية ومصر دون أن تضايقهم الغارات أو الحصار التجارى الذى فرضته بيزنطة والذى تعرض له التجار المسلمون وحدهم . والواقع أن التجار الايطاليين كانوا — من وجهة النظر الاقتصادية — أكبر المستفيدين من انتصارات نقفور فوكاس وحنا چيمسكى وباسيل الثانى . وكان من حسن حظهم أنهم أفادوا من الحماية البحرية البيزنطية دون أن يكونوا مسئولين عن شىء ما ، اللهم الا عندما تضيق بيزنطة ذرعا فتطلب اليهم — كما حدث عام ٩٧١ — أن يكفوا عن امداد الموانى الاسلامية بالمواد التى تستخدم ضد القسطنطينية . وكان موقفهم فى هذا مثل موقف مستعمرة نيوانجلند ، من حيث الافادة تماما من حماية الامبراطورية البريطانية مع تحمل القليل من الأعباء .

وثمة طائفة ثالثة من طوائف المستفيدين من التجارة الهامة مع بيزنطة فى تلك الأيام ، وهؤلاء هم الروس الفارنجيون . فعلى الرغم من أن اعتداءاتهم على القرم وبعض جهات أخرى من الامبراطورية ، الأمر الذى دفع حنا چيمسكى وباسيل الثانى لمقاومتهم بقوة السلاح فى أوقات متعددة ؛ الا أنهم قاموا رغم هذا بتجارة نشيطة مع القسطنطينية . ولم تعد لمدينة خرسون فى تلك الأثناء أهميتها القديمة ؛ وتعرضت الخزر لهجمات الروس والقبائل

الرحل . ونجم عن هذا وقوع معظم تجارة البحر الأسود فى قبضة الروس . وعظمت أهمية روسيا وقوى مركزها من الناحية الاقتصادية — أواخر القرن العاشر وبداية الحادى عشر — بفضل تجارتها التى جرت مع القسطنطينية طبقا لنصوص المعاهدات التجارية التى عقـدت بين الطرفين أوائل القرن العاشر ، وبفضل ما أمـدوا به قوات بيزنطة الحربية من خـيرة الجنود المرتزقة . وهكذا أمسى طريق التجارة الفارنجية الواصل بين البحر الأسود وبين البحر البلطى ، والمار بمدينة كييف وبعض المدن الأخرى ، أداة ربط هامة بين غرب أوربا وبين بضائع الشرق . وكانت الروسيا ، زمن فلاديمير قد اعتنقت مذهب الكنيسة اليونانية وتقبلت الثقافة البيزنطية ، وكانت تجارة كييف مع مدينـة القياصرة الذهبية Golden Tsargrad أى القسطنطينية تتركز فى الرقيق والفراء ، وربما كان يؤول أكثر هذين الصنفين الى التجار العـرب الموجودين بالقسطنطينية . وفى مقابل ذلك كان الروس يقتنون المنسوجات والتوابل وبضائع الشرق الأخرى ، ويعودون بهذه البضائع الى كييف وما بعدها . ومما يؤيد أهمية التجارة فى ذلك الحين ، ما تمتعت به مدينة كييف ، عاصمة فلاديمير من ثروة وما سكته من عملات ذهبية[١٨١] .

واذن فقد شاركت بيزنطة فى الثراء العريض الذى تمتع به عالم البحر المتوسط الاسلامى ، بل ومدته الى روسيا عن طريق الاتجار معها . على أنه من الجائز أن تكون سلبية بيزنطة الاقتصادية قد أخذت تعرض استمرار هذا الرخاء للخطر بصورة جدية ، حول منتصف القرن الحادى عشر . ولعل السيطرة التى اكتسبها التجار الايطاليون شيئا فشيئا على تجارة بيزنطة فى البحر المتوسط ، قد غيرت طبيعة علاقات بيزنطة الاقتصادية مع غرب أوربا . ومما يثبت تحول الميزان التجارى فى غير صالحها ، وجود عملتها الذهبية بكثرة فى بلاد الغرب ، وهذا معناه تدهور أرباحها من الاتجار مع هـذه

البلاد[١٨٢] . ومما كانت له دلالته بقاء التجارة مع الروس والمسلمين مصدر ربح كبير للبيزنطيين .

ثم ان ازدياد احتكار الايطاليين للتجارة زاد فى نفس الوقت من خطورة قوة ملاك الأراضى من الارستقراطية المحاربة فانهم ، بسبب ذلك الاحتكار ، استثمروا أموالهم ونشاطهم فى الزراعة أكثر مما استثمروه فى التجارة . وقد شجع حنا چيمسكى ونقفور فوكاس ، وهما من هذه الطبقة ، هذا الاتجاه وعكسا بذلك اتجاهات أخرى سابقة . وقد حاول باسيل الثانى على أثر ثورتين خطيرتين أن يجزىء الضياع الكبيرة ويحمى الفلاحين الأحرار ولكنه لم يصب الا نجاحا قليلا[١٨٣] . وبات الوضع على جانب كبير من الخطورة عام ١٠٤٣ ؛ اذ انتقلت التجارة الى أيدى الأجانب وتركزت القوة المسلحة فى أيدى الطبقة الارستقراطية التى لا يمكن الاطمئنان اليها ولا الاستغناء عنها . وأشرفت بيزنطة ، رغم ما بدت فيه من ثراء وقوة ، على الكارثة التى ستنزل بها عما قريب فى واقعة ملاذكرد .

أما عن بلاد الغرب اللاتينى ؛ فان التغييرات الاقتصادية التى حدثت هناك فى ذلك الحين كانت أكثر دلالة وأبعد أثرا . ولمست بلاد غرب أوربا ، عن طريق المراكز التجارية القديمة بايطاليا ، أمثال البندقية وپارى على الساحل الشرقى وأمالفى وجايتا وسلرنو ونابلى على البحر التيرانى ، آثار الرخاء الاقتصادى الذى ساد بقية عالم البحرين المتوسط والأسود . وعلى هذا فالسلسلة موصولة بين هذه الحقبة وبين القرنين الثامن والتاسع وأوائل القرن العاشر . وكان للبندقية مقامها الخاص بين مراكز التجارة الغربية . وهى خليقة باهتمام خاص أيضا . ومنذ أواخر القرن العاشر بدأت تحظى ، فى ظل دوقات أسرة ارسيولى ، بسلطان اقتصادى ورخاء وفير ، فاق ما عرفته قبل هذا التاريخ .

وتتركز الدعامة الأولى فى ثروة البندقية ، فى علاقاتها التجـارية مع الامبراطورية البيزنطية وهى علاقات قديمة الا أنها تضاعفت منذ عام ٩٩٢ ، بفضل ما منحه باسيل الثانى للبنادقة من تخفيضات فى الرسوم الجمركية بمدينة القرن الذهبى ، أكسبتهم مركزا تجاريا ممتازا لم ينله أحد من التجار الغربيين الآخرين ، الذين كانوا يتعاملون مع الامبراطورية . ولكن هذه الامتيازات لم تزد دون مقابل ؛ فان البندقية تعهدت من جانبها ألا تسرى الامتيازات الجمـركية المخفضة الممنوحة لها على بضائع أمالفى وپارى والبضائع اليهودية المنقولة على سفنها . كما تعهدت أن تضع سفنها التجارية تحت تصرف القسـطنطينية ، اذا ما احتاجت الامبراطورية الى ارسـال عساكرها الى ايطاليا . واستمرت البندقية تنقل على سفنها المبعوثين والرسائل الدبلوماسية أو الرسـمية فيما بين البحر الادرياتى وبيزنطة [١٨٤] . وان ما كان يرتكبه البنادقة من تهريب المنسـوجات الحريرية . على الرغم من تحريم تصديرها ، يدلنا على أنهم لم يترفعوا عن اساءة استعمال المركز الممتاز الذى كان لهم . وكان هذا التهريب يحدث حتى فى أيام ليدبراند (أى منذ وصفه للقسطنطينية فى القرن العاشر) .

وحول أواخر القرن العاشر أخذت البندقية تتمتع بمركز ممتاز فى البحر الادرياتى وشمال ايطاليا ولكنه لم يعادل مركزها الممتاز فى الشرق البيزنطى . ولم يأت عام ألف ميلادية حتى دانت لطاعتها جميع مدن ساحل دلماشـيا وقدمت لها الاتاوات المفروضة [١٨٥] . وظفرت البندقية أيضا بامتيازات كثيرة فى شمال ايطاليا ؛ ويرجع معظم هذه الامتيازات الى أيام شرلمان ولوثير . أما أتو الثانى فانه بسبب رغبته فى فرض سيطرته على هذه المدينة الغنية، ألغى كثيرا من حقوقها التجارية فى وادى نهر الپو ؛ وفرض عليها عدة قيود اقتصادية ليجبرها على الاذعان له . ولكن بحلول عام ٩٨٣ ، أدرك أن محاولته لن يمكن تحقيقها فاضطر كارها لتجديد امتيازات البنادقة

بشرط أداء بعض الأموال الى الخزانة الامبراطورية [١٨٦] . وفى عام ٩٩٦ ، غير أتو الثالث السياسة التى اتبعها أبوه ، وتقرب الى المدينة بمنحها امتيازات تجارية جديدة فى مملكته . ولم يكتف بأن يرغم أسقف بلونو ، وكان عدوا للبندقية يتحكم فى أحراش قيمة تنتج الخشب ، على عقد صلح معها ، طيب الشروط بالنسبة لها . بل ألغى ما كان مقررا على المدينة أداؤه من الأقمشة الموشاة بالذهب ، وأكد حقوق البنادقة فى صيد البر والبحر فى لمبارديا ، وأعاد اليهم الممتلكات التى صادرها أبوه من قبل فى ذلك الاقليم ، وأعفاهم من الخضوع للقوانين المحلية فى أملاكه الايطالية (أى أنهم لا يخضعون الا لشرائعهم) . ونتج عن هذا كله احتكار البنادقة لتجارة الشرق فى شمال ايطاليا [١٨٧] .

على أنه من المهم أن نلاحظ أن هذه الحقوق لم تمتد الى ما وراء الألب، وأن بضائع البندقية لم تعرض للبيع الا فى باڤيا وفرارة وعدة مراكز أخرى هناك فقط . ونرى على سبيل المثال أن هنرى الثانى ، عندما جدد حقوق البنادقة فى ايطاليا أوائل القرن الحادى عشر ، حرم فى الوقت ذاته على تجارهم بيع بضائعهم فى أى مكان آخر من بلاده سوى باڤيا ومركزين آخرين معها [١٨٨] . ومع ذلك فان التجار الألمان الذين كانوا يحملون هذه البضائع عبر الألب الى ألمانيا ، كانوا فى مأمن من منافسة البنادقة وقتذاك . ومع وجود هذه القيود ، فان تجارة البندقية بلغت درجة عظمى من الأهمية فى شمال ايطاليا ، حيث لم يكن لها منافس هناك . وبلغ من ضخامة ما تدره تلك التجارة من أرباح وقتذاك ، أن انخرط فى سلك التجار ، عدد من أسر النبلاء القدامى أصحاب الاقطاعات ، واندمجوا تماما فى حياة المدينة الاقتصادية [١٨٩] .

على أن امتيازات البندقية التجارية فى القسطنطينية وعلى شواطىء الأدرياتى ، لا تحدد كل ما وسعه نطاق صلاتها التجارية . فالواقع أنه كانت

لها ، فى ذلك الحين ، صلات تجارية واسعة مع جميع المراكز الاسلامية الهامة فى البحر المتوسط . فنرى مثلا ان الدوق بطرس الثانى ، الذى كان على يده بناء عظمة البندقية أواخر القرن العاشر ، يرسل مبعوثيه الى جميع الأمراء العرب فى حوض البحر المتوسط . وتاجرت البندقية مع مسلمى صقلية وشمال افريقية ومصر وسورية(١٩٠) . وبلغت تجارتها مع الموانى الاســلامية فى الخشب والحديد والسلاح مبلغا جعل حنا جيمسكى عام ٩٧١ ، يرى من الضرورى وجوب اتخاذ اجراء تجاه ذلك ، فأصــدر أمره بوقف هــذه التجارة . وحول ذلك الوقت صار لتجارة الرقيق شأن هام فى صــادرات البندقية . وقد أثارت هذه التجارة احتجاجات دورية من جانب بعض الملوك أمثال أتو الأول كما أن الأدواق سنوا لمنعها قواعد لم يظهر لها أثر (١٩١) .

وكانت أمالفى على الساحل الغربى لايطاليا ، المنافس الأول لتجــارة البندقية فى بيزنطة وبلاد العالم الاسلامى ؛ على حين أقدمت ســفن بارى التجارية على الابحار الى مدينة القسطنطينية(١٩٢) . وقد أقام التجار من أهل أمالفى فى حى خاص بهم فى مدينة القــرن الذهبى ؛ وهربوا المنسوجات الحريرية المحظور اخراجها من العاصمة البيزنطية(١٩٣) . وسارت ســفنهم الكبيرة حتى انطاكية ، حيث نشطت تجارتهم بوجه خاص ؛ وتوثقت علاقاتهم التجارية مع الفاطميين فى مصر وافريقية وأعطيت لهم امتيازات خاصة وكانت لهم كنيسة فى بيت المقدس(١٩٤) .

أما مدن اقليم كمپانيا الأخرى مثل ناپلى وچايتا وسلرنو ، فانها عادلت المدن السابقة فى نشاطها التجارى وفى ثروتها . ويبدو أن تجارتها اقتصرت على صقلية وبلاد العالم الاسلامى الغربى ، ولم تمتد الى بيزنطة وسورية ومصر مثلما امتدت تجارة البندقية وأمالفى . وقد لاحظ ابن حوقل ، أواخر القرن العاشر ، ان منسوجات ناپلى كانت تباع فى پلرم (١٩٥) . وقد سكّنت

نقود عربية فى سلرنو فى القرن الحادى عشر[١٩٦] . وصارت صقلية واسبانيا وشمال افريقية — بفضل تقدمها الصناعى واستيرادها لتوابل الشرق على نطاق واسع — مركزا لتصدير المواد الكمالية ، لا يقل شأنا عن القسطنطينية والقاهرة والاسكندرية . واذن فقد استطاعت مدن كمپانيا الحصول على جميع السلع التى تستطيع تصرفها تصريفا مربحا . ولتوضيح العلاقات الوثيقة بين هذه المدن والموانىء الاسلامية ، نذكر أن هـذه المدن لم تتعرض لغارات المسلمين فى المدة بين ٩٦٥ و ١٠٢٥ ؛ أى فى المدة التى افتقد فيها الغرب سلطان بيزنطة البحرى على مياهه . على حين تركزت غارات المسلمين على الأقاليم التابعة لبيزنطة فى قلورية واپوليا وسواحل تسكانيا وليجوريا .

والخلاصة أن تجارة جنوب ايطاليا ووادى نهر پو ، ازدادت فى ذلك الحين مع موانى العالمين الاسلامى والبيزنطى . وهذا يدل على استمرار التقدم الذى سبق أن لاحظناه . ووجه الأهمية فى هذا لم يكن نشاط التجارة فى تلك البلاد ، ولكنه كان فى ازديادها فى آخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، مع ازدياد نصيب البنـدقية واما لفى فيها بحكم علاقاتها التجارية بالشرق . ويمكن القول أن معظم ايطاليا أسهم كبقية أقاليم البحر المتوسط فى الرخاء الذى ساد ذلك العصر .

والأقاليم الايطالية التى وصفنا حتى الآن ، كانت الأقاليم التى أخذت منذ القرن الثامن تزيد نصيبها من التجارة الدولية فى البحر المتوسط . وهى على وجه التدقيق البلاد التى كانت لها صلات ببيزنطة ؛ ولكنها فى الوقت نفسه كانت على قدر من البعد عن بيزنطة ورقابتها مكنها من أن تتاجر مع المسلمين تجارة حرة . بيد أنه كان هناك فى نفس الوقت تطور آخر مباين لما تقدم ، ألا وهو نهوض جنوه وبيزا بحريا . وقد صحب ذلك ، نهوض بحرى شامل للساحل الكارولنجى القديم بين نهرى الابرو والتيبر .

ولم يكن لهذا النشاط البحرى الجديد صلة بانتصارات بيزنطة البحرية أو بعلاقات تجارية مع العالم الاسـلامى . وانما هو تطور جـديد متعلق بالتغيرات الداخلية التى حدثت فى مجتمع أوربا الغربية [١٩٧] . ومتعلق كذلك بما أصاب المسلمين فى الغرب من انحلال . ويجوز لنا أن نحدد بداية هذا التطور من توسع أسرة اتو فيما وراء الألب عام ٩٦٢ ، أو من ابعاد الغزاة المسلمين عن فركسينت عام ٩٧٢ . والواقع أن بين هذين الحادثين من الاتصال أكثر مما يبدو من النظرة الأولى اليهما . ذلك أن اتو الأول أرسل عام ٩٥٣ سفارة الى عبد الرحمن الثالث يطلب منه الانسحاب من هذه القاعدة [١٩٨] ؛ ثم أعد فعلا خطة حملة عسكرية ضدها فى عام ٩٦٨ [١٩٩] .

وبصرف النظر عن نشأة هذا التطور (أى نهوض جنوه وبيزا والساحل) فانه لم يأت العام الألف بعد الميلاد ، الا وكان قد تحددت معالمه واتخـذ سبيله . وظهر من أول أمره أن صفته البـارزة كانت عسكرية أكثر منها اقتصادية ؛ فكان مظهرا لجهد مشترك من جانب الاشراف وغـيرهم لطرد المسلمين من المراكز التى كانت فى أيديهم فى البر والبحر . ولم يتعد الجانب الاقتصادى من هذه الحركة ، الرغبة فى الحصول على الغنائم . ويضاف الى عنصرى الحرب والنهب ، عنصر ثالث دينى ، لم يكن موجودا فى معظم الاشتباكات السابقة التى حدثت مع العالم الاسلامى حتى القرن الحادى عشر . لكن تحديد الزمان والمكان اللذين دخل فيهما هذا العنصر الدينى ضمن الاطار العام للموضوع ، أمر يصعب البت فيه . وربما كان أثرا سياسيا دنيويا للاصلاح الدينى الكلونى ؛ وربما كان رد فعل لنهب المنصور بن أبى عامر لمشهد القديس يعقوب فى كمبوستلا وتدمير الخليفة الحاكم لكنيسة القيامة ببيت المقدس . وقد أذاع خبر هذين الحادثين فى غرب أوربا ، الحجاج

الذين كانوا يتقاطرون على هذين المزارين فى تلك الأيام . ومن العسير تقدير قيمة هذا العامل الدينى . الا أنه كان موجودا ولا شك (٢٠٠) .

وقد شاركت طوائف كثيرة فى غرب أوربا فى هذا الهجوم . من هؤلاء النورمان ، وهم فى سلرنو بجنوب ايطاليا منذ عام ١٠١٦ م . وكانوا يعملون جنودا مرتزقة فى جيش چورچ منياس عندما غزا صقلية عام ١٠٣٨ ؛ والذين ألفوا أعمـال النهب والسلب فى مؤخرة جيشه باقليم أپوليا . ومنهم أيضا القراصنة النورمان والفرنسيون الذين حاربوا مع أمير برشلونه عام ١٠١٨ ضد مجاهد(٢٠١) . ومنهم أيضا أهل بيزا وچنوه الذين دفعوا هذا الأمير ذاته عن شواطىء ايطاليا عام ١٠١٥ . وعن سردينية عام ١٠١٦ . وكان هذا كله جزءا من الاتساع الأوربى الغربى جنوبا نحو البحر المتوسط ، ذلك الاتساع الذى سيبلغ ذروته فى الحروب الصليبية .

والفرص كانت كثيرة جدا أمام هؤلاء القراصنة المغامرين فى البر والبحر بغـرب أوربا ، أوائل القرن الحادى عشر . ففى الأندلس مثـلا ، نتج عن القلاقل السائدة ، وتخلى الارستقراطية العربية عن القيام بعبء القتال ، أن وقع قسط كبير من مهمة الدفاع عن البلاد على كاهل الجنود المرتزقة من المسيحيين ، سواء أكانوا من أصـل اسبانى أم من شمال أوربا . وشـاع استخدام هؤلاء الجنود فى جيوش ملوك الطوائف والملوك المسيحيين على السواء . وفى زمن المنصور بن أبى عامر ، أصـبح المرتزقة عصب الجيش الأموى(٢٠٢) . ثم صاروا من بعده مصدر رعب للناس فى اشبيلية وغرناطة وباجة وبلنسية وغيرها . وما كان « السـيد The Cid » الا مغامرا متأخرا من هؤلاء ولكنه أصاب قدرا عظيما من النجاح . وما كان يفترق عن أحد من نظرائه فى قسوته أو شراهته أو شراسته بل كان هو وهم فى ذلك سواء . ولم يكن هناك من فارق بين السيد هذا والملوك الأسبانيين المسيحيين سوى

أنهم كانوا حكاما شرعيين ، وان كانــوا لا يختلفون جميعا فى الأســاليب والأهداف والمصالح (٢٠٣) .

وكان أهل جنوه وأهل بيزا ، كثيرى الشبه بنظرائهم ، المغامرين البريين فى اسبانيا والنورمان بجنوب ايطاليا . وهؤلاء جميعا أكسبهم كفاحهــم البحرى ضد الأمير مجاهد ولوعا بالحصول على الغنائم . وفى عام ١٠٣٤ اتجهوا بعد نهب بونه ، الى عمليات قرصنة واســعة النطاق . وقد أتاحت القرصنة فى البحر وما يماثلها فى البر فى جنوب ايطاليا واسپانيا ، الفرصة للمغامرين الذين نظموا عصاباتهم وقل اعتدادهم بالمثل الأخــلاقية ، أن يحصلوا على غنائم كثيرة وذهب وفير .

وقد ظهرت مبكرا ، أو منذ ١٠٤٣ على وجه التحديد ، نتائج اقتصادية هامة لهذا التوسع فى البر والبحر صوب الجنوب ، بالنسبة لهذا القسم من غرب أوربا . وأهم هذه النتائج ان تجمعت فيها رءوس أموال من الذهب ، بعد أن كانت حتى ذلك الوقت ، قليلة نسبيا فى أقاليم اعتمدت على الزراعة اعتمــادا كبيرا ، وجــرت فى تعاملهــا على قاعــدة الفضــة التى ســنها الكارولنجيون(٢٠٤) . وقد عنى الباحثون بدراســة هــذا التطور بصــفة خاصة (٢٠٥) . على أنه يمكن القول عامة أن تطورا مماثلا كان يجرى فى جميع المدن الساحلية بين برشلونة وبيزا . فكان الذهب الذى غنموه من مسلمى الأندلس فى الغزو البحرى ، أو نهبوه من الأراضى الخصبة التابعة لبيزنطة ، أو من الأقاليم الايطالية فى جنوب شبه الجزيرة ، يعود الى مصادره فى بعض أقاليم غرب أوربا ، التى كان يسودها حتى ذلك الوقت قدر كبير من الركود الاقتصادى . وهذا الذهب الذى جاء أصلا عن غربى أوربا كان جزءا كبيرا من رأس المال الذى استخدمه الأغالبة فى جعل شمالى افريقية اقليما جم

الثراء والرخاء فى أواخر القرن التاسع . وعلى هـذا النحو أيضا ، جمع الانجليز فى عصر اليصابات ، وسكان ولايات نيو انجلنـد فى عصر الثورة الأمريكية أكثر الذهب والفضة اللذين اسـتخدموهما فى توسـيع نطاق تجارتهم البحرية . ونرى انه من الخطأ أن ننظر الى هذا التطور فى جنوه ومثيلاتها على أنه مجرد رد فعل لقرصنة المسلمين أو للحصار الاسلامى الذى فرضوه . ويصح أنه بدأ كذلك ولكنه مالبث أن تحول الى طريقة لجمع الثروة . وعلى هذه الثروة اعتمد النمو الاقتصادى فيما بعد . أى أن ذهب القرصان ، هو الذى بنى جنوه وبيزا كما بنى پلرم والمهـدية وبليموث وبريستول وسالم ومئات أخرى من المدن .

وسرعان ما صار لهـذا التطور أثره على حركة التجـارة الداخلية والخارجية ؛ اذ بدأت تتحول القرصنة تدريجيا الى تجارة على السواحل الغربية بعد أن تخلصت الى حد ما من قرصنة المسلمين التى تعرضت لها قرونا طويلة ، وبعد ما توافر لها رأس مال كبير من الذهب . وظهرت حول عام ١٠٤٣ م بشائر حركات اقتصادية على طول الطريق الذى يبدأ من مدخل حوض الرون الى غرب أوربا وعلى الأخص فى مونبلييه ومرسيليا ؛ وكانت هذه الحركات بادية الوضوح على الرغم من ضآلتها[٢٠٦] . وهكذا بدأت البضائع تسلك هذا الطريق القديم من جديد .

وينطبق هذا القول تماما على طرق التجارة الأخرى الموصلة بين البحر المتوسط وقلب أوربا الغربية . وقد صار فى ميسور البضائع أن تسلك الكثير من الطرق عبر وادى البو الى ألمانيا ، وفرنسا بعدما خرج المسلمون من فراكسينت وممرات الألب ، وبعد ما انطرد المجر صوب الشرق ، وبدأت حياة جديدة تدب فى ممر برنر ، وكان الممر الذى يفضله أباطرة ألمانيا للمسير جنوبا الى ايطاليا . وفى مطلع القرن الحادى عشر انتقل عبر هذا الممر ، مزيد

من البضائع الايطالية الى الشمال ، ومزيد من البضائع الألمانية الى الجنوب.
وذكر تيتمار المرسبرجى Thietmar of Merseburg فى حولياته عـام ١٠١٧
خبر غرق أربع من سفن البندقية السريعة ، كانت تحمل توابل ؛ ويدل هذا
على الصـلة الوثيقة التى ربطت هـذه المنطقة بباقى ايطاليـا [٢٠٧] . وفى
عام ١٠٢٨ م أدرك كونراد الثـانى أهميـة هذا الطريق ، فرأى أن يمنح
حق جباية رسوم المرور عند سابن Saben لأسقف بركسن Brixen [٢٠٨] .
وكان الرقيق ينقلون من براغ ، وكذا كميات كبيرة من المعادن من شرق
ألمانيا الى الجنوب ، عبر ممرات برنر وپونتبه وپلوكن Bernner, Pontebba,
Plocken [٢٠٩] كما ازدادت التجارة بين ايطاليا . وفرنسا أيضا بفضل فتح
ممرات الألب . ولم يقف الأمر عند وقوع مملكة برجنديا فى أيدى الأمراء
الألمان ، بل ان كونراد الثانى أعفى تجار آستى (Asti) عام ١٠٣٧ م من
جميع الرسوم المقررة داخل امبراطوريته[٢١٠] .

وهناك دلائل أخرى على ازدياد حركة التجارة فى ممرات الألب وقتذاك.
فتدفق العملة الذهبية البيزنطية على ألمانيا[٢١١] ، وحياة الترف التى سادت
البلاط زمن أسرة أتو ، وتأثر العمارة الجرمانية الرومانسكية بالأساليب
الفنية البيزنطية ؛ كل ذلك يشير الى صلات وثيقة مع الشرق مكنت من ازدياد
التجارة فى المسالك التجارية بين ألمانيا وسهل لمبارديا والساحل الادرياتى .
وان سعى الأباطرة من أسرة اتو للاستقرار فى ايطاليا ليدل — فيما هو
محتمل — على ازدياد اهتمامهم بمصادر هذه الثروة التجارية . ولم تكن
الرغبة المطلقة فى السيطرة على الكنيسة — مع الاعتراف بأهمية الكنيسة
لمصالح الحكومة — هى وحدها التى دفعت أتو الأول الى الاستيلاء على
شمال ايطاليا عام ٩٦٢ ؛ والى تقلد تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة .
والحقيقة أنه ، ومن أتى بعده من الأباطرة ، رغبوا فى الاستحواذ على الثروة

التى تدرها ايطاليا عن طريق تجارتها ، وذلك بالسيطرة على طرف الطرق التجارية التى تنساب منها الثروة على امبراطوريتهم .

وكان على غربى أوربا — خارج ايطاليا — أن يسلك طريقا بعيد الشقة ، كى يندمج تماما فى دائرة التجارة الاسلامية فى البحر المتوسط القائمة معاملاتها على قاعدة الذهب لا فى دائرة التجارة البيزنطية . ومع ذلك فيمكن القول ان ألمانيا وجنوب فرنسا بدأتا حوالى أواسط القرن الحادى عشر تتجهان اتجاها لاشك فيه نحو ذلك الاندماج . وربما كانت خير علامة تدل على هذا الاتجاه نحو الاندماج كثرة الحجاج الى الأراضى المقدسة ، فازداد عددهم زيادة ملحوظة فى تلك الفترة ، رغم الاضطهادات التى تنسب الى الخليفة الحاكم . ويوجد سجل ، يرجع الى ١٠٢٧ م ، يؤكد قيام سبعمائة حاج بهذه الرحلة الطويلة ، فى جماعة واحدة ، وكان من بينهم ريتشارد دى سانت ڤان[٢١٢] . وهكذا كان هناك اذ ذاك كثير من لاتينيى الغرب على علم بمناطق شرق البحر المتوسط ، وهى المناطق التى قدر لهم أن يسيطروا عليها بعد ذلك بقرن من الزمان .

وجملة القول أن ضعف السيطرة البحرية الاسلامية على البحر المتوسط حوالى عام ١٠٤٣ ، وانتعاش البحرية البيزنطية ، وتحول كثير من بلاد غرب أوربا كجنوه وبيزا وغيرهما الى النشاط البحرى ؛ كل ذلك كان له دلالته على التطورات المستقبلة . ومع ذلك فان تغير توازن القوى لم يؤثر على حالة الرخاء الاقتصادى فى أقاليم البحرين المتوسط والأسود ؛ بل ان تلك الأقاليم زادت ثروة وتجارة . وأسهم المسلمون والبيزنطيون والفارنجيون بجنوب روسيا ، ومعظم الايطاليين ، فى ذلك الرخاء ؛ وأسهمت معهم فى هذا المراكز التجارية الايطالية كمدينة البندقية ومدينة أمالفى ، وبلغ التقدم أقصاه فى اتساع نطاق تجارتها ونمو أساطيلها لأغراض النقل البحرى عامة

فى البحر المتوسط . وأخيرا بدأ غرب أوربا يتأثر هو الآخر ، وينجذب نحو نطاق هذه التجارة الدولية ، بفضل ما قامت به أساطيل چنوه وبيزا نحو فتح طريق الرون وبفضل ازدياد حركة النقل التجـارى عن طريق ممرات الألب ، من والى أواسط أوربا . وهكذا أخذ الغرب اللاتينى يتخلص من بيئته الزراعية المحدودة ومن قصوره وانكماشه ، ويسعى للحصول على نصيبه فى تجارة البحـر المتوسـط التى سيطر عليها طويلا ، البيزنطيون والمسلمون .

حواشي الفصل السادس

* ـ لم تقم بطرابلس الغرب أسرة حاكمة بالمعنى الصحيح ، ولكن تناوبت السيطرة عليها بعض القبائل المغربية من زناته وصنهاجة . ويذكر ابن الأثير أن زناتة كانت تقاوم رغبة المعز بن باديس فى السيطرة على طرابلس الأمر الذى دفع المعز الى بناء أسطول كبير للاغارة عليها حول عام ١٠٢٥ م (المترجم) .

** ـ هذه السفن اسمها Landing Ship Tank وهى سفن ضخمة معدة لنقل العتاد والجنود لانزالهم على الشواطىء وقت الهجوم (المترجم) .

١ – Schlumberger, Nicephore Phocas, p. 41-49.

٢ – Wiet, Egypte Arabe, p. 147.

٣ ـ المرجع السابق ص ١٤٨ ،

Schlumberger, op. cit., p. 387-89.

٤ – Schlumberger op. cit., p. 390-412.

٥ ـ المرجع السابق ص ٥٨٠ ـ ٦٠٩ .

٦ – Wiet op. cit., p. 151-52. Michael, The Syrian Chron. II, 551.

٧ – Schlumberger, op. cit., p. 354-56.

٨ ـ المرجع السابق .

٩ – Cedrenus II, 353, 360. Ibn al Athir, I, 363-66, Abu al Fida, Annales Moslemici II, 448. Ibn Khaldun, Hist. des Fatimides in de Slane, Hist. des Berbères II, 529.

١٠ – Nuwairi II, 134. Amari, Storia II, 318-22.

١١ – Ibn Hammad, Hist. des rois Obaidites, ed. Vonderhyden, p. 64-68. Quatremère, Vie de Moeizz, pp. 67, 82.

١٢ – Moeizz, pp. 67, 92.

Lane-Poole, Egypt, p. 113.

١٣ – Wiet, op. cit., p. 180-82.

١٤ ـ المرجع السابق ص ١٨٣ .

١٥ ـ المرجع السابق ص ١٨٤ ـ ١٨٦ . .

Schlumberger, John Zimisces (Paris 1896) p. 222-25.

١٦ – Chron. Salern., in MGH. Script. III. p. 556.

١٧ – Schlumberger, op. cit., p. 113-49.

١٨ – Lane-Poole, Egypt, p. 114.

١٩ – Wiet, Egypte Arabe, p. 191.

٢٠ - المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٣ .

٢١ - Charanis, Soc. Struct. of the Later Roman Empire, p. 54-56

٢٢ - Schumberger, Basil II, 386-87.

٢٣ - Tafel et Thomas, Fontes Rer. Austriae, Soc., de Venise I, 25-28, Dandolo, Chron., pp. 167,171.

٢٤ - Schlumberger op. cit., p. 395-6.

٢٥ - Cedrenus II, 501.

٢٦ - Lane-Poole, Egypt, p. 112.

٢٧ - Nasir Khusrau, ed., Schefer, p. 126.

٢٨ - Lane-Poole, op. cit., p. 120.

٢٩ - المرجع السابق ص ١٢١ .

٣٠ - Wiet, op. cit., p. 198-99.

٣١ - Runciman, Byzantine Civilization, p. 49.

٣٢ - Ibn al Athir I, 379-80 Abu al Fida II, 524.

٣٣ - Amari, Storia II, 368-70.

٣٤ - المرجع السابق ص ٧٥ .

٣٥ - Cessi, Venezia I, 73.

٣٦ - المرجع السابق ص ٧٥ .

٣٧ - المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٩ .

٣٨ - Ibn al Athir I, 389-91. Abu al Fida II, 446-48. Thietmar, Chron. in MGH. Script. III, 765-66. John Diac. Chron. Ven. in MGH. Script. III, 27.

٣٩ - Amari, Storia II, 395.

٤٠ - Cessi op. cit., p. 79-80.

٤١ - Lupus Prospatarios in MGH Script. III, 556.

٤٢ - Amari, Storia II, 395.

٤٣ - المرجع السابق ص ٣٩٦ .

٤٤ - Chron. Sancta Sophia Beneventum in MGH. Script. III, 177.

٤٥ - Amari, Storia, p. 397.

٤٦ - John Diac, Chron. Ven., p. 35. Dandolo, Chron., p. 233.

٤٧ - Chron. Varia Pisan in Mur. Rer. Ital. Script. VI, 101.

٤٨ - المرجع السابق ص ١٠٧ ، ١٧٦ .

٤٩ - Amari, Storia, II, 398.

٥٠ - Marangone in Arch. Storica Italia VI part II, 4.

٥١ - Amari, Storia III, 4.

٥٢ – Amari, Storia II, 399-404.

٥٣ – Cedrenus II, 479. Ibn al Athir I, 450-51.

٥٤ – Ibn al Athir, op. cit.,

٥٥ – Wiet, op. cit., p. 226.

٥٦ – Cedrenus II, 496.

٥٧ ـ المرجع السابق ص ٤٩٧ .

٥٨ ـ المرجع السابق ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

٥٩ ـ المرجع السابق .

٦٠ ـ المرجع السابق .

٦١ ـ المرجع السابق ص ٥٠٣ ، ٥١٦ ـ ٥١٧ . .

Ibn al Athir II, 270. Nuwairi II, 270.

٦٢ – Wiet, op. cit., p. 230-31.

٦٣ ـ المرجع السابق ص ٢٣١ ـ ٢٣٣ .

٦٤ – Lupus Prospatarios in MGH. Script. V, 58.
Cedrenus II, 520.

٦٥ – Cedrenus II, 541-49. Lupus Prospatarios in op. cit., pp. 54-58.

٦٦ – Ibn al Athir I, 378. Ibn Adhari II, 334.

٦٧ – Ibn Idhari II, 403.

٦٨ ـ ربما عمد الخلفاء الفاطميون فى مصر الى ابقاء أسطول اتباعهم الزيريين فى تونس ، ضعيفا لعدم امكان القيام بثورة ضدهم . ولو جاز هذا القول فانه يوضح سر تدهور بحرية شمال افريقية فى ذلك الحين .

٦٩ ـ لاحظ المقدسى قوة بلرم البحرية وقت ذاك :

Muqqadasi, ed. De Goeje (Leyden 1906), p. 15.

٧٠ – Ibn Idhari II, 403-404. Al Makkari I, 249.

٧١ – Ibn Idhari, II, 405. Dozy, Recherches II, 295-99.

٧٢ – Abraham ben David in Med. Jewish Chron. I, 67.

٧٣ – Al Makkari I, 270. Dozy, Recherches I, 163-64.

٧٤ – Ibn Khaldun, Prologomenes, p. 455-66. Nuwairi I, 110.

٧٥ – Dove, De Sardinia Insula (Berlin 1866), pp. 50, 63
Ibn al Athir I, 195, 205.

٧٦ – Amari, Storia III, 5-8. Thietmar, Chron. in MGH Script. III
p. 850.

٧٧ – Marangone in MGH Script. XIX 238. Chron. Pisan et Brev in Mur. Rer. Ital. Script. VI, 106-7.

٧٨ – Dove, op. cit., 65-7. Amari, Storia III, 8-9.

٧٩ – Ademar Chron. in MGH. Script. IV, 104-05.

٨٠ – المرجع السابق ص ١٣٩ .

٨١ – Amaria, Storia II, 181-83.

٨٢ – Syrius, Vita Maroli in MGH Script. IV, 651-52.

٨٣ – Amaria, Storia III, 16-17.

٨٤ – ويمكن الاطلاع على صـــورة كاملة للقوى التى كانت وراء ذلك الظهور المفاجىء لقوة هجومية تابعة لغرب أوروبا فى :

Lopez, Orig. du Capit. Gén. p. 445. -51.
Middle Ages (New York 1942), p. 158-88.

٨٥ – اقرأ عن سيطرة البندقية على تجارة ذلك الاقليم فى القرنين التاسع والعاشر ،

Cessi, Venezia I, 88-90.

Diehl, Venise, p. 25-27.

٨٦ – Dandolo, Chron. p. 228-31.

٨٧ – المرجع السابق ص ٢٣٢ ، Cessi, op. cit., p. 90

٨٨ – Taf. et Thom. I, 25-30.
MGH Script. Const. et Acta I, 45-50.

٨٩ – المرجع السابق ص ٣٥ – ٣٩ ،

٩٠ – وخير مرجع عن قصة أسباب تدهور الاسطول البيزنطى وقت ذاك هو :
Neumann, C., Die Weitsellingdes Byzantischen Reiches und den Kreuzzuge (Leipzig. 1895).

٩١ – من الطريف أن نذكر أن المؤرخ توينبى يعتقد أن حروب باسيل الثانى مع البلغـــار تحدد فى الواقع لحظة انهيار الحضارة البيزنطية ، ولكنه يرجع هذا الى أسباب أخرى .

Toynbee, A.J., Study of History (London 1939), IV, 601-16.

٩٢ – يبدو أن أمارى لم يقدر التقدير الكافى ، الدور الانحلالى الذى اضطلعت به أسرة أتو فى القضاء على توازن القوى القائم بوجود بيزنطة فى ايطاليا
Amari, Storia II, 377-84.

٩٣ – Lévi-Provençal, Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 457-504.

٩٤ - Ibn Hawkal, trans. in Biblio Arabo. Sic., ed. Amari I, 27.

٩٥ - Muqqadasi, p. 15.

٩٦ - Ibn Hawkal, Desc. Pal., pp. 26,38.

٩٧ - Schlumberger, Nicephore Phoças, p. 387-9.

٩٨ ـ المرجع السابق ص ٤١ ـ ٤٣ .

٩٩ - Ibn al Athir I, 363-66. Abu al Fida II, 448. Nuwairi II, 266. Ibn Khaldun, Hist. des Fatimids in de Slane, Hist. des Berbères II, 529.

١٠٠ - Nasir Khusrau, p. 126.
أشار هازلت الى السفن المدرعة التى استخدمتها البندقية ضد روبرت جيسكارد عام ١٠٨٤ م انظر :

١٠١ - Hazlet, op. cit., p. 140-46.

١٠٢ - Muqqadasi, p. 47.

١٠٣ - Wiet, op. cit., p. 303-04.

١٠٤ ـ المرجع السابق ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

١٠٥ ـ المرجع السابق ص ٣٠٥ .

١٠٦ ـ المرجع السابق .

١٠٧ ـ المرجع السابق ص ٣٠٤ ،
Quatremère, Mémoire sur Egypte, pp. 377. 380.

١٠٨ ـ المرجع السابق ٣٠٥ .

١٠٩ - Muqqadasi, trans. Le Strange, pp. 91-2, 104, 167.

١١٠ - Lombard, op. cit., p. 150.

١١١ - Wiet, op. cit., p. 305.

١١٢ ـ وربما كان هذا الاتجاه الجديد فى تجارة مصر أحد الأسباب التى أدت الى تدهور تجارة شمال افريقية مع مصر . الأمر الذى نلاحظه بوضوح حول منتصف القرن الحادى عشر ، وهو الوقت الذى أخذت العداوة فيه تزداد بين الزيريين والفاطميين . انظر الفصل السابع من هذا الكتاب .

١١٣ - Muqqadasi, pp. 162, 180.

١١٤ ـ المرجع السابق ص ١٧٤ .

١١٥ - A. Istakhri, p. 31. Quatremère op. cit., pp. 377, 380.

١١٦ - Wustenfeld, Geschichte der Fatimiden Kalifen, p. 162-64.

١١٧ - Muqqadasi, p. 12. Nasir Khusrau, p. 12.

١١٨ - Wiet, op. cit., p. 169.

١١٩ - المرجع السابق ص ٣٠٦ .

١٢٠ - المرجع السابق ص ٣٠٧ .

١٢١ - المرجع السابق ص ٣٠٨ .

١٢٢ - المرجع السابق ،

Muqqadasi, ed. De Goeje, p. 15.

١٢٣- Wiet, op. cit., p. 308.

١٢٤- John Diac. Chron. Ven., p. 27. Dandolo, Chron., p. 223. Diehl, Venise, p. 19-21.

١٢٥- Maqrizi, Khitat I, 177.

١٢٦- Mez, Renaissance of Islam, p. 160-64.

١٢٧- Lane-Poole, Egypt, p. 147-8.

١٢٨- Michael, The Syrian II, p. 516. Muqqadasi, trans. Le Strange, p. 213.

١٢٩- (انظر : ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٥٨ ، (بولاق) ،

Ibn Khaldun, Hist. des Berbères II, 19.

١٣٠- Al Bakri, pp. 46, 56, 99, 116, 120.

١٣١- المرجع السابق ص ٤١ .

Ibn Hawkal, Descr. of Africa in Journ. Asiat. (1842) I, 178, 215.

١٣٢- Al Bakri, p. 41.

١٣٣- المرجع السابق ص ٦٠ .

١٣٤- Ibn Hawkal, p. 223.

١٣٥- Marçais, Berbéries, p. 179.

١٣٦- المرجع السابق

١٣٧- Al Bakri, p. 46-47.

١٣٨- المرجع السابق ص ٧٨ .

١٣٩- المرجع السابق ص ١٠٩ .

١٤٠- المرجع السابق ص ٨٨ .

١٤١- Marçais, op. cit., p. 180.

١٤٢- المرجع السابق .

١٤٣- Muqqadasi, p. 47.

١٤٤- Marçais, Berbérie, p. 181, Ibn Idhari I, 318. Al Bakri, p. 58.

١٤٥- Al Bakri, p. 79.

١٤٦ ـ المرجع السابق ص ٢٥ .

١٤٧- Amari, Storia II, p. 419.

١٤٨- Ibn Hawkal, p. 161.

١٤٩- Al Bakri, p. 122.

١٥٠- Amari, Storia, II, 419.

١٥١- Ibn Hawkal, p. 362.

١٥٢- Al Bakri, p. 79.

١٥٣- Ibn Idhari, I, 256-8.

١٥٤- Ibn Khaldun, Hist. des Berbères II, p. 19-20.
Al Bakri, p. 78.

١٥٥- Al Bakri, p. 70.

١٥٦- Ibn Idhari, I, p. 249-84.

١٥٧ـ ذكر ابن خلدون فى :
(Hist. des Berbères II, 19-20)
قصة التاجر الثرى الذى دفع عام ٩٧٦ م ، ضرائب مقدارها ٤٠٠٫٠٠٠ درهم الى حكومة الزيريين .
Mas Traites de Paix, p. 13.

١٥٨- Muqqadsi, p. 47.

١٥٩- Pirro, Sicilia Sacra., p. 770., Yakut, in biblio. Arab. Sic., I, 190-91, 201, Amari, Storia II, 509-510.

١٦٠- Yakut I, 204, Muqqadasi, 239-40.

١٦١- Yakut I, 201, 206. Amari, Storia II, 507.

١٦٢ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ١٩٣ . والمقريزى. ص ٤١٠ . وهـذا التصنيع الاسلامى لجزيرة صقلية ، يناقص تماما ، ما كانت عليه الجزيرة أيام الرومان والبيزنطيين من حيث سيادة الزراعة وانتشارها
Amari, Storia I, 331-2.

١٦٣- Al-Bakri, p. 67-8.

١٦٤ـ المرجع السابق ص ٤٦ .

١٦٥- Ibn Hawkal, Desc. Palerm., p. 24.

١٦٦- Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane au Dixième Siècle, p., 72-73.

١٦٧ـ اقرأ عن ازدهار أسبانيا وانتعاش الزراعة بها فى القرن الحادى عشر
Ibn Al-Awan, Le Livre de l'Agriculture trans. J. J. Clement-Mullet (Paris 1864-7), 3 vols.

١٦٨- Marçais, Berbérie, p. 129.

١٦٩- Yehya ibn Said, ed., and trans. Kratchkovsky and Vasiliev, in Patrologia Orientalis XVIII, 823-4.
Kama Ad-Din, ed. and trans. Freytag, G.W., Regierung de Saad Al-Duala zy Aleppo (Bonn, 1828), p. 10-15.

١٧٠- Wiet, Egypte Arabe, p. 230-33.

١٧١- Der Nersessian, Armenia and the Byzantine Empire, p. 11.

١٧٢ـ المرجع السابق ص ١١ ـ ١٢ .

١٧٣- Hill, Cyprus, I, p. 257-77.

١٧٤- Liudprand, The Embassy to Constantinople, in the works of Liudprand of Cremona (trans. Wright), p. 235-77.

١٧٥- Runciman, Byzantine Civilization, pp. 226-39, 244-53, 271-76.

١٧٦- Lopez, Silk Industry, p. 31.

١٧٧- Taf. et Thom., I, p. 25-30.

١٧٨- Liudprand, op. cit., p. 267-69.

١٧٩- Heyd, op. cit., p. 56. Schaube, op. cit., p. 3-30.

١٨٠- Diehl, Venise, p. 20-21.

١٨١- Lombard, op. cit., p. 157-58.

١٨٢- Bloch, Le Problème de l'Or., p. 14-15.

١٨٣- Jus Graeco-Romanum III, 299, 303.

١٨٤- Taf. et Thom. I, p. 21, 35-39.

١٨٥- Cessi, op. cit, p. 89.

١٨٦ـ المرجع السابق ص ٧٨ .

١٨٧ـ المرجع السابق ص ٨٢ ـ ٨٣ .

١٨٨- Joha Diac, Chron. Ven., p. 38.

١٨٩- Luzzatto, G., Les Noblesses, les activités économiques du patricial vénitien, in Ann. d'Hist. Econ. et. Soc. (1937), IX, 25-27.
ولا شك أن هذا تحول خطير عما كانت عليه حال بيزنطة اذ كان النبلاء أكثر اتجاها نحو الاقطاعية الزراعية .

١٩٠- John Diac. Chron. Ven., p. 29.

١٩١- Schaube, op. cit., p. 6. Amari Storia II, 200.

١٩٢- Taf. et Thom. I, 38. Heyd. op. cit., p. 95-7.

١٩٣- Lopez, Silk Industry, p. 40-41.

١٩٤- Gesta Roberti Wiscardi, in MGH Script. IX, 275. Heyd, op. cit., 108-09.

١٩٥- Amari Storia II, p. 515.

١٩٦ـ المرجع السابق ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

١٩٧- Munro and Strayer, op. cit., p. 158-96.

١٩٨- Vita John Abb. Gor., in MGH. Script. III, 375.

١٩٩- Wikukind, in MGH Script. IV, 464.

٢٠٠- Munro and Strayer, op. cit., p. 159-66.

٢٠١- Chron. Ademar, in MGH Script. IV, 104-05.

٢٠٢- Lévi-Provençal, Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 458.

٢٠٣- Dozy, Recherches II, p. 103-196.

٢٠٤- Braudel, F., Monnaies et Civilizations. de l'Or du Sudan à l'argent d'Amérique in Annales (1946), I, 11.

٢٠٥- Lopez, Orig. du Capit. Gén. in op. cit.,

٢٠٦ـ أورد المرجع الآتى ذكر المكوس التى حصلت عن السفن التى أفرغت بضائعها قرب مونبلييه أواسط القرن الحادى عشر

Armand de Verale, Cat. Epis. Mag. in op. cit., pp. 508-510.

٢٠٧- Thiemtar, Chron., p. 238.

٢٠٨- Tyler, Alpine Passes, p. 156.

٢٠٩- Schaube, op. cit., p. 94.

٢١٠ـ المرجع السابق ص ٩١ .

٢١١- Bloch, Le Probleme d'Or, p. 14.

٢١٢- Hugonis Chron., in MGH Script. VIII, 393.
Gesta Epis Verdun, in MGH Script. VIII, 394.



الفصل السابع

انتصار الغرب

(١٠٤٣ – ١١٠٠م)

شاهدت الخمسون السنة الأخيرة من القرن الحادى عشر ، انتصار أساطيل غرب أوربا الايطالية على قوة المسلمين والبيزنطين البحرية القديمة ، تلك القوة التى طالما تحكمت فى مياه البحر المتوسط . وحول عام ١١٠٠ صار الأوربيون الغربيون سادة كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب ايطاليا والأقاليم الساحلية فى فلسطين وسورية ؛ الى جانب تحكمهم فى طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب .

وكان الذى جعل هذا التحول ممكنا ، الكوارث التى حلت بالمراكز التجارية القديمة فى عالم البحرين : المتوسط والأسود . فبيزنطة ، التى أنهكتها المنازعات الداخلية ، وقعت فريسة لغزو سلجوقى عام ١٠٧١ م . اذ اكتسحت هذه القبائل الرعوية القادمة من وسط آسيا — بعد انتصارها فى واقعة ملاذكرد — اقليم آسيا الصغرى الغنى ، ولم تتزحزح عنه . وتأثرت سورية كذلك بالغزو السلجوقى ؛ وكاد هذا الغزو أن يقضى تماما على سلطان الفاطميين بها . وكذلك بدأت مملكة كييف الروسية تفقد صلاتها مع بيزنطة والبحر الأسود ، عندما قطعت القبائل التركية المتبربرة — مثل قبائل الغزو ومن جاء فى أعقابهم من البنشناغ والكومان — خط دفاع الروس عند الدنيبر ، واحتلت اقليم المراعى بجنوب روسيا . وقاست مصر قرابة عشرين

عاما ، الكثير من الفوضى عـلى يد قواتها المرتزقة من السودان والترك والبربر ، الذين أعملوا فيها النهب والسلب . وانشقت دولة الزيريين بشمال افريقية على الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، ثم لم تلبث أن رأت نفسها فريسة غزو مخرب من قبل القبائل البدوية من بنى هلال . وقد لجأ الأندلس بعد أن كاد يقضى عليه الضغط المسيحى من الشمال لينقذ نفسه ، الى استدعاء أكثر قبائل البربر بداوة ، وهم المرابطون المقيمون بصحارى المغرب الأقصى .

ويمكن القول باختصار أن كل الأقاليم الهـامة المطلة على البحرين : المتوسط والأسود — عدا اقليم غرب أوربا — شاهدت فى تلك اللحظة تغييرا كاملا شاملا نتيجة ظهور جماعات قبلية قادمة من الخارج . فالبتشناغ والسلاجقة الأتراك والعرب الهلالية والمرابطون كلهم سواء ؛ فهم قبائل رحل خرجوا من صحاريهم نتيجة ظروف سياسية أو اقتصادية أو مناخية وكانوا قليلى التقدير للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة فى البلاد التى أغاروا عليها ؛ بل كانوا مخربين لكل حضارة مستقرة . وليس غريبا اذن أن يرث غرب أوربا ، فى يسر ، ما كان لبيزنطة والعالم الاسلامى من تراث بحرى وقت ذاك . ولم يقو أحد على الوقوف فى طريق الغـرب الا فى الأندلس ، وكان هذا على يد البدو المرابطين لا على يد أبناء الأندلس الأصليين . أما فى غير الأندلس فقد حصل غرب أوربا على مكاسب كبيرة ، وكان ذلك غنيمة باردة . فأمكن للنورمان والبنادقة والپيزيين والجنـويين وفرسان فرنسا الاقطاعيين وغيرهم من المغامرين ، أن يغزوا أقواما وأقاليم أنهكها ضغط القبائل البدوية المغيرة . واذن فلم تكن الحرب الصليبية الأولى هى سبب حصول غرب أوربا على السيادة على البحر المتوسط ، وانما كانت نهـاية مرحلة بدأت باتخاذ غرب أوربا خطة المهاجم لمدة قرن سابق من الزمان ، فى عالم يتدهور فيه المسلمون والبيزنطيون تدهورا متصلا .

وربما كان أكثر التطورات أهمية فى ذلك الحين ، تفرق دولة الفاطميين فى شمال افريقيـــة وما ترتب عليه . وبدأ التفرق عنـــدما أصاب الفتور العلاقات بين القاهرة والقيروان ؛ ولا سيما بعد تولى المعز بن باديس الزيرى الحكم . وتجلى هذا الفتور بصورة أكثر وضوحا عندما تلقت صقلية — وقت أن غزتها القوات البيزنطية عام ١٠٣٨ م — العون من دولة بنى زيرى فى افريقية لا من الفاطميين فى مصر[١] . فمنذ ذلك الحين بدأ أمراء صـــقلية يحولون أنظارهم فى طلب العون عن خلفاء القاهرة الشيعيين ، واســـتقلوا عنهم تماما . ولم تلبث القيروان أن حذت حذو بلرم ؛ فكان أول ما فعلته أن قام أهلها على الشيعة فى المدينة وأبادوهم دون أن يعاقبهم الزيريون على ذلك[٢] . وأعقب تلك المذبحة فى عام ١٠٤١ ، مبايعة الخلفاء العباسيين ببغداد بدلا من الخلفاء الفاطميين بالقاهرة[٣] . وفى عام ١٠٤٩ ، أحرقوا أبسطة ومنسوجات تحمل عبارات شيعية ؛ كما حرم تداول العملة الفاطمية[٤] . وأخيرا وفى عام ١٠٥١ ، صبغت باللون الأسود — وهو شعار العباسيين — الخلع البيضاء الفاطمية التى كانت تخلع على العلماء وأصحاب المناصب فى حاشية الزيريين[٥] . وهكذا أصبح الانفصال تاما وكاملا . غير أن انقسام مسلمى افريقية لم يقف عند حد استقلال الزيريين والكلبين ؛ فأصـــحاب طرابلس والحمدانيون أصحاب غربى تونس والجزائر لم يكتفوا بما لديهم من حكم ذاتى ، بل أسرعوا وأعلنوا استقلالهم عن القيروان . ولم يقتصر الأمر عند حد الانفضاض عن موالاة الفاطميين : بل تعداه الى قيام أربع دول اسلامية متباينة فى طرابلس وتونس والجزائر وصقلية ، وكلها مما تخلف عن سيادة القاهرة فى بلاد المغرب . وصار شمال افريقية بذلك اقليما يسوده الفوضى والانقسام . مثلما كان الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بها[٦] .

غير أن ما جدّ من أمور كان أكثر خطـورة . اذ عجزت مصر الفاطمية والخلافة وقت ذاك فى يد المستنصر العاجز الضعيف وعن القيام بعمل حاسم لقمع الفتن التى اجتاحت ممتلكاتهم الغربية . والذى حدث كان تسيير قبيلتين عربيتين كبيرتين هما : بنو هلال وبنو سليم غربا ضد بنى زيرى وذلك اتقاء تهديدهم أمن مصر . وبلغت القبيلتان تونس عام ١٠٥٢ ، وقابلهما المعز بن باديس حاكم القيروان بجيشه قرب قابس ليحول دون دخولهما الى بلاده[٧]. وانكسرت قوات ابن باديس أشنع انكسار ، وتقدمت القبيلتان المغيرتان الى الأقاليم الغنية تنهبان المدن ، التى كانت بلا أسوار وتهلكان أهل الزراعة المستقرين ، وانضمت اليهما قبـائل البربر التى كانت دائما متأهبة لشن الغارات على أصحاب الأرض المزروعة والمدن المأهولة[٨] .

ولم يقف أمام هذا الغزو سوى القيروان وضاحيتها المنصورية بفضل الأسوار الحصينة التى تحيطها . ولم تلبث مقاومة الزيريين ان ضعفت عندما أطالت تلك القبائل اقامتها ، عاما اثر عام فى الأقاليم الخصبة ، تلتهم خيراتها كالجراد المنتشر . وفى عام ١٠٥٩ ، انسحب الزيريون من عاصمتهم القيروان الى قلعتهم الساحلية الحصينة (المهدية)[٩] فنهبت المنصورية وخربت دورها وقصورها العظيمة ؛ وهرب كثير من السكان الى صقلية والأندلس[١٠] . وعمت الفوضى سائر البلاد الداخلية ؛ وكان عجز الزيريين عن حفظ الأمن والنظام ، سببا فى اتاحة الفرصة لبعض المغامرين للاستبداد بالحكم فى قابس وصفاقس وقفصة وبنزرت والأربس وتونس . ولم تعد بالبـلاد حكومة مركزية نافذة الحكم[١١] .

ولم تتأثر أملاك الحماديين الواقعة الى الغرب بحركات البدو أول الأمر الا قليلا . والواقع أن الحماديين رحبوا بالفرصة التى أتاحتها هذه الغارات ليتخلصوا من خطر الزيريين . وفى عام ١٠٦٤ قاد الأمير الناصر من بنى حماد

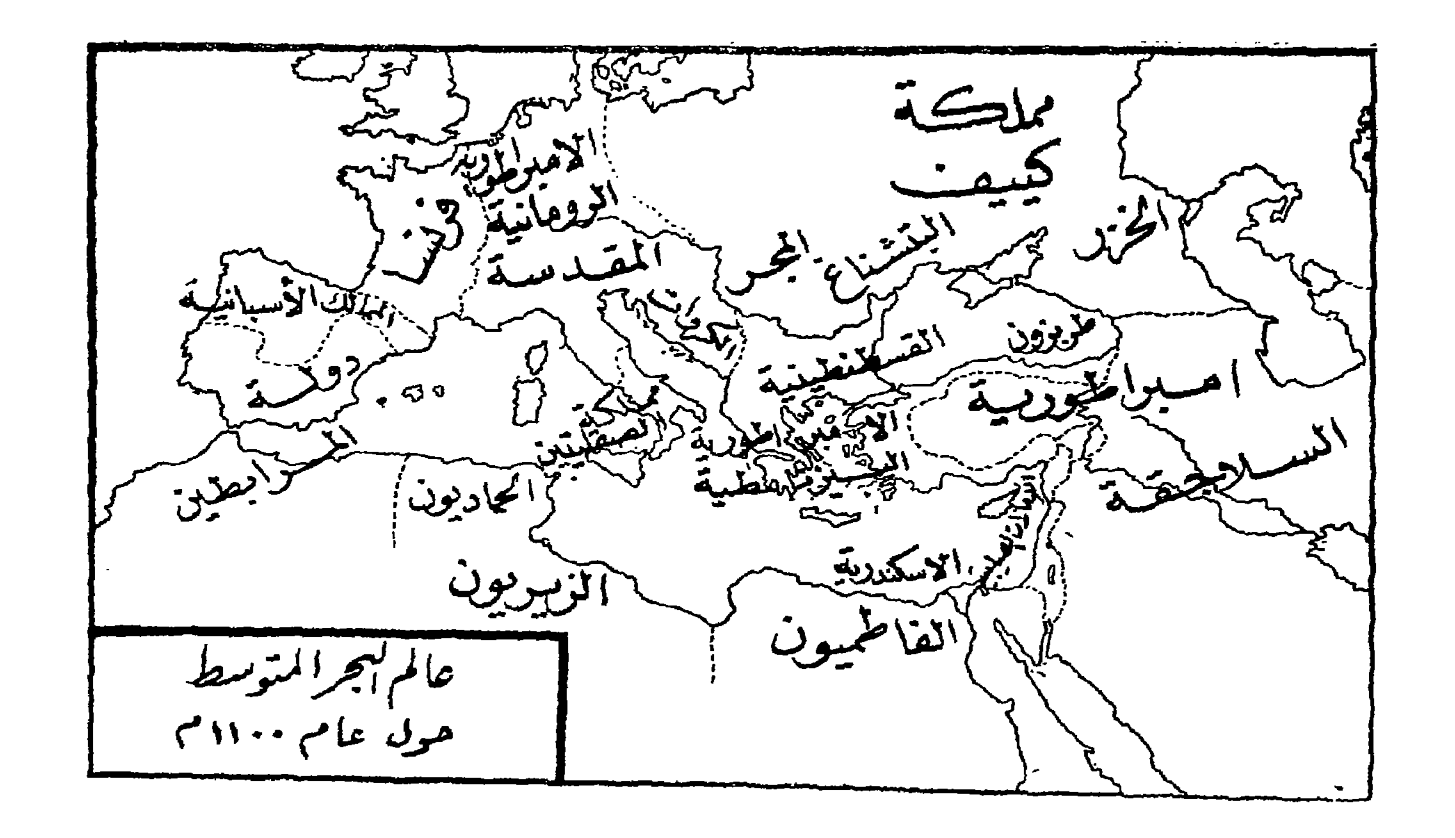
جيشا الى تونس لقتال الزيريين . على أن المحاولة انتهت بالخيبة وهزم الأمير هزيمة منكرة عند شيبه مثلما انهزم المعز بن باديس قبل ذلك بسنوات عند قابس[١٢] . ونتج عن ضعفه ، بسبب ذلك الانهزام ، أن صارت بلاده مفتوحة لتسلل البدو . ولم تمض سنوات قلائل حتى اضطر ابن حماد الى ترك عاصمته « قلعة بنى حماد » فى الداخل وترك سهل بونه أيضا وانسحب غربا الى بجاية ، وسرعان ما تحولت تلك المدينة الساحلية التى تأسست وسط مجموعة من التلال عام ١٠٦٧ ، الى مركز لجمع شمل الحماديين[١٣] . وقصد اللاجئون والراغبون فى السلامة من داخل تونس والجزائر الى ذلك المكان الأمين نسبيا ، وصارت بجاية بهذا مركزا ذا قيمة . والواقع أن امارة بنى حماد هذه ومنطقة التلال (فيما يسميه المستعمرون الفرنسيون الآن منطقة القبائل الصغرى) كانتا المنطقتين الوحيدتين فى تونس والجزائر اللتين نجتا من اجتياح البدو ونهبهم لهما بالاضافة الى بعض المدن الساحلية مثل تونس والمهدية . على حين تخربت الأقاليم الداخلية تماما ، ولا سيما السهول الواقعة فى جنوب ووسط تونس .

وتحركت فى تلك الأثناء جماعات أخرى من قبائل البربر فى الغرب هم المرابطون : وكانت حركتهم صوب الأقاليم الزراعية المستقرة . وبدأ هؤلاء — كما بدأ بنو هلال وبنو سليم — حركتهم عام ١٠٥٢ واستولوا عام١٠٦٣م على مدينة فاس ، ثم اكتسحوا عددا كبيرا من الامارات المغربية الصغيرة . وانتشروا فى الجزائر حتى مدينة الجزائر ذاتها[١٤] . وفى عام ١٠٨٦ أقام المرابطون حكومة أكثر تنظيما من حكومات القبائل العربية الكائنة الى الشرق منهم ، والتى بدت عاجزة اطلاقا عن اقامة حكومة جديرة بالاسم . وتأسست دولة المرابطين بين امارة الحماديين فى بجاية وبين الأطلنطى . وعبر المرابطون فى تلك السنة ذاتها مضيق جبل طارق الى الأندلس بدعوة من

ملوك الطوائف ، الذين هددهم تحرك أعدائهم المسيحيين نحـو الجنوب . وأثبتت جيوش المرابطين فى الأندلس قدرتها على صد المسيحيين هنـاك . ولكنهم لم يعودوا الى بلاد المغرب ثانية بعد انتصارهم كما أحب مسلمو الأندلس ، بل أنشأوا دولة أندلسية استمرت الى القرن التالى[١٥] . وكان المرابطون عند قدومهم الى الأندلس شديدى الأنفة والتقشف ولكنهم لم يلبثوا أن انحطوا وترفهوا فى البيئة المترفة الأندلسية . وهذه البيئة وجد فيها المرابطون ما يشبع رذائل البدو وما يقوض فضائلهم . وما حل زمن قضاء الموحدين عليهم الا وكان المرابطون قد فقدوا أكثر الغـيرة الدينية والقوة ، اللتين كانتا مما امتازت به حركتهم فى أول عهدها .

واذا عدنا الى الشرق حيث سورية ومصر لوجدنا أن الأحوال فيهما لم تكن أحسن منها فى الغرب . فمن المعروف أن العلاقات بين سورية ومصر الفاطمية من جانب وبين بيزنطة من الجانب الآخر كانت بعد صلح ١٠٣٨ م طيبة أول الأمر ، ثم لم تلبث الحرب أن نشبت عام ١٠٥٥ ، بسبب عدم قيام القسطنطينية بارسال الحبوب التى وعدت بارسالها الى القاهرة عام١٠٥٢[١٧] ولم تكن الحرب البرية والبحرية القصيرة المدى بين الطرفين حاسمة . الا أن الفاطميين أظهروا بعض الاقتدار فى كلا الميدانين . وأخيرا انتهت الحرب ، ولم تعد بيزنطة تهدد مركز مصر بصورة جدية . ورغم ضياع شمال افريقية وصقلية ، فان مصر وسورية ظلتا ، فيما يبدو ، على جانب من الرخاء . ويرجع ذلك بصفة خاصة الى قدرة الوشتكين الدزبرى حاكم سورية على حفظ النظام والقضاء على حركات السلب والنهب .

ولما حل عام ١٠٦٠ ، نكبت البلاد ، وسبب النكبة الفتن التى قامت بها جيوش الفاطميين من العبيد والمرتزقة ، ولم تستطع حكومة الخليفة المستنصر الضعيفة أن تفرض عليها النظام والطاعة . ووقعت البلاد ، مدة سبعة عشر


مملكة كييف
الخزر
البشناغ
المجر
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
فرنسا
الممالك الأسبانية
دولة المرابطين
الكروات
القسطنطينية
طرابزون
امبراطورية السلاجقة
الإمبراطورية البيزنطية
مملكة الصقليتين
الحماديون
الزيريون
الإسكندرية
القاطميون
عالم البحر المتوسط
حول عام ١١٠٠م

عاما ، فريسة للتخريب والنهب من جانب عساكر السودان والترك والبربر . وبلغ ذلك التخريب مداه حينما نهبوا قصر الخليفة بالقاهرة عام ١٠٦٧ [١٨] . ويمكن أن ندرك مدى ضرر هذه الاضطرابات اذا علمنا أن المجاعة اكتسحت هذه البلاد الزراعية الغنية . وشغلت مصر عن سورية فتركتها تدبر أمرها كما تستطيع . ونتج عن ذلك وقوع الاقليم تحت حكم أسرات محلية استبدت بالحكم فى المدن ، مدينة تلو أخرى ؛ بينما أخذ سلاجقة الأتراك يغزونها من الشرق [١٩] . ولولا أن اضطرب الأمر عند البيزنطيين اضطرابه عند خصومهم بسبب الفتن والحروب الأهلية ومحاولات الاقطاعيين أصحاب الأرض الاستبداد بالسلطات لكانت نكبة الفاطميين أقسى وأمر .

وقد تعرض الخليفة المستنصر وأسرته للضياع لولا أن أدركته المساعدات الخارجية . وفى عام ١٠٧٣ م ، أرسل المستنصر ، وزيره بدر الجمالى الى سورية ؛ فاستطاع بما أوتى من مقدرة أن يقضى على الفوضى وأن يعيد النظام ويعيد معه سلطان الفاطميين . ثم عاد الجمالى على رأس مائة سفينة من الأسطول السورى الى مصر [٢٠] . وما حل عام ١٠٧٧ الا وكان قد أمّن البلاد وأعاد النظام والاستقرار الى اقليم الدلتا . ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته ، جمع بدر الجمالى السلطات فى يده ، كما فعل المنصور بن أبى عامر فى الأندلس قبل ذلك بقرن . وفى ظل حكمه الصارم استعادت كل من مصر وسورية قدرا كبيرا من رخائهما . واذا كان لم يقدر (أو لعله لم يشأ) أن يحاول اعادة سلطان الفاطميين على شمال افريقية ، فانه استطاع أن يفرض ، على الأقل ، قدرا من النظام فى الدولة [٢١] . الا أن كل ذلك انتهى بموته ، ثم مات كذلك الخليفة الذى أحسن بدر الجمالى خدمته وهو المستنصر عام ١٠٩٤ . ولم يكن لبدر خلفاء يستحقون أن يقارنوا به ، فعادت مصر ثانية الى الضعف والفوضى ، اللذين غلبا عليها ، الى أن أنهضها مما تردت فيه صلاح الدين عندما قدم اليها فى القرن التالى .

وفى تلك الأثناء حدثت فى الامبراطورية البيزنطية المجاورة أحداث مماثلة. اذ ورث الامبراطور المسن قنسطنطين التاسع الملقب بمونو ماخوس (١٠٤٢—١٠٥٥) ، مشكلة الارستقراطية العسكرية مالكة الأرض. وكانت طائفة تضخمت ثروتها كثيرا وعظم بأسها فى ضياعها بآسيا الصغرى. وكان علاجه لهذه المشكلة — والظاهر أن أصحاب المناصب المدنية أيدوه فى ذلك — هو تجريد هذه الجماعة من قوتها ، بتحديد قوة الجيش لأن الجيش كان أساس سلطانهم ونفوذهم. وبناء على ذلك لم يكتف الامبراطور باتباع سياسة خارجية سلمية فى الشرق ، وترك أملاك بيزنطة فى ايطاليا لمصيرها ؛ بل عمد الى نقص قوات الجيش والأسطول [٢٢]. وربما كان لتلك السياسة ما يبررها لولا ظهور عدو خطير على طول حدودها الشرقية فى عام ١٠٤٤ ، ألا وهم الأتراك السلاجقة. على أن خطر هؤلاء لم يصبح شيئا مذكورا الا بعد عام ١٠٥٦ ، عندما انتهى حكم القياصرة فى الأسرة المقدونية.

وعندئذ اضطربت الامبراطورية اضطرابا شاملا ، بسبب ما انتابها من ضعف ترتب على فوضى قنسطنطين التاسع ، والاقتصاد فى الانفاق على جيشه ؛ وبسبب ازدياد خضوعها لنفوذ التجار الايطاليين الغربيين الذين احتكروا تجارتها. وكانت فترة حروب أهلية تعاقب فيها عدد من الأباطرة لم يطل حكم واحد منهم ، وكل منهم يسعى لأن يؤسس أسرة ملكية. وقد بلغ الحمق من أحد هؤلاء ، أنه قاد فى سنة ١٠٧١ جيشا سيىء الاستعداد الى بلاد أرمينية ، موغلا فيها متحديا قوة السلاجقة فى تلك البلاد. والتقى الجمعان وحدثت واقعة ملاذكرد ، التى كانت كارثة كبرى على البيزنطيين ؛ اذ أبيد الجيش ، ووقع الامبراطور رومانوس الرابع فى الأسر ، وانفتحت آسيا الصغرى بذلك للغزاة [٢٣]. وانساب الترك فى شبه الجزيرة ينهبون مدنها ويخربون العامر المأهول من الأرض الزراعية ، شأن فعال

الجماعات الرعوية ، وأفقروا البلاد وخربوها ، كما فعل بنو هلال فى شمال افريقية . ووقعت الأجناد غير الحصينة ببلاد الأناضول ، الواحد اثر الآخر فى يد قوات الأتراك السلاجقة ، واتخذ أحد السلاطين السلجوقيين مدينة قونية — المدينة الأناضولية — عاصمة له . وبحلول عام ١٠٧٦ كان السلاجقة قد بلغوا البحر فى عدة مواضع ، واستطاع واحد من مغامريهم هو چكه Tzaches أن يبلغ أزمير ، وأن يجهز أسطولا للسطو والاغارة على الايچى ، وأن يهدد العاصمة ذاتها[٢٤] . وعندما اعتلى الكسيوس كومنينوس عرش القسطنطينية عام ١٠٨١ ، كانت الامبراطورية على أسوأ حال من الفوضى ؛ فالأتراك يسيطرون على معظم بلاد الأناضول ، والفوضى ضاربة أطنابها فى قوات الجيش والأسطول ، وقبائل البتشناغ والكومان تتدفق عبر الدانوب وتستولى على أملاك الدولة فى البلقان[٢٥] .

وانتاب امارة كييف الروسية ضعف مماثل . ومرجع بعض هذا الضعف الى انتهاء مملكة الخزر التى كانت وقاء يحمى سهول جنوب روسيا مثلما حمت أرمينية آسيا الصغرى البيزنطية . وأثبت تحرك الروس ضد مملكة الخزر طمعا فيها ، نفس قصر النظر الذى أثبته احتلال بيزنطة لأرمينية[٢٦] . وفى كلا الحالين لم يستفد من هذه السياسة سوى القبائل التركية الزاحفة . وعندما تنازع أمراء المدن الروسية فيما بينهم خلال القرن الحادى عشر ، صار من اليسير على قبائل الغز والبتشناغ والكومان أن تكتسح معاقل الفارنجيين ، التى كانت تحمى طريق الدنيبر ؛ ونتيجة لهذا انقطع الاتصال المباشر بينهم وبين البحر الأسود وبيزنطة . على أن الأقاليم الروسية ظلت تتمتع ببعض الرخاء والقوة حتى مجىء المغول فى القرن الثالث عشر ، وان كانت فقدت أواخر القرن الحادى عشر الثروة والنشاط اللذين امتاز بهما ملك سفيا توسلاف وفلاديمير[٢٧] .

ولابد من أن نتذكر ما سبق وصفه من التطورات ، عندما ننتقل لدراسة نشاط الشعوب فى أوربا الغربية . فلا شك أن الفوضى والضعف اللذين طرآ على شمال أفريقية والأندلس ومصر وبيزنطة وروسيا ، أتاحا لسكان غرب أوربا ، المتحفزين للهجوم ، فرصا عظيمة الشأن للاعتداء على جميع بلاد البحر المتوسط .

وكان من أول من استفاد من هذا الوضع ، رجال البحر من أهل چنوه وپيزا . فاتفقوا فى ١٠٥٠ بتأثير البابا لاون التاسع ، على أن يشتركا من جديد لطرد القرصان الأندلسيين من جزيرة سردينية(٢٨) . ويبـدو أن منازعات الچنويين والپيزيين مكنت الأمير على بن مجاهد صاحب دانية من أن يستعيد فتح الجزيرة بعد انتصارهم السابق عام ١٠١٦ . وحول هذا التاريخ أوجدت چنوه وپيزا بعض النفوذ لهما على جزيرة كورسيكة المجاورة(٢٩) . ثم وسعت پيزا مجال نشاطها بالقيام بغارة كبيرة على المركز البحرى للمسلمين فى پلرم عام ١٠٦٣ ، واستولت فى تلك الغارة على غنائم كثيرة(٣٠) . وقد انزعجت مدن اقليم كمپانيا من نشاط چنوه وپيزا فى البحر التيرانى اذ كانت هـذه المدن على صلات تجارية وثيقة مع العرب ، مما دعا جيزولف ، أمير سلرنو (١٠٥٢ — ١٠٧٧) الى الاستيلاء على سفن المدينتين عند مرورها بمحاذاة السواحل التابعة له(٣١) .

وفى عام ١٠٨٧ عظمت قوة پيزا وچنوه البحرية حتى انهما قامتا وقتها بأكبر هجوم بحرى لهما . وهذا الهجوم عبارة عن حملة من ٤٠٠ سفينة تضم فرقا من أهل أمالفى وقوات كبيرة أمدهما بها البابا . أما غرض هذه الحملة فهو مهاجمة المهدية ، معقل الزيريين على ساحل تونس . ونجحت الحملة نجاحا كبيرا ، اذ استطاع الايطاليون انزال قواتهم الى البر والاستيلاء على الميناء والمدينة معا والحصول على قدر كبير من الغنائم والأسلاب ؛ ولم يفلت من

أيديهم سوى القلعة فقط . وأخيرا اضطر الأمير تميم بن المعز بن باديس أن يدفع مبلغا كبيرا ثمنا لانسحاب هذه القوات من بلاده ووعد بعدم التعرض لسفن المدن الايطالية فى المياه الافريقية . وتعتبر هذه الغارة على جانب عظيم من الأهمية(٣٢) ، فهى بالاضافة الى أنها كانت بداية ظهور سفن جنوة وپيزا فى أقاصى غرب البحر المتوسط ، فانها دلت أيضا على اهتمام بالتجارة ، كما يبدو من الوعد الذى قطعه تميم بن المعز بعدم التعرض للملاحة الايطالية . وقد يكون الباعث على الحصول على هذا الوعد . راجعا الى سياسة أمالفى أكثر من رجوعه الى سياسة مدن اقليمى ليچوريا وتسكانيا . فقد كان لمدينة أمالفى مصالح تجارية فى المياه الشرقية منذ أمد بعيد أكثر مما كان لأى مدينة ايطالية أخرى غير البندقية .

وشابه هـذا الموقف ، الموقف فى الأندلس فى تلك الأثناء ، فأتاح هذا للملاحين الايطاليين فرصا عديدة للحصـول على غنائم الغزو . ووجـد المغامرون من أهل الشمال ، والجنـود الاسبانيون المسيحيون المندفعون بتحريض كنيسة تحض على اشعال حرب مقدسة ، وبما تكنه قلوب هؤلاء الجنود من غرائز الجشع ، مجالا طيبا فى الممالك الأندلسية لتحقيق أغراضهم هناك حتى عام ١٠٨٦ . واستطاع ملك قشتالة أن يحتل طليطلة عام ١٠٨٥ ، وأن يوسع ملكه نحو الجنوب(٣٣) ، وأن يجبر أمير اشبيلية ، وهو اذ ذاك أقوى أمراء الأندلس ، على أداء أموال جمة ، وذلك بعد ايغال جنوده القشتاليين بعيدا فى الجنوب (٣٤) . وقام « السيّد » بعمليات توغل وسلب مماثلة فى بلنسية وما حولها (٣٥) . وأسهمت المدن الايطالية فى هذه المطاردات عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة ، وفرضت على مدينة المرية ، اتاوة ضخمة بلغت ١١٣ ألف قطعة ذهبية من سكة المرابطين ؛ كما أجبرت بلنسية على دفع ٢٠ ألف دينار من الذهب ، مفتدية نفسها بذلك من النهب والسلب (٣٦) . وتعرضت مجموعة جزر البليار ، التى تم الاستيلاء عليها

أوائل القرن الثانى عشر ، لعدة غارات قرصنية قام بها أهل المدن الايطالية ذاتها . وهكذا تم الانتقام لمدن بارى ومونت جاريليانو وفراكسينت بما أنزله المسيحيون بثغور الشواطىء الاسلامية الضعيفة من تقتيل وسلب ونهب .

وفى تلك الأثناء ، أخذت صقلية تفقد قوتها وأهميتها الدفاعية ، بعد ما ظلت لمدة طويلة حصن الاسلام المنيع فى غرب البحر المتوسط . ويرجع هذا الضعف الى استمرار الخلافات والمنازعات الداخلية بين مسلمى البربر وبين السكان العرب ، تلك الخلافات والمنازعات التى كادت تمكن البيزنطيين من الاستيلاء على الجزيرة بين عامى ١٠٣٨ و ١٠٤٣ . وفى عام ١٠٥٢ ، أرسل المعز بن باديس الزيرى صاحب افريقية ، أسطولا ليقوى به دفاع پلرم ، ولكن عاصفة حطمت ذلك الأسـطول قرب جزر قوصرة[٣٧] . ثم حدثت غارات العرب الهلالية فحدت من المساعدات المبذولة من جانب شمال افريقية الى صقلية ، فقد كان الزيريون أحوج ما يكونون لجميع مواردهم . وتركت صقلية تدير أمور دفاعها بما لديها من وسائل .

على أن الخطر الذى أحدق بصقلية وكان عظيما حقا ، لم يكن مصدره الانتعاش البحرى لثغور ليجوريا وتسكانيا الايطالية — على الرغم من شدة وطأة الغارة التى شنتها مدينة پيزا على پلرم عام ١٠٦٣ — بقدر ما كان من قدوم عدو جديد لا يرحم ، ألا وهو النورمان بجنوب ايطاليا . وكان أول ظهور النورمان فى تلك المنطقة عام ١٠١٦ م . وفى عام ١٠٤٠ أقاموا لأنفسهم مركزا لأعمال النهب والسلب فى شمال ابوليا . وكان نشاطهم فى ايطاليـا وراء فرق منياس الزاحفة ، أحد الأسباب التى انتهت بفشله بين عامى ١٠٣٨ ، ١٠٤٣ . ثم انتقلت زعامة أكثر فرق النورمان عنفا فى ايطاليا بعد ١٠٤٣ ، الى روبرت جسكارد ، سليل أسرة هوتڤيل الكثيرة النسل العظيمة الكفاية[٣٨]

وأخــذ روبرت يبنى دولة قــوية تدريجيا فى ابوليا وبنفنتم ، وذلك على حساب أمراء ايطاليا المحليين وعلى حساب النواب البيزنطيين . وفى عام ١٠٥٩ اعترف البابا بمركزه ، واعتبره من الأمراء التابعين للبابوية ، وكان هــذا مكافأة له على العون الذى بذله ضد فرق الجنود الألمانيين التى هددت استقلال البابا فى روما[٣٩] .

وفى تلك الأثناء ظهر روجر فى جنوب ايطاليا ، وهو أخ لروبرت ؛ وكان يشرف على بعض الكتائب النورماندية ، وعلى ما فتحه النورمان فى قلورية . وكان روجر كأخيه روبرت رجــلا على جانب كبير من الكفــاية الحقيقية وسرعان ما أقام دولة نورماندية فى قلورية ، كانت أكثر أراضيها تحت السيادة البيزنطية[٤٠] . هذا وعندما اعترف البابا بأسرة جسكارد عام ١٠٥٩، تضمن ذلك وعدا لهم باقرار ملكهم فى صقلية ، لو أنهم استطاعوا انتزاعها من المسلمين . وما حل عام ١٠٦١ الا وكان روجر على أهبة الاستعداد للبدء بالغزو ؛ فسار على رأس قوة عبر مضيق مسينا ، واستطاع أن يستولى على مدينة مسينا ذاتها . وساعدت على نجاح الحملة السفن التى استولى عليها من مدينة ريو بعد فتحها ، وكذا بعض سفن أخرى حصل عليها روبرت من المدن التى خضعت له فى شرق أپوليا [٤١] . ثم توغل النورمانديون فى الجزيرة وهزموا القوات الاســلامية عند قصر يانه [٤٢] ثم عجز روجر عن متابعة انتصاراته بسبب ظروف استلزمت عودته الى ايطاليا ، وعاد تاركا فتوحاته فى الجزيرة فى أيدى نواب موثوق بهم .

ولابد أن هجوم روجر جسكارد ، ونجاحه ، وكذا غارات پيزا على پلرم ، قد أزعجت المسلمين بالجزيرة ، فأرسلوا فى طلب العون من المهدية . ووصل الجزيرة بعض المدد عام ١٠٦٤ م ، من تميم بن المعز بن باديس ، الذى خلف أباه عام ١٠٦٢ ، وكان قد انتصر وقتها على منافسيه من بنى حماد

فى معـــركة عند سيبية [٤٣] . وقد بقيت القوات الافريقية فى الجـــزيرة أربع سنوات ، على أن اقامتها هناك أحدثت خلافا بين مسلمى صقلية الذين بدءوا يكرهونهم وازاء هذه الكراهية انسحب بنو زيرى من الجزيرة بقواتهم عام ١٠٦٨ ، مستصحبين كثيرا من أعيان صقلية [٤٤] . وتركت صقلية وحدها تواجه الانقضاض النورماندى عليها على يد أسرة جسكارد .

ولم يطل بأهل الجزيرة الانتظار ، ففى عام ١٠٧١ ، استولى روبرت على بارى ، آخر معاقل البيزنطيين فى ايطاليا وبهذا توافر لروبرت الأســـطول اللازم للهجوم على صقلية[٤٥] . واستطاع روجر بست وخمسين سفينة ، وقدر كبير من القوات البرية أن يهاجم مدينة بلرم ، عاصمة المسلمين ، وأن يحدق بها من البر والبحر . ونظرا لامتناع المساعدات من شمال افريقية ، سقطت المدينة فى أيدى النورمانديين وتحولت الى قاعـــدة حربية كبرى لهم[٤٦] . والواقع أن تميما صاحب المهدية لم يشأ أن يتدخل فى شئون صقلية، بل عمد الى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روجر عام ١٠٧٥ ، استمرت عدة سنين[٤٧] .

أعقب هذه المعاهدة غزو بطىء منظم ، وتزايد لقوى النورمانديين فى صقلية ؛ ففى عام ١٠٧٧ سقطت مدينة طرابنش [٤٨] . وفى عام ١٠٧٨ وقعت طبرمين فى أيدى النورمانديين[٤٩] . ثم توقفت أعمـــال الفتح عام ١٠٨١ ، عندما رأى روجر أن من الضرورى أن يحل قواته محل قوات أخيه روبرت التى تحتل مدينة مسينا . وقد يرجع ذلك الى حاجة روبرت الى تلك القوات لتنفيذ خططه ومشروعاته فى الأدرياتى . ثم عاد زحف النورمانديين عام١٠٨٦؛ وفى تلك السنة استولوا على جرجنت [٥٠] . كما استولوا عام ١٠٨٧ على سرقوسة آخر المدن الكبرى فى يد المسلمين[٥١] . وفى عام ١٠٩٠ أتم روجر غزو الجزيرة كلها بعد أقل من ثلاثين عاما من بدايته .

وواصلت أسرة جسكارد ضغطها عام ١٠٩٠ ، للاستيلاء على جزيرة مالطة ، التى يغلب أن تكون الحملة البحرية الايطالية الكبرى التى وجهت ضد المهدية عام ١٠٨٧ قد قضت على وسائل دفاعها(٥٢) . وبسقوط مالطة كسب غرب أوربا السيطرة على المضايق الحيوية بين افريقية وبين صقلية الى جانب استحواذه على صقلية ذاتها . والجدير بالنظر أن النورمانديين لم يتلقوا أية مساعدة أثناء غزو صقلية ، من مدينتى پيزا وچنوه الايطاليتين ، ولا من المراكز البحرية على ساحل كمپانيا الا بطريقة غير مباشرة . ولكن بمجرد أن وطد النورمان حكمهم فى الجزيرة ، جنى التجار الايطاليون الكثير مما أفاء هذا الفتح . وأعطى تجار البندقية وأمالفى ، ثم تجار چنوه بعدهم ، امتيازات تجارية واسعة النطاق فى صقلية ، وسمح لهم بالمساهمة فى التجارة والصناعة التى شيد صرحها حكام الجزيرة السابقون من المسلمين بعناية ورعاية ، طوال عدة قرون (٥٣) .

صاحب فتح روجر جسكارد لقلورية وصقلية ، توسع آخر مماثل صوب الشمال على طول شواطىء البحر التيرانى . وقبل أن يتم احتلال صقلية . خضعت مدن ساحل كمپانيا لأسرة جسكارد ، وتلك المدن هى ناپلى وجايتا وسلرنو وأمالفى . وكان تاريخ قبول أمالفى سيادة النورمانديين هو عام ١٠٧٦ ، وكذلك اندمجت آخر الكتائب النورماندية المستقلة وهى المرابطة قرب سلرنو فى الجيش الرسمى ، وصار كل ما بين روما ومدينة ريو ، تابعا للنورمانديين (٥٤) .

وعلى حين كان يعمل روجر على هذا النحو فى بناء قوته وتدعيمها على سواحل ايطالية الغربية وفى صقلية ، كان اخوه الأكبر روبرت يقوم بنشاط مماثل على الساحل الشرقى . وقد ذكرنا من قبل أنه احتل عام ١٠٧١ مدينة بارى ، آخر معاقل البيزنطيين فى أپوليا . على أن هـذا لم يكف لارضاء

أطماعه ، وأغراه ضعف بيزنطة — وقد ازداد كثيرا بعد كارثة ملاذكرد — على أن يحول أطماعه الى الساحل الآخر للبحر الادرياتي . وفي عام ١٠٧٥ ازداد نشاط أساطيله قرب دلماشيا(٥٥) . وأزعج هذا الاجراء مدينة البندقية فأرسلت قوة بحرية استطاعت طرد سفن روبرت واجبار مدن سپلاتو وتراو وزاره ، على أن تعد بعدم دعوة النورمانديين ثانية (٥٦) .

ولما اصطدمت أطماع روبرت في دلماشيا بقوة البندقية ، تحول الى الأراضي البيزنطية في الجنوب . وفي عام ١٠٨١ ، خرج أسطوله ، وبرفقته فرق من راجوزه ، ليساعد قواته البرية في حصارها مدينة دورازو الواقعة على الجانب الشرقي من المضيق (٥٧) تجاه باري . وقد أزعج هذا البنادقة ؛ فقد كانوا لا يحبون أن يروا للنورمانديين نفوذا ما على جانبي مدخل البحر الادرياتي . ولهذا خرج أسطول قوامه ٦٣ سفينة لينقذ من أيدي النورمانديين تلك المدينة البيزنطية . ونجح أسطولهم فعلا في طرد سفن النورمانديين ، ولكن لفترة مؤقتة(٥٨) . اذ حدث أن أسلمتها الخيانة والغدر الى أيدي روبرت جسكارد . ومن هذه المدينة التي صارت قاعدة نورماندية ، استمر روبرت في غزواته وهجماته على غرب بلاد اليونان التابعة لبيزنطة . وكذلك استمرت البندقية ، وقد وثقت عرى تحالفها مع بيزنطة ، تعارض بقواتها البحرية مشروعات الفتح النورماندي . فمن ذلك مثلا : ما حدث في سنة ١٠٨٤ من أن الأسطول البندقي — المكون من ٧٠ سفينة من بينها تسع سفن ذات أبراج — انتصر مرتين على الأسطول النورماندي المكون من ١٢٠ سفينة قرب تلك الشواطىء . لكن أسطول البندقية نزلت به الهزيمة الشديدة قرب نهاية العام وانسحبت قطع منه عائدة الى مدينة البندقية ذاتها (٥٩) . ورغم عداء البندقية ، فقد استمر الحاكم النورماندي الجبار في القيام بحملاته . ولم ينقذ البندقية والامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، من التهديد

النورماندى ، الا موت روبرت عام ١٠٨٥ م . غير أن مملكة الصقليتين التى قامت فى جنوب ايطاليا وصقلية ظلت قوة بحرية جديدة منافسة ، وذات اعتبار فى المنطقة الوسطى من البحر المتوسط .

واذا كانت البندقية لديها من الأسباب ما يبرر مقاومة أطماع روبرت جسكارد فى الادرياتى من أجل مصالحها الخاصة ، فانها حرصت فى الوقت ذاته على أن تجعل الكسيوس كومنين يدفع غاليا ، ثمن المساعدات البحرية التى قدمتها اليه فى تلك السنوات . ولا يصور شيء مبلغ الضعف الذى هبطت اليه قوة بيزنطة البحرية فى تلك المرحلة ، أكثر مما يصوره اعتماد امبراطور القسطنطينية اعتمادا تاما فى حماية بلاده على قوة البنادقة البحرية . أما مقابل هذه الحماية فهو المرسوم الذهبى الذى منحه الامبراطور للبنادقة عام ١٠٨٢ م . ففى هذا المرسوم أعفى البنادقة اعفاء كاملا من جميع الرسوم الجمركية والعوائد بسائر موانى الامبراطورية الواقعة على بحر ايجه والبحر المتوسط . واستثنى فقط من هذا المرسوم موانى جزيرتى كريت وقبرص . وبالاضافة الى ذلك أخضعت الجالية الامالفية بالقسطنطينية للبندقية . وكان فى منح هذه الامتيازات القضاء على معظم ما بقى من الاشراف الامبراطورى على سفن التجار الأجانب فى أنحاء الدولة ، وقد تم بذلك للبنادقة فى الواقع احتكار التجارة البيزنطية [٦٠] . وان الشروط التى وضعت أهل أمالفى فى موضع التبعية بالنسبة للبنادقة ، لم تنشأ عن رغبة فى منح امتياز خاص للبندقية بقدر ما كانت انتقاما من أهل أمالفى على خضوعهم للنورمان أعداء القسطنطينية عام ١٠٧٦ .

وقد اهتم بعض المؤرخين اهتماما كبيرا بهذا الاتفاق المعقود بين بيزنطة والبندقية ، دون أن يحللوه التحليل الكافى . ففى الوقت الذى أتاح فيه هذا الاتفاق للبندقية مركزا ممتازا جدا فى الحياة الاقتصادية للامبراطورية ،

على حساب التجار الايطاليين الآخرين والتجار البيزنطيين أيضـا ، نراه يحتوى فى نفس الوقت على تحفظات مهمة كأن يحرّم موانى البحر الأسود على التجار البنادقة . وقد احتفظ أباطرة أسرة كومنين بموانى هذا البحر للتجارة البيزنطية وحدها . ونجد كذلك أن موانى جزيرتى كريت وقبرص لم تفتح للتجار البنادقة دون دفع الضرائب الجمركية ، كما كانت الحال فى بعض المدن الواقعة على الشواطىء البيزنطية . وقد حقق ذلك بقاء هاتين الجزيرتين الهامتين خاضعتين لاشراف مالى وحربى دقيق من جانب المسئولين فى القسطنطينية . واذا علمنا أن قبرص كانت تشرف على التجارة بين الشرق والغرب وبين سورية ، وأن كريت كانت تقوم بالدور ذاته بين تلك التجارة وبين مصر ، اتضحت لنا حقيقة اصرار بيزنطة على الاحتفـاظ بجانب من الاشراف على طريق التجارة الدائرية ، بصرف النظر عما منح لتجار البندقية من امتيازات . ومع التسليم بهذه التحفظات ، لابد من أن نسلم أيضا بأن المرسوم الذهبى الصادر سنة ١٠٨٢ ، حدد انتهاء السياسة البيزنطية القديمة، وانتهاء محاولتها السيطرة على التجار الأجانب داخل الامبراطورية ، وتحويلها معظم تجارتها فى البحر المتوسط الى تجار البندقية . وكانت هذه النهاية ، الخاتمة المنطقية لنمو سلطان البندقية داخل المياه البيزنطية ، الذى بدأ منذ القرن الثامن الميلادى وتدرج الى أن بلغ هذا المبلغ .

ان اعتداءات النورمان على ايطاليـا وصقلية وشـواطىء الادرياتى وهجمات جنوه وبيزا فى المياه الغربية للبحر المتوسط ، وتحرشات المغامرين الاقطاعيين الفرنسيين فى الأندلس ، وحركات البنادقة فى المياه البيزنطية ؛ بالاضافة الى التشجيع القوى الذى بذلته البابوية واتباع الاصلاح الكلونى للقيام بهجوم عام على المسلمين (الذين وصفوا بالوثنيين) من أجل دوافع دينية ، ثم التقوى التى دفعت الآلاف من مسيحى غرب أوربا لزيارة الأماكن

المقدسة ، هذه الاتجاهات كلها تفاعلت فيما بينها لانتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى . ويمكن القول بعبارة أخرى ، ان الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطا مركبا من عدة عناصر تعمل منذ أمد فى أحداث غرب البحر المتوسط ، وتتلخص فى العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الايطاليين والمغامرين الاقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة فى كسب الامتيازات فى ميدانى النقل والتجارة(٦١) .

أما الأسباب المباشرة لهذه الحركة فمن السهل جدا فهمها ، وهى تنحصر فى سببين : الأول ، التجاء الامبراطور الكسيوس كومنين لطلب العون العسكرى من البابا ضد سلاجقة الأتراك (٦٢) . الثانى ، استيلاء سلاجقة الأتراك على بيت المقدس وما أذيع من حكايات عن سوء معاملة هؤلاء الترك الرعاة المتعصبين ، للحجاج القادمين من غرب أوربا (٦٣) . كان غرض الكسيوس كومنين الحصول على عدد من فرسان غرب آوربا ليدعم جيوشه فى بلاد الأناضول ، أى الحصول على قوة تؤدى ما أدته طائفة المرتزقة الفارنجيين للقسطنطينية أداء حسنا لمدة قرن من الزمان . ولكن البابا اربان الثانى اختار أن يركز سياسته لا فى تأكيد ابعاد الخطر عن القسطنطينية ، ولكن فى تأكيد انقاذ الأرض المقدسة من الجند التركى السلجوقى الوثنى (على حد وصفه) . وكان النداء لهذا الانقاذ أكثر استمالة للروح الدينية الشعبية من أى نداء من أجل القسطنطينية . وفى اجتماعين عظيمين ، أحدهما فى شمال ايطاليا ، والآخر فى جنوب فرنسا ، أثارت دعوته الناس لحرب صليبية ، حماسة عظيمة بين جميع طبقات المجتمع الغربى (٦٤) .

والذى حدث بعد ذلك ، أزعج بيزنطة . ففى عام ١٠٩٦ ، خرجت من غرب أوربا شراذم من الناس يقودها بطرس الناسك ووالتر المفلس ، مخترقة بلاد المجر وبلغاريا حتى وصلت القسطنطينية . ولم تكن هذه الجماعات

لتصلح للجندية اطلاقا ، فضلا عن أن لصوصيتها أزعجت سكان العاصمة البيزنطية ، ولهذا أسرع الكسيوس الى شحنهم فى السفن ونقلهم بأسرع ما يمكن ، الى شواطىء آسيا الصغرى . وهناك تلقفتهم سيوف السلاجقة فقضت عليهم فى معركة واحدة . واذا كان هذا الرعيل أو هذا القطيع الأول من الصليبيين قد نبّه امبراطور القسطنطينية للخطر ؛ فان الدفعة الثانية منهم بدت أكثر ازعاجا له . ذلك أن هذه الدفعة ، كانت أحكم قيادا وأحسن تنظيما ، لأنها من القوات الاقطاعية الأوربية الغربية ، التى يقودها بوهمند وتانكرد وريموند أمير تولوز وروبرت أمير الفلاندرز وجفرى دى بويون . وكانوا ينتمون لثلاث طوائف مختلفة من الاقطاعيين الغربيين . فأتباع بوهمند وتانكرد من النورمانديين المقيمين بجنوب ايطاليا ، الذين عاشوا أمدا طويلا أعداء لبيزنطة . أما قوات ريموند صاحب تولوز فيمثلون نبلاء جنوب فرنسا الذين طالما حاربوا المسلمين فى الأندلس . وأما أتباع روبرت وجفرى فكانوا من الاقطاعيين المغامرين فى شمال فرنسا[٦٥] . وقد شك الكسيوس كومنين فى أمر الباعث الذى بعثهم على القدوم الى الشرق ، وعلى الأخص بوهمند وتانكرد وريموند . وعلى كل حال فلم يرجع هذا الباعث الى الغيرة الدينية الا بسبب ضئيل ؛ وكان الكسيوس فى الوقت ذاته يدرك مقدار ضعف قواته الحربية . ولهذا نجده بعد أن يجعلهم يقسمون كرها على أن يضعوا ما سوف يفتحونه من البلاد تحت سيادته ، يسرع الى نقلهم الى آسيا الصغرى[٦٦] .

ولم يدم التعاون بين البيزنطيين وبين الأوربيين الغربيين طويلا ، فقد انتهى عندما تلقى الكسيوس كومنين خفية استسلام مدينة نيقية ، وبذلك حرم الصليبيين أسلابها . ثم زادت العلاقات توترا بين الفريقين عندما بقيت القوات البيزنطية وراء القوات الغربية ، بعد أن هزمت هذه القوات جيشا سلجوقيا فى قلب آسيا الصغرى ، وملكت كثيرا من الأراضى المفقودة فى

آسيا الصغرى . وما ان بلغ الصليبيون انطاكية ، الا وكانوا قد كرهوا البيزنطيين ؛ يضاف الى هذا تنازع القادة فيما بينهم . وقد أدى استيلاء بوهمند على انطاكية بالحيلة ، وكذا أطماع ريموند التى تجلت فى تأسيس امارة له فى طرابلس ، ثم نجاح بولدوين فى الرها ، والاستيلاء أخيرا على بيت المقدس عام ١١٠٠ ؛ الى تأسيس عدة امارات اقطاعية غربية فى بلاد سورية وفلسطين (٦٧) .

ولم يرجع نجاح الصليبيين الى كفاية قوادهم وبسالة جنودهم بقدر رجوعه الى عاملين آخرين هامين هما : أولا — وهو الأهم — قدوم حملة بحرية ايطالية الى شواطىء سورية ، حاملة معها العون والمساعدات البحرية اللازمة لاخضاع المدن الاسلامية الساحلية . الثانى ، هو فشل أسطول الفاطميين فى الوصول الى المياه السورية للعمل ضد الصليبيين .

ويعتبر ظهور الأساطيل الايطالية أمام شواطىء سورية وفلسطين ، العامل الأكثر أهمية . وكان الأسطول الجنوى أمام أنطاكية ، هو الذى حقق للصليبيين هناك ما أحرزوه من نجاح . ومنذ ذلك النجاح ، وتأييد القوات البحرية هو الذى يعين الجيوش الصليبية فى زحفها بمحاذاة الساحل ، عونا عظيما (٦٨) . وحتى البندقية أرسلت فى ١٠٩٩ م ، أحد أساطيلها من البحر الادرياتى ، وعاون هذا الأسطول على الاستيلاء على مدينة يافا فى السنة التالية (٦٩) . والأمر المسترعى للنظر فى أمر هذه المساعدات البحرية ، هو أنها ظهرت متأخرة فى الميدان . اذ أن جميع الطرق التى سلكها الصليبيون ليصلوا منها الى مكان اللقاء وهو القسطنطينية ، كانت كلها طرقا برية ، فقد وصل اليها بوهمند وتانكرد عبر بلاد اليونان ، ووصل اليها ريموند صاحب تولوز مخترقا ساحل دلماشيا ؛ وبلغها روبرت وجفرى عن طريق نهر الدانوب . وكذلك سلكوا جميعا طرقا برية من القسطنطينية عبر الأناضول

للوصول الى سورية . ولم تتلق القوات الصليبية ، حتى بلوغها أنطاكية أية مساعدات بحرية ؛ والمساعدات التى تلقتها عندئذ جاءتها من مدن السواحل الايطالية الغربيـــة لا من البندقية . ومعنى هذا أن البنـــادقة الذين كانوا يملكون أضخم قوة بحرية ايطالية فى المياه البيزنطية والشرقية ، لم يتحمسوا أول الأمر لهذا العمل ، وانهم لم يعينوا الصليبيين بقدر من العون البحرى الا بعدما سقطت أنطاكية وتأكدوا من نجاح الصليبيين . ثم ظهر أســـطول البندقية أمـــام شواطىء فلسطين ؛ وكان يرمى الى حماية مصالحها التجارية ضد المنافسة التى يحتمل أن تتعرض لها من قبل تجار پيزا وچنوه وأمالفى ، أكثر مما يرمى الى اتباع الغيرة الصليبية . وعلى أية حال فان تدخل هؤلاء جميعا كان معناه تعاون العنصرين البحرى والتجارى مع العنصرين الآخرين : الدين والاقطاع فى الشرق . وغنمت الأساطيل الايطالية فى الثغور السورية التى سقطت ، مقادير لا تحصى من التوابل والبضائع الشرقية . وسرعان ما أنشأ الايطاليون بها الوكالات التجارية للأشراف على شئون التجارة ، ونقل الحجاج بين هذا الاقليم وبين الغرب (٧٠) .

ومما يعسر تعليله عجز الأسطول الفاطمى عن أن يقوم بعمل ما رغم توسلات مدن الساحل السورى والتماسها المساعدة ، فلم يكن ذلك الأسطول اذ ذاك قليل الخطر . ففى أواخـــر القرن الحـــادى عشر كان يشتمل على ٧٥ شينيا وعشر مسطحات ، وعشرة حمالات . وكانت للأسطول قواعد فى الاسكندرية ودمياط وعسقلان وثغور أخرى بسورية ؛ وللأسطول أيضا أمير أعلى (٧١) . وقد يصح أن هذا الأسطول ربما كان قد تدهور بعد وفاة بدر الجمالى عام ١٠٩٤ ؛ ولكن الامتناع عن استخدامه كلية ، يرجع فى الأغلب الى الضعف والاستكانة اللذين انتابا الفاطميين الأواخر ، ومعنى هذا القضاء على مقاومة المسلمين للصليبيين فى فلسطين وسورية (٧٢) .

والخلاصة أنه حول عام ١١٠٠ م كانت للأوربيين الغربيين السيطرة على معظم حوض البحر المتوسط الغربي . وكانت هذه السيطرة تامة على جزر كورسيكا وسردينية وصقلية ومالطة ، وعلى جنوب ايطاليا ، كما زاد ضغطهم على جزر البليار ؛ وكانت أساطيلهم تغير على الشواطىء الاسلامية فى اسبانيا وأفريقية . وبفضل الصليبيين ، حصل الغرب أيضا على سيادة مماثلة ، على سواحل سورية وفلسطين . واستطاع الغرب ، ممثلا فى البنادقة ، أن يسيطر على معظم المياه البيزنطية فى بحر ايجه وعلى طول شواطىء بلاد اليونان ، والشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى . وبهذا وقع طرفا طريق التجارة الدائرية الهامة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، فى قبضة الأوربيين الغربيين . وبذلك كله سيطروا ، من وجهة النظر البحرية ، على معظم المراكز الاستراتيجية الهامة فى البحر المتوسط ؛ مما اضطر معظم السفن التى كانت تجوب مياه البحر وقتذاك الى أن تؤدى لهم الاتاوات . وأمكن لهم أن يسيطروا على الطرق الدولية فى البحر المتوسط وهى التى طالما سيطر عليها البيزنطيون والمسلمون من قبل . والأمر الذى يلفت النظر بصفة خاصة فى هذه المسألة ، هو سيطرة الغرب على المسالك المؤدية بين شرق البحر المتوسط وغربه . وكان هذا بفضل تغلب النورمانديين على مالطة وصقلية وجنوب ايطاليا . ومنذ ذلك التغلب تم انفصال مسلمى الأندلس عن القوات الاسلامية الشرقية فى مصر والشرق الأدنى . ويقال مثل هذا تماما عما أحدثه قيام الامارات الصليبية من الفصل بين بيزنطة وبين الأراضى الاسلامية فى الشرق ، الا عن طريق أملاك السلاجقة .

يبقى بعد هذا أن ندرس مسألة الحياة الاقتصادية والتجارية فى عالم البحرين المتوسط والأسود خلال فترة الانتقال هذه ، المليئة بالفوضى والانقلاب العنيف . وربما كان مسلمو شمال افريقية أكثر تأثرا بتلك

الأحداث ، اذ كان لانفصال الفاطميين عن الزيريين أثره المباشر على الأوضاع الاقتصادية . وكان من أهمها اصدار أمراء القيروان فى سنة ١٠٤٩ مرسوما يحرم تداول العملة الفاطمية فى أملاكهم [٧٣] . وربما كان لهذا التحريم أثر ضار بالتجارة بين مصر وبين سوسة وصفاقس والمهدية ، كما أنه ربما قلل من الوساطة التى كان يقوم بها تجار المغرب فى التجارة الدولية بالبحر المتوسط . واذا صح ذلك ، فان الحماديين فى بجاية أفادوا من هذا المرسوم أول الأمر ، اذ انتقلت التجارة الى أملاكهم بدليل ما أورده البكرى (١٠٦٧ م) من أن التجار من العراق والحجاز ومصر وسائر بلاد المغرب كانوا يتوافدون على مملكة الحماديين [٧٤] .

ثم ازدادت أحوال التجارة سوءا بشمال افريقية بعد عام ١٠٥٤ م ، ذلك أن غزوات العرب الهلالية أحلت الخراب والدمار محل الخصب والنماء فى الوديان الواقعة بين قابس وبين بونة ، وخرب البدو والمغيرون ونهبوا الأراضى الزراعية فى ذلك الاقليم ، ولاقت الصناعة نفس المصير المحزن تقريبا ، بعد ما بذل فى تنظيمها منذ القرن التاسع من عناية . والحقيقة أن الأنظمة الدقيقة التى وضعها القرطاجيون والرومان للرى والزراعة بتلك البلاد ، لم يدركها الفساد والانحلال الا فى أواخر القرن الحادى عشر وليس قبل ذلك . ولا تزال تونس حتى اليوم تطلعنا على الخراب الذى تستطيع الجماعات البدوية أن تنزله بأخصب الأرض [٧٥] .

ولم يقف عمل البدو عند حد تخريب مراكز التجارة والصناعة فى تونس ، بل تجاوز ذلك الى قطع طريقين هامين من طرق القوافل الواصلة عبر الصحراء بين الغرب وبين السودان والنيجر ، وهى الطرق التى يمر أحدها بواحة أوجله والثانى بواحة غدامس . ونتج عن ذلك أن وقف تدفق الذهب لذلك القسم من بلاد المغرب . وفوق هذا فان

خط البريد المنظم الذى كان يربط سبتة بالاسكندرية توقف هو الآخر عام ١٠٤٨ ، لتعذر حماية الأربطة والحصون الواقعة على طول الطريق من غارات البدو [٧٦] . ولم يبق هناك سوى اتصال ساحلى بين طرابلس وبونة وبين أملاك بنى حماد الجبلية وهى الجهات التى احتفظت برخائها فى شمال افريقية ، ذلك الرخاء الذى قامت عليه دول الأغالبة والفاطميين والزيريين . وحدث كذلك انتقال قبائل البربر البدوية من مواطنها فى الداخل واستعرابها عن طريق اتصالها بقبائل بنى هلال وبنى سليم [٧٧] .

لم يعد غريبا اذن ، فى ضوء هذه الاعتبارات ، أن يتدهور شـأن تجارة المغرب البحرية ، ولو أنها لم تختف تماما . والذى حدث هو أنها انتقلت شيئا فشيئا الى أيدى الأوربيين الغربيين وعلى الأخص الايطاليين . وتدل المعـاهدة التى تمت بين روجر ملك صقلية وبين تميم أمير المهدية عام ١٠٧٥ م ، على سرعة تنظيم العلاقات بين الأقطار البحرية الافريقية وبين صقلية تحت حكامها الجدد . وتدل شروط الاتفاقية المعقودة بين أمير المهدية سالف الذكر وبين الأسـاطيل الايطالية الظافـرة التى هاجمت المهدية عام ١٠٨٧ ، على وجود نشاط تجارى لتجار الغرب بالمياه الافريقية ؛ بدليل ما وعد به الأمير فى تلك الشروط من عدم التعرض لسفنهم . والمعروف عن حكام بجاية أنهم أقاموا علاقات تجارية واسعة النطاق مع الايطاليين ، وترجع هذه العلاقات الى بداية القرن الثانى عشر ، وربما الى ما قبل ذلك [٧٨] .

غير أن الأحوال اختلفت فى الأندلس عنها فى شمال افريقية ولا سيما بعد عام ١٠٨٦ م . ذلك أن المرابطين لم يكونوا ، من وجهة النظر الاقتصادية ، هدامين اطلاقا . وعلى هذا فقد ظلت أملاكهم ، سواء فى المغرب الأقصى أو ببلاد الأندلس ، على ماكانت عليه من رخاء فى ميدانى الزراعة والصناعة. يضاف الى هذا انهم كانوا يسيطرون على سجلماسة وهى نهاية طريق معظم

القوافل الغربية الى ذهب بلاد السنغال . وقد استمر فيضان الذهب عبر هذا الطريق ، بعد أن انقطع وروده عن طريق المسالك الصحراوية الغربية . وظل دينار المرابطين الذهبى ، وكان يعرف باسمهم ، مستخدما لعدة قرون كأهم عملة ذهبية فى الغرب [٧٩] . وكان هذا الرخاء الذى ساد أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم ، هو الدعامة التى ارتكزت عليها حضارة المسلمين الرفيعة بالأندلس فى القرن الثانى عشر [٨٠] .

ومن الراجح أن هذه المرحلة بالذات ، وعلى الأخص بعد عام ١٠٨٦ شاهدت ازدياد التجارة بين ممتلكات المرابطين وبين سائر بلاد أوربا اللاتينية فى الغرب ، ولم تنقطع التجارة رغم غارات الايطاليين . وان العملة التى سكت وقتذاك فى قطلونية ومنبلييه [٨١] ، وهى العملة المعروفة باسم الدينار المنقوش لتدل على قيام تجارة نشيطة بين تلك الجهات وبين مسلمى الأندلس وشمال افريقية [٨٢] . وقد استحوذ تجار جنوه وپيزا ، على قدر كبير من تلك التجارة خلال القرن الثانى عشر .

ومعلوماتنا عن الشرق أقل بكثير من معلوماتنا عن الغرب ، فى هذه الفترة . والظاهر أن مصر وسورية الفاطميتين ، استعادتا فى أواخر القرن الحادى عشر ، قدرا كبيرا من رخائهما السابق بفضل اصلاحات بدر الجمالى ، بعدما طحنتهما الفوضى والأزمات فى الفترة ما بين ١٠٦٠ ، ١٠٧٥ م . ومع ذلك فان انخفاض سعر الدينار الذهبى الفاطمى ، ليدل على انخفاض مستوى الرخاء فى ذلك الاقليم [٨٣] . ويحتمل أن يكون مرجع ذلك الى قلة الذهب الوارد لمصر من شمال افريقية بسبب الانقسام الحادث بين الفاطميين وبين الزيريين وقتذاك ، أو بسبب حركات الهلالية وقطعهم طرق القوافل الذاهبة جنوبا الى السودان . والراجح أن تجارة مصر مع بلاد المغرب كانت أقل أهمية بعد عام ١٠٥٢ م عنها قبل ذلك . وليس هناك

من دليل ، حتى الآن ، على تدهور التجارة بين مصر وبين بلاد النوبة والبحر الأحمر. كذلك ظل الاقتصاد السورى سليما لم يصب بسوء ، رغم ما نشب هناك من حروب أهلية ، ورغم غزوات السلاجقة. وعندما استولى الصليبيون وحلفاؤهم الايطاليون أهل المدن البحرية ، على المدن الساحليـــة بين غزة والاسكندرونة ؛ وجدوا مخازن التجار مليئة بالبضائع والتوابل وســائر نفائس الشرق. وهذا كله دليل على استمرار مصر فى علاقاتها التجارية مع بلاد فارس والهند والصين [٨٤].

وربما كان حظ الامبراطورية البيزنطية من الرخاء ، دون حظ سورية ومصر. اذ يبدو أن هجمات سلاجقة الأتراك وغارات قبائل التركمان فى جنوب روسيا أدت الى اضطراب طرق التجارة القديمة الواصلة الى طربيزون وخرسون. يضاف الى هذا أن التجار الايطاليين استأثروا لأنفسهم حتى قبل عام ١٠٨١ ، بخير ما تدره تجارة القسطنطينية مع الغرب. وان الرقابة الحكومية بأنواعها على الشئون الاقتصادية ، قد انتهى معظمها قبل أيام الكسيوس كومنين. وان المعارضة التى قوبل بها احتكار ميخائيل السابع لتجارة القمح بالعاصمة عام ١٠٧٣ م ، لتدل على مقدار التحول الذى بلغته الأمور منذ أيام ليد براند الكريمونى [٨٥]. أى ان القاعدة الآن هى حرية التجارة ، ولم يعد فى الامكان اعادة النظام القديم.

والأمر الأكثر خطورة من وجهة نظر مستقبل بيزنطة الاقتصادى ، كان تطورا آخر لاحظنا وجوده آنفا ؛ ذلك هو اتجاه التجارة العالمية نحو التحول عن الأناضول وأقاليم البحر الأسود ، واتخاذها الطريق الغربى المباشر ، طريق مصر وسورية. وأن ظهور كثير من السفن — حتى قبل أن تبدأ الحروب الصليبية — التابعة لبارى وأمالفى والبندقية ، فى الاسكندرونة (ميناء أنطاكية) وفى المدن الساحلية الأخرى التابعة للمسلمين فى سورية

ومصر ، يدل على انتقال حركة التجارة صوب الجنوب ، بعيدا عن فلك القسطنطينية . والواقع أنه طالما كانت بيزنطة قابضة بيدها على كريت وقبرص ، وطالما كان لها أسطول قوى ؛ فانها استطاعت دائما أن تأخذ بنصيب من أرباح تلك التجارة . لكن بعدما ضاعت أنطاكية عام ١٠٨٦ ، وبعدما حصل البنادقة على امتيازاتهم التجارية عام ١٠٨٢ ، فان التجارة أخذت تبتعد عن المناطق الخاضعة لبيزنطة . وتعتبر الحرب الصليبية ، المرحلة الأخيرة فى اتصال الغرب اللاتينى بالشرق الاسلامى مباشرة ، أى دون تدخل القسطنطينية . وادراك هذه المسألة يفسر لنا سبب سعى أسرة كومنين فى القرن التالى سعيا حثيثا لانشاء نوع من الاشراف على أنطاكية ، وكيف أنها لم تعبأ كثيرا بطرد السلاجقة من آسيا الصغرى . ذلك لأن البيزنطيين كانوا ، يسعون للحصول على ما تدره التجارة من أرباح (٨٦) . لا على مجرد امتلاك الأراضى .

وتحول طرق التجارة هذه نحو الجنوب ، حتى قبل أن يدعمه استقرار الصليبيين فى الرها وسورية ، يفسر فقدان طربيزون وخرسون لكثير من أهميتهما . كما أنه يفسر أيضا ، كيف أخذت مملكة الفارنجيين ، وطريق التجارة الفارنجية ، فى التدهور والذبول ابتداء من ذلك الوقت ، وكان التحول أقوى فى ذلك أثرا ، من الغارات البدوية فى جنوب الروسيا ؛ وهكذا تحولت طرق التجارة العالمية عن منطقة البحر الأسود الروسية .

ولكن القسطنطينية ظلت حتى ذلك الحين مدينة عالمية كبرى تنعم بالرخاء والثروة ؛ ومركزا هاما لشتى المنتجات الصناعية الفاخرة التى يحتاج اليها عالم البحر المتوسط ؛ كما تؤيد ذلك أقوال بنيامين التطيلى فى القرن التالى (٨٧) . على أن استمرار قيام الأزمات الاقتصادية فى عهد أسرة كومنين (٨٨) ؛ وجمع التجار الايطاليين فى أيديهم للقدر الأكبر من أرباح

الوساطة التجارية ، يدلان على ضآلة ما بقى من ثروة بيزنطة فى أيدى أباطرتها وأيدى أهليها ، ابتداء من ذلك الوقت . وقد غدت بيزنطة حول عام ١١٠٠ م منطقة استغلال اقتصادى لصالح التجار الغربيين ، مثلما كان الغرب تماما منطقة استغلال اقتصادى للسوريين واليونانيين ، أيام جستنيان .

ويمكن القول انه حدث تطور مماثل ، الى حد ما ، فى بلاد الشرق الاسلامى اذ بدا أن حكام مصر ، حتى قبل مجىء الصليبيين أخذوا يتخلون عن محاولة الاحتفاظ بأسطول تجارى فى البحر المتوسط . يضاف الى هذا أن خراب شمال افريقية على يد الهلاليين ، واستيلاء النورمان على صقلية قضيا على ما كان للمغاربة ومسلمى صقلية من وساطة فى الحركة التجارية مع سورية وبلاد الشرق . وأسرع الايطاليون فحلوا محلهم فى ذلك . ولم تكن الحروب الصليبية الا قمة ذلك التحول ، فبعد عام ١١٠٠ م أصبحت بضائع فلسطين وسورية ومعظم بضائع مصر ، تنقل على سفن تابعة للغرب .

يبقى علينا أن نتكلم عن أوربا اللاتينية ذاتها . كانت بلا شك أكثر من استفاد من التطور الذى حدث . ولم تقتصر هذه الاستفادة ، على احتكار التجار الايطاليين لمعظم تجارة البحر المتوسط البيزنطية والسورية والمصرية فحسب ، بل انتفعوا أيضا من الفرص التى أتاحها لهم استيلاء النورمان على جزيرة صقلية الغنية ذات الموارد الزراعية والصناعية الضخمة . وكما لاحظنا من قبل ، تقدمت أيضا تجارتهم مع مسلمى شمال افريقية والأندلس ، ولكن ذلك كان دون ما بلغه تقدمها فى القرن التالى .

ومن التطورات الهامة التى حدثت ، قيام بيزا وجنوه تدريجيا بالوساطة التى كانت تقوم بها مدن كمپانيا وهى : أمالفى وسلرنو وجايتا ونابلى

فى تجارة الغــرب المسيحى العالمية . ولم يكن ذلك لأن ملاحى شــمال ايطاليا كفوا عن أعمال القرصنة [٨٩] ؛ ولكن كان ذلك لأنه حدث منذ سنة ١١٠٠ م أن حلت التجارة المعتمدة على رأس مال ، محل الغارات القرصنية ، وان كان رأس المال هذا لم تراع النزاهة كثيرا فى جمعه ؛ وصارت التجارة بهذا نشاطا اقتصاديا رئيســيا [٩٠] . ويغلب أن تكون الحركة الصليبية هى نقطة التحول فى هــذا الموضوع . فقد بدأت پيزا وچنوه تسهمان مع البندقية وبعض المدن الأخرى فى نقل الحجــاج الى الأراضى المقدسة . وتسهمان كذلك فى نقــل توابل الشرق وبضائعــه الأخرى الموفورة فى المدن الساحلية فى فلسطين وسورية . وصارتا المنافس الأول للبندقية فى المياه الشرقية ؛ وظلتا على هذه الحال طوال ما بقى من العصور الوسطى .

وكان لظهور قوة پيزا وچنوه البحرية والاقتصادية فى شطرى البحر المتوسط الشرقى والغربى ، أثره الواضح على سير التجارة الأوروبيــة . وقد قام تجار المدينتين بحمل بضائع الشرق وبضائع الجهات الأخرى الى الشواطىء الأوربية ، بين برشلونة ونهر التيبر . وقيامهم بهذا العمل معناه انتعاش الحياة الاقتصادية فى تلك الجهات ، ونسوق بعض الأمثلة عــلى نتائج هذا العمل بالنسبة لغرب أوربا : فبرشلونة مثلا لم تكن فى القرن العاشر مدينة تجارية اطلاقا [٩١] . ثم تغير وضعها الاقتصادى بين عامى ١٠٥٤ و ١٠٧٤ ، مما دعا الى وضع قانون بحرى لها [٩٢] . ومونبلييه وناربون زادت تجارتهما أهمية ودفعهما هذا الى عقد معاهدة تجــارية بينهما عام ١٠٨٥ [٩٣] . وتأثرت منطقة مونبلييه ، الواقعة على مدخل طريق نهر الرون ، تأثرا مباشرا بالانتعاش الذى سرى فى طريق الرون التجارى . وغدت مونبلييه مدينة كبيرة ، وأحيطت بالأسوار عام ١٠٩٠ [٩٤] . وانتقل أسقف ماجلون من

الداخل وجمع قساوسة كنيسته وبدأ يعيد بناء ماجلون التى تخربت فى القرن الثامن [٩٥] ، فأنشئت الجسور ، وجرت المفاوضات حول عوائد المرور ، وعادت للعملة أهميتها بالنسبة لأولئك المسئولين عن حق سكها[٩٦] واستعادت مرسيليا أهميتها كميناء .

وأخذ التجار الايطاليون ، يكثر ترددهم على بلاد شمالى أوروبا . ونذكر فى هذا الشأن احتجاج البابا جريجورى السابع عام ١٠٧٤ لدى فيليب الأول ملك فرنسا على خداعه لعدد من الايطاليين المقيمين فى أملاكه [٩٧] . ولم يهمل شأن ممرات الألب الواقعة شمال وادى نهر پو ، فقد حمل التجار الايطاليون عن طريقها الأقمشة المنسوجة فى الشمال الى مدينة جنوه عام ١٠٩٥ [٩٨] . وازدادت التجارة فى كل مكان وعلى كل طريق ، وسلكت تجارة الشرق طريق الرون وممرات الألب وحوض الدانوب وسكن المجر بعد اضطراب ، واعتنق أهله المسيحية وأصبحوا جزءا من الحضارة الغربية ، وعبر الصليبيون بلادهم فى طريقهم الى الأراضى المقدسة وكان للمجريين حى خاص بهم أيضا فى القسطنطينية[٩٩] .

ويستدل على قيمة هذه العلاقات التجارية مع الشرق ، من ازدياد كميات الذهب ببلاد الغرب فيما وراء ايطاليا . فمثلا استطاع أحد الأديرة فى اللورين أن يقرض أميرة هينولت عام ١٠٧١ م ، قرضا قدره ٥٠٠ بيزنط من الذهب [١٠٠] . وكان رئيس ديرسان لوران قرب ناربون يملك أوقية من الذهب عام ١٠٦٠ م . [١٠١] . وسكت قطلونية الدينار المنقوش ونقشت عليه اسم أميرها [١٠٢] . وكذلك فعلت ملجيل Melgeuil عام ١٠٨٠ م [١٠٣] . وفى أغنية رولاند ، التى ترجع الى ذلك الوقت ، كثرت الاشارات الى العملات الذهبية مثل البيزنط والمانجون والدينار المنقوش . وسادت بين الناس فى نورماندیا عام ١١٠٠ م ، معرفة البيزنط الذهبى [١٠٤] . وهذه

كلها دلائل تشير الى ازدياد اندماج غرب أوربا فى تجارة البحر المتوسط العالمية ، الى ازدياد تحول نظامها النقدى تدريجيا من قاعدة الفضة الى قاعدة الذهب .

واذن فقد أصبح الغرب اللاتينى حول عام ١١٠٠ يملك زمام أمره . فمن وجهة النظر البحرية أصبحت لسفنه السيادة على معظم جهات البحر المتوسط فيما بين شاطىء الأندلس وسورية . ووقعت فى حكم شعوبه القواعد البحرية التى مكنت أساطيله من أن يكون لها أثر فعال . وغدت مدن ايطاليا بالذات ، مراكز الوساطة الكبرى، فى التجارة بين الشرق والغرب . وأعاد الايطاليون على نطاق واسع ، سير التجارة الى طريق حوض الرون ، مع بقاء ممرات الألب محتفظة بأهميتها ، ونشطت الحياة الاقتصادية على طول الشواطىء الممتدة بين برشلونة وبين مصب نهر التيبر . وربطت التجارة العابرة لهذا الاقليم نحو الشمال ، كلا من فرنسا وبلجيكا وانجلترا ، ربطا محكما بالبحر المتوسط ، كما كان الحال تماما أيام الرومان والميروفنجيين مع فارق كبير بين الحالين ، وهو أن الشرق الاسلامى البيزنطى قد أصبح الآن اقليما سلبيا من وجهة النظر التجارية بينما أصبح الغرب العامل التجارى الفعال . وبدأ مسلمو الأندلس وشمال افريقية يخضعون للنفوذ الاقتصادى الأوربى الغربى . وغدا غرب أوربا سيد الموقف ، والآمر الناهى فى حوض البحر المتوسط ، بينما انتقلت دول المسلمين والبيزنطيين الى مركز ثانوى . وهكذا وضعت الأسس الاقتصادية التى ستقوم عليها الحضارة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ والتى مهدت للسيطرة التى اكتسبتها أوربا الغربية الحديثة منذ ذلك الحين فى الشئون البحرية والاقتصادية والصناعية والتجارية .

وما حل عام ١١٠٠ م ، الا وكانت أوربا التى كونتها فى القرنين الثامن والتاسع الكنيسة اللاتينية والأسرة الكارولنجية قد بلغت أخيرا مرحلة الرشد .

حواشى الفصل السابع

١ – Wiet, Egypte Arabe, p. 130-33.
٢ – At Tigani in Journ. Asiat. (1852) II, 91.
٣ – Ibn Khaldun Hist. des Berbères I, 31. Ibn Adhari I, 411., Ibn-al Athir I, 454-55.
٤ – Marçais Berbèrie, p. 168-71.
٥ – Ibn Adhari I, 418.
٦ – Ibn Khaldun I, 17, 44. Amari Storia II, 415.
٧ – Marçais Berbèrie p. 194-6.
٨ – Ibn Khaldun I, 44, II, 29, 39, Gautier Les Siècles Obscurs du-Magreb, p. 385-94.
٩ – Ibn Khaldun II, 31.
١٠ – Al Marrakeshi Hist. des Almohades trans. Fagnan (Alger 1893), p. 385.
١١ – Ibn Khaldun II, 33-39. Ibn Al Athir I, 470. Ibn Idhari I, 445. Marçais op. cit., p. 196-98.
١٢ – Marçais op. cit., p. 199-200.
١٣ – Ibn Al Athir, p. 472. Al Bakri, p. 105.
١٤ – Ibn Khaldun II, 75. Roudh al Kaitas Hist. des souverains du-Magreb et Annales de la Ville de Fez, trans. Paumier, p. 199.
١٥ – Mas Latrie Traités de Paix, p. 26. Burke A History of Spain-2nd. Ed. (London 1920), p. 202-03.
١٦ – Burke op. cit., p. 203-05.
١٧ – كانت مفاوضـــات مصر للحصول على القمح من بيزنطة نتيجة للمجاعة القاسية التى انتابتها • ونتج عن تلك المجاعة أيضا اغارات كثيرة من قبل جماعات البدو . انظر :
Wiet op. cit., p. 225-29, Lane-Poole, Egypt, p. 142-43.
١٨ – Wiet op. cit., p. 238-40. Lane-Poole, op. cit., p. 147-48.
١٩ – Wiet op. cit., p. 242-45.

٢٠ ـ المرجع السابق ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

٢١ ـ المرجع السابق ص ٢٤٨ ـ ٢٥٤ .

٢٢ - Zonarius Epist. Hist. ed. Bonn (1897) III, 627, 653.
Psellsus Chron. I, 151-53.

وفيما يتعلق بتدهور حال الاسطول يمكن الاطلاع على ما كتبه :

Neuman, C. "Die Byzantinische Marine; Ihre Verfassung und ihr Verfall" in Hist. Zeit. (1898) XLV.

٢٣ - Runciman Byz. Civ., p. 147.

٢٤ - Vasiliev Byzantine Empire II, 23-25.

٢٥ - Cedrenus II, 652, 668-74.

٢٦ - Vernadsky Kievan Russia (New Haven) 1948, pp. 22, 42-47.
Der Nersessian Armenia and the Byzantine Empire, p. 11.

٢٧ - Vernadsky, op. cit., p. 118.

٢٨ - Al Makkari II, 257.

٢٩ - Mas Latrie op. cit., 8-9.

٣٠ - Merangone Ann. Pisa in MGH Script. XIX, 238.
Chron. Var. Pisa in Mur. Rer. Ital. Script. VI, 161.

٣١ - Gauf. Malaterra in op. cit., V, 569, 590.

٣٢ - Ibn Khaldun II, 24. Ibn al Athir I, 487-88.
Marangone, p. 239. Malaterra, p. 590.

٣٣ - Al Makkari I, 228.

٣٤ - Hitti History of the Arabs, p. 540.

٣٥ - Dozy Recherches II, 35.

٣٦ - Lopez "Orig. du Capit. Génois", p. 445-57.

٣٧ - Ibn al Athir I, 502.

٣٨ - Amari Storia III, 30-41. Haskins The Normans in European History (New York 1915), p. 200-1.

٣٩ - Amari Storia III, 50-54. Haskins op. cit., p. 203-04.

٤٠ - Haskins op. cit., p. 202, 206-07.

٤١ - Amari Storia III, 55-75.

٤٢ ـ المرجع السابق ص ٧٩ ـ ٨١ .

٤٣ - Ibn al Athir I, 503. Nuwairi II, 273.

٤٤ - Amari Storia III, 112.

٤٥ - Malaterra op. cit., in Caruso Bib. Sic. I, 159, 198-99.

٤٦ - Amari Storia III, 120-33.

٤٧ - Mas Laterie op. cit., p. 28-29 for provisions of this treaty.

٤٨ - Amari Storia III, 149-51.

٤٩ ـ المرجع السابق ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

٥٠ ـ المرجع السابق ص ١٦١ ـ ١٦٧ .

٥١ ـ المرجع السابق ص ١٦٨ ـ ١٧٦ .

٥٢ ـ وفيما يتعلق بالمحاولة الفاشلة التى قامت بها بيزنطة للاستيلاء على مالطة عام ١٠٤٠ م انظر : المرجع السابق ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ،
Amari Storia II, 485.

٥٣ - Taf. et Thom. I, 135-38, 171-76. Annal. Jan. in MGH Script. XVIII, 108.

٥٤ - Haskins, op. cit., pp. 204, 213.

٥٥ - Dandolo Chron., p. 248.

٥٦ - Taf. et Thom. I, 41, 43.

٥٧ - Vasiliev Byzantine Empire II, 17-18.

٥٨ - Anna Comnena Alexiad trans. Corsi, p. 150. Cessi op. cit., p. 124-26.

٥٩ - Dandolo Chron., p. 24-28. Yawdale, R.B. Bohemond I, Prince of Antioch (Princeton 1924), p. 18-24.

٦٠ - Taf. et Thom. I, 51-54.

٦١ - Munro, D.C. The Kingdom of the Crusaders (New York, 1936), p. 30-35.

٦٢ - Munro, op. cit., p. 32. Krey, A.C. "Urban's Crusade-Success or Failure" Amer Hist. Rev. (1948)LIII

٦٣ ـ المرجع السابق ص ٣٢ .

٦٤ - Munro op. cit., p. 32-34. Krey op. cit., Charanis, P., "A Greek Source on the Origin of the First Crusade" Speculum (1949) XXIV.
حول اربان الثانى بمهارة اهتمام القوات الصليبية من حماية القسطنطينية الى فتح بيت المقدس وذلك فى الاجتماعات السرية وخاصة التى تمت فى فرنسا .

٦٥ - Cahen, C. La Syrie du Nord au Temps des Croisades (Paris 1940) p. 201-04.

٦٦ ـ المرجع السابق ص ٢٠٧ .

٦٧ ـ المرجع السابق ص ٢٠٩ ـ ٢٢٦ .

٦٨ ـ وعن السفن اليونانيـــة والانجليزية والفلمنكية انظر المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ .

٦٩ – Hazlitt, Venice I, 145-46.

٧٠ – Munro op. cit., p. 21-24.

٧١ – Al Kalkashandi Die Geographie und Verwaltung von Aegypten trans. Wustenfeld (Berlin 1879), p. 171-72.

٧٢ – Munro op. cit., p 83-85. On Egyptian neutrality see Cahen op. cit., p. 213-14, 221-22.

٧٣ – Marçais Berbère, p. 170-71.

٧٤ – Al Bakri, p. 105.

٧٥ – Marçais Berbèrie p. 208-14.

٧٦ – Al Marrakeshi, p. 299. Lombard op. cit., p. 150-151.

٧٧ – Gautier op. cit., p. 385-94.

٧٨ – Lopez "Le facteur économique dans la politique Africaine des Papes" in Rev. Hist. (1947) CXCVII, 178-86.

٧٩ – Lopez "Orig. du Cap. Gén.", p. 446-47.

٨٠ – Hitti History of the Arabs, p. 557-601.

٨١ – Bloch "Le probléme d'or", p. 20-21.

٨٢ – Hist. Gén. de Languedoc new ed. v., 346.

٨٣ – Lane-Poole Egypt, p. 147-48.

٨٤ – Munro op. cit., p. 77.

٨٥ – Bratianu, G., "Le monopole de blé" in Byzantion (1934) IX, 643-62.

٨٦ ـ وهـذا الهدف السياسى الذى جرى وراءه أباطرة أسرة كومنين ظل غير مفهوم أمدا طويلا . والحقيقة أن دخل بيزنطة من جزيرة قبرص ارتفع فى القرن الثانى عشر الى ٧٠٠ أوقية من الذهب فى العام . وهو قدر يدل على أهميتها التجارية .

Arnold of Lubeck : Chron. Slav. in MGH Script. XXI, 178.

٨٧ – Benjamin of Tudela Travels in Contemporaries of Marco Polo ed. Komroff (New York 1928), p. 264-66.

٨٨ - Runciman Byzantine Civilization, p. 177.

٨٩ - On 12th Century buccaneering at Genoa see Lopez Dieci Documenti della Guerra di Corso (Milan 1938).

٩٠ - Lopez "Orig. du Cap. Gén.", p. 446-51.

٩١ - Dupont op. cit., p. 29-30.

٩٢ - Poumaride Les Usages de Barcelona, p. 58-62.

٩٣ - Cart. des Guillems ed. Germain (Montpellier 1884-86), p. 169-70.

٩٤ - Guiraud, L. "Recherches topographiques sur Montpellier au Moyen Age" in Mém. Soc. Arch. Mont. 2nd ser. I, 92.

٩٥ - Arnaud de Verdale op. cit., pp. 508-510.

٩٦ - Cart. des Guillems, p. 98-99. Cart de Gellone, pp. 23, 267, 293, 332.

٩٧ - Jaffé Registrum II, 115, 132-, 146.

٩٨ - Schaube op. cit., pp. 65-66, 89-96.

٩٩ - Heyd op. cit., p. 82-84.

١٠٠ - Bloch op. cit., p. 14-15.

١٠١ - المرجع السابق ص ١٢ - ١٣ .

١٠٢ - المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١ .

١٠٣ - Hist. Gén. de Languedoc V, 346.

١٠٤ - Deslisle, L. in Bibl. de l'Ecole des Chartes (1848-9) V, 207.

الخاتمة

ان التبدلات والتغيرات التى حدثت فى ميزان القوى البحرية والاقتصادية فى عالم البحرين المتوسط والأسود ، بين عامى ٥٠٠ و ١١٠٠ م، شاهدت انتصار غرب أوربا على دولتى المسلمين والبيزنطيين ، أى انتصار أقل أقطار هذا العالم قوة خلال تلك القرون . ان هذا أمر عجيب حقا ، انه لم يكن أمرا منتظرا ، وكان فى ذلك شبيها بانتصار روما على عالم البحر المتوسط قبل ذلك بحوالى ألف عام . وبهذا الانتصار بدأ نمو حضارة غرب أوربا الى أن بلغت وضعها الحالى على رأس العالم .

على اننا لا يصح أن نتصور أن انتصار غرب أوربا عام ١١٠٠ ، كان كاملا ونهائيا . فقد شاهد القرن التالى ثلاث صحوات أو ثلاث انتفاضات أكيدة فى ثلاثة من مراكز القوى البحرية والاقتصادية السابقة فى عالم البحر المتوسط . فقد استجمع المسلمون فى الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة افريقية أندلسية اسلامية متحدة ، هى دولة المرابطين ، ثم دولة الموحدين . وفى أيام هاتين الدولتين أعاد الأندلس والمغرب والجزائر بناء الأساطيل ، وتخلص شمال افريقية وجزر البليار من النفوذ الأوربى ، وحصلت هذه الأقطار جميعا من جديد على قدر كبير من الرخاء الاقتصادى . وبلغت الحضارة فى هذا الوقت بالذات أرفع مستوياتها فى الأندلس . وشبيه بهذا ما حدث فى مصر وسورية اللتين اتحدتا تحت زعامة صلاح الدين وأصبحتا دولة عظيمة الرخاء قوية السلطان ، وأصبح جيشها قادرا على طرد الصليبيين من الداخل وحصرهم فى سواحل فلسطين وسورية . واذا

كانت مملكة صلاح الدين لم تبلغ — فيما هو محتمل — المستوى العقلى الرفيع الذى بلغه المسلمون فى الأندلس ، فان حضارة مصر وسورية على أية حال ، كانت رفيعة جدا . وكذلك بيزنطة استعادت فى ظل حكامها من أسرة كومنين قدرا كبيرا من السلطان السياسى والاقتصادى والحربى . أما أفضالها وجهودها فى الميدان الحضارى ، ولا سيما فى مجال الفنون ، فقد كانت جديرة بنفس القدر من التنويه الذى كان لها فى أيام جستنيان ، أول الأباطرة المقدونيين .

ولم يمكن ، حتى القرن الثالث عشر تسديد ضربة قاصمة لدولتين من الدول الثلاث التى انتعشت قوتها ، على الوجه الذى شرحنا ، حتى باستيلاء المسيحيين على جميع الأندلس ما عدا مملكة غرناطة ، أو بتحطيم الحملة الصليبية الرابعة لقوى بيزنطة . وقد أدى هذان الحادثان الى ربط الشواطىء الأطلنتية الأوربية الغربية بالبحر المتوسط عن طريق جبل طارق ، والى فتح البحر الاسود للأساطيل التجارية الايطالية . ولكن اختفت فى تلك الأثناء الامارات الصليبية ، ووقعت فى حكم الدولة المصرية أيام السلاطين المماليك ، ولم يبق من أثر لممتلكات اللاتين فى الشرق سوى جزيرة قبرص .

على أنه يجب أن نلفت النظر الى أن القوة البحرية والاقتصادية للأيوبيين فى مصر ، والكومنينيين فى بيزنطة والمرابطين والموحدين فى الأندلس ، كانت محلية فى طبيعتها . ولا جدال فى أن هذه القوى الثلاث ظلت فى عنفوانها من الناحية الحضارية ، ولكنها لم تهدد بصفة جدية ، سلطان غرب أوربا وسيادته على البحر المتوسط وتجارته . بل ان الذى نافس بيزا وجنوه والبندقية منافسة يعتد بها ، كان المراكز البحرية الجديدة فى الغرب أمثال برشلونة ومونبلييه ومرسيليا . وصارت بعد عام ١١٠٠ أنفذ

منافسة من البيزنطيين ومسلمى الأندلس ومصر. على أن هذه المراكز البحرية الجديدة لم تزحزح السفن الايطالية والتجار الايطاليين عن السيطرة على البحر المتوسط ؛ فظل أهل پيزا وچنوه والبندقية ، حتى سنة ١٥٠٠ ، على ما كانوا عليه فى سنة ١١٠٠ م ؛ أى أصحاب النصيب الأوفر من ملاحة البحر المتوسط وتجارته. ولم يتأثر مركزهم هذا الا فى القرن السادس عشر عندما انتقل الزمام من أيديهم الى الاسبانيين ، والبرتغاليين والفرنسيين والانجليز والهولنديين. وكان ذلك بعد أن امتدت طرق النقل والتجارة الأوربية الى أركان المعمورة الأربعة.

ملاحق

١ ـ العوامل الخفية غير المعروفة

قد تكون دراسة القوة البحرية وما أحاط بها من ظروف اقتصادية فى عالم البحر المتوسط بين عامى ٥٠٠ و ١١٠٠ م ، مما ينفع كثيرا المعنيين بتاريخ هذه المرحلة من المؤرخين . ولكن هذه الدراسة لا يمكنها وحدها أن تحل الكثير من القضايا المعقدة التى تعرض لهم . فلا تزال هناك أسئلة كثيرة لم نجب عنها ، وربما كانت هذه هى أهم الأسئلة جميعا . ويرجع ذلك الى القوة البحرية والتطور الاقتصادى الذى كان نتيجة لما حدث من تغييرات فى ذلك الحين أكثر مما كان سببا لها . وهذه القوة وهذا التطور هما أثر لتلك العوامل الخفية التى تملأ الشعوب والحضارات عزما وقوة فى بعض الأزمنة ، أو تقودهم الى الفوضى والتدهور والانحلال فى أزمنة أخرى . وعلى ذلك فبينما تعين دراسة القوة البحرية والتطور الاقتصادى ، المؤرخ والقارىء المتفكر على تقدير متزن لطبيعة التغيرات وتطورها ، فانها تعجز عن اعطاء التعليل النهائى لما حدث .

ونذكر على سبيل المثال أن السياسة البحرية والحربية التى اتبعت ، أو العوامل الاقتصادية ، لا تستطيع أن تعلل فى الواقع سبب انهيار العالم الرومانى فى القرن السابع الميلادى ، الذى كان جستنيان قد أوجده من جديد . وليست السياسة أيضا أو العوامل الاقتصادية بمستطيعة أن تعلل سبب فشل الكارولنجيين فى القرن التاسع أو ملوك أسرة أتو فى القرن العاشر ، فى اعداد القوة الكافية للحصول على نفوذ فى عالم البحر المتوسط ،

الخاضع لسيطرة بيزنطة والاسلام ، على حين نجحت الأساطيل الايطالية ونجح المغامرون الاقطاعيون فى القرن الحادى عشر فيما عجز عنه الغربيون السابقون .

واذا انتقلنا لدار الاسلام لوجدنا دراسة السياسة والعوامل الأخرى ، أقل عونا فى اعطائنا اجابة شافية عن أسباب عجز المغرب الاسلامى ، خلال القرن الحادى عشر ، عن صد الجماعات البدوية . بينما استطاع المغرب فيما سبق أن يتغلب على حركات الخوارج فى القرن الثامن وعلى أنصار أبى يزيد من البدو فى القرن العاشر ، واستطاع ذلك مع أنه كان اذ ذاك أقل رخاء وأضعف بأسا . وهناك أسئلة أخرى من نفس الضرب : لم أخفق بنو زيرى ؟ ولم نجح الأغالبة والفاطميون ؟

وبيزنطة ، فى ارتفاعها وفى انخفاضها ، تثير هى الأخرى قضايا على نفس القدر من الخطورة . لم استجمعت هـذه الامبراطورية قوتها على عهـد الايسوريين لتواجه هجوم الأمويين ، على حين عجزت عن مقابلة خطـر المسلمين ، فى البحر خلال القرن التاسع وأوائل القرن العاشر وكان الخطر وقتها أضعف من الغزو الأموى ؟ وما تفسير سقوطها أواخر القرن الحادى عشر ، بعد الانتعاش الذى ظفرت به زمن الأباطرة المقدونيين ؟ من المؤكد أن انتصار الغرب ، أوثق ارتباطا بعوامل الضعف الخفية التى أصابت المجتمعين الاسلامى والبيزنطى فى القرن الحادى عشر ، منه بتفوقه الذاتى . ومع التسليم بذلك ، نعود فنسأل : ما أسـباب نمو عوامل الضعف هـذه ، أو ما هى حقيقتها بالضبط ؟

من الواضح أن دراسة جميع جوانب هذه الحضارات دراسة دقيقة كاملة ، أمر لازم يجب أن يسبق أية اجابة فاصلة عن هذه الأسئلة . وربما كانت دراسة التطورات الدينية والحضارية والفعلية خير ما يسلك لاستقصاء

جوانب هذه الحضارات . على أنه فى الوقت ذاته يجب ألا نغفل شأن الأنظمة والشئون السياسية والزراعية . فلا سبيل اذن الى فهم مظاهر التقدم أو النكوص للمجتمعات الغربية والاسلامية والبيزنطية فى مختلف العصور ، الا بالاحاطة بأفكار أفراد تلك المجتمعات والمواقف المختلفة التى وقفوها من مختلف القضايا .

وما القوة البحرية والحياة الاقتصادية ، الا جانبان اثنان من تاريخ ذلك التقدم وذلك النكوص .

وواجب المؤرخ ، مهما كانت الحال ، هو أن يقدر وأن يزن ، مهما بدا التقدير مؤقتا أو غير صائب . ويصح — تطبيقا لهذا الرأى — أن نتخذ من تدهور الحضارتين الاسلامية والبيزنطية فى القرن الحادى عشر موضعا نبدأ منه بحث علل الضعف كما برزت ونمت خلال القرون التى طواها هذا الكتاب .

فالوهن الذى أصاب بيزنطة ، والذى جرّ الى سقوطها المحتوم فى القرن الحادى عشر ، لا يرجع الى سوء الزعامة أو للنقص الذى اعترى تطور أنظمتها الاجتماعية ، بقدر ما يرجع الى علل أخرى ، يكشف عنها موقفها الجامد من العالم الخارجى ، وهو موقف الحذر المدافع . لقد ورثت بيزنطة هذا الموقف عن الامبراطورية الرومانية وزادت تمسكا به فى أيام جستنيان ، وفى أيام الصراع الذى دار بين حكامها الأيسوريين وبين الأمويين . وهذا الجمود تدلك عليه الحواجز الحضارية والاقتصادية التى أقامتها الدولة لتفصل ما بينها وبين العالم الخارجى . ولم تحارب بيزنطة أعداءها فحسب ، ولكنها ضربت على رعاياها حجابا كثيفا يحميهم من كل اتصال بالغير ، وأصبحت بيزنطة على هذا النحو دولة متحجرة تقاوم ما يمسها من ضغوط خارجية . وآل اتصالها الاقتصادى بالعالم الخارجى الى التجار الايطاليين

وسواهم من الأجانب ، فامتصوا عصارة حياتها ، بينما أخذت حضارتها فى النضوب حتى غدت شيئا لا غناء فيه . وأمست الدولة مثالا حيا لبقاء ما عفى عليه الزمن ، وظلت هكذا الى أن انهار النظام كله تحت ضغط ثقله .

وأما ما جرى فى دار الاسلام من اضمحلال القوة فأمره جد مختلف عن نظيره فى المجتمع الاسلامى . سقط العراق العباسى فى يد الترك وكذلك سورية ، وتدهورت مصر الفاطمية ، وانهارت افريقية الزيرية ، وتلاشى أمر الأمويين فى الأندلس من جراء العلل الداخلية . حصل كل هذا فى دار الاسلام ولكن لأسباب غير الأسباب التى ذكرت فى الكلام على بيزنطة . فان المسلمين اذ ذاك ، أو فيما بعد ، احتفظوا بحريتهم فى ميدان التطور الاقتصادى كما احتفظوا بحرية فى التطور العقلى والثقافى ، لا أثر لهما عند البيزنطيين . ان الاضمحلال الاسلامى كان أمرا سياسيا . وها هو ذا ابن خلدون ، أحكم فلاسفة علم الاجتماع عند المسلمين ، يدرك تماما طبيعة فشل قومه فيما مضى . ويشير الى أن تأثير البداوة فى شمال افريقية كان حاسما . وعبّر عن ذلك فى قوله : « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » ؛ وهو يقصد هنا العرب الرّحل أو أهل البداوة . ولاحظ كذلك اضطراب أمر الدول الاسلامية ، وقدر أن الدولة تبلغ مرحلة العجز فيما لا يزيد على تعاقب ثلاثة أجيال .

ولكن يبدو أن ابن خلدون لم يتعمق تعمقا كافيا . ذلك أن غارات البدو واضطراب الدول الاسلامية ، يرجع فى الحقيقة الى تفشى « الفردية » فى أوضاع المسلمين الاجتماعية ، وفى السياسة فيها بصفة خاصة . ومعنى هذا أن الارستقراطية العربية الاسلامية عموما ، لم تستخدمها الدولة الاستخدام الذى يؤدى الى تكوين طائفة الموظفين والجيش اللازمين لصالح

الشعب بأسره . فلم يكن للحكام المسلمين ما كان للرومان والبيزنطيين من نظم سياسية من نوع ما حرصت انجلترا وفرنسا على تنميته ورعايته . ولم يعرف التاريخ بين الحكام المسلمين الا عددا قليلا جدا من أمثال معاوية والمعز وعبد الرحمن الثالث ومن اليهم من ذوى الكفاية الفائقة ، استطاع أن يوجه صفة « الفردية » العربية الاسلامية هذه ، لخدمة الدولة .

ولكن أكثر الحكام — حتى ذوى الكفاية منهم — سلك مسلكا آخر . فعهدوا بشئون الحكومة الى الطوائف الدنيا فى المجتمع الاسلامى من اليهود والنصارى والعبيد . وقد اعتادوا أن يتخذوا زوجاتهم وحظاياهم من بنات تلك الطوائف ، وكان هذا أحد آثار نظامهم الاجتماعى السيىء ، المعروف بنظام « الحريم » وهو مما اقتبسوه من فارس الساسانية فى الأغلب. أما الجيش فكثر اعتمادهم على تكوينه شيئا فشيئا من جماعات العبيد والمرتزقة . ولا شك أن طوائف الموظفين الجنود ، المكونة على هذا النحو كانت تخضع لارادة الحكام على وجه لم تعرفه الارستقراطية العربية أبدا . ولكن الآثار التى ترتبت على هذا التنظيم لاداة الحكم والحرب بالنسبة للحضارة الاسلامية كانت وخيمة حقا . اذ كلما كان ينتهى حكم رجل عظيم الشخصية من رجال الأسرات الحاكمة ، ويخلفه على العرش رجل ضعيف ، كان العبيد والأدنياء الذين كانت بيدهم أزمة الحكومة والدفاع ، يعرفون انهم ليسوا خدم الأمير بل سادته ؛ وعندئذ يعلنون الفتنة ويعم الاضطراب والفوضى ، ويفتك الحماة بمن هم فى حمايتهم ، ويتحرك البدو لتخريب الحياة الاقتصادية التى تعتمد عليها تلك الممالك .

واذا كان مبعث فشل بيزنطة هو جمودها والتزامها جانب الدفاع فى الحياتين الاقتصادية والحضارية فان مبعث فشل المسلمين يكمن فى استخدامهم لنظام سياسى يقوم على تسلط العبيد . وقد نفذت سموم هذا

النظام السيىء الى الدول الاسلامية الأحدث عهدا ، كدولتى المماليك والترك العثمانيين ، ففسد بذلك أيضا أمر الحضارات الاسلامية الأحدث عهدا .

وفى ضوء هذا كله ، نستطيع أن نقول ان الغلبة التى كانت لغرب أوربا على منافسيه ، تنجت عن جمود بيزنطة والتزامها جانب السلبية فى الحياتين الاقتصادية والحضارية ، وعن نظام حكومات العبيد فى الدولة الاسلامية . واذا كان الملاحون الايطاليون واخوانهم مغامرو غرب أوربا الاقطاعيون ، غلاظا جفــاة الى حد كبير ، فانهم كانوا على جانب غير قليل من المرونة فى الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية . ولا يزال لدى الغرب حتى اليوم من المرونة ما يفوق كثيرا ما لدى المجتمعات الأخرى .

٢ ـــ تشابه الأوضاع بما كانت عليه فى العــالم القــديم

يبدو واضحا أنه من العسير أن تقارن عالم البحر المتوسط أيام الرومان ، بما كان عليه بعد عام ٧٠٠ م ، حينما كان مقسما الى ثلاث مناطق حضارية متباينة . ذلك أن عالم الامبراطورية الرومانية الموحد يختلف اختلافا تاما عن عالم البحر المتوسط ، بعد أن تفتتت تلك الامبراطورية . ولكننا اذا رجعنا بأبصارنا الى العالم القديم أيام اليونان الأقدمين والفرس ، رأينا أن ثمــة تماثلا فى الأحداث . ففى عام ٧٠٠ م كانت الامبراطورية البيزنطية تحكم نفس الأقاليم التى حكمها اليونان الأقدمون . هذا اذا ما أضفنا اليها قلب آسيا الصغرى ، وهو فى الواقع يخضع لنفوذ اليونان منذ أيام كراسوس . وكانت بلاد اليونان الأقدمين ، ومستعمراتهم تحيط احاطة تامة ببحر ايجه كما أن معظم صقلية وجنوب ايطاليا (أو بلاد الاغريق الكبرى) كانا تابعين لليونان ، وتبعتهما أيضا شواطىء جنوب روسيا وبلاد القرم ، حيث قامت

مستعمرات كثيرة لليونانيين . وامتد نفوذهم شرقا الى جزيرة قبرص ، التى كانت مقسمة بينهم وبين الفينيقيين . وفى عام ٧٠٠م كان البيزنطيون يحكمون هذه المناطق ذاتها ، وكانوا أيضا قد اقتسموا جزيرة قبرص مع مسلمى سورية .

وانا اذا ربطنا أملاك قرطاجنة فى الغرب بأملاك امبراطورية فارس وأضفنا الى ذلك بلاد برقة اليونانية ، لوجدنا أن تلك المناطق هى نفسها التى حكمتها الخلافة الأموية . أما أقاليم غرب أوربا فكانت فى كلتا الحالين ضعيفة لا تنظمها روابط سياسية . واستطاع اليونانيون القدامى مثلما استطاع البيزنطيون — بفضل مركزهم المتوسط وما يمتلكونه من الجزر — أن يفصلوا بين تجارة شمال افريقية وبحريتها ، وبين مثيلتيها فى سورية . وواجهوا ، كما واجه البيزنطيون أيضا ، هجوما مزدوجا : أحدهما من الغرب وقامت به قرطاجنة على صقلية ، والثانى من الشرق وكان بريا وبحريا معا . وهذه الهجمات الشرقية هى المشهورة عندنا باسم الحروب الفارسية . ويرجع نجاح اليونان كما يرجع نجاح البيزنطيين فى التغلب على الخطر الشديد الذى أحدق بهم : الأولون فى الحروب الفارسية ، والآخرون فى حروب العامين ٧١٧ و ٧١٨ م ، الى تفوق قواتهم البحرية فى كلتا الحالين . وبين معركتى سلاميس وميكالى ومعارك حرب ٧١٧ — ٧١٨ شبه عجيب . ولا تختلف موقعة هيمرا كثيرا عن الهجمات التى شنت ضد صقلية بين ٧٠٤ و ٧٥٢ . وفى كل حالة من هذه الحالات ، كانت الانتصارات تتلوها سيطرة اليونانيين على البحر المتوسط . كان ذلك فى القديم فى عصر سيمون وبركليس ؛ أما فى العصر البيزنطى فقد ظهرت امبراطورية بيزنطة البحرية فى البحر المتوسط بين عامى ٧٥٢ ، ٨٢٧ م .

وفى كل حالة من هذه الحالات أيضا كانت تسقط الدولة الشرقية الغازية

على اثر هزيمتها على يد اليونانيين ، فسقطت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية ، ومثل هذا حدث عندما سقطت دولة الفرس وورثتها دولة الاسكندر . وحدث أيضا فى كلتا الحالين ، أن أصيبت الدولة الوارثة بالتفرق ، فانفصلت مصر عن الدولة العباسية أيام الطولونيين ، ثم الاخشيديين ، ثم الفاطميين ، مثل ما استقل بها من قبل البطالمة . والحصة من الأرض التى بقيت فى حكم دولة بنى العباس أنفسهم كانت نفس الحصة التى حكمها السلوقيون من قبل ، وكانت مواضع الضعف فى الدولتين واحدة . وتشبه بيزنطة شبها كبيرا اتحادا يجمع بين بلاد اليونان فى العصر الهلينستى ، وبين مملكة برجامه ؛ كما تشبه بلغاريا بلاد مقدونية . وتوازن القوى الذى ساد تلك الأقاليم فى العصر الهلينستى هو نفس التوازن الذى ساد خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .

وفى الحالتين أيضا ، جرى الصراع فى غرب البحر المتوسط بين الافريقيين واليونانيين ، على أى الفريقين يملك صقلية ، بل وجرت المعارك فى الحالتين فى نفس الأماكن وبنفس الأساليب . وكانت بلرم قاعدة الافريقيين أيام أن كان اسمها بانورمس Panormus بينما كانت سرقوسه قاعدة اليونانيين ثم البيزنطيين . وفى كل من الحالتين ، يبوءون بالهزيمة . اذ كان الافريقيون أشد منهم اقداما على القتال والمهاجمة . وكان يونانيو صقلية لا يتخذون خطة الهجوم الا حينما يتلقون العون من الشرق . وقد حدث فى كل من الحالتين أيضا أن محاولة الشرق اعانة صقلية ختمت بحملة كبيرة ، فكانت فى العصر الأقدم الحملة التى قادها پيروس Pyrrhus ، وكانت فى أيام البيزنطيين الحملة المماثلة التى قادها چورج منياس ، وانتهى أمر الحملتين بالفشل بعد أن ظفرتا بنجاح أول الأمر .

على أن الذى انتصر فى النهاية فى كل من الحالتين كان فريقا ثالثا قادما

من ايطاليا ، أى من الشمال . وقدر لهذا الفريق أن يبسط سلطانه على أملاك اليونانيين والأفريقيين فى صقلية وجنوب ايطاليا ؛ ففى العصور الأقدم كانت روما هى ذلك الفريق الثالث ؛ وفى العصور الوسطى كان الفريق الثالث هم المغامرون النورمان الاقطاعيون ، الذين كانوا يعملون بتحريض روما المسيحية أو روما البابوات .

وفى كل من الحالتين كان الغربيون الغازون يتجهون شرقا بعد أن يتغلبوا على جنوب ايطاليا وصقلية ،وبعد أن يملكوا السيادة فىغرب البحر المتوسط. وقد فعلوا ذلك فى كل من الحالتين بسبب نداءات الاستغاثة التى جاءتهم من عالم البحر الايجى الذى تربطهم به روابط حضارية وثيقة . وفى العصور الأقدم كان المعتدون دولة مقدونية ودولة السلوقيين ، فى القرن الحادى عشر الميلادى كان المعتدون هم الأتراك السلاجقة . وأدى ظهور الرومان والصليبيين فى منطقة العالم الايجى ، الى هزيمة الغازين لبلاد اليونان . وفى كل من الحالتين ، دب الشقاق بين القادمين من الغرب ، وبين السكان اليونانيين ، وكان منشؤه تخوف هؤلاء من تلك المساعدة وما يحتمل أن تنذر به من شر . وفى كل من الحالتين ثبت أن الأقدمين والبيزنطيين كانوا على حق فى تخوفهم . اذ حدث فى كل من الحالتين أن أطاح الغربيون بعد فترة من الزمن بالحكومتين الوطنيتين ، وحطموا الحضارتين اللتين أنشئتا ، وجعلوا من أنفسهم سادة البحر المتوسط .

ان هذا التماثل القوى بين الحالتين لا يمكن أن نعتبره أمرا اعتباطيا ؛ فمن الواضح أن الأوضاع الجغرافية السياسية والقوة البحرية ، وما تتخذه الشعوب والحضارات من مواقف تواجه بها ما يعرض لها من ظروف وأحوال، لها جميعا من خصائص الثبوت ، قدر أكبر مما يسلم به كثرة المؤرخين .

٣ — أثر الفاطميين المفرّق

لم يقدر الكتاب حتى الآن أهمية أثر الفاطميين فى تجزئة سلطان المسلمين فى البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر حق قدره . فما كتبه الأقدمون عنهم من مثل ما أورد وستنفلد فى تاريخه المشهور للأسرة ، أو مثل ما أثبت كترمير فى ترجمته للمعز أعظم خلفائهم ، ترك لنا الكثير مما يجب ألا يترك . مثل هذا يقال عمن أتى بعد وستنفلد وكترمير . بل ان ابن خلدون لم يدرك تماما ، فيما يبدو ، مدى تأثيرهم التاريخى . على أن هؤلاء الحكام الشيعة كان لهم فى اضعاف « دار الاسلام » نصيب لا يقل خطورة ، عما كان للمونوفيسيتية فى القضاء على « رومانيا » كما خلقها جستنيان ؛ أو عما كان لحركة تحطيم الايقونات من انشقاق النصرانية بين اليونانيين واللاتينيين .

واذا أخذنا الأمور فى ظاهرها فان الفاطميين لم يقوموا فى التاريخ الاسلامى بعمل يختلف عما صحب قيام الدول الاسلامية وسقوطها من اضطراب . لقد سبق قيام دولتهم ظهور الأمويين والعباسيين والادارسة والطولونيين والاخشيديين والأغالبة والصفارية وكثيرين غير هؤلاء فى أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى . واذا أخذنا الأمور بظواهرها أيضا ، فلنا أن نقول ان دولتهم لم تكن الا تعبيرا سياسيا لسيادة شمال أفريقيا البحرية والاقتصادية على حوض البحر المتوسط . وان اتساع ملكهم وامتداده غربا حتى سبتة وشرقا ليشتمل على مصر وسورية والحجاز ، ما هو فى الحقيقة الا نتيجة لوقوع السيطرة على التجارة وعلى الملاحة فى البحر المتوسط ، فى أيدى التجار والملاحين المغاربة فى القرن العاشر . والامبراطورية الرومانية التى أحياها جستنيان كانت هى أيضا — فى القرن السادس — تعبيرا مماثلا عن القوة الاقتصادية البحرية للعنصرين اليونانى السورى مجتمعين فى دولة واحدة .

وبالاضافة الى ما تقدم يمكن دراسة تاريخ الدولة الفاطمية من زاوية أخرى ، فيبدو لنا عندئذ رد فعل من جانب البربر فى افريقيا الشمالية لا نتشار الاستعراب من وقت أن تعرضوا له فى القرن الثامن . ظهر رد الفعل هذا أولا فى حركة الخوارج ، وفشل . وظهر بعد ذلك فىالدعوة الفاطمية ، ونجح .

وبدأت حركة الفاطميين بالتغلب على الأغالبة العرب ؛ ثم اتجهوا شرقا وغربا وفى مقدمة الزحف أولياء المعز المخلصون من كتامة (وهم فى الطليعة كسنان الرمح فى الطعان) فبسطوا سلطانهم على الجزائر والمغرب الأقصى وعلى مصر وسورية العربيتين وعلى الجزيرة العربية . والفاطميون بالنسبة لقيام البربر فى الغرب الاسلامى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، كالعباسيين بالنسبة لرد الفعل الفارسى ضد السيادة العربية فى سورية والشرق الأوسط. ففى كل من الحالتين كان العرب الذين يعيشون فى قلب العالم الاسلامى ضحية الشعوب الأحدث عهدا بالاسلام ، والتى تعيش فى أطرافه .

وثمة نقطة أخرى جديرة بالاعتبار ، وهى أن العصر الذى اتسع فيه ملك الفاطميين وازداد نفوذهم ، كان عصر رخاء حقيقى للشعوب الاسلامية . ولم يقتصر هذا الرخاء على أملاك الفاطميين فى شمال افريقية وصقلية وسورية ومصر ؛ بل تعداه الى أملاك منافسيهم الأمويين فى اسبانيا وباقى الأسرات الحاكمة فى الشرق . وامتاز العصر الفاطمى امتيازا مماثلا لرخائه المادى ، بازدهار الحياة العقلية فى قرطبة والقاهرة وبغداد .

ولو اقتصر الأمر على نتائج توسع الفاطميين هذا ، لما ترتب عن قيام امبراطوريتهم للشعوب الاسلامية المطلة على شواطىء البحر المتوسط الا الخير ، ولما أدى قيام دولتهم الا القليل من التأثير الضار بالاسلام . ولكن بالاضافة الى ما أحدثته هذه الدولة الشيعية من اعلاء كلمة البربر اقتصاديا ، وسياسيا ، ورفع مستواهم العقلى ورخائهم المادى ، فانها أدخلت فى الحياة

الاسلامية عناصر لم تكن ذات أثر طيب ، وهذه العناصر هى ما انبثق عن المذهب الدينى الذى نشروه فى ملكهم — وهو مذهب الفرقة من الشيعة التى انتموا اليها ، وكان مذهبا فرّق كلمة الجماعة الإسلامية فى وقت عصيب.

لم يكن الفاطميون هم أول أو آخر من تشيع لعلى ؛ فالتشيع يرجع الى أيام الخلاف بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى صدر الاسلام. وللتشيع نفوذ قوى فى بلاد فارس منذ زمن طويل ، وكان مظهرا من مظاهر العصبية القومية الفارسية تجلى فى الثورات العلوية الخطيرة ضد الخلافة العباسية . وفى المغرب الأقصى استغل الأدارسة نسبهم العلوى ورفضوا سلطان الخلفاء العباسيين السياسى . وكانت لفرق الشيعة أيضا اذ ذاك معاقل أخرى فى بلاد العرب وفى جهات أخرى من الشرق الأدنى .

ولكن لم يحدث قبل ظهور الفاطميين ، أن تعرضت وحدة العالم الاسلامى الدينية والثقافية للتصدع بسبب أية حركة شيعية . وظل لاسم « دار الاسلام » مفهومه الدينى والثقافى الموحد ، رغم ما كان هناك من انقسامات سياسية . واذا كان الخلفاء العباسيون قد فقدوا سلطانهم السياسى على الحكومات المحلية فى شرق دولتهم وغربها ؛ فانهم ظلوا وحدهم — الى ما قبل مجىء الفاطميين — الخلفاء حقا ، لا ينازعهم فى ذلك منازع حتى أمويو الأندلس أنفسهم .

لكن بمجرد أن قام ملك الفاطميين فى القيروان ، نجدهم يحدثون هذا التصدع الدينى باعلانهم أنهم هم الخلفاء وحدهم ، مناهضين بذلك خلافة بغداد . وبامتداد حكمهم شرقا وغربا ، امتد سلطان عقيدتهم حتى شمل الجانب الأكبر من العالم الاسلامى . ازاء ذلك ، اضطر منافسهم فى المغرب الاسلامى ، وهو عبد الرحمن الثالث صاحب الأندلس ، أن يفعل فعلتهم وأن يتخذ ألقاب الخلافة . وقد ألجأه الى ذلك الدفاع عن النفس ، فان رعيته

الاسلامية كانت تشتمل على طوائف عديدة من البربر ، وقد خشى أن ينتشر بينهم اتباع الفاطميين ونحلتهم . كما خشى أيضا أطماعهم السياسية . ونتيجة لهذا أصبح العالم الاسلامى بعد أن كان يتبع ، حتى منتصف القرن العاشر الميلادى ، خلافة واحدة ، صار مقسما بين « خلافات » ثلاث : واحـدة فى قرطبة ، والثانية فى القيروان ، والثالثة فى بغداد . وكل منها تدعى لنفسها أنها وحدها الشرعية . ويشبه هذا الوضع غير المقبول ، الانشقاق الكبير الذى أصاب أوربا فى أواخر العصور الوسطى ، فحطم وحدتها الدينية . ولا شك أن المسئولية عن أحداث هذه الأزمة الدينية الاسلامية تقع على كاهل الفاطميين .

على أن نجاح الفاطميين لم يؤد الى تقسيم الخلافة فحسب . بل أدى الى أكثر من هذا . ذلك أن الضرب من التشيع الذى نشروه كان يقوم على عقيدة غريبة عن الاسلام . ألا وهى مقـام الامامة فى الأمة — فزعموا أن للأئمة رسالة دينية والهية لم يدعها أحد من قبل ، بل ان الخلفاء العباسيين أنفسهم لم يذهبوا الى شىء من ذلك . وهذا مع أن العباسيين ذهبوا فى هذا الشأن مذهبا بعد كثيرا عما وقف عنده سابقوهم الأمويون . وأدمج الفاطميون شئون الدين والدنيا فى امامتهم ادماجا لا عهد للاسلام به من قبل . والمرجع فى كل شىء الى الاقتباس من الامام المعصوم القائم بالحـق ، وان كان الاغراق فى هذا بلغ مداه فى شخص الحاكم بأمر الله فانه حاضر دائما فى أفكار الفاطميين جميعا وفى أعمالهم .

وقبل ظهور الفاطميين اختص الاســلام بتأكيد ربوبيــة الله وبشرية الانسان بما فى ذلك ذات النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ودار الخلاف بين الاسلام والمسيحية على رفض الاسلام قبول العقيدة التى سادت فى العالم اليونانى الرومانى ، ومؤداها صيرورة الكلمة جسدا ، أو اجتماع

اللاهوت والناسوت فى السيد المسيح عليه السلام . وفى هذا كان الاسلام أقرب الى الموسوية منه الى المسيحية ، والبساطة الاسلامية هذه تأثرت بالدعوة الفاطمية الى الامامة كما صوروها .

وزيادة على هذا كان التمييز ظاهرا ، حتى فى القرن العاشر ، بين الولاية الدينية وخططها من جهة ، والوظائف السلطانية من جهة أخرى ؛ فالقضاة يحكمون بما أنزل الله وقل أن يخضعوا لسلطان الأمراء ، وكثيرا مالم يبالوا بتأنيب أكبر الأمراء استبدادا اذا ما خالفوا السنن . فكأنّ رجال الشرع قد استودعوا أمانة المحافظة عليه ، وكان لنذيرهم وتحذيرهم وقعه وأثره . وجاء الفاطميون بالامامة المعصومة — فلا كلام لرجال الشرع أو لغيرهم ازاء كلمتهم .

وهذا هو مصدر الأزمة التى ذكرنا قيامها فى أقطار الدولة الفاطمية . وقد رفض رجال الشرع والرعية الباقون على مذهب أهل السنة ، النظرية الفاطمية للامامة ، وأنكروا عليها استئثارها بالتأويل والتعليم . والعقلاء من الأمراء الفاطميين من أمثال المعز لدين الله وقفوا عند حد ، مراعاة لمخالفيهم ؛ الا أن أكثر الخلفاء وخصوصا الحاكم بأمر الله ، أذاقوا مخالفيهم بأسهم وأرغموا القضاة وغيرهم من أهل السنة على مجاراة مذهبهم . وتم لهم الارغام باستخدام عبيدهم ومرتزقيهم من الزنوج والترك والبربر . وبدأت تظهر لأول مرة على هذا النحو فى العالم الاسلامى الاضطهادات الدينية أو المذهبية متميزة عن قمع الفتن السياسية . وقد بدا يجرى هذا على نطاق واسع بعد أن كان الاضطهاد فى الماضى لا يتعدى قمع بعض المذاهب العقلية الضالة . وامتد الاضطهاد وعدم التسامح الى أهل الذمة من المسيحيين واليهود ؛ وهكذا أقام فى الوسط بين الاسلام الأموى السنى فى الأندلس والاسلام العباسى السنى فى الشرق ؛ دولة فاطمية خرجت على الأسس التى قامت عليها

الجماعة ، وحاولت فرض مذهبها عنوة على رعية مغلوبة على أمرها ، تكره كثرتها ذلك المذهب .

وقد ترتب على هذا أن انقسم العالم الاسلامى على نفسه ، واشتبك المسلمون فى المجادلات وفى الشقاق الدينى الداخلى . وهذا شبيه بما حدث فى أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى ، عندما قضت البروتستنتيه على الوحدة الدينية القائمة ، وجعلت أوربا فترة من الزمان عاجزة عن مقاومة الأتراك العثمانيين ، عندما زحفوا على البلقان ووسط أوربا وسيطروا على معظم حوض البحر المتوسط . فليس عجبا بعد هـذا أن يتفكك المجتمع الاسلامى سريعا عندما عصفت به حركات البدو ، من المرابطين والقرامطة والعرب الهلالية وسلاجقة الترك . وليس عجبا كذلك أن يتمكن المغامرون من أهل الغرب الأوربى ، والصليبيون والملاحون الايطاليون من السيطرة سريعا على البحر المتوسط ، فينتزعونه من قبضة المسلمين المتراخية . وكان هذا كله لأن الشلل الذى أصاب قلب العالم الاسلامى من تعطل حركته ، لم يتح للمسلمين الا قدرا يسيرا من مقاومة عدوهم ، مقاومة متقطعة ، رمزية أكثر منها حقيقية ، جزئية لا اجماعية .

وقد يقال ان سلطان الفاطميين لم يدم طويلا ، وانه ما حـل منتصف القرن الحادى عشر الا وكان سلطانهم قد انحسر عن شمال افريقية وصقلية ، وان صلاح الدين فى القرن التالى تغلب عليهم نهائيا فى مصر ، وان السنّة انتصرت فى كل أرجاء دولتهم . وهذا كله صحيح ، ولكن الى أن تم حدوث ما ذكرنا ودالت دولتهم ، فان هذه الدولة بحكم موقعها المتوسط فى العالم الاسلامى ، استطاعت ما بقيت قائمة أن تقسم ذلك العالم على نفسه وأن تعطل حركة شعوبه . وأدى ذلك الى عجز تلك الشـعوب عن الاحتفاظ بالسيطرة على البحر المتوسط وتجارته .

ومنذ ذلك الحين والفرق الشيعية من ايرانية وتركية ودرزية ويمنية ، وما يتصل بها من الدعوة المهدية فى أفريقيا وغيرها ، عنصر له أثره القوى فى الحياة الاسلامية عامة .

كشـــاف

(ا)

(ح — خ)

(ص – ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و — ى)



هذا الكتاب

« القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط فيما بين ٥٠٠ و ١١٠٠ الميلاديتين » موضوع هـذا الكتاب الذى وضعه أرشيبالد • ر • لويس ونقله الى العربية أحمد محمد عيسى •

وللكتاب خصائص لم يسبق اليها ولا يشاركه فيها حتى الآن كتاب آخر •

أولى تلك الخصائص : الجمع فى دراسة واحدة بين القوى البحرية والتجارة ، وهذا الجمع أكده مؤرخو الأزمنة الحديثة ، بل واتخذوا لمعناه شعارا حينما قالوا : التجارة تتبع العلم ، ولكن الارتباط بين القوة البحرية والتجارة فى الأزمنة القديمة والمتوسطة لم ينبسط القول فيه على النحو الذى فعل لويس فى الكتاب الذى بين أيدى القراء اليوم • وبفعله هذا نبهنا الى ما يجب أن نتنبه اليه : نبهنا الى أن الفروق بين ما هو شرعى وما هو غير شرعى فى الحرب البحرية لم تكن واضحة الوضوح كله — (وبعد ، فهل وضحت تماما فيما هو أقرب الينا من الأيام) ، كما نبهنا الى أن عنصر السطو — أو ان فضلت عنصر الغنيمة — كان عنصرا أساسيا فى تكوين رأس المال ، أو عاملا فعالا فى التنمية الاقتصادية •

ويجمع كتاب لويس بين الحرب والتجارة فى دراسة واحدة ، اختلف كتابه عن الكتب المشهورة فى تاريخ التجارة كالكتاب المشهور للمؤرخ هيد (Heyd) مثلا •

من مقدمة
الأستاذ محمد شفيق غربال



مطبعة مصر